

عزالدين شكري فشير

باب الخروج

رسالة علي
المفعمة ببهجة غير متوقعة

دار الشروق


باب الخروج

باب الخروج

عز الدين شكري فشير

تصميم الغلاف: بثنة حسن

الطبعة الأولى ٢٠١٢

الطبعة الثانية ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٢/١١٧٨٨
ISBN 978-977-09-3135-6

عز الدين شكري فشير

باب الخروج

رسالة علي
المفعمة ببهجة غير متوقعة

دار الشروق

الى ابراهيم عيسى

شريكي في هذه المغامرة، والذي لو لم يكن جنونه يماثل جنوني لما وافقت على نشر رواية أثناء كتابة حلقاتها، يومياً!

والى ابراهيم

الصديق، الذي لولاه لما أقدمت على مغامرات أخرى كثيرة في الماضي!

محبة، وعرفاناً بجميل قديم ومستمر

حسن الدين

شكر وتقدير

صاحبني خلال كتابة هذه الرواية العديد من رفاق الطريق، جعلوا الرحلة أكثر غنى ومتعة، وساعدوني بطرق مختلفة على إتمامها. ولا يمكنني حصرهم، فهم يضمون كل أسرة تحرير «التحرير»، ولكن أود بشكل خاص توجيه الشكر إلى عاليا عبد الرءوف التي أعدت المهد لحلقات الرواية، ونانسي حبيب ومحمد عبية اللذين أرهقتهما بتزمتي، ومحمود جمعة الذي اضطر لملاحقتي يوميا كي يضمن خلو الحلقات من أخطائي النحوية العديدة، وعمرو طلعت صاحب الرسوم الجميلة الذي جعلني أستيقظ يوميا وأنا أفكر فيما رسمه للحلقة الجديدة.

ومع هؤلاء رفاق من القراء، أصحاب هويات افتراضية، تابعوا الحلقات والتعليق عليها بموقع الجريدة الإلكتروني بإخلاص ودأب جعلهم شركاء في الكتابة، وساعدوني بردود فعلهم على تلمُّس طريقي، وهم كثيرون، وأخص منهم ـ كما سمّوا أنفسهم: Hossam Elgarhy, Abdo Shihata، محمد صلاح الدين سعد، Wraith-King Elendil, Mohamed Abdelsttar, Adel El-ghandor, MahmOud Halawa, Moneir Hassan, Mona Gamal, Mohammed Ragab, Heba Behery, Ibrahim Ahmed، محمـود شافعي، Mai Mohamed Hashem, Bibo Mohamed, Amal Khodeir, Ahmed Nafady, Fatma Zakaria, Ahmed Saif, Khaled Ahmed, Mona Khidr, Mohamed Sharaka, Aalaa Moustafa, Mohamad Alassal، إيمان آا، Omneya Ragab.

فإلى هؤلاء وهؤلاء، عميق امتناني.

ع. ش. فشير

الفصل الأول

- ١ -

عزيزي يحيى

أكتب لك رسالتي هذه وأنا هادئ تمامًا، على عكس ما توقعت. بـل إن هناك بهجة عميقـة تعتريني، وما كنت أحسـبني أبتهج. كنت أظن أني سـأضطرب وأخاف من هـول العواقب، أنا الذي لم أدخل في صِدام بحياتي كلها. كنت أتمنى لو لم يحدث أي من الأمور التي حدثت، مع أني فكرت في الأمر عشرات المرات، من كل الجوانب التـي اسـتطعت تبينها، ووصلـت لقناعة تامـة بحكمة قـراري هذا. تمنيت لو سـارت حياتي في طريقها المعتاد. لكني، مثلما يقول كل المضطرين لاتخاذ قرار يكرهونه، لم يكن أمامي إلا الاختيار من بين البدائـل المتاحة. تمنيت لو اسـتطعت إضافة خيارات أخرى، لكني لا أستطيع. والمفاجأة أني لم أعد أكره قراري، بل على العكس.

لم يبق أمامي سوى أربع وعشرين ساعة لأكتب هذه الرسالة التي قد تكون الأخيرة. وكنت أظن هذا الوقت كافيًا لأكتب لك كل ما أردت، لكنني أدرك الآن أن الوقت لن يسعفني. كان ينبغي البدء قبل الآن، ربما بثلاثة أيام، لكن لم يكن ذلك ممكنًا، من الناحية الأمنية. لذا سأدخل في الموضوع مباشرة دون استرسال. وأطلب منك من الآن أن تعذرني، فالوقت قليل، ولديّ أشياء كثيرة أقولها لك، ورغم أني فكرت طويلًا فيما سأسطره حين أشرع في الكتابة، وصغته في ذهني عشرات المرات، إلا أن الأفكار تتزاحم الآن في رأسي. ستجد رسالتي مشوشة بعض الشيء، ومؤكد أني سأكرر بعض الأشياء، وأطيل حين تظن أن عليّ الإيجاز، وأوجز حيث ينبغي الإطالة. سامحني. لو كان الوقت يسمح لكنت راجعت هذا الخطاب بعد إنهائه وشذّبته كي يصبح نصًّا متماسكًا منمقًا كما اعتدت أن أفعل. لكن لم يعد هناك وقت لأي من هذا، سأقول ما لديّ بغض النظر عن الطريقة التي سيبدو عليها الكلام. ولندخل في صلب الموضوع.

اليوم هو العشرون من أكتوبر ٢٠٢٠، وحين تصلك رسالتي هذه، بعد يومين بالضبط من الآن، سأكون سجينًا أو جثة. إما سيقولون لك إن أباك مات بطلًا، وإما ستقرأ في الجرائد نبأ خيانتي الكبرى والقبض عليّ. أنا، الذي شاهدت بأم عينيّ صنوف الخيانة كلها، سيرمونني بدائهم وينسلون، كما فعلوا من قبل، عشرات المرات. لم أحاول منعهم من قبل، لكنني لن أدعهم يفلتون بفعلتهم هذه المرة. لا، ليس هذه المرة. هذه غضبتي، غضبة عمر بأكمله. غضبة ربما

تكون الأخيرة، لكني لن أضيعها سدًى. أخذت احتياطاتي، وعزمت ألا ألعب دور الضحية. وهذه الرسالة، قد تكون طوق نجاتي الأخير إن فشلت كل الاحتياطات الأخرى. فاحرص عليها، فقد تكون هي الفارق بين الخيانة والبطولة، بين النصر والهزيمة.

إن قُتلت في اليومين القادمين، لأي سبب كان، فستكون أنت ورسالتي هذه هما آخر وسيلة لإنقاذ سمعتي وإنقاذك أنت والباقين من كارثة محققة. فاقرأ جيدًا. ولا تتعجل، سأشرح لك القصة كلها. سأبدأ من البداية وأشرح لك كل شيء. وحتى لو لم يقتلوني، أريدك أن تسمع الحكاية مني قبل أن تسمعها من الآخرين. أريد أن أشرح لك ما حدث قبل أن يشوهوا صورتي أمامك. وهذه مسئوليتي إزاءك كأب ستحمل اسمه رغمًا عنك ما حييت، وتقترن سيرتك بسيرته شئت أم أبيت. وأهم من ذلك، تتصل دواخل نفسك به وبصورته وبما فعل. ومن ثَمَّ وجب عليّ التفسير.

ومن باب الاحتياط أيضًا، ولأني لست متأكدًا من نجاتي من هذه المغامرة، لأنهم لا يعرفون حدودًا ولا يتوقفون عند شيء، فإني أريد أن أقول لك الآن كل ما أردت قوله لك في سنواتك القادمة. سأفعل إذًا ما لم نفعله سويًّا من قبل، أنت الذي تبلغ عامك العشرين بعد أسابيع قليلة، وهو أن أحدثك كصديق، من رجل لرجل. سأقص عليك أشياء يذهلك سماعها، وخاصة مني أنا، وبعضها سيزعجك. سأحدثك عن مشاعر ربما لم يخطر لك أني أمر بها، وعن أمك، وآخرين من عائلتنا ومن أصدقائنا المقربين. كنت أُفضّل أن أقول

لك هذه الأشياء واحدة واحدة، وأنت تنتقل من عتبة لعتبة في مشوار الرجولة الطويل. لا يحب الرجل منا سماع النصائح، خاصة من أبيه، لكن الصبور يجد دومًا طريقًا لتسريب النصائح لابنه، واحدة واحدة ومع الوقت. مضطر أنا للقفز فوق كل هذا، ومضطر أن أقول لك كل ما أريد دفعة واحدة وأنت في خطوتك الأولى نحو الرجولة.

لن يعجبك معظم ما أقوله في هذا الشأن، ولك الحق. ستبحث لنفسك عن طريقك الخاص، بل وربما تحاول إثبات خطأ آرائي، ولك الحق. كل ما أطلبه منك ألا تحارب هذه الآراء. ضعها في محفظتك، كصورة قديمة لي، ومن وقت لآخر، لنقل في عيد ميلادي أو ميلادك، أخرجها وانظر إليها من جديد وفكّر في جدواها وصحتها مرة أخرى. هذه هي الطريقة التي قد تبقى لنا لأكون أباك في سنواتك الكثيرة القادمة. سأحدثك إذًا كأن هذه محادثتنا الأخيرة، وكلي أمل وتصميم ألا تكون كذلك. لكني أفعل هذا من باب الاحتياط، فلا أريد إن قتلوني أن أتركك دون أب، ولو في صورة رسالة.

سأقص عليك قصصي دون حواجز، كأصدقاء. وتذكّر، إن أزعجك بعض كلامي، أني أحبك، كأنك أنا. وأني حين أنظر إليك أراك كأني أنا أعيد تشكيله بطريقة أخرى. فنحن في نهاية الأمر رفقاء سلة الجينات التي نتقاسم معظمها، وكأنها سحابة تضمنا نحن الاثنين؛ أحيانًا تصير أنا وأحيانًا تصير أنت. وتأكد أني أحب طريقتك المختلفة عني كما أحب طريقتي، وأني أحب فيك تمسكك بهذا

الاختلاف ويملأ قلبي اطمئنان وحب وأنا أرقبك تبحث عن نفسك لطريقك الخاص. أنت أنا الآخر. ويومًا ما ستشعر مثلي بالضبط، وأنت ترقب ابنك يكبر.

سأحكي لك أشياء عني وعن أمك، أريدك أن تقرأها وتحاول فهمها كرجل، لا كطفل ينظر لوالديه. سأحكي لك عن عمك وعمتك، وعن نساء عرفتهن، وأصدقاء سيذهلك أنهم كانوا أصدقاء أبيك. وسأحكي لك عن جدك وجدتك. وعن نور؛ تلك الشمس المشرقة التي تعرفها لكنك لا تعرفها، والتي ستراها كثيرًا إن نجوت من مغامرتي هذه وإن لم أنجُ. سأحكي لك عنها كي تراها جيدًا عندما تراها. وسأوصيك خيرًا بكل هؤلاء؛ أن تبقى على ود من بقي حيًّا منهم وأن تزور قبور من مات وتقرأ له الفاتحة، ولو مرة كل عام. ستريك هذه الرسالة وجهًا لا أحسبك قد رأيته فيّ من قبل أو حتى تخيلت وجوده. أنا الهادئ دومًا، الصامت معظم الوقت، المنفرج الأسارير دون ابتسام، الذي لا يشعر أحد بوجوده وكأنه شبح شفاف، سترى نسخةً جِدَّ مختلفة لأبيك.

سأتوقف عن الاسترسال وأنتقل فورًا لما أريد قوله، لكني أُذكرك مرة أخرى أن تبلغ كلمتي هذه للعالم إن أصابني مكروه. انشر هذا الخطاب، دون حذف أو إعادة صياغة أو ترتيب. انشره كما هو، لأن ما فعلته لن يكون له معنى إن لم يعلم الناس به وبالأسباب التي حدتني لفعله. إن حاكموني سيكون لديّ فرصة لفضحهم وشرح ما سيسمونه خيانتي للوطن. أما إن قتلوني فسيكون ذلك محاولة

منهم لإخفاء القصة بأكملها. وسيقع على عاتقك حينها فضح ما جرى. كل ما عليك فعله هو وضع هذه الرسالة على الإنترنت. أمامي أربع وعشرون ساعة كي أكتبها، وعند بدء الهجوم مباشرة سأرسلها؛ في تمام الرابعة صباحًا. وستصلك بعدها بأربع وعشرين ساعة أخرى تكون خلالها قد نسخت نفسها مرارًا في نقاط آمنة بحيث لا يمكن لأحد محوها. لن يفلتوا هذه المرة.

أكتب لك من بحر الصين الجنوبي، من على متن سفينة شحن تجارية بريئة المظهر؛ نشق عباب البحر في هدوء شديد عائدين لمصر. يفترض أن نبلغ ميناء النصر الجديد بعد خمسة عشر يومًا نحن والشحنة النووية التي نحملها وسط آلاف الحاويات التجارية. بمجرد وصولنا سيتم توزيع هذه الشحنة على الصواريخ التي تنتظرها، وإطلاقها على قيادة قوات الاحتلال الإسرائيلي في العريش وشرم الشيخ ونخل. هذا هو الحل النووي النهائي الذي توصل إليه الرئيس القطان بعد فشل كل الحلول الأخرى.

لا أحد يعلم بمحتوى شحنتنا هذه غير ستة أشخاص؛ رجل صيني واثنين من كوريا الشمالية، والرئيس القطان واللواء المنيسي وأنا. أو هكذا يُفترض. لكن الحقيقة أن هذه السفينة الهادئة قليلة العمال والركاب ستجتاحها فرقة كاملة من البحرية الأمريكية في الرابعة من صباح الغد: أي بعد أربع وعشرين ساعة بالضبط. الحقيقة أيضًا أني؛ أنا المترجم الصامت الذي لم يأخذ في عمره موقفًا حادًّا، هو مَن أبلغهم.

أنا الخائن.

أنا المترجم الرئاسي، الموثوق به، الذي قضى عمره في ردهات القصور، على متن الطائرات الرسمية، أو في قاعات محظور الدخول إليها، جالسًا بين مقعدين، يستمع ويترجم لشاغرَيهما ما يقوله كلٌّ للآخر دون أن يكون له أن يقول. أنا الذي سمع الكثيرَ ورأى الكثير، منذ التحقت بهذا القصر الأسطوري وأنا شابٌّ في مثل عمرك وحتى صار حماي رئيسًا. كم سنة؟ التحقت بالخدمة في أثناء حرب تحرير الكويت، في بداية ١٩٩١، ونحن نقترب الآن من نهاية ٢٠٢٠، أي قُرابة ثلاثين عاما. ثلاثون عامًا لم أتكلم دون أن يُطلب مني الكلام. شاهدٌ صامت على عائلة ممتدة من المؤامرات والصفقات والخيانات والفتن. شهدتُ طرد الرئيس من القصر عند اندلاع الثورة الأولى، وشهدت الحكم العسكري، ونجوت بأعجوبة من الموت أثناء اقتحام القصر الرئاسي وإحراقه في الثورة الثانية، وشهدت الاحتلال والتفاوض والتخاذل، وخيبة الأمل. وكنت دومًا شاهدًا صامتًا، مرآة لما يقوله الرئيس وضيوفه. وحين قررت الخروج عن صمت ثلاثين سنة، لم أجد أمامي سوى الخيانة طريقا.

سيهاجمون السفينة عند الفجر. هذا ما اتفقنا عليه. أنا الذي أبلغتهم بالصفقة المرعبة، وبخطِّ سيرنا، وبتفاصيل السفينة وأماكن الشحنة وأكوادها. في البداية ذهلوا وظنُّوا أني جُننت أو أخدعهم. لكنني أثبتُّ لهم بما لا يدع مجالا للشك أن هذا

الجنـون حقيقة. وتتبعوا من خلالي تطـور الصفقة حتى أمس، حين قطعنا الاتصـالات الإلكترونية بالعالـم الخارجي ودخلنا في صمت لاسـلكي كامل. لا يوجـد مصريون هنا غيري أنا واللواء المنيسـي. الباقـون طاقـم السـفينة التجاريـة وعمـال شـحن آسـيويون. حيـن وضعنـا خطة نقل الشـحنة فضَّلنا أن لا نأتـي بمصريين غيرنا حفاظا على السـرية. وبالطبع لم نضع حراسـا مسـلحين لتفادي الشبهات. ثـم ما جدوى الحـراس في مواجهة سـلاح البحرية؟ أقـول وضعنا الخطة لأني شـاركت في هذا. كما شـاركت فـي الاتفاق على خطة البحريـة الأمريكيـة للاسـتيلاء علـى السـفينة. تقتضـي الخطة عدم إطلاق النار على أحد: سيهبطون في الظلام من طائراتهم ويقبضون علينـا جميعـا، يصادرون الشـحنة النووية ثـم يقطرون السـفينة إلى أقـرب قاعدة بحرية أمريكية ويسـلموننا بعدهـا ـ وأمام الكاميرات ـ للسلطات المصرية.

لا يعلـم أمر الشـحنة ومكانها وخط سـيرها سـوانا؛ أنـا واللواء المنيسـي والرئيـس القطـان. حتى الرجـل الصيني الـذي لعب دور الوسـيط مـع الكورييـن مصدر الشـحنة لا يعلـم أين ذهبنـا بها منذ تَسـلَّمناها. استقلَّ الطائرة إلى مصر مع مرافق مصري لا يعرف شيئا من أمر العملية سـوى ضرورة مرافقة هذا الرجل الصيني الهامّ حتى مطـار القاهـرة، وبلغنا أمس أنه وصل وينتظرنا هناك. طاقم السـفينة يعلـم أننـا نصاحب شـحنة هامَّـة، ووافـق على بعـض الاحتياطات مقابل الأموال التي تلقوها، لكنهم لا يعلمون كنه الشحنة.

رتبنا عمليات النقل والشحن عن طريق حلقات منفصلة لا يعرف بعضها بعضا ولا تعرف من أمر العملية نفسها شيئا. وبالتالي، حين تهبط طائرات البحرية الأمريكية على رءوسنا في الفجر، لن يكون هناك شك لدى اللواء المنيسي أني أنا الذي أفشيت السر. قد يتردد الرئيس في تحديد مَن منّا الخائن، لكنه سيتذكر ولا ريب معارضتي للفكرة ومحاولاتي الخجول لثنيه عن تنفيذها. على العموم أنا لا أنوي الإنكار. ومثلما رفضت عرض الأمريكان بتوفير ملاذ آمن لي (قالوا إنه سيكون على البحر إن شئت!) فإني سأرفض أي مساومة مع القطان. سأعترف علنا بما فعلت، وساعتها لن يكون أمامه إلا محاكمتي؛ أنا زوج ابنته، بتهمة الخيانة العظمى. وستكون هذه نهايته ونهاية حكمه التعس. أعدك بهذا.

ولكن ماذا لو وقع اشتباك؟ ماذا لو كان لدى اللواء المنيسي تعليمات من رئيسه بأن لا يترك الشحنة إلا ميتًا، أنا وهو؟ أو لو وقع لي «حادث أليم» بعد تسليمنا للسلطات المصرية؟ ماذا لو تغابت القوة المهاجمة كعادة القوات المهاجمة وبدأت في إطلاق النار في كل اتجاه مثلما يفعلون في الأفلام القديمة؟ في أي من هذه الحالات، ستكون هذه الرسالة بين يديك، تشرح تفاصيل خيانتي وأسبابها وملابساتها، وتكون مهمتك هي قراءتها، والتفكّر فيها، ونقلها للناس.

هي قصة طويلة، وسأقصها عليك بكل التفاصيل التي أستطيع ذكرها، فقد يكون هذا آخر ما يصلك مني. لديَّ أربع وعشرون

ساعة، سأملؤها بقصصي ولن أنام. سأبدأ قصتي من حيث سأنهيها؛ من العاصمة الصينية بكين. وسيكون حاضرًا معي في لحظة البداية، لسخرية القدر، تقريبا نفسُ الأشخاص الذين سينهونها معي. كنا في عام ١٩٨٩ وأنا تقريبا في مثل عمرك، على وشك التخرج في الجامعة. وكنت في بكين مع جدك رحمة الله عليه؛ العميد شكري فؤاد الذي كان في العام الأخير من خدمته بالصين كملحق عسكري. انتقلنا جميعًا معه؛ جدَّتك عزيزة وعمك عمر وعمتك صفية، حين بدأ عمله هناك قبلها بثلاث سنوات. ظلَّ ثلاثتنا مقيَّدين بالجامعة بمصر، عمر بالسنة الأخيرة بكلية الحقوق وصفية بالسنة الثالثة بكلية التجارة، وأنا بالسنة الأولى بقسم الفلسفة بآداب القاهرة. ولأنها كليات نظرية فقد دبَّر لنا الوالد تفاهما مع الجامعة يسمح لنا بالغياب طوال السنة الدراسية والعودة لأداء امتحانات آخر العام. وبالتالي كان لدينا كثير من الوقت في بكين. عمك عمر كان قَلوقًا بطبعه، ولم يحتمل الفراغ الكبير والغربة عن كل شيء خصوصًا أن اللغة الإنجليزية لم تكن وقتها منتشرة في الصين. وانتهى به الأمر بأن عاد إلى مصر وعاش بالمدينة الجامعية حتى تَخرَّج، ثم وافق أبي أخيرًا على إقامته ببيتنا بمدينة نصر وحده حتى عُدنا. صفية قضت الوقت الكثير المتاح مع أمي رحمها الله، بين العناية بالبيت الكبير والإشراف على حفلات الاستقبال العديدة التي يقيمها الوالد، ومساعدتها على «التصرف» لإطعام الضيوف الذين يأتي أبي بهم إلى البيت دون سابق إنذار، وبين اكتشاف أماكن التسوق الأفضل والأرخص في متاهات بكين.

أما أنا فقد قضيت هذا الوقت في تعلم اللغة الصينية. لِمَ؟ بلا سبب واضح. كنت بارعًا في اللغات، ورغم تعليمي الحكومي فقد أتقنت الإنجليزية بشكل لافت. ولأني كنت أحب الفلسفة وأدرسها، فقد فكرت في تعلم اللغة الصينية كي أقرأ الفلسفة الصينية بما أني أعيش في بكين. فكرة ساذجة طبعا، لكن هكذا نفكر ونحن في السابعة عشرة، إن كنت تذكر! المهم أني أقنعت أبي وسجَّلني في مدرسة تعطي دروسا مكثفة للأجانب. وبرعت في هذه اللغة الصعبة بشكل لفت أنظار الجميع، حتى إني صرت قادرًا على القراءة والكتابة والحديث بشكل معقول في عام ونصف. ولم أتوقف، بل تابعت الدراسة طوال الوقت حتى صرت، بلا مبالغة، طلقا فيها كأهل البلد بنهاية السنة الثالثة، حين بدأت سلسلة الأحداث التي ستقودني إلى هذه السفينة القاتلة.

نجاحي في اللغة الصينية جعلني محطَّ فخر أبي وأمي وأختي بشكل لم أعهده من قبل. غمرني هذا الفخر بشعور بالحنان والدفء والاطمئنان لا مثيل له، وما زال يراودني كلما ذكرتهم. استغرب الجميع، خصوصًا أصدقاء أبي وزملاءه، من نبوغي في تعلم اللغة، وتطوعوا بتفسيراتٍ ما أنزل الله بها من سلطان؛ من عقل المراهق الذي يلتقط اللغات بشكل خاص، إلى الذاكرة البصرية التي تصور الحروف. وصحيح أني موهوب في اللغات بشكل عام، ويشهد على ذلك تعلمي للفرنسية وإتقاني لها بعد عودتي إلى مصر، ولكن الحقيقة أن سبب إتقاني للغة الصينية، وإتقانها

بهذه السرعة الصاروخية، أبسط بكثير من هذه التفسيرات وأحلى، واسمه «داو مينج».

داو مينج كانت في مثل سنِّي وقتها. ذات ابتسامة مضيئة ووجه مستدير يحيطه شعر أسود قصير. حين تقرأ يتهدل على عينيها حتى يغطيهما. وحين ترفع رأسها وتراني تلمع عيناها الضيقتان بنظرة تشع لؤمًا بريئًا، ثم تغطي فمها بيدها وتشيح بوجهها كأنما خجلا. أين أنتِ الآن أيتها الدربُ المضيء؟

التقيتها في معهد تعليم اللغة الصينية للأجانب، حيث تدرِّس كجزء من برنامج للخدمة العامة يتعين على الشباب الجامعي المرور به. ورغم حداثة سنِّها، أو ربما بسبب ذلك، فقد كانت شديدة الصرامة معنا. حتى سألتها في مرة بعد الدرس عن جامعة بكين التي تدرس بها، استرسلت في الرد حتى جاء عامل التنظيف وقال لها شيئا لم أفهمه، وساعتها رأيت لأول مرة ابتسامتها المضيئة تلك وحركة تغطية فمها بيدها. أعجبتني. وأنت تعرف كيف تعجبنا البنات ونحن في السابعة عشرة. سألتها عما قاله الرجل فقالت إنه يطردنا لأننا تأخرنا. لم أفهم ما المضحك في ذلك، ولم أكن بعد قد علمت أن هذه طريقتها في التعامل مع كل ما يفاجئها. مشيت معها حتى محطة الأوتوبيس. سألتني عن معنى اسمي فقلت مُحرَجا: «الشخص المرتفع». ضحكت وهي تهزّ رأسها وصمتت. فسألتها عن معنى اسمها هي فقالت: «الدرب المضيء». ثم صمتنا وبدأت أشعر بحرج شديد وفشل وندم أني حدثتها. سألَتْني كيف أدرس

بمصـر إن كنت موجودًا بالصين طَوال العام فشـرحت لها وهي تهز رأسـها. وعندما قلت إني أدرس الفلسـفة وقفت وسألت في دهشة: «الفلسفة؟! أنت تدرس الفلسفة؟!»، قلت: «نعم»، فأضافت ببساطة شـديدة أنها هي أيضا تدرس الفلسـفة، ثم ضحكت ووضعت كفها على فمها وأشاحت بعينيها ناحية الأرض واستأنفت السير.

وهكذا، في هذه اللحظة، ونحن سائران نحو محطة الأوتوبيس، هي تنظر بعيدًا وأنا أحدّق إلى شعرها، قررت أني أحب داو مينج.

- ٣ -

كان اسمها داو مينج.

وحيـن قبَّلَتنـي أول مـرة شـعرت وكأن الجنـة قد هبطـت عليّ. ظللت بعدها جالسًا دون حراك، ساهما أنظر إلى وجهها القريب من وجهي. لم تضحك سـاعتها أو تُشِح بوجهها، ولم تغطِّ فمها بيدها. فقبَّلتُها ثانيةً مطولا، أنا الذي لم أكن أعرف عن القُبَل غير ما رأيته في الأفلام. بالكاد ثمانية عشـر عامـا، أي أصغر منك الآن بعامين. ماذا عنك أنت؟ سألتك مرتين أو ثلاثا إن كنت قد صادقت فتاة أو أحببت، واعتـراك خجل وغمغمـت بالنفي. غير أنك حدثتنـي بعد ذلك عن فتيـات أحببتهـن وأنت أصغر سـنا. حين كنت في السادسـة عشـرة حدثتنـي عن تلك التي أحببتها في المدرسـة الإعدادية، وذكرت لي منذ شهور شيئا عن تلك التي أحببتها في المرحلة الثانوية. لم تواتِك

الجرأة قَطّ أن تحدثني عن حبٍّ حالَ وقوعِه. حاولت أن أعطيك بعض النصائح، وأذكر أنك استمعت إليّ متظاهرا بعدم الاهتمام. لم تردّ، فقط استمعت، ولم أضغط عليك، لكني أريد أن أقول لك الآن: حين تقع في غرام فتاة قبِّلها على الفور ولا تنتظر. لا شيء يدعو إلى الانتظار، ولا تخش شيئا، فسأدافع عنك من علٍ. واعلم أن كل الناس مثلك، تحب وترغب في وصال من تحبه. لا تتوارَ، فكلنا يا صديقي نمر من هذا الباب.

أظن أن أبي كان يعرف بأمر داو مينج، وربما أمي. لكن لم يقُل أيهما شيئا عن الموضوع. كان سلوكي عاقلا بشكل عامّ: لا تأخير مبالَغًا فيه خارج البيت، ولا مغامرات أو مشكلات. لم أدخن أو أكذب أو أسرق أو أتشاجر مع أقراني، وكنت متفوقا في دراستي بالجامعة بمصر. لكن موجات السعادة العارمة والبؤس الشديد لا بد أنها قد فضحت أمري وتسببت في ابتسامات غامضة من جانب أمي وهزّات رأس متبرمة من جانب أبي. وعلى كل حال، فقد كان لداو مينج أثر إيجابي لا يمكن لهم إنكاره، فقد تحول إتقاني المتزايد للغة الصينية إلى مفتاح سحري لأبواب بكين المغلقة عادة أمام الغرباء. تدريجيا بدأت آخذ أمي وصفية أختي إلى أسواق ومحالّ تبيع كنوزا بأسعار لم تصدقاها، وانبهرتا بحواراتي مع الباعة، وانبهر الباعة أكثر بهذا الأسمر النحيل الطويل الذي يتحدث مثلهم. كل هذا من صنع داو مينج؛ دليلي وملاكي الحارس. استدعاني أبي ذات مرة إلى مكتبه وسألني بتردُّد إن كنت أستطيع مساعدتهم في إجراء بعض المعاملات الإدارية والمالية

مع مقاولين ومع السلطات المحلية. وقد كان، وتحولت إلى بطل شعبي صغير للمكتب العسكري. ثم قدمني أبي للسفير وهو يتعشى عندنا فاهتمّ بي اهتماما كبيرا وقال إنه سمع أني آتي بمعجزات، وحذّرني من نية أبي إلحاقي بكلية عسكرية بعد تخرُّجي. مال عليّ مبتسما - وأنا أتلعثم في خجلي - واقترح عليّ تحضير نفسي بدلا من ذلك لاختبار القَبول بوزارة الخارجية. لكِ الله يا داو مينج: هل كانت تعلم أنها تحفر بيدها حفرة ستبتلعنا نحن الاثنين؟

لم يكن لديّ مَن أحكي له عن داو مينج سوى صديقي عزالدين فكري. نعم، هو هو عزالدين فكري الذي تعرفه. سأخبرك بكل شيء في حينه. زاملت عزالدين في مدرسة «ابن لقمان» الإعدادية بالمنصورة، وتصادقنا من أول يوم، وظللنا نتقاسم المقعد الخشبي العريض وأوقات الفسح والمؤامرات والمعارك واللعب والكلام طَوال أعوامنا الثلاثة بالمدرسة. ثم انتقلنا معا إلى الثانوية العسكرية الواقعة في نفس الشارع، وقضينا سنوات تكويننا الأساسية معا، صباحا ومساء. كان عزالدين يتيما يعيش مع خالته، وهي نفسها بلا أهل في المنصورة، هاجرت من الإسماعيلية أيام الحرب ولم تعُد إلى بلدها. حين أتى إلى بيتنا أول مرة أحبَّته أمي على الفور، وعاملَته - هي وصفية أختي - باعتباره فردا من العائلة. عمك عمر، الذي كان يعاملني باعتباري «الأخ الصغير»، بدا عليه بعض الضيق من هذا الوافد الغريب، أعتقد أنه غار من صداقتنا القوية ومن اهتمام أمي به. وكان أبي في تلك الفترة يغيب أياما طويلة في

الجيش (لم أكن أعلم أين هو، كلما سألته أو سألت أمي: أين هو؟ قالا: في الجيش).

أيا كان الأمر، بين المدرسة في النهار والجلوس في بيتنا أو التسكع على النيل في المساء، تَفَتَّحنا على العالم معا، وفتح كلانا قلبه للآخر وصرنا كأننا أخوان توأمان: علي شكري وعزالدين فكري. كان حالما وهادئا مثلي، مشغولا بالأفكار والكتب وحال العالم أكثر مما هو مشغول بالأشياء التي يهتمّ بها المراهقون في سننا، أو هكذا قررنا. ولكنه كان أكثر إقداما مني وأكثر قدرة على الصد والرد والمُحاجَّة مع الكبار خصوصا المدرسين. ومن ثم تقاسمنا الأدوار: أنا أوفِّر الملجأ المسائي ببيتنا؛ بطعامه ورعاية أمي وكتب أبي الغائب، وعزالدين يتولى الدفاع عنا والمناقشات مع المدرسين، وأحيانا مع أمي حين نتأخر أو نتغيب. وفي كل هذا صرنا لا يُرَى واحد منَّا دون الآخر، ولا نفترق إلا على موعد للقاء. يعرف كل منا ما يدور في عقل وقلب الآخر دون أن يتكلم، ويجري كل منا إلى الآخر كي يخبره إن جد عليه شيء.

وحين رحلت مع عائلتي إلى القاهرة بعد الثانوية العامة، التحق عزالدين بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وانتقل للإقامة بالمدينة الجامعية. حاولت إقناع أبي بأن يسمح له بالإقامة معنا بشقتنا الجديدة بمدينة نصر، إلا أنه رفض بدهشة وحزم. لم أجد مبررا أسوقه سوى أني أعتبره أخي. ربت أبي على كتفي صامتا فصمتّ، وابتسمَت لي أمي معزّية. لكننا قضينا السنة الأولى نتسكع

في طرقات الجامعة معا، ونتسامر في المساء مع طلبة الأقاليم المقيمين في المدينة الجامعية مع عزالدين. ومن وقت إلى آخر كانت أمي تدعوه إلى عشاء أو غداء بالبيت عندنا، وأحيانا ترسل إليه طعاما معي نقتسمه بغرفته بالمدينة الجامعية. لم تطُل هذه الفترة الذهبية حيث انتقلت مع عائلتي بنهاية صيف العام الأول إلى بكين. ولم يعد بيننا سوى خطابات نتبادلها كل عدة أسابيع (لم تكن الإنترنت قد ظهرت بعد، إن كان يمكنك تصوُّر هذا الأمر). وصارت هذه الخطابات وسيلتي الوحيدة للتنفيس عما يعتمل بصدري من مشاعر ومخاوف لصديقي الوحيد، أرسلت إليه صورا لي مع داو مينج، وكتبَت هي مرة له فقرة بالإنجليزية تحيّيه، ورد علينا معا بخطاب طويل وعاطفي. وافتقدته كثيرا حين أتى وقت القرارات الصعبة ولم تسعفنا الخطابات.

في السنة الثانية صرت أقضي يومي كله معها. في أوقات الفراغ نتسلل إلى المدينة المحرمة في قلب بكين، اسمًا وفعلًا، قُبلتانا الأُولَيان تَبِعَتهما قُبَل أخرى كثيرة، وعناقات كأنها مسٌّ يأخذنا إلى عالم لا أحد فيه سوانا. لو لم تقبِّلني داو مينج لما قبّلتها أبدا ولقضيت سنواتي ببكين أهيم بها دون أن ألمسها، ترددا وخجلا. ولو لم تعانقني لما ذاب خجلي، لكنه حين ذاب لم يبقَ شيء يمنعني عن وصالها.

وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ.. فَرْعِكِ وَالدُّجَى وَالسُّكْرُ أَغْرَانِي بِمَا أَغْرَاكِ

فهمتُ قصد أمير الشعراء، وعرفت، في هذه اللحظة، أن الوصال لا يشفي من الهوى، عكس ما كان يُشِيعه زملائي الأكثر مغامرةً. لا تصدِّق ما يقوله هؤلاء، لكن تذكر أنك لا تعرف امرأة حقا ولا تعرف حقيقة مشاعرك نحوها حتى تمام الوصال.

حين لا نكون بالمدينة المحرَّمة كنا بالجامعة نستمع إلى دروس الفلسفة. في البداية كنت أفهم ثلث ما يقوله الأستاذ، ثم أخذَت النسبة تتحسن حتى العام الثالث حين صرت أفهم مُعظَم ما يُقال. كان هناك أساتذة أوضح من آخرين في نطقهم، وطلبة كثيرون من الأقاليم الصينية البعيدة لا أفهم شيئا من أسئلتهم. لكن داو مينج كانت تراجع الدروس معي بعد المحاضرات وتشرح لي ما استغلق عليّ. بعض هذه الدروس قريب من الموادّ المقررة عليّ بجامعة القاهرة، وبعضها جديد مختلف تماما. لكن الأمر كله ساعدني في دراستي الرسمية، ونجحت بنتيجة جيدة لشخص غائب طوال العام. وأظن ذلك قد أسهم في تغاضي والديّ عمّا خمّناه.

ثم ظهر أحمد القطان.

في هذا المساء عدت متأخرا قليلا، في التاسعة أو شيئا من هذا القبيل، فوجدت البيت مزدحما بالضيوف وصفية أختي واقفة بجوار الباب تنتظرني ثم قالت لي في لوم إن أبانا يسأل عني منذ ساعة. دخلت غرفتي لأصلح من هندامي وحالي فجاءت أمي مسرعة وقالت لي إن أبي عنده ضيوف مهمّون من مصر يريدني أن أسلّم عليهم. خرجت وتقدمت نحو الصالون الكبير. سمعت أصوات

حديث بالعربية والصينية وضحكات وقرقعة أكواب وكئوس فترددت. لمحني أبي من آخر الصالون فناداني. تقدمت بخجل وأنا أنظر إلى نقوش سجادة الأرضية التي أحفظها من كثرة ما حدقت إليها. وبطرف عيني لمحت، في صدر الصالون، ضباطا كبارا، مصريين وصينيين. نظر إليّ أبي الذي كان يرتدي بزّته العسكرية كاملة، وأشار لي بابتسامة رسمية أن أدخل.

وهكذا قابلت الرئيس القطان لأول مرة.

- ٤ -

أحيانا أفكر أني لو كنت ذهبت مع داو مينج إلى السينما مثلما اقترحت عليّ في ذلك المساء لعدت إلى منزلي في الثانية عشرة وما التقيت ضيوف أبي العسكريين ولا جرى أيٌّ مما جرى بعد ذلك. وأحيانا أظن أن كل ما جرى كان لا بد أن يحدث، سواء قابلت أحمد القطان هذا المساء في صالون أبي أم قابلته في مصر بعدها بشهر أو بسنة. في كل الأحوال، تقدمت على السجادة السميكة وأنا أحاول السير بخطى ثابتة وسلمت على الضباط المصريين الزائرين ثم على الضباط الصينيين. قال أبي شيئا عن إتقاني اللغة الصينية فأبدى الجميع اهتماما زائفا من باب المجاملة كأنهم لا يصدِّقون. شعرت بالإهانة، ولما تَكلّم المترجم الصيني بالعربية ليترجم للزوار شيئا قاله رئيس الوفد الصيني صححت له ترجمته. نظر إليّ وهزّ

رأسه بشدة فشرحت له بالصينية أين أخطأ. وكان هذا كافيا للفت انتباه المسئول الصيني الذي سألني - بالصينية - إن كنت أتحدث الصينية، ثم بدأ يتوغل معي في الحديث تدريجيا. استغرقت المحادثة خمس دقائق كاملة صمت فيها الجالسون في الصالون جميعا. أنهى المسئول حديثه معي والانبهار يشع من عينيه، ثم قام واقفا وانحنى وسلم عليّ بيديه الاثنتين بحرارة شديدة. شكرته، والتفتُّ إلى أبي الذي كانت أوداجه قد انتفخت من الفخر والتأثر، ولمحت بطرف عيني نظرات الاهتمام لدى الضيوف الزائرين، فحييت الجميع برأسي وانسحبت بهدوء إلى غرفتي.

قرب منتصف الليل سمعت أصواتَ آخِر الضيوف وهم يغادرون، ثم جاء أبي بنفسه إلى غرفتي. دخل وسار حتى مقعدي، وقبَّلني على رأسي، ثم طلب مني الاستيقاظ مبكرا للذهاب معه إلى المكتب وحضور جلسة مفاوضات هامَّة مع الوفد الزائر، لأنهم يريدون أن يتأكدوا من دقة ما ينقله إليهم المترجم الصيني. وهكذا، بدأت سلسلة الأحداث التي ستقودني حتى قمرة السفينة التي أكتب لك منها هذه الرسالة.

حدث كل شيء بسرعة بعد ذلك. حضرت فعلا مع أبي والوفد الزائر جلسات المفاوضات التي اتضح أنها لشراء صواريخ صينية. وكنت مبهورا بما يحدث حولي وبأني أشارك فيما اعتقدت وقتها أنه عمل حساس وخطير. نبه عليّ نائب رئيس الوفد، العميد أحمد القطان، أن لا أذكر حرفا مما سمعته لأحد، ولم يكن به حاجة إلى

ذلك، فقد كنت من فرط انبهاري مستعدا لاعتبار كل ما دار سرّيّا، حتى حين سألتني أمي في المساء إن كنت قد أكلت شيئا طوال اليوم لم أردّ، ونظرت إلى أبي في انتظار التعليمات. حضرت معهم هذه المناقشات لمدة أربعة أيام، لم أذهب فيها إلى الجامعة ولم أرَ داو مينج. وبعد رحيل الوفد قال لي أبي إن العميد القطان يعمل في حرس الرئيس، وإنه قد وعده بتعييني مترجما في الرئاسة حين نعود إلى مصر وأتخرج من الجامعة في العام التالي.

انتابتني مشاعر متناقضة، فأنا لم أفكر يوما في العمل بمكان في مكانة وخطورة رئاسة الجمهورية، وبالقطع لم أكن أنوي العمل مترجما. كل ما أردته هو دراسة الفلسفة لأطول فترة ممكنة، ثم تدريسها بعد ذلك في إحدى الثانويات. وكانت فكرة البقاء في الصين تساورني منذ شهور، وحدثتني داو مينج عن منح دراسية للأجانب يمكنني الحصول على إحداها إن تحمس لي أي من أساتذة القسم الكبار. وبدا ذلك الحلم في متناوَل اليد، خصوصا مع تمكُّني الباهر من اللغة؛ أظل في بكين، مع داو مينج، وأدرس الفلسفة الصينية. لكن تجربة الصواريخ التي مررت بها لتوِّي، وشعوري بأني جزء من شيء خطير وشديد الأهمية، والتبجيل الذي أحاطتني به صفية وأمي، وتعامل أبي معي كأني زميل له، والاحترام الذي أظهره كل هؤلاء الضباط ببزّاتهم العسكرية المهيبة، وتخيُّل القصر الرئاسي والجلوس بالقرب من الرئيس ـ عند أذنه بالضبط ـ... كل ذلك كان له مفعول السحر.

حين التقيت داو مينج في صباح اليوم التالي جرَت ناحيتي واحتضنتني بشدة. قلقَت لغيابي طوال الأيام الأربعة الماضية، لم يكن لديها تليفون فلم أستطع إخبارها. قلت لها إني انشغلت في ترجمة أشياء لأبي في المكتب. لم أحب أن أكذب عليها ولكني لم أكن لأفشي سر الصواريخ. غضبَت لاختفائي غير المبرر ولقلقها دون داعٍ عليّ، لكن غضبها تلاشى سريعا. أنا الذي ظللت مشتّتا، وحتى زيارتنا للمدينة المحرمة لم تفلح في القضاء على تشتتي. عندها فهمَت داو مينج أن أمرا يجري، وأني أخفيه عنها. ظلت تحدق إليّ بعينيها الضيقتين مرتابة، لكني صمدت ولم أفصح عن شيء يخص صواريخي، ولا عن مشروع تحويلي إلى مترجم رئاسي في القاهرة.

لكن كل ذلك تلاشى بعد عدة أسابيع من رحيل الوفد وعودتي إلى روتين الجامعة والمدينة المحرمة. وذات يوم جاءت داو مينج وهي متوهجة من السعادة وأخبرتني بين أنفاسها المتقطعة من الركض أن رئيس القسم شخصيا سألها عني وأشار إلى ضرورة استمراري في الدراسة ما دمت محبا للفلسفة الصينية إلى حد المواظبة على دروسها عامين دون أن أكون مضطرا إلى ذلك. ابتسمتُ مجاملا ومتسائلا عن أهمية هذا الكلام، فهزت رأسها في لوم مؤكدة أن ذلك معناه منحة دراسية من التي حدثتني عنها، وحثّتني على طلب موعد معه ومفاتحته في الأمر. لكني قبل أن أفاتحه هو فاتحت أمي، فشحب وجهها فورا وصمتت. صفية

أعجبتها الفكرة، لكنها استبعدت موافقة الأب عليها، خصوصًا في ضوء الوظيفة التي تنتظرني في القاهرة. ظللت أسابيع مترددا في مفاتحته في الأمر، ورد فعل أمي ينبئ عمَّا يمكن أن يقوله أبي.

كتبت لعزالدين عن المعضلة، وجاء رده سريعا، يزن كل اختيار بمميزاته وعيوبه ويحاول الجمع بينهما، مقترحا أن أبدأ بوظيفة القاهرة وأؤجل المنحة عاما، وإن لم تعجبني الوظيفة في القصر الرئاسي أتركها وأعود إلى بكين. ماذا عن داو مينج؟ لم يقل شيئا. ذهبت لمقابلة البروفيسور للتأكد مما قالته داو مينج، وفعلا أكد لي إمكانية توفير هذه المنحة ـ التي يُشرِف بنفسه على اختيار الحاصلين عليها ـ إن نجحت في بعض اختبارات اللغة والفلسفة وحصلت على شهادة الليسانس من جامعتي هذا العام.

كان هذا عامنا الأخير في بكين، والأسابيع يسحب بعضها بعضا سريعا، وكلما اقترب موعد عودتي السنوية لأداء الامتحانات زاد اضطرابي. كان يُفترض أن أسافر في شهر إبريل مع صفية وأمي لنستعد للامتحانات ولا نعود، ويلحق بنا أبي في نهاية شهر يولية. ولكنني كلما اقترب الموعد ازداد تمسُّكي بالبقاء، وبداو مينج، وبأمل استكمال دراسة الفلسفة وتحضير الدكتوراه فيها بالصين. كأني انشطرت نصفين، لا يستطيع أيهما المسير في الاتجاه الذي يهفو إليه دون أن يمزق الآخر.

ماطَلت قدر الإمكان، وغرقت أكثر في ضوء دربي المضيء كأنما لأنسى القرار القاسي الذي يتعين عليّ اختياره. وحين أَزِفَ

الوقت صارحتُ أمي بالحقيقة كاملة. تعاطفَت معي، طبعا، وأبدت تفهمها وأغدقت عليّ من حنانها، لكنها لم تُخفِ موقفها الرافض تماما لفكرة البقاء وإعداد الدكتوراه ببكين، حتى لو كانت منحة من الجامعة، وحتى لو كنت أول طالب مصري يدرس الفلسفة الصينية هناك. أما حبي لداو مينج وتعلقي بها فهو أمر جميل، هكذا قالت، لكنها عواطف أول الشباب ودائما تمر. «لا أحد يتزوج حبه الأول إلا في الأفلام، وحتى في الأفلام لا يفعلون ذلك كثيرًا». هكذا قالت، وكانت من الذكاء بحيث لم تسفِّه من حبي لكون الفتاة صينية. لكني كنت أشعر بهذا الأمر في نظراتها، وترك أثرا فيّ لم أعترف لنفسي به وقتها. أنفقَت أمي بقية وقتها في الحديث عن الوظيفة التي تنتظرني والمستقبل المرموق الذي ستكفله لي. عندما كانت تتحدث عن هذه الوظيفة كان وجهها كله يبتسم، كأنما أزاحت كل حديثي عن البقاء في بكين باعتباره ترهات مقضيا عليها. وحين استجمعت شجاعتي وفاتحت أبي بشأن بقائي لإعداد الدكتوراه (ولم أجسر، مثلك، على ذكر حبي لداو مينج) كان رد فعله مماثلا لرد فعل أمي: استبعد الفكرة سريعا باعتبارها فكرة خرقاء، وأخذ يعدد مآثر الوظيفة التي تنتظرني. كان حديث الأب عن هذه الوظيفة أكثر تأثيرا مما قالته الأم، بل ومما فكرت فيه أنا من قبل، فلأول مرة أرى أبي يبجّل عملا غير الجيش، ويرفعه إلى مصافِّ ما يقوم به هو شخصيا، بل إنه قال إن عملي في الرئاسة سيكون أهمّ من عمله هو ومن أي شيء قام به حتى الآن. وشعرت أن هذه الكلمات حين قيلت قد حسمت الأمر داخلي، لكني ظللت أقاوم، حتى بيني وبين نفسي.

كتبت إلى عزالدين مرة أخرى، لكن الوقت لم يسعفني لأقرأ رده عليّ. لم تكن داو مينج تعلم بشيء من هذا، لا وظيفة الرئاسة ولا إجماع عائلتي على ضرورة سفري. وكلما التقينا حدثتني عن مشروعاتها لحياتي في بكين كطالب، أخذتني لرؤية المساكن الجامعية التي يُفترض أن أقيم بها، وأحضرت لي جدول دراسة طلبة الدكتوراه، ثم بدأت هي الأخرى تحضّر لاستكمال دراستها العليا، وبعد ذلك بدأت تبحث عن مصدر نحصل منه على الكتب بالمجان، وهكذا. مع كل أسبوع يمر يتضح لي أني لا محالة عائد إلى مصر، وتُمعِن داو مينج في ترتيباتها لمستقبلنا المشترك في جامعة بكين.

ثم جاء اليوم الذي تعين عليّ فيه أن أخبرها بالحقيقة، أنني سأرحل عائدا إلى مصر مع أهلي ولن أستطيع البقاء معها ومواصلة الدراسة مثلما خططنا. مر على هذا اليوم إحدى وثلاثون سنة تقريبا، وما زال قلبي يوجعني حين أتذكره، وما زلت أشعر بالصغر والوضاعة بسبب خداعي لها طوال الأشهُر التي سبقته، وبألم وندم على جرحي لها ذلك اليوم، وما زلت أرى تعبير وجهها في هذا اللقاء الأخير وأنا أسير مبتعدًا وهي جالسة بلا حراك على مقعد خشبي بالجامعة، كأنها تحولت لتمثال من الزجاج، ينتظر التهشم.

راحت داو مينج.

قضيت الشهور الأولى بعد عودتي تائهًا. عمر أخي الذي استقبلنا في المطار بدا أكثر حدة؛ في كل مرة ألتقيه أجده أكثر حدة. مدينة نصر كانت أكثر ازدحامًا بكثير؛ وتحولت الصحراء الممتدة بجوار عمارات الدفاع الجوي التي نسكنها إلى غابة من الأبنية الخرسانية. ذهبت للمنصورة فور عودتي للقاء عزالدين، وأقنعت أمي بأن تتركنا نقيم سويًا في شقتنا القديمة المغلقة حتى نهاية الامتحانات. كان قلبي منقبضًا وأردت البعد عن كل ما يذكرني بداو مينج وبكين كلها، بما في ذلك أمي وأختي.

ولا أعلم كيف نجحت هذا العام؛ كنت أجلس طيلة اليوم في البيت مع عزالدين، صامتين معظم الوقت وأنا أحدق في كتبي؛ أقرأ في الصفحة وبعد قليل أصادف عبارة تذكرني بشيء ما، ثم أكتشف أني قرأتها من قبل ونسيت. نخرج لنتنفس هواءً نقيًّا على شاطئ النيل علّه يصفي ذهني ثم نعود. هالني ما جرى للمنصورة من تغييرات؛ المدينة الصغيرة الهادئة التي تركتها نائمة في حضن النيل تحولت لكابوس من السيارات والبشر والعمارات والباعة. من أين أتى كل هؤلاء؟ ثم أفكر في بكين، وجامعتها، وداو مينج ومدينتها التي حرمتها على نفسي بيدي. وأغرق في التعاسة أكثر. لُمت نفسي ونعتها بالضعف والجبن والخسة. أعود للبيت مع عزالدين، وأغلق على نفسي الحمام كيلا تراني عينا عزالدين الفاحصة الناقدة، وأبكي بصمت، أحيانًا لفترات طويلة حتى يأتي عزالدين ويدق عليّ الباب. المهم، لا أريد الإطالة في كل هذا، لا بد وأنك أنت أيضًا قد مررت

بهـذا. إن كنـت قد تركـت فتاتك مثلـي فلا تقسُ على نفسـك مثلما فعلت أنا، وإن كانت هي التي تركتك فلا تظن أنك غير أهل للحب. فقصص الحب الأولى دائمًا ما تنتهي بترك واحد للآخر؛ سيان من الـذي يفعلهـا قبل الآخر. سـيبدو لك كلامي قاسـيًا، مثلما بدا كلام أمي لي وقتها. لكن هذه هي الحقيقة، للأسف.

في النهاية نجحت، وحصلت على الليسانس، وعاد أبي من بكين، وجـاء بعده الأثاث الكثير الذي اشـترته أمي بمعونة صفية، ولـم يعد المنزل بمدينة نصر يتسـع له. وبعد شـهرين انتقلنا لشقة أخرى أكبر وأحدث في شارع منشية الطيران، أمام بيت الرئيس عبد الناصر. وقال أبي ممازحًا إن هذا البيت سـيكون أقرب للرئاسة عندما أبدأ عملي. غـاص قلبـي حين تذكرت ذلـك؛ نعم، الرئاسـة، حـان وقت ذلك.

ثم كان.

تحـدث أبي مع العميـد القطان في منتصف يوليـة ووعده خيرًا. لكن في أول أغسـطس غزت قوات صدام حسين الكويت وانقلبت الدنيا رأسًـا على عقب. ألغيت إجـازة أبي ومعها خطة التصييف في جمصة. ولـم يكن ذلك شـرًّا كله إذ أتاح لـي فرصة قضاء أيام أخيرة بالمنصورة مع عزالدين الذي كان يتأهب للسفر إلى كندا لاستكمال دراسة العلوم السياسية وإعداد الدكتوراه فيها. حصل عزالدين على هذه المنحة بالصدفة، حين أخبره صديق له أن السفارة الكندية لديها عشـر منح وتقبل طلبات الترشـيح من أي خريج. سحب الاستمارة في اليوم قبل الأخير ولا أدري بأي معجزة استطاع استكمال أوراقه كلهـا فـي يـوم واحد، لكـن هكـذا كان عزالديـن حيـن يصمم على

شـيء: أحيانًا يبـدو وكأنه قادر على تسـخير الطبيعة نفسـها لتحقيق هدفـه. وتـم قبوله بالفعـل، وها هو يتأهب للسـفر لخمس سـنوات كاملـة. كنت سـعيدًا له ولكـن في مكان مـا بقلبي كان هنـاك غيرة. كيف أضعت الفرصة التي سـنحت لي وعدت إلى هنا؟ وإلى ماذا؟ وها هـو صديقـي الأقرب والوحيد، توأمي، مسـافر لتحقيق ما كنت أطمع فيه وتخليت عنه بيدي. ولأول مرة أحسـده أنه بلا عائلة، يتيم بـلا أم تذيـب مقاومته بحنانهـا أو أب يذيبها بصلابـة منطقه. قضينا أيامـه الأخيرة بالمنصورة وكأننا نزور أطلال صبانا؛ كورنيش النيل، المراكـب الصغيرة التي تَعبر النهر بنا، شـاطئ طلخا الذي كان شـبه مهجـور ناحية مصنع السـماد، فلنكات السـكة الحديد من المحطة وحتى سندوب، شارع الثانوية حيث تقع مدرستنا، ومطعم «موافي» الـذي أطعمنـا فولًا وطعمية تكفي المسـير لنهايـات الجهات. كأننا نودع مدينتنا الخاصة، وفعلًا لم نعد للمنصورة سويًا بعد ذلك أبدًا.

فـي منتصـف سـبتمبر تـم تعييـن أبـي رئيسًـا لفـرع الملحقيـن العسـكريين التابع للمخابـرات الحربية، واختفى مـن البيت تمامًا. لـم يكـن لدى شـيئًا أفعله سـوى التسـكع ومتابعة الأخبـار والتأمل فـي حماقة قراري بالعودة. وفـي أول أكتوبر ذهبـت لمركز التجنيد لبـدء «خدمتي العسـكرية»، إلا أنهـم تركوني أعـود للبيت في نفس اليـوم، ولمـدة أربعيـن يومًا اقتصرت هـذه الخدمة علـى ذهابي في الصبـاح لمركـز التجنيد لعدة سـاعات أعود بعدهـا للبيت، حتى تم إلحاقـي بفـرع المخابـرات الحربيـة. عبرت عن امتعاضـي من هذه «الكوسـة» الواضحة، لكن أمي نهرتني ونظر لي أبي في اسـتخفاف

المشغول بمصائب أكبر من أفكار المراهقين هذه. في كل الأحوال لم يكن أمامي سبيل للاعتراض إذ تتخذ هذه القرارات دون سؤال المعني. وهكذا، قضيت بقية العام بين بيتنا في شارع الطيران وقيادة المخابرات الحربية في طريق صلاح سالم حيث لا أفعل شيئًا يُذكر. وفي منتصف ديسمبر أخبرني أبي أني سألحق بمكتب الفرع بالرئاسة في أول يناير وأظل هنالك حتى نهاية تجنيدي ثم يتم تعييني رسميًا كمترجم. وقد كان.

حين أبلغني أبي بضرورة التواجد بالرئاسة في التاسعة من صباح الأول من يناير، زغردت أمي. أول مرة أراها تزغرد، هي التي تتعفف عن كل ما تصمه بـ «شغل الناس الحوَش». وفي الصباح أغرقتني صفية ابتسامًا ورافقتني حتى الباب وربتت عليّ. خرجت وتوجهت في زهو للقصر الرئاسي في الميرغني، المسمى بقصر «الاتحادية». لكنهم على الباب ضحكوا مني وأرسلوني لمكتب السكرتارية في شارع الخليفة المأمون، الواقع على بعد خمس دقائق من منزلنا. المكتب لا يشبه في شيء توقعاتك من الرئاسة، بل هو أقرب لمبنى أرشيف حكومي. تركني الجندي أدخل دون السؤال عن أوراق تحقيق شخصية. صعدت عدة درجات من سلم مكسور الحواف، وتجولت في ممرات فارغة أرضيتها من المشمع حتى وجدت من يدلني على مكتب الأستاذ مرتضى، مديري الجديد. مثلما ترى، فإن تفاصيل هذه الأيام محفورة في ذهني كأنها حدثت بالأمس، لكني سأعفيك منها، فلو قصصت عليك كل التفاصيل التي لديّ لهبطت علينا طائرات البحرية الأمريكية قبل أن أنهي ثلث الحكاية.

استلمت العمل في وسط هرج ومرج ظننته مؤقتًا ومرتبطًا بالحرب الوشيكة في الخليج، ثم اكتشفت عبر السنوات أنها حالة دائمة. قضيت عدة أيام لا أفعل شيئًا، بالمعنى الحرفي للكلمة، بل لم أجد في البداية مكتبًا، وظللت هائمًا في الأروقة ومكاتب الآخرين. ثم استدعاني الأستاذ مرتضى مرة على عجل لترجمة ورقة باللغة الفرنسية، ودهش لمّا قلت له إني أتقن اللغتين الصينية والأنجليزية لا الفرنسية. رفع حاجبه في دهشة ممزوجة بامتعاض وصرفني بحركة من يده دون كلمة أخرى. قضيت أيامًا أخرى في قراءة الجرائد والحديث مع زملائي. تعرفت على شاب أكبر مني بثلاث أو أربع سنوات اسمه محمود بشير - نعم، هو محمود بشير الذي اشتهر وسطع نجمه بعد ذلك. كان وقتها يعمل مع أحد «أمناء الرئاسة»، وهو مصطلح تفخيمي للعلاقات العامة والمراسم. محمود كان من وقتها منطلقًا وصاخبًا وجريئًا واجتماعيًّا لأقصى حد. هو الذي جاء وقدم نفسه لي وأصر على اصطحابي في نفس اليوم للغداء في مطعم قريب، وفي اليوم التالي دعاني للخروج معه وأصدقائه مساءً، وغمز بعينه أنهم ذاهبون لمكان سيعجبني، وبالطبع جفلت منه واعتذرت وصرت أتحاشاه. في أول أسبوعين قابلت كثيرين في المكتب ممن لا بد وأنك قد سمعت أو قرأت عنهم بعد ذلك؛ رأيت رئيس الديوان مرتين، وسكرتير الرئيس للمعلومات عدة مرات، وسكرتير الرئيس الخاص ووزير الخارجية ومدير المخابرات العامة مرة أثناء خروجهم من اجتماع بالمبنى. لكني لم أرَ الرئيس، ولم أترجم كلمة واحدة.

وفي صبيحة الخامس عشر من يناير استدعاني الأستاذ مرتضى لمكتبه حيث وجدت عنده العميد القطان، بوجهه الأحمر الضاحك وشعره الأحمر الذي يخفي صلعة صغيرة ورقبته الغليظة المتهدلة قليلًا. وقف عندما رآني واحتضنني، وعلى الفور تغيرت معاملة الأستاذ مرتضى لي. طلب لي شايًا في حين سألني القطان عن أحوال العمل مضيفًا في مزاح نصفه جد أنهم ولا بد يعذبونني ولا يعطونني لا مكتب ولا عمل. غمغمت بكلمات مرتبكة لم يكترث لها القطان المنطلق في الحديث. وانتقل بسرعة من الحديث عن المكتب للحديث عن الصين وأهميتها للوضع في الخليج، ثم انتقل للحديث عن الحرب القادمة والتحسر على ما يحدث. لم يُتح لي أو للأستاذ مرتضى التعقيب على حديثه، فقد قام فور انتهائه من الكلام واستأذن منصرفًا. وعدت أنا لما كنت فيه.

في اليوم التالي استدعاني الأستاذ مرتضى وقال لي إن أحد العاملين قد تم نقله وبالتالي شغر مكتبه في آخر الممر بالطابق الثاني وطلب مني الانتقال إليه فورًا وتجهيز نفسي للعمل. وبعد ساعتين أرسل لي مجموعة خطابات طلب ترجمتها للإنجليزية، وبعدها بساعة أرسل يستدعيني وأعطاني ثلاثة مقالات مقتطعة من صحف إنجليزية وأمريكية وطلب ترجمتها للعربية فورًا وترك الخطابات لوقت لاحق - منبهًا على أن أترجم المقالات بلغة بسيطة لا تعقيد فيها. وهكذا بدأ عملي كمترجم بالقصر الرئاسي.

وفي اليوم التالي اندلعت حرب تحرير الكويت وتحطيم العراق.

- ٦ -

بينما كانت الطائرات تدك مدن العراق وتحرق أرتال الجنود المنسحبين على طريق الموت، كنت أترجم مقالات من الصحف الأجنبية. قضيت حرب الخليج كلها ترجمة مقالات. بعد يومين من بدء الحرب استدعاني الأستاذ مرتضى وسألني ممتعضًا عن سبب عدم مروري عليه في الصباح، فأجبته أني أذهب لمكتبي في انتظار تكليفي بشيء. نظر لي وهز رأسه متعجبًا وسألني كيف أجلس على مكتبي أنتظر وهناك حرب دائرة. وقبل أن أجيبه ناولني ملف به عدد من المقالات باللغة الإنجليزية مشيرًا بيده لي أن اذهب. عند الظهيرة مر عليّ محمود بشير وسألني لماذا لا أمر على الأستاذ مرتضى في الصباح، فلما أجبته أني آتي لمكتبي في الصباح كما يفترض في الموظفين ضحك، وجلس أمامي على المكتب ناظرًا في عينيّ وقال لي إنني «أبيض»، وإن هذا اللقاء الاجتماعي الصباحي هو محور دولاب العمل. بعدها بيومين اتصل بي العميد القطان ليطمئن على أحوالي، وضحك لما أخبرته بهذا الأمر مؤيدًا ضرورة عدم الاكتفاء بزيارة الصباح هذه وإنما المرور على مكتب الأستاذ مرتضى من وقت لآخر، والسلام عليه، والدردشة حول أي موضوع، وفعل نفس الشيء مع بقية الطاقم. أضاف القطان نصائح أخرى فيما بعد، من بينها ضرورة التعرف على سكرتير الرئيس للمعلومات لأنه يتحدث كثيرًا للرئيس ويشرف على دورة المعلومات كلها بالمكتب، ومن ثم يمكنه إن وثق بي أن يضمني

للدائرة الأصغر بالمكتب. نفس الشيء بالنسبة للسكرتارية الخاصة التي تملك جدول الرئيس، وطبعًا، سيد المكان، رئيس الديوان. بدا لي ذلك كله نفاقًا لا لزوم له. ألست مترجمًا؟ لم أحتج كل هذا كي أقوم بعملي؟ وعزمت بيني وبين نفسي ألا أفعل أيًا من هذا. لقد عينوني بسبب كفاءتي، وهي فقط التي ستحدد مساري. لن أزور أحدًا أو أتملق أحدًا.

لكني واظبت على الذهاب لمكتب الأستاذ مرتضى في الصباح، وإلا لما تذكرني وما أعطاني شيئًا أفعله. أذكر كيف كان مكتبه مهيبًا من الداخل، وهو ضئيل الحجم جالس خلف المكتب الضخم، وخلفه صورة كبيرة للرئيس وعلم مصر، ينظر لي بعينين متسائلتين من فوق نظارته كلما دخلت من الباب. يسألني دائمًا أسئلة لا أتوقعها، وأرتبك في محاولتي الإجابة عنها ويقاطع ارتباكي إما بإشارة من يده كي أذهب أو أصمت أو بسؤال آخر يشتتني أكثر. حتى عندما يمزح، يجد وسيلة لوخزي. استجمعت شجاعتي ذات صباح وسألته إن كنت سأترجم شيئًا من أو إلى اللغة الصينية. نظر لي مطولًا ثم سألني إن كانت إنجليزيتي ضعيفة. غمغمت بأشياء عن التخصص واللغة الصينية فقاطعني مناولًا إياي ملفًا يحتوي المقالات اليومية.

كان التناقض صارخًا، أو هكذا بدا لي، بين ما أراه على شاشات التلفزيون مساءً من أهوال الحرب وما أفعله طول اليوم، أنا المترجم بمكتب الرئيس. المقالات التي كنت أترجمها متنوعة، كلها مرتبطة

بالوضع الدولي، لكن لا شيء منها يستحق اهتمامًا خاصًّا. يمكنك اليوم أن تترجم مثلها على الإنترنت لأي لغة في ثوانٍ. كنت أعمل اليوم كله لتحقيق ما يتم في هذه الثواني، وحتى في ذلك الزمن بدا الأمر مضيعة للوقت. سألت الأستاذ مرتضى ماذا يحدث لهذه المقالات بعد ترجمتها فأوضح لي أنها تدخل في الملف الإعلامي. سألته أين يذهب الملف الإعلامي فلم يرد. سألته إن كان يذهب للرئيس فرماني بنظرة من فوق نظارته لم أفهم مغزاها بالضبط، لكنها لم تكن مشجعة. اقترحت عليه إضافة مقالات من الصحف الصينية فضحك ساخرًا وطلب مني أن أترجم ما يعطيه لي وحسب. سألته إن كان هناك شيء آخر يمكنني فعله، فتنهد وسألني في تهكم: مثل ماذا؟ ظللت أحوم حول كوني قادرًا على الترجمة الفورية، وربما يمكنهم الاستعانة بي في المقابلات. توقف عما كان يفعله ونظر لي في استنكار من ضبطني متلبسًا بجرم. خلع نظارته ومسح بيده عينيه الضجرتين وطلب مني ألا أتعجل، محذرًا إياي من الطموح الزائد. أوضحت بسرعة أني لا أطمح لشيء لكني أشعر بعدم فائدتي للمكتب فأكمل تحذيره بأن أفعل ما يُطلب مني، لا أكثر ولا أقل. وأن هفوة أخرى مثل هذه قد تقضي على وجودي بالمكتب. ناولني ملف المقالات في صمت صارم ووضع نظارته على عينيه وعاد لقراءة ما كان بين يديه. وقفت ثانيتين محاولًا تقرير ما إذا كان عليّ شرح الأمر أو استيضاحه، لكن انصرافه الكامل عني أفهمني أن وقتي قد انتهى. خرجت وأغلقت باب المكتب خلفي.

مرت الحرب عليّ هكذا. الأستاذ مرتضى في الصباح، ثم الترجمة العقيمة، ثم غداء بالمنزل حينًا ومع محمود بشير الذي توثقت صلتي به أحيانًا، ثم عودة إلى المكتب لمزيد من الترجمة العقيمة. محمود اتفق معي أن ما نفعله عبث في معظمه، وفي بعض الأيام وجدته ثائرًا أكثر مني، لكنه رأى أننا في هذا العمل كي نتعلم ونستفيد حتى ولو لم يكن لنا فائدة. لم يعجبني هذا الكلام بالطبع؛ قد تنطبق وجهة النظر هذه على عمل خاص، أما العمل برئاسة الجمهورية، وفي زمن الحرب، فأمر آخر. حادثت أبي في الموضوع ذات مساء فأبدى تفهمًا لمشاعري، وحكى لي عن مشاعره المماثلة حين بدأ خدمته بالجيش بعد حرب ١٩٦٧. حديث جدك لي هدّأ من إحباطي، وأعطاني أملًا أن الأمور تتحسن مع الوقت. وساعدني ذلك على مواصلة العمل. لكني أقول لك اليوم إن ذلك كان خطأ. وإنّ الأمور لا تتحسن مع الوقت بل نحن الذين نعتاد سوءها. فلا تكرر هذا الخطأ؛ اتبع صواب قلبك من البداية، فلا شيء في هذه المكاتب سوى موت مقنع. لكني أقفز على الحكاية الآن. لنعد حيث كنا.

مضى عامي الأول بالقصر الرئاسي على نفس المنوال. أمرُّ في الصباح على الأستاذ مرتضى الذي يناولني ملف المقالات المختارة. أقضي النهار في ترجمتها للعربية، ثم الإشراف على كتابتها بالآلة الكاتبة في قسم النسخ. نعم، عاصرت هذه الآلات التاريخية المضحكة. ولا، لم أعاصر مطبعة جوتنبرج؛ كانت

تلـك قبل أيامي. ونعم كان الموظفون يكتبـون بخط اليد ثم يعطون الأوراق لأناس كل عملهم هو تحويل المكتوب بخط اليد لحروف مطبوعـة ـ لا تسـألني لم لا يكتـب الموظفون مباشـرة على الآلات الكاتبة ـ هكذا كانت الأمور. الأدهى أن الناسخين غالبًا ما يخطئون، ومن ثُمَّ يجب مراجعة ما ينسـخونه وإعادته لهم ليعيدوا نسـخه مرة أو اثنتيـن على الأقل. يصبح الملـف جاهزًا، بمعجزة يومية، حوالي الواحدة ظهرًا لينضم لما يسـمى «ملـف العرض» الذي ـ كما تبين ـ يرسـل للرئيس فـي تمام الثانية. هل يقرأ هـذه المقالات؟ ربما. هل تفيده بشـيء؟ لسـت أدري. لكن في كل الأحوال كانت هذه حدود مهمتي في ذلك الوقت. وأيًّا كانت الاعتراضات التي تدور برأسـي، فقـد التزمت بالمهمـة، وحرصت علـى إتقانها، وبرعـت فيها حتى شهد لي الأستاذ مرتضى نفسه.

لـم يكن لـي حيـاة تذكـر خـارج المكتب. أرسـلت لـداو مينج خطابًـا أُبـدي فيه ندمي علـى عدم مواجهتهـا بالحقيقة في الشـهور الأخيرة، وأطلب فيه الصفح، لكنها لـم ترد عليّ، فزاد قلبي انغلاقًا. أمـا حياتنـا الاجتماعيـة بالقاهـرة فكانت محـدودة؛ معظـم أقربائنا يعيشـون فـي الدلتا، وصداقـات أبي كلهـا بين زملائه فـي الجيش، ولـم أر لأمي صديقة في حياتـي، وأختي تقضي وقتها مع صديقاتها القليـلات على حدة، في غرفتها أو فـي خروجات. الحدث العائلي الرئيسي ـ بخلاف انتقالي لمصافِّ العاملين بجهاز الدولة ـ هو سفر عمر الوشيك إلى إيطاليا ونزاعه مع أبي حول هذا الأمر.

كنت بلا أصدقاء أبثهم شكواي واعتراضاتي. أخي عمر حاد الطبع، ولا يستمع لشيء أقوله أكثر من دقيقتين إلا ويبدأ في انتقادي وتسفيه أفكاري. ومع حبي الشديد له وتعلقي به فإن ذلك منعني من «الفضفضة» له. حاولت عدة مرات وفشلت فشلًا كاملًا وندمت على ما حاولت. صفية أحن منه وأقرب، وتبنتني عاطفيًّا منذ فراقي لداو مينج ثم سفر عزالدين. يبدو أنها شعرت بعزلتي، أو شعرت هي نفسها بالعزلة، فاقتربت مني أكثر. لكننا ظللنا غير قادرين على البوح بشيء يتجاوز مشاكل الحياة اليومية. فلم أعرف شيئًا عن مشاعرها كبنت؛ لم تقل لي أبدًا إنها أحبت شابًّا أو أعجبها رجل، وحتى حين بدأ النقيب إبراهيم، ضابط المدفعية ثقيل الظل الذي يعمل مع أبي، في التودد لها لم تقل لي شيئًا وعلمت بالأمر من أمي. لا أدري لم كنا قابضين على قصصنا الشخصية ممتنعين عن الخوض فيها هكذا، وفي نفس الوقت قريبين وعطوفين على بعض. ربما خجل، وربما جو النظام السائد بالمنزل.

محمود بشير حاول مرارًا تنمية زمالتنا وتحويلها لصداقة. راحات بعد الظهر سمحت بتقوية تعارفنا بعض الشيء، حيث صرنا نتناول طعام الغداء سويًّا مرتين أو ثلاثًا بالأسبوع. لكنني رفضت بأدب دعواته المسائية؛ كانت فكرة ذهابي لبار أو اللقاء بناس لا أعرفهم ترهبني. خاصة وأن الذين يسهر معهم محمود فنانون وصحفيين من الرجال والنساء - وبالأخص نساء - وهم نوع من الناس لم أحتك به في حياتي وأخاف من التعامل معه بحكم تربيتي.

خطابــات عزالديــن مــن كنــدا شــكلت كنــزًا مــن العــواطـف والقصـص: عالـم كامل عشـته من خـلال صديقـي. الجامعة ورقي نظامهـا؛ التعليـم المحفز، والتفكير النقـدي، وروح الابتكار، وهذه الأشـياء التي نسـمع عنها فـي القصص، المدينة الهادئة وأشـجارها من خضـرة الصيف الزاهية لألـوان الربيع المتغيرة لسـقوط الجليد الأول، الناس والتحضر وحسـن المعاملـة، البنات الذي يقول إنهن نوع آخر غير الذي نعرفه. نجح عزالدين في الفصل الدراسي الأول بامتياز، وأصبح معيدًا بالجامعة التي يتعلم بها، وسـعادته تسـيل من خطاباته. أما أنا فلم أسـتطع الخوض كثيرًا فيما يقلقني، باعتباره من أسـرار العمـل التي لا أسـتطيع البوح بها خشـية تلقـف الأعداء لها واستغلالها ضد مصر. آه لو عرف الأعداء! اقتصرت خطاباتي على الأمور التي كانت بيننا قبل سـفره، والتي شحبت مع الوقت. أحاول جاهـدًا أن أجـد شـيئًا مثيرًا أقولـه له كيـلا أضجره. لكـن برغم كل مايحـدث حولي وقتها، لم يكن هناك شـيء يحـدث لي أنا لأذكره. يحدثني عزالدين في خطاباته عن الدور المتنامي للصين، ويسـألني عـن دهاليز حـرب الخليج ومفاوضـات إنهائها، والأكراد والشـيعة وما يجري لهم، وعن المذابح التي بدأت في البلقان، ثم عن مؤتمر مدريد للسـلام في أكتوبر. بعدها يضيف أنه يتفهم عدم تطرقي لهذه الأمور بسبب حساسـية عملي. لك الله يا عزالدين: ماذا كان يظنني أفعل في الرئاسة؟ أنا مترجم المقالات.

- ٧ -

تغيرت الأحوال في العام التالي. بدأت التحولات مع نجاح عمر في انتزاع موافقة أبي على سفره لإيطاليا، بعد صراع لشهور طويلة استخدم فيها عمر كل الأسلحة الثقيلة التي لديه. توقف عن الأكل في البيت، ثم توقف عن الحديث مع أبي - هو الذي قاطعه وليس العكس (أترى يا يحيى؟! هذا درس لك)، ثم توقف عن الحديث مع أمي أيضًا. بعدها استخرج جواز سفر وتركه «بالصدفة» ملقى على المنضدة ليراه الجميع. وحين لم يفلح كل هذا، قال لأمي إنه اقترض المبلغ الذي يلزمه للسفر من صديق له، وسيسافر في أول الشهر التالي، وتوقف بعدها عن الكلام مع كل أعضاء المنزل، بما فيهم أنا الذي أيدت مشروعه للسفر منذ البداية. رضخ أبي عندئذ، وهي أول مرة أراه يوافق على شيء عارضه. أعجبني إصرار عمر ونجاحه، وشعرت بالغيرة بعض الشيء. لكني لم أسعَ لتقليده، بل صعب عليَّ انكسار إرادة أبي.

بعد سفر عمر، تقدم إبراهيم ثقيل الظل لخطبة صفية أختي. وإبراهيم هذا نقيب من سلاح المدفعية أُلحق للعمل مع أبي منذ فترة، ولا يفتأ يتملقه ويتقرب منه فيما بدا لي سعيًا واضحًا كي يفوز برضاه ومساعدته في الحصول على منصب هنا أو هناك. حين قالت لي أمي إنها تشعر برغبة إبراهيم الاقتران بصفية قلت لها رأيي فيه لكن ما رأيته أنا انتهازية رأته هي حسن تصرف ودليلًا على أنه سيشق طريقه للنجاح. وثقل الظل؟ لم توافقني الرأي، فهو في

رأيها مهذب ومجامل، يحتـرم الآخرين، ربما جادّ زيادة عن اللزوم لكـن ذلك لا يعيـب الرجال. لـم يعجبني الأمر برمتـه. لم يجب أن تتـزوج صفيـة وهي مازالت في الخامسـة والعشـرين؟ ولـم تتزوج ضابـط المدفعيـة اللـزج هذا دون الشـباب كلهم؟ سـألت صفية إن كانـت تحبه، فاحمرت وجنتاها من السـؤال وقالـت إنه لطيف معها وكريم وشـكله مقبول والكل يجمع على كونه عريسًا مناسبًا. أردت أن أقول لها إن هذا غير كافٍ، أردت أن أسألها عن مشاعرها وما إذا كانـت قـد أحبـت، أردت تحذيرهـا من الارتبـاط قبـل أن تجد هي نفسـها فينتهي بها الأمر تابعة لضابط المدفعية ممسـوحة الشخصية والوجـود. أردت أن أقول كل هذا، لكـن صمتًا لا يتزحزح حل بيننا وكأنه فاصل لايمكن اجتيازه. صمت، ولكني عزمت على الحديث مع أبي عن الموضوع.

حين حادثته في الأمر طلب مني الدخول معه لغرفة مكتبه وأغلق الباب وأجلسـني قبالته. لم يكن يحتاج عند هذا الحد لأن يقول أي شـيء، فقـد أرهبنـي رد فعله هـذا بما يكفـي لإقناعي بـأي موقف. لا يعرف الآباء حجم سـلطتهم على أبناءهم، ولا يعرف الأبناء لأي درجة يجهل الآباء طريقهم ويتحسسون من الخطأ ويترددون مثلهم، ولأي حـد يمكنهم أن يغيروا آرائهم لأتفه الأسـباب. وهاأناذا أقول لـك: تذكـر دائمًا، إن نجوت الليلـة مما ينتظرني، إنـي مثلك تمامًا، أبحث عـن طريقي، بخبرة أطول لكن الخبرة لا تقول لي ماذا يتعين عليّ فعله. فلا تخف مني، ولا تنبهر بما أقول أو تتبعني وأنت مغمض

العينين مثلما فعلت أنا مع أبي. جلست وأنا أشعر أن ما سيقوله لي خاص وهام، واستعددت نفسيًّا لتلقيه كإفضاء يستحق أن أحتويه وأقبله على الفور. بدأ بأن المرأة تحتاج للاستقرار أكثر من أي شيء آخر، وإبراهيم يحترم صفية ويعرف قدرها وسيعتني بها، وقلل من شأن العواطف التي قال إنها تزول سريعًا، فكل الأزواج يعتادون على بعضهم مع الوقت ولا يبقى سوى حسن العشرة. ثم مال بجذعه وهو جالس قبالتي فاقترب أكثر وقال إنه لن يعيش لنا طول العمر، وإنه على وشك بلوغ سن المعاش ويريد الاطمئنان علينا. ذكر سفر عمر وتهدج صوته قليلًا وسرح بنظره. ثم ابتسم ابتسامة عريضة وكأنما ليمحو ذكرى وقال شيئًا عن وظيفتي ونجاحي ومستقبلي. ثم استطرد أنه لم يبق له سوى الاطمئنان على صفية، وأن إبراهيم سيصونها ويعتني بها. تحدثت قليلًا ـ من باب المحاولة ـ عن الحب والشخصية والاستقلال ولكني لم أقاوم كثيرًا، وخرجت من مكتبه مقتنعًا أن موقفه منطقي وقد يكون الأقرب لموقف صفية نفسها. ومن أكون أنا كي أقحم تفكيري ومنطقي على أختي إن كان كل ماتريده هو حياة عائلية تقليدية وهادئة. تزوجت صفية بثقيل الظل بعدها بشهور قليلة، وانتقلت لبيتها الجديد في مدينة نصر.

تغير وضعي في العمل خلال هذا العام أيضًا، فقد عهد إليَّ الأستاذ مرتضى بمهمة إعداد الملف الإعلامي، فأصبحت أنا الذي أختار المقالات التي يتم ترجمتها. أو هكذا ظننت في البداية، فبعد ثلاثة أيام من تسلمي المهام الجديدة استدعاني الأستاذ مرتضى وأنّبني على التغييرات التي أدخلتها والتي، وفقًا لما ذكره، أغضبت

سكرتير الرئيس للمعلومات، وربما الرئيس شخصيًّا. شرحت له ما فعلت لكنه قاطعني وطلب مني ألا أغير أي شيء دون مراجعة رئيسي، فكل هذه الأمور لها نظام موضوع لأسباب ولا يجب العبث بها. صمت فأضاف أنه تقرر إسناد هذه المهمة لشخص آخر، وعدت أنا لترجمة المقالات. لكن بعد أسبوع أرسلني للمشاركة في الترجمة بأحد المؤتمرات التي سيشارك فيها الرئيس. وبالفعل ذهبت من اليوم التالي للشخص المسئول عن الترجمة في المؤتمر، وساعدته في تنظيم الفريق الذي سيتولى الترجمة، وانتقلنا جميعًا لمركز المؤتمرات بمدينة نصر بعدها بأسبوع حيث سيدور المؤتمر. وكانت هذه أول مرة أرى الرئيس رؤي العين.

كان أقصر مما يبدو في التلفزيون، وأعرض، وأكثر ذكاء ودماثة. يسير وحوله حلقة من كبار مساعديه وسكرتيريه والحراس ووزير أو اثنين، لكنه ينظر لمن يقف وراءهم ويحيي من يراه على مبعدة ويتبادل معه حديثًا ضاحكًا أو ساخرًا. صوته جهوري وحين يتحدث يصمت الجميع. يسير بسرعة وبخطى واثقة وهم يلحقون به ويسبقونه دون أن يضعوا أنفسهم في طريقه. وتحيطه هالة تشبه التقديس. نظر إليّ وهو يعبر أمامنا نحن المترجمين وسأل بصوت عالٍ عمن نكون. رد أحد مساعديه بصوت خفيض: «المترجمون يا فندم»، سأل: «دول من عندنا؟»، فأجابه بالإيجاب فضحك الرئيس ونظر إلينا محذرًا: «خلوا بالكم: إوعوا تترجموا غلط وتضيعوا الدنيا»، ثم سار وحلقة المساعدين تتبعه.

لا أدري كيف أصف لك مشاعري ساعتها: وقع قلبي بين قدميّ مثلما يقال، وظللت طيلة المؤتمر مرتبكًا وعينا لا تفارقان مقعده. كنت أراه من حيث أجلس أثناء الترجمة. أرقبه: يقضي معظم وقته جالسًا بلا حراك. أحيانًا يميل برأسه فيأتيه أحد الوزراء الجالسين خلفه أو رئيس الديوان وينحني حتى يصل لمستوى أذنه ويستمع لما يقوله له، ويومئ، دائمًا يومئ، ثم يذهب. قد يعود بعد قليل وينحني بجواره بنفس الطريقة ويحدثه. عندها يظل الرئيس جالسًا دون حركة كأن أحدًا لا يحدثه، ثم يهز رأسه مرة واحدة وينصرف الرجل. ويواصل الرئيس الجلوس في صمت. كنت مأخوذًا؛ ها هو ذا، رئيس الجمهورية بشحمه ولحمه، على بُعد خطوات. وقد تحدث إليّ من دقائق قليلة. هذا الرجل الذي بيده كل شيء، الذي يرجعون له في كل القرارات، على بُعد خطوات.

تكرر هذا الأمر ست أو سبع مرات خلال هذا العام، ولم يحدث خلالهم أن تحدث إليّ أو حتى لاحظ وجودي، لكن تكرار وجودك في نفس المكان مع الرئيس يمنحك شعورًا بالأهمية والقوة لا يمكنك مقاومته. لأنك تنتقل من حيث كنت لتصبح عضوًا في طائفة الناس الذين يرون الرئيس دومًا، وهي طائفة محدودة العدد جدًّا. قبولك في هذه الطائفة يعطيك تميزًا عن البقية، شئت أم أبيت، وشيئًا فشيئًا تعتاد هذا التميز، ويرتبط شعورك بنفسك وبقوتك باستمرار انتمائك لهذه الطائفة، وطبعًا بالرئيس نفسه. ومثلما سأفهم بعد ذلك، يدفعك هذا الشعور للسعي باستمرار للاقتراب من الرئيس أكثر، كي تستمد لنفسك مزيدًا من هذه الرابطة وهذا

التميز ـ هذه القوة التي تشع داخلك دفئًا حقيقيًّا كما لو كنت تقترب من الشمس. هكذا، رويدًا رويدًا، ينتظم المعاونون والمستشارون والوزراء حول مصدر الضياء في حياتهم.

سألني محمود بشير عن المؤتمر فقلت له إني أحببت العمل فيه، فاقترح عليّ أن أطلب من واسطتي أن ينقلني لإدارة الترجمة الفورية. أبديت اندهاشي من افتراضه أن لي واسطة بالرئاسة فانفجر ضاحكًا وسألني إن كنت أعتقد جديًا أن هناك شخصًا واحدًا في الرئاسة لم يتم تعيينه بواسطة، بما فيهم الرئيس نفسه! تركني ومضى وهو يهز رأسه يأسًا مني. الحقيقة أني أحببت العمل في المؤتمر لدرجة أني فكرت في الذهاب للعميد القطان وطلب مساعدته مثلما اقترح محمود، لكني خجلت. أحببت العمل في المؤتمرات ليس فقط لأنها كانت أكثر إثارة من ترجمة المقالات وإنما لأني كنت أشعر فيها بالأهمية. هذه هي الحقيقة: لو سألتني ساعتها لأجبتك بأني أحبها لأني أشعر بقيامي بعمل هام والمساهمة في شيء مفيد لمصر. لكن الحقيقة كما أراها اليوم أني أحببتها لأنها تشعرني بأني جزء من شيء هام، وما الذي يعطيها الأهمية؟ ذلك الرجل الربعة، العريض، الذي يتحرك ويتحدث ببطء ويتندر على من يحدثهم فيضحك الناس سعداء بسخريته منهم، ويمضي وكل فكرة تومض في رأسه أو شعور ينتابه يمكن أن يتحول لقرار يؤثر على حياتي وحياة الملايين من الناس. هو الذي يجعلها مهمة بمشاركته فيها، وكلما اقتربت منه أكثر كلما زاد شعورك بأهمية ماتفعله.

في آخر العام استجمعت شجاعتي وذهبت لمقابلة العميد القطان وطلبت منه أن يرى إمكانية نقلي للعمل في الترجمة الفورية بشكل دائم، سواء في المؤتمرات أم - إن أمكن - في مقابلات الرئيس.

نظر القطان لي ساعتها وازداد احمرار وجهه وربت عليَّ وهو يبتسم، وكأنه فهم أني انضممت أخيرًا للفريق.

- ٨ -

عندما تعمل مثلي بالحكومة لوقت طويل - لا قدر الله عليك ذلك - تتحول حياتك إلى سلسلة من الأعوام لا الأيام، فتتذكر ما حدث لك عاما بعام، ويتداخل كل ما حدث طوال العام كأنه كان يوما واحدا، يغلب عليه حدث واحد هو الذي يَعْلق بذهنك ويطمس ما عداه. في حالتي أذكر العام الثاني لي في مكتب الرئيس، ١٩٩٣، لا بتوقيع اتفاقية أوسلو ولا بحادثة التفجير الأولى لبرج التجارة العالمي ولا بضرب الرئيس الروسي لبرلمانه بالدبابات، وإنما بفضيحة سالي القصبجي.

كانت سالي مندوبة إحدى الصحف لدى الرئاسة، امرأة ذكية وجذّابة إلى حد ما، لكن الذي ميَّزها هو علاقاتها الواسعة داخل وخارج الجهاز الحكومي. هذه العلاقات جعلت منها مركز خدمات متنقلا، يلجأ إليه مَن لديه حاجة يُضنِيه قضاؤها، ابتداء من تعيين الأقارب في الوظائف حتى تراخيص البناء. لم تكن سالي

تبخل بقدراتها السحرية على أحد، بل تمدّ يدَ المساعدة لمن تعرفه ومن لا تعرفه ما دام لجأ إليها، وبلا مقابل سوى المودَّة، وربما احتاجت إلى هذا الشخص نفسه في يوم ما لمساعدتها على قضاء أمر ما. سالي هذه دخلت في علاقة غرامية مع محمود بشير. هو الذي أخبرني، وعلى الفور حذّرْته من مغبَّة خلط العمل بالعواطف خصوصًا في مكان كهذا، إلا أنه ضحك من حذري ونعتني بالسذاجة وسألني بتهكُّمه المعتاد إن كنت أظنُّنا في جامع. سكتُّ، فلم يكن من طبعي التدخُّل في شئون الآخرين. وليتني تدخلت.

لم يُعرَف عن محمود العفة، بل استقرت سمعته كزير نساء كريم في ذوقه، لا يضطهد أحدا منهن. ولم يُبدِ أحد انزعاجا خاصا إزاء هذه السمعة، بل كان الجميع يتندر على تعدد علاقاته النسائية. ومحمود نفسه كان يأخذ الموضوع بخفة وانطلاق مثل أي أمر آخر في حياته؛ ينتقل من هذه إلى تلك، أحيانا تتركه هذه وأحيانا يفر هو من تلك، ويحكي لي جوانب من هذه القصص بشكل عابر ولا يبدو أن أيا من هذا يؤثر فيه. لكن يبدو أن علاقته بسالي أصابت جانبا في نفسه لم يكن يعلم بوجوده. أحب سالي فعلا، وبإخلاص لا أعرف من أين أتاه، ولكن لا هو ولا أنا أدركنا ذلك في حينه. وبدأت تظهر عليه علامات لم أرَها فيه من قبل؛ أحيانا أجده شارد الذهن ساهما، وأحيانا مبتهجا مشرقا، وأحيانا مغلقا لا يرد. حتى إنني أنا الخجول فاتحته في تغيُّره وسألته إن كان قد وقع في الحب الذي تفاداه كل هذه السنوات، فلم يحر جوابا مفهوما.

ثم وقعت الواقعة. اكتشف محمود أن سالي على علاقة بأحد كبار العاملين بالرئاسة في نفس الوقت الذي كانت تبادله فيه الغرام. وأقول لك إنه لا شيء أقسى على الرجل من مثل هذا الاكتشاف. هكذا الرجال مضحكون يا بني: يتصورون جميعا استحالة تعرُّضهم للخديعة من نسائهم، مع أنهم لا يكفون عن إغواء السيدات. هل يسألون أنفسهم كيف يمكن - حسابيا - أن تقع كل هذه الخيانات ويظلوا هم بمنأى عنها؟ لا، لا يسألون أنفسهم عن هذا، مثلما لا يسألون أنفسهم عن كل ما يسوءهم معرفته. كانت صدمة محمود بشير في سالي مروِّعة، ولا تتفق إطلاقا وتورطه المتكرر مع سيدات متزوجات برجال لا يقلون عنه شأنا ولا ذكاء. حاولت سالي الإنكار لكن الدليل كان دامغا، فاعترفت وبكت مقسمة إنها تحبه، وحكت له قصة معقدة عن علاقتها القديمة بهذا المسئول والتي كانت قد توقفت حين تَعرَّفت إلى محمود، لكنها عادت في فترة كانا فيها غاضبين كلاهما من الآخَر، أو شيء من هذا القبيل. المهمّ، لم يكتفِ محمود بقطع علاقته بها، بل ذهب إلى الشخص الآخر في مكتبه وضربه. وهكذا بدأت الفضيحة.

ولم تتوقف هنا. المشاجرة غير المسبوقة في تاريخ الرئاسة أدَّت إلى تحقيق، ومع كل يوم يمر يتضح بُعد جديد لعلاقات سالي القصبجي. وظهرت تسجيلات مصوَّرة، ووقعت وشايات مدمِّرة، وتحولت الفضيحة إلى كرة من النار تجري في الرئاسة كلها، حتى صدر القرار باستئصال كل ما يتعلق بها. وهكذا طارت كل الرءوس المتورطة في شبكة علاقات سالي المريبة، وأولهم طبعا محمود

بشير الذي طُرد. رأيته في آخر يوم له في المكتب وراعني إلى أي حد تغير؛ كان حطامًا لا يشبه الشاب الضاحك المنطلق سريع البديهة والحركة الذي عرفته. سألته عما سيفعله فلم يُبدِ اهتماما، وبعد صمت طويل أسرَّ إليّ بأن ما يمزِّق قلبه فعلا ليس الطرد والإهانة، بل فقدان سالي. ثم رحل، وتم التنبيه عليّ أن لا أتصل به بعد ذلك.

فضيحة سالي القصبجي كان لها توابع مباشرة على عملي. فقد اتصل بي العميد القطان ودعاني إلى العشاء ببيته. استغربت الدعوة، فهذه أول مرة يفعلها، ولم تكن علاقتنا بهذا القرب، كما أنه لم يدعُ أبي أو أحدا غيري. ذهبت طبعا، متأنقا، وحاملا باقة من الزهور أوصتني بها أمي. فتحَت لي البابَ شابة في السابعة عشرة تقريبا، وحين سألتها مرتبكا عن العميد القطان ابتسمت وأدخلتني إلى الصالون. لم أعرف ماذا أفعل بباقة الزهور فأعطيتها إياها، وهي ارتبكت بدورها ووقفت ممسكة بها. ثم غادرت الصالون... وظهر القطان بعدها بدقيقتين خِلتُهما دهرا. في ذلك المساء عرَّفَني إلى ابنته؛ ندا، تلك التي فتحت لي الباب وتسلمت أزهاري بالصدفة، والتي صارت، بعد هذا العشاء بسنوات، أمك. عرَّفني أيضا إلى زوجته. وبعد التعارفات السريعة اختفت البنت وأمها وظللت أنا مع العميد. سأل عن أخباري ثم انتقل سريعا، قبل أن أجيبه، للحديث عن المكتب. أبلغني إعجاب رؤسائي وزملائي الأقدم بنشاطي واجتهادي والتزامي، وتنبُّئهم لي بمستقبل واعد. وأشار إليّ أن الأزمة الأخيرة ـ صارت تلك هي التسمية المتعارَف عليها لفضيحة

سالي القصبجي المدوِّية ـ قد يكون لها جانب إيجابي حيث شغرت أماكـن عديـدة مـن بينها مـكان فـي الترجمـة الخاصـة باجتماعات الرئيـس ويمكـن إن حالفني الحظ أن أُنقَل إليهـا كما طلبت منه منذ شهور. بدا لي الأمر مضحكا وأنا أتساءل عما إذا كانت كل الأماكن التي شـغرت لعشـاق سـالي السـابقين، وأحـاول تخميـن عددهم. تمالكت نفسـي واحتفظت بالجدية اللازمـة، والعميد القطان الذي يحمرّ وجهه كلما تكلّم أصبح منفعلا تماما وهو يتحدث عن احتمال تغيير منصبه هو شـخصيا والانتقال من الحراسة إلى عمل مدني في السـكرتارية الخاصة. دخلت نـدا لتدعونا إلى المائـدة فانتقلنا إليها مع بقية الأسـرة. تبادلنا أحاديث عامة عن الأحوال في أثناء الطعام، وسـألتني زوجتـه بلطـف عن حياتنـا في بكيـن، ثم انتقـل الحديث إلى ندا التي كانت في البكالوريا الفرنسـية، وسـألني العميد القطان بغتة إن كنت أعرف الفرنسـية فنفيت، فـأردف بجدِّية أنه يجب عليّ تعلُّمها. بعد العشـاء عدنا إلى الصالون لاسـتئناف الحديث. ذكَّرَني بضرورة تحسـين علاقتي الاجتماعية بالزملاء والرؤساء بالمكتب، وتنفيـذ ما يُعهَـد إليّ دون اقتراحـات وتجنُّب الفُتْيـا إلا حين تُطلب وعدم الإسـراف فيهـا إن طُلبت، وعدم الحديث عـن عملي إلا إلى رئيسـي المباشر، وتجنُّب فعل أي أمر في السر أخجل منه لو عُرِفَ، وعـدم التدخل فيما لا يعنينـي، والبحث عن زوجة ملائمة، ومراعاة الأدب واحترام مَن هم أقدم مني أو أكبر سـنّا وتقديم ذلك على أي اعتبـار آخر. وختم بالتنبؤ لي بمسـتقبل باهر إن اتبعت هذه النصائح السبع. ثم قام واقفا إيذانا بانتهاء عشائنا.

حزنت لِمَا جرى لمحمود، وأردت الاطمئنان عليه رغم التحذير الواضح الذي صدر لنا بعدم الاتصال بأي من المفصولين. فكرت في الاتصال به من المنزل لكني ترددت خشية أن يكون تليفوني مراقَبا. وتذكرت نصيحة القطان. وبينما أتردد وأفكِّر دخلَت عليّ المكتب فتاة سمراء ممشوقة القوام ومبتسمة. عرَّفتني نفسَها: عفاف، عاملة سويتش التليفونات (هذا اختراع آخر انقرض ولم تعاصره أنت)، وأردفت بصوت خافت أن الأستاذ محمود يُهدِيني السلام. نظرت إليها في هلع، لكن ابتسامتها اتسعت وطمأنتني أن هذه رسالة خاصة، فهو لم يتصل بالمكتب أو شيئا من هذا القبيل، وإنما قابلته عند مقهى بشارع فيصل وهي عائدة إلى بيتها فطلب منها إبلاغي السلام. ظللت أحدق إليها دون رد، فلم أعرف بمَ أردّ؛ خشيت أن يكون كلامها فخّا فلم أُرِد التورُّط بشيء، وخشيت أن يكون حقيقيّا فلم أُرِد ردَّها. ولما طالت نظرتي وأيقنَت أني لن أتكلم هزّت رأسها في ابتسامة مستغرِبة ومتهكمة في نفس الوقت، وقالت لي أن أتصل بها إن احتجت إلى إبلاغه بشيء، ولما لم أردّ على ذلك أيضا رفعت يدها بالتحية وقالت لي إنها عائدة إلى غرفة السويتش.

ثم عادت سالي القصبجي. اختفت عدة شهور، ثم عادت للظهور، في التلفزيون هذه المرة. وفي خلال أسابيع قليلة أصبحت من أهمّ الوجوه الإعلامية على الشاشة. وانتابتني حالة عميقة من عدم الفهم. لم يكن لديّ أصدقاء في الرئاسة بعد رحيل

محمـود أو حتى زملاء يمكننـي الحديث معهم عن هذه المسـائل، فكلهـم يتبعـون نصائـح القطان السـبع. فكرت في سـؤال الأسـتاذ مرتضى ـ رئيسـي المباشر ـ لكني تراجعت، فقد كان قرار نقلي على وشـك الصدور ولم أُرِد اقتراف أيّ أمر من شـأنه تعطيل هذا النقل. ولم أستسغ الاتصال بالعميد القطان لأساله. وظل الفضول يقتلني: كيـف عُوقِـبَ كل من كان على صلة بسـالي في حيـن نَجَت هي من العقاب، بل وتحسـنت أحوالها؟ وفي النهايـة تَغلّب عليّ الفضول، ولعلّـي أيضا أردت اختبار عفاف، فاسـتدعيتها إلى مكتبي وسـألتها عن شـيء تافـه يتعلق بالتليفونات والفاكس، ثـم تطرقت عَرَضا إلى عودة سـالي للظهور سـائلا إياها إن كانت قد شاهدتها على الشاشة فأكدت أنها تتابع برنامجها كل ليلة. تشـجعت وسـألتها كيف نجت هي في حين عوقب الباقون فرَمَتني بنظرة مَن لا يعرف إن كان محدِّثه عبيطـا أم يتظاهـر بالعبط. سـاد صمت لحظـة فاسـتأذنَت منصرفة، وهمسـتُ لهـا وهي تهمّ بالخروج أن تبلغ سـلامي إلـى جيرانها في شـارع فيصل. فالتفتـت إليّ وقالت مازحة إنها لا تسـكن في فيصل بل في أرض اللواء. سـألتها بصدق: أي لـواء؟ فرَمَتني بنفس النظرة وخرجت دون أن ترد.

- ٩ -

تم نقلي في مطلع ١٩٩٤ كما وعدني العميد القطان، واستقرت سمعتي بالرئاسة كموظف كتوم وكفء، يُعتمد عليه ولا يتدخل فيما لا يعنيه ومُخلِص. أحيانا أحضر مقابلات الرئيس لأدوّن محضر الجلسة ـ تحت إشراف سكرتير الرئيس للمعلومات ـ وأحيانا أقوم بدوري الأصلي كمترجم فوري في لقاءات الرئيس. أول اجتماع حضرته كان بين الرئيس ومسئولي الاتحاد الأوربى. حذروني من النظر إلى الرئيس في أثناء الاجتماع، وطبعا من الإتيان بأي صوت أو حركة. جلست في أبعد مقعد ممكن عنه لكني لم أتمالك نفسي واختلست النظر إليه عدة مرات. في إحدى هذه المرات لمحني وشعرت كأنه يزجرني بنظرته فانكمشت وعدت إلى أوراقي.

ولأني جلست بعيدا عنه، وظللت مشغولا بمسألة النظر إليه، لم أتمكن من متابعة ما يقوله الضيوف بما يكفي. كذلك فإن المسئول الأوربي كان خافت الصوت ويتحدث بلكنة إسبانية تتداخل مع نطقه للإنجليزية بشكل صعّب عليّ تمييز ما يقول. كدت أموت من الرعب والوقت يمر وأنا أدرك أني لم أدون شيئا من مناقشاتهم. لم يكن الرئيس يقول شيئا ذا بال، إذ انصبّ معظم حديثه على تأكيد ما يقوله الضيف وتعديله في بعض الأحيان أو الإضافة إليه بتكرار عبارة: «ومن هنا أهمية تنشيط الدور الأوربي». كتبت ما استطعت التقاطه، ومن حين إلى آخر أنظر إلى سكرتير الرئيس للمعلومات وفرائصي ترتعد. بعد نهاية الاجتماع أمسكني السكرتير من يدي

وسألني وهو ينظر في أوراقي عما كتبت. تلعثمت، ثم اعترفت له بأني لم أسمع أو أفهم شيئا مما قاله الضيف، وانتظرت الصاعقة التي ستحلّ عليّ... لكنه ضحك بصوت عالٍ وهو يربت على كتفي وقال لي أن لا أنزعج فهذا الرجل لا يقول شيئا ذا قيمة أصلا، ولا أحد يميز ما يقوله بمن في ذلك زملاؤه الأوربيون. ووسط ذهولي أمسكني من يدي وسار بي وهو يؤكد عليّ أن أجلس في المقعد القريب من الرئيس في المرة القادمة ولا أخشى شيئا، فهو مقعد مخصَّص لكاتب الجلسة أو المترجم، وطلب مني أن أمر عليه في مكتبه بعد ساعة ليُملِي عليّ شيئا أدوّنه كمحضر للجلسة الهلامية التي حضرناها.

لا أقصّ عليك تفاصيل هذه الجلسة كي أسلّيك، ولا لأن الذكريات تعاودني بشدة الآن وأنا جالس في هذه السفينة الصامتة أنتظر المواجهة الآتية، لكن أقص عليك ذلك كي أفهمك أمرا لم أقله لأحد من قبل، ولو قلته لأحد لما صدقني ولظن بي الظنون. في البداية ظننت أن هذا الاجتماع الفارغ من أي مضمون هو حادثة مؤسفة ضاع فيها وقت الرئيس هباء. وبعد عدة اجتماعات مشابهة، ظننت أنهم يأتون بي للاجتماعات التي لا يُرجَى منها فائدة، وحين توثقتْ صلتي بسكرتير الرئيس للمعلومات بما يكفي علقت بعد أحد هذه الاجتماعات أن الزوار أضاعوا وقت الرئيس دون فائدة، فرد عليّ باستنكار أن الاجتماع كان جيدا جدا ومثمرا! صُدمت وقتها، لكن كلما مرت عليّ الشهور ثم السنوات تَعمَّق إدراكي لعبث معظم هذه الاجتماعات. لم أرَ طائلا من ورائها سوى

تصويرها وبثها على القنوات، والإعلان عن المناقشات التي تَمَّت فيها، والأوهام التي تثور في أذهان الناس عن أمور خطيرة لا بد أنها نوقشت فيها، ثم الاتفاق على زيارة أخرى أو اجتماع تالٍ، دون أن يتم شيء لا في الاجتماع الأول ولا في ذلك الذي يتم الاتفاق على عقده. ومن اجتماع إلى اجتماع، ومن مؤتمر إلى مؤتمر، تعيش القضايا وتستمر، تتدهور أو تتحسن حسب نصيبها، دون أن يكون لأي من هذه الاجتماعات أثر يُذكر سوى الإيحاء بأن جهدا يُبذل ومشروعات وخططا تُنَفَّذ.

كانت تلك صدمتي الكبرى. لم يخطر على بالي أبدا أن يكون الأمر هكذا. حضرت اجتماعات مع رؤساء دول وحكومات حوض النيل، واحدا تلو الآخر. يقول الضيف كلاما جميلا ويقول الرئيس كلاما جميلا، ويحومان حول الموضوعات التي يختلفان عليها، ثم يتفقان على مواصلة الحوار حول تلك الموضوعات، ربما بين الوزراء أو مبعوثين لهما أو بينهما في لقاء لاحق في مكان سيتوجهان إليه هما الاثنان. وينتهي اجتماعهما الهامّ، وتطنطن وسائل الإعلام بتكهنات عما تم في هذا الاجتماع، ويخرج المسئولون مبتسمين أو متجهمين حسب الحاجة، ويلتقطون عدسات الكاميرات، ويتمتمون بعبارات مطَّاطة تُوحِي بالغموض الخطير وتُخفِي الفراغ. ثم يلتقي الرئيسان ثانية، ويُعِدّ سكرتير المعلومات ملخصا للرئيس بما «تمّ» في الاجتماع الذي سبقه، وهو في معظمه اتفاقات على اجتماعات أخرى، وما دار في تلك الاجتماعات الأخرى، ثم لا شيء سوى مناقشات ودية ودوران حول الخلافات والاتفاق

على اجتماعات بعدها. أين تتم الأشياء إذن؟ أين تحدث؟ أين تُعقَد الاتفاقات أو الصفقات؟ لم أقابلها في أي من هذه الاجتماعات. حتى الاتفاقيات التي يتم التفاوض عليها تبدأ بأفكار كبرى وتنتهي بصياغات ملتبسة تُخفِي الخلاف بين أطرافها أكثر مما تجمعهم على عمل حقيقي. في السنوات الأولى عزّيت نفسي بأن هذه لا بد واجهة لشيء آخر عميق يتم في مكان آخر عميق.

واصلت الترجمة وكتابة محاضر الجلسات. اقتربت بمقعدي من مكان الرئيس كما قيل لي والتزمت بالتعليمات بعدم النظر إليه أو الإتيان بصوت أو حركة في أثناء الاجتماع. وحين ظهر الصينيون، لأول مرة منذ التحقت بالعمل في الرئاسة، خفق قلبي كأني أقابل أصدقاء قدامى. وكما كان الحال أيام إقامتي في الصين انبهر المسئول الصيني الكبير بإتقاني اللغة، وأثنى عليّ - بالإنجليزية - مباشرة للرئيس. لكن يبدو أن ذلك قد ضايق الرئيس بدلا من أن يعجبه، فانكمشت في جلستي أكثر وظللت أحدق إلى الأوراق التي أكتب فيها. كانت تلك السنة هي موعد تجديد اتفاقية حظر الانتشار النووي، وكان لمصر موقف فيها أصبحت بسببه محط الزيارات الدولية. وأذكر أني كتبت وترجمت في هذا العام وحده مقابلات واجتماعات أكثر من بقية الأعوام مجتمعة. وتعلمت كثيرا عن الموضوعات النووية وتفاصيلها. لكن، في هذا الموضوع مثلما في كل الموضوعات، لم يكُن هناك سوى مناقشات واجتماعات وتربيطات حول اجتماعات ومناقشات أخرى، وانتهى الأمر كله بلا شيء. ووقَّعت مصر على تجديد الاتفاقية دون الحصول على ما أرادت.

بنهاية عام ١٩٩٥ أُحِيلَ جَدُّك إلى التقاعد. وشعرت على الفور بحمل يقع على كتفي، كأني أصبحت مسئولا عن الأسرة بشكل ما. لم يكُن لهذا الإحساس أساس واقعي، فمعاش أبي وأملاكه ظلت مصدر دخل الأسرة، ولدى أبي مشروعات عمل في القطاع الخاص ينوي البدء فيها. وصفية متزوجة وهانئة أو على الأقل هادئة مع ضابط المدفعية زوجها وأبي ابنتها ياسمين ذات العامين. وعمر الذي استقرَّ بإيطاليا على وشك الزواج بفتاة قابلها هناك من أصل فلسطيني (واستسلمت أمي، عكس موقفها أيام داو مينج، ولم يعترض أبي لدرجة منعه من الزواج بهذه المرأة المجهولة لنا). ومع أن عمر هو الابن الأكبر لا أنا، فإني شعرت بالمسئولية عن العائلة وبأن تقاعُد أبي يبدأ مرحلة جديدة في حياتنا ستعتمد في كثير منها عليّ. ثم بدأت أمي تتحدث عن ضرورة التفكير في زواجي. كنت في الخامسة والعشرين، ولا رغبة لي في فتح هذا الموضوع، خصوصًا مع أمي. لكنها لم تتوقف، بالطبع.

نسيت أن أقول لك إن عزالدين فكري كان قد أرسل إليّ خطابا يحدِّثني فيه عن نظام إلكتروني للتراسل وعن شيء اسمه «الإنترنت»، في عام ١٩٩٣. واستغرق الأمر عامين حتى وصل إليّ الاختراع، وكنت من المحظوظين، حيث لم تكن الخدمة عندئذ متوفرة إلا من خلال الجامعة ومجلس الوزراء. تَصوَّر! تَطلَّب الحصول على بريد إلكتروني مجلس الوزراء شخصيّا! المهم، بحلول ١٩٩٥ كنا نتراسل عن طريق البريد الإلكتروني، وقد قلل هذا الأمر كثيرا من وحدتي ومن أثر غياب الصداقة في حياتي، إذ أعاد إليّ صديقي

التوأم بشكل من الأشكال. فبدلا من الخطابات الشهرية أصبح باستطاعتنا تبادل الرسائل كل يوم تقريبا، وهكذا عدت مرة أخرى إلى حياة عزالدين وعاد إلى حياتي، إلا، بالطبع، ما يتعلق بعملي. أوشك عزالدين على إنهاء رسالة الدكتوراه التي يعكف عليها؛ بقي له عدة شهور من البحث وأخرى للكتابة. وكانت درجاته كلها ممتازة، وقدم عددا من الأبحاث في مؤتمرات علمية عديدة في كندا والولايات المتحدة، وخاطبه أساتذته في إمكانية بقائه للتدريس والبحث بكندا إن شاء. تناقشنا في الأمر لعدة أسابيع وذكَّرني ذلك بأيامي الأخيرة في بكين؛ كم كان الأمر ليختلف لو أتيح لنا البريد الإلكتروني وقتها! المهم أن عزالدين رفض هذه العروض وقرر العودة إلى مصر فور انتهائه من الدكتوراه، في العام التالي، مع أنه لم تكن لديه وظيفة تنتظره في مصر. والأهمّ من ذلك أنه قابل فتاة أعجبته، على حسب وصفه، وإن كنت قد شممت رائحة الحب من حديثه عنها لكنه رفض التصريح بهذا. وظلّ شهورا يحدِّثني عنها ويتردد بشأنها، ثم قطع علاقته بها قبل أن تتطور إلى حب، كما قال، لأنها لن تصلح للحياة معه في مصر. هكذا، بقرار، قطع علاقته بها وتوقف عن رؤيتها أو الحديث معها وحتى عن ذكرها لي. هذا هو عزالدين الذي أعرفه: بلا قلب.

لكني لست في صرامته. ورغم النصائح السبع للقطان، وحذري وتردُّدي الطبيعيَّيْن، وذكريات داو مينج وشعوري بالخيبة والصغر، فإني لم أستطع منع نفسي من الاهتمام بعفاف؛ موظفة التليفونات السمراء الهيفاء، التي تأخذ انتباهي كله حين تسير في الممر أمام

مكتبي، وتربكني بالكامل حين تدخله لتُبلِغني بأمر ما. وتَحوَّل السؤال عن محمود بشير المطرود من كونه الهدف الخفيّ لحديثي معها وتودُّدي إليها، إلى تُكَأة كي تمر عليّ وأراها.

ثم تطورت الأمور بسرعة.

- ١٠ -

كنت خارجا من المكتب بعد يوم عمل طويل متوجها إلى المنزل، ومع أن منزلنا يقع على بعد خمسمئة متر من المكتب فإني كنت أتنقل بينهما في سيارتي الصغيرة، لا تسألني لِمَ. خرجتُ من المكتب إلى شارع الخليفة المأمون وكانت الساعة تشارف على التاسعة حين لمحتها واقفة على الجانب الآخر من الطريق. اضطربتُ حين رأيتها: لم أكن أعرف ماهية مشاعري إزاء عفاف؛ ليست حبا، ليست مثل مشاعري أيام داو مينج، بل شيء آخر لم يتحدد بعد. أريد القرب منها، والبقاء معها، ولو لم نقُل شيئا. حين تظهر تملك عليّ حواسّي كلها: تسيطر حركتها على انتباهي، ووقفتها، وجلستها، ومشيتها. كل شيء يتعلق بها يهزّني. ليس حبا، بعد، لكن سَمِّهِ افتتانا. لم يحدث لي أن فُتنت بامرأة بهذه الطريقة من قبل، ولم أدرِ ماذا أفعل. لكنني حين أراها أقع تحت تأثير اللحظة وأصبح أكثر قابلية للمغامرة، وهذا أيضا جديد عليّ. عبرت بسيارتي ناحيتها وتوقفت أمامها مدعيا أني ـ لمحاسن الصدف ـ ذاهب

لزيارة أصدقاء لي في ميدان الجيزة، وعرضت توصيلها. ابتسمت وركبَت، وأصابني شيء بمجرد جلوسها بالسيارة بجواري، كأن وهجا يصدر منها.

كان الطريق طويلا ولا أعرفه جيدا، فأنا لا أذهب إلى هذه المناطق مطلقا، ولا أحسبني عبرت شارع السودان من قبل. وبين اضطرابي من القيادة في طرق مجهولة وشعوري بوهج يلفحني من هذا الوجود الطاغي بجواري دخلت في حالة من الاضطراب العامّ المصحوب بجرأة غير محسوبة. كأني ثمل قليلا. تَولّت دفة الحديث فتجاوزتُ ترددي التقليدي، سألتني عن أسرتي ومن أين أتيت وأين تعلمت وما إلى ذلك، وراعني إلى أي مدى كانت قصتي قصيرة وغير مثيرة! سألَتني عن البنات في الصين فلم أقل شيئا، وأظن أنّ وجنتيَّ احمرّتا؛ على الأقل هذا ما اتهمَتني به. ثم بدأت هي تحكي قصتها دون سؤال مني، ثم تتوقف لتسألني إن كانت تُضجِرني. لم تُضجِرني البتة، بل أذهلتني بعالمها الذي لم أكن أعرف عنه شيئا، تقريبا.

عفاف تعيش مع أمها وأخيها وأختها في شقة صغيرة ببيت متواضع من ثلاثة أدوار في أرض اللواء. أبوها المتوفَّى كان صولا في الجيش، وعمل سائقا لأحد القادة حتى بلوغه سن المعاش، ومن خلال هذا القائد وجد لها وظيفتها في الرئاسة عندما تخرجت في المعهد التجاري. ضحكت وقالت إنها أكثر أفراد العائلة نجاحا. فأخوها حسن الذي أنهى دراسته بأحد المعاهد عاطل عن العمل

منذ ثلاث سنوات، وأختها ميرفت ما زالت في المدرسة الثانوية وتشقُّ طريقها بخطًى أكيدة نحو الانحراف. جفلْتُ، ولاحظَت انزعاجي فأردفت ضاحكة أنها تمزح، فالبنت ما زالت في الرابعة عشرة، لكنها لا ترى عليها اهتماما بشيء غير الأولاد وجمالها، وتكاد ترسب كل عام لولا تدخُّلات الأسرة بالهدايا والرشوة المقنعة في صورة دروس. سألتها عن أمها فقالت إنها ست بيت، لكنها اضطُرت إلى العمل بعد تقاعد أبيها لأن المعاش لم يكن من الممكن أن يوفي باحتياجاتهم، ولأنها ست بيت بلا أي مؤهلات فقد عملت بعض الوقت في تنظيف البيوت وأيضا في عمل الجبن والزبادي وبيعهما. مالت عليّ ضاحكة وهي تتصنع الجدية وقالت إنها قد باحت لتوّها بسر الأسرة الكبير، فقد ظلّت أمها تُخفِي موضوع التنظيف بالبيوت هذا عن الكل، خصوصا الجيران، بل إن حسن نفسه لم يعرف به إلا متأخرا في خناقة مع أمه بسبب النقود. أما الزبادي والجبن فقد كانت الأم تبيعهما في الشارع لكن الفتوّات الذين يسيطرون على الحي طردوها بعد أن رفضت زيادة «الأرضية» التي تدفعها لهم كل شهر. وانتهى بها الأمر إلى أن تعمل لحساب أحد محلات الألبان من الباطن. لم يعِش الأب طويلا بعد تقاعده، وبعد وفاته كان مرتب عفاف قد تَحسَّن، فتوقفت الأم عن العمل في البيوت كي تعتني بحسن وميرفت، وإن استمرت في بيع الجبن والزبادي من خلال محل الألبان المجاور.

لم أعرف ماذا أقول ولا كيف أردّ. لِمَ تحكِ لي كل هذه الأمور الشخصية؟ وكيف تحكيها بهذه البساطة؟ لم يبدُ عليها أنها متأثرة

أو تشعر بأن هذه الحياة معاناة من نوع خاص، بل على العكس، كانت تضحك وسط القصة، على نفسها وأهلها وأحوالهم. أما أنا فلم أعرف أحدا مثلها من قبل. لم أعرف أحدا رسب في المدرسة، أو ذهب إلى مدرسة فنية أصلا. وعمري ما أخذت درسا خاصا، أو ورد بخاطري أن المدرس أو الناظر يمكن رشوته. كان لي زملاء فقراء في المدرسة وفي أولى سنوات الجامعة، لكن لا شيء مثل هذا الذي تحكيه. كما أن اختلاطي بالآخرين ـ فقراء كانوا أم أغنياء ـ كان محدودا. عشت في بيتنا بالمنصورة ثم بمدينة نصر ثم بكين ثم روكسي دون التوغل في حياة الناس الأبعد عن دائرتي المباشرة، وفي دائرتي المباشرة لم يكن هناك شيء كهذا.

استجمعت شجاعتي، أو لعله تأثير الوهج وقصتها، وسألتها عن الحب. أجابت وهي تضحك أنه لا يوجد أكثر منه في حيّها، ولما أبديت دهشتي قالت لي أن لا أصدق المظاهر، فخلف كل أمرٍ أمرٌ مختلف، والناس يفعلون كل ما يريدون في كل ظرف، لكن الفارق الوحيد هو درجة الإخفاء والتنكر التي يلجئون إليها. ارتبكتُ وأردت الخروج من هذه النقطة فسألتها عن الزواج، زواجها هي، فضحكت أيضا وسألتني أي نوع من الرجال سيتزوجها: صاحب محل الألبان أم الفتوة الذي يجمع الأرضية كل شهر؟ وكيف ستتزوج؟ وأين؟ قلت أشياء بلا معنى محدَّد فهزت كتفيها وقالت لي أن لا أُتعِب نفسي في التفكير، فهذا كله نصيب. ثم انتقلت للحديث عن محمود بشير وكيف اختفى من المقهى الذي كان يرتاده، وأنها سألت عنه ولم تستدلّ على مكانه. ثم انتقلنا إلى موضوعات أخرى لم أكن

أتابع ما تقوله فيها جيدا، إذ انصبّ تركيزي كله على محاولة تبيُّن الطريق في الأدغال التي قادتني إليها، وتفادِي دهس أي من الأطفال المتناثرين في الشوارع الضيقة التي نمر منها، والترعة، والحفرة، وبقية تضاريس المنطقة. وفي وسط الغابة الأسمنتية بالضبط، عندما فقدت الاتجاه بالكامل وبدأت أسأل نفسي إن كنت سأخرج من هنا، طلبَت مني أن أُنزِلها لأنها ستأخذ ميكروباص إلى بيتها!

ظللت أفكر في عفاف وما حكته لي في أثناء رحلة البحث عن طريق الخروج من هذه المتاهة. جفلتُ من المنطقة، وشكل الناس فيها، وطريقة سيرهم في الشارع، ومن حكايات عفاف. لكن في نفس الوقت زادتها هذه الحكايات فتنة. كأنها تفتح لي طاقة لمصر التي لا أعرفها والتي أقرأ عنها في الكتب. قلت لنفسي هذه هي مصر الحقيقية، لا مصر الخشب التي أعيش فيها. لكني تنفست الصعداء وشعرت أن روحي رُدَّت إليّ حين عبرت شارع السودان نحو المهندسين، كأني أفقت من حلم غير آمن.

...

ما حدث في اليوم التالي أذهلني...

عندما عدت إلى المكتب من راحة بعد الظهيرة استدعاني العميد القطان، الذي أصبح الآن يعمل في السكرتارية الخاصة. وجدته ثائرا ووجهه أكثر حمرة من أي وقت رأيته فيه. انفجر فيّ حين رآني، ناعتا إياي بالاستهتار وعدم المسئولية، ومعربا عن صدمته العميقة فيّ، على كل المستويات. سألني مستنكرا كيف فعلتُ هذا، كيف

بلغت بي الحماقة وقلة العقل أن أوصّل عاملة التليفون إلى منزلها فيّ آخر الدنيا نهارا جهارا! حاولت التذرع بأنها كانت صدفة فنظر إليّ باستياء وازداد غضبه أكثر وهو يصرخ في إن كنت أظنه مغفلا. وظل يصبّ عليّ جامَ غضبه وأنا أسأل نفسي كيف عرف! هل يراقبونني أم رآنا أحد بالصدفة؟ أغيب في تساؤلاتي وأعود لأجده ما زال يصرخ في وجهي. لامني على سوء التقدير، خصوصا بعد حادثة سالي القصبجي، موضحا أنه أنقذني بالعافية من الطرد هذا الصباح. وذكّرني بأني محسوب عليه وما أفعله يؤثر على سمعته هو شخصيا. وحتى بغضِّ النظر عن هذا، كيف أنحدر، أنا الذي يأتمنني رئيس الجمهورية على المشاركة في أكثر اجتماعاته سرية، إلى مثل هذا المستوى؟ «عاملة تليفونات؟ وأمها بتبيع جبنة؟»، مضيفا أني إن كنت أجهل حساسية منصبي وعملي ومركزي فلعلّي لا أستحقه. كما هدَّدني بإطلاع أبي على فعلتي الشنعاء، لكنه لن يفعل حرصا على صحته. هدَأَت حمرة وجهه تدريجيا، وبدأ يستعيد هدوءه، وحثّني على التفكير جدّيا في الزواج، ومن أناس يليق بي مصاهرتهم. ثم صرفني من مكتبه بعد أن جعلني أتعهد أن لا أعود لمثل هذا الأمر أبدا.

عدت إلى مكتبي والحرج يغطيني، كأن كل من ينظر إليّ يعرف بأمر رحلتي المسائية إلى أرض اللواء المجهول الاسم، وعيناه تقولان لي باستخفاف: «عاملة تليفونات؟!». انتظرتُ أن أرى عفاف لأعرف إن كان أحد قد قال لها شيئا، لكن شخصا آخر ردّ علي حين اتصلت بالسويتش، ولم أجسر على السؤال عنها. ولم

تـأتِ هي إلى مكتبي، ولـم أرَها في الأيام التاليـة كذلك. ثم علمت أنهم نقلوها في نفس يوم استدعائي من قِبَل القطان إلى وحدة إدارية بمحافظة الجيزة.

- ١١ -

مرَّت ثلاث سـاعات وما زلت في أول الحكاية؛ أريد الاختصار لكن التفاصيل تناديني أن لا أتركها. من سـيحييها إن لم أذكرها لك هنـا؟ لكني لو قصصت عليـك كل ما أريد فلن أقصّ عليك ما أريد. عليّ الإسـراع. السـاعة الآن تقترب من السـابعة، وصـوت الحركة علـى ظهر السـفينة يتزايد. قلت للواء المنيسـي إني سـأظلّ بقمرتي معظم الوقت لأني مُتعَب من البحر، سـأذهب لأحضر قهوة وشـيئا آكُلُه ثم أعود.

هـا أنـا ذا. قابلـت اثنيـن مـن البحـارة الآسـيويين عنـد المطعم وحيَّياني بأدب شـديد. ليسـا صينيَّين لكني لم أسـتطع تبين هويتهما بالضبـط؛ ربمـا مـن منغوليـا. لا يعرف هـذان المسـكينان أنهما لن يكمـلا رحلتهما بسـببي، بل سيُسـحَبان بعد أقل من أربع وعشـرين ساعة إلى ما لم يكن في حسبانهما، وبسببي أنا.

أيـن كنـت فـي حكايتـي؟ نعـم، نُقلَـت عفاف مـن الرئاسـة، ثم اسـتقرت أمـوري فـي المكتب دون مغامـرات، ولـم أرَ عفـاف ثانية إلا بعـد سـنوات طويلة تغيرت فيهـا حياتي بالكامل. فـي هذا العام

عـاد صديقي عزالدين فكري مـن كندا. كنت أترقب عودته من أجل استعادة حياتنا القديمـة، وأخطط الأوقات التي سنقضيها معا، بل جـال بخاطـري أن نقيـم معا فـي منزل واحـد. استأذنت من عملي وذهبت لمقابلته في المطار، ووجدته كما هو تقريبا، لكن أكثر أناقة. كان لقاؤنا حارا مليئا بعناقات وربتات على الكتف وابتسامات تقول أكثر مـن الكلمات القليلـة التي تتناثـر بيننا. أخذته مـن المطار إلى مطعم في الكوربة وتناولنا غداءنا معا. حدثني عن مناقشة الدكتوراه وإطراء اللجنة التي ناقشته على قيمتها وتوصيتهم له بنشـرها، وعن أفكار كثيرة حول التعليم الجامعي في مصر وضرورة تطويره بحيث يستفيد من التقـدم الـذي أحرزته جامعـات العالـم، وحـول طريقة تعيين وتدريب وترقية الأساتذة والباحثين، وإدماج الطلبة في عملية البحث مبكرا، وتمويل التعليم العالي من المجتمع ودعم استقلاله، وضـرورة بلورة علـوم اجتماعية من منظور عربـي بعيدا عن الهيمنة العلميـة لمجتمعات الشـمال، دون قطيعة أو عـداء معها، وكيف أن بداية ذلك هي تدريس النظرية لأنها هي الأساس الذي يشكِّل العقل ويفتـح ملكات النقد لدى الطلبة ومن ثَمّ يجعلهـم قادرين على خلق وإنتـاج العلـم لا نقله فقط. كنت أبتسـم بيني وبين نفسـي؛ أين يظنّ نفسـه؟ لـم أصارحه برأيي هـذا، واكتفيت بهز الرأس فـي انتظار أن يكتشف بنفسه ما ينتظره؛ هل نسي جامعة القاهرة التي تخرج فيها؟

تركتـه ينهـي ملخـص أحلامه هذا ثـم حدثته عن أفـكاري حول السـكن، فضحك مـن اقتراحي بأن نسـكن معا، وحدثني عن شـقة اسـتأجرها في حـي الزمالك من أحد معارفه. خيّـب ذلك أملي؛ لم

يكتفِ باستبعاد فكرتي بل سيقيم بعيدا أيضا. كيف ومتى سنلتقي بين مواعيد عملي وسكنه البعيد؟ سكتُّ ولم أعلّق. واستطردنا في الحديث: كنا نتبادل الحديث عبر البريد الإلكتروني ويعرف كلانا كل شيء عن الآخر وحياته، سوى عملي الذي لم أتحدث عنه أبدا في الرسائل. حدثته عن المكتب وظروفه وإحباطي من الفراغ وغياب المضمون والمبادرة والفشل العامّ والفوضى والمحسوبية وبقية قائمة شكوى الفلاح الفصيح التي نعرفها جميعا، وهو يهز رأسه ويقترح مخارج وحلولا وإصلاحات، وأنا أشرح له الصعوبات التي تواجه هذه الأفكار. ثم حان وقت سفره المبدئي إلى المنصورة لرؤية خالته قبل انتقاله للإقامة في القاهرة بصفة نهائية في الأسبوع التالي. سألته عن مشروعاته بالنسبة إلى العمل، فأجاب بثقة أنه سيجد عملا ولا ريب؛ سيبحث في الجامعات ومراكز البحث ولا بد أنه سيجد شيئا يتفق ومؤهلاته. وافترقنا على لقاء.

لن يجد عزالدين عملا لسنوات، لا في الجامعات ولا في أي مكان آخر. بدأ الأمر بمشاركته في ندوة قال فيها إن الجامعات المصرية تحتاج إلى إصلاح جذري وإنها بشكلها الحالي عبارة عن خرابات. انقضّ عليه الحاضرون من أعضاء هيئة التدريس في بعض الجامعات المصرية الذين اعتبروا كلامه إهانة شخصية لهم ولمصر كلها. وانتشرت كلمته هذه في أوساط الجامعات حتى عُرف بها. ولم يساعده ذلك في الحصول على وظيفة بأي من الخرابات التي انتقدها. لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن السبب الوحيد، فنظام التعيين في الجامعة نفسه لا يسمح بدخول أحد من الخارج هكذا إلا في

حالات استثنائية جدا. كما اكتشف صديقي المتفائل أن رسالة الدكتوراه التي حصل عليها بامتياز وإطراء وتحيات غيرُ معترَف بها في مصر، لأن أحدا من قبله لم يتخرج في هذه الجامعة في هذا التخصص ومن ثَمّ لا يعرف المجلس الأعلى للجامعات عنها شيئا. فبدأ رحلة طويلة وعبثية لمعادلة شهادته، تتضمن تقديم وصف لكل المواد التي درسها، وشروط الالتحاق بالجامعة وأشياء أخرى كثيرة حكاها لي وقتها. كابوس مكتمل الأركان.

استقر عزالدين في شقته بالزمالك وهو يبحث عن عمل ويقوم بهذه المغامرات الصغيرة. وصار يأتي لتناول الغداء معي في الخليفة المأمون في معظم راحات بعد الظهر. يخرج لمقابلات صباحية بحثا عن عمل أو حضورا لندوة أو مشاركة في مشروع بحثي صغير التقطه من هنا أو هناك، ثم يمر عليّ في غالب الأحوال لتناول الغداء في مقهى صغير استقررنا عليه بجوار مكتبي، ويعود إلى منزله بعدها حيث يقضي المساء في البحث أو الكتابة.

استمر ذلك الإيقاع طَوال ١٩٩٧ و١٩٩٨، وكانا من أفضل سنوات صداقتنا، كأننا عدنا صبيَّين. وصرت أستطيع أن أحكي له ما يدور بالمكتب ومشاركته إحباطاتي يوما بيوم، وكذلك سماع رأيه واقتراحاته التي غالبا ما بدت وجيهة لكنها لم تنفعني كثيرا في ظروف العمل في الرئاسة. هذه الصداقة، هذه اللقاءات والمناقشات، كانت النقطة الوحيدة المضيئة في حياتي خلال هذين العامين. ففي العمل كان إحباطي يتزايد، وهو ما استغربته

أنا شخصيا لأن الإنسان يعتاد الأشياء مع الوقت. لكني شعرت أن القليل الموجود من العزم أو التصميم أو الرؤية يتناقص، كأن اهتمام الموجودين بالعمل، بمن فيهم الرئيس نفسه، يتناقص. كأن الجميع استسلم: تركوا الآلات المعطَّلة حيث هي، وتلك التي تعمل كما هي، وخلدوا لسُبات لا يفيقون منه حتى وهم قيام. حادثت العميد القطان في ذلك ـ بلهجة مخففة طبعا ـ فقال لي إن الظروف الدولية صعبة ولا أحد ينتظر حدوث شيء إيجابي أو نجاح أي مبادرة في السنوات القادمة، ومن ثَمّ فالجميع في حالة انتظار. والوضع في مصر؟ سألته، قال إن الظروف الدولية الصعبة تنعكس سلبا على الوضع الداخلي ومن ثَمّ لن يحدث شيء أيضا في الوضع الداخلي خلال السنوات القليلة القادمة، حتى تتغير الأوضاع، «المهم أن نمرر هذه الفترة».

هناك أعوام تمر في حياتك، مثلما قال العميد القطان، دون أن يحدث فيها شيء سوى أن تمر. ليس هذا أمرا طبيعيا، لكنه معتاد. وحين أنظر الآن إلى هذه الأعوام أشعر بالندم لأني تركتها تمر هكذا، تضيع. الحقيقة أني كلما فكرت في حياتي السابقة أفاجأ بأني لا أندم على شيء فعلته بقدر ما أندم دوما على أشياء لم أفعلها، فتذكر ذلك يا يحيى.

خلال هذين العامين تدهورت أحوال أبي بسرعة لم أستوعبها أنا نفسي. لم أفهم كيف يمكن للتقاعد أن يهدم رجلا بهذا الشكل وفي هذا الوقت القصير. مزاجه تَغيّر فور بدأ التقاعد. صار عصبيا

نافد الصبر يثور لأتفه الأسباب، خصوصا على أمي، ثم يعود ويعتذر، ثم صار يخجل من كثرة ثوراته واعتذاراته فانسحب وقلل من احتكاكه بالجميع. حتى هيئته تغيرت، وأكتافه العريضة وقوامه الممشوق تهدلت. حاول بدء مشروع سياحي لكنه لم يستطع التعامل مع ما سمَّاه فوضى القطاع المدني فتوقف بعد عدة بدايات فاشلة. ثم انطفأ أبي تماما، ومع انطفائه ذهبت البهجة من المنزل، وسكن أمي توتُّر وهمّ مُقيم. أظنها كانت غاضبة على أبي، لا لشيء فعله تحديدا وإنما لانطفائه، هو الذي كان مصدر النور والقوة في حياتها. كأنها شعرت فجأة بأنها وحدها بلا سند، بل ومسئولة عن هذا الذي لم يعد رجلها مثلما كان. ولم يكن هناك أثقل من الصمت السائد على العشاء، وصوت ارتطام الملاعق الذي يرن في صمت العائلة المتوتر يذكرني كل دقيقة بما آل إليه أمرنا.

زواج أختي صفية تطور في طريقه الطبيعي، فصارت أما لاثنين وزوجة لضابط مدفعي ثقيل الظل، وبدين أيضا. تقلص الأدب الذي كان يستعيره في معاملتها وظهرت الخشونة الكامنة تحته، وباءت محاولات أختي بالفرار من تقليدية ورتابة هذه الحياة بالفشل. لم يمنعه لطفه وحسن أخلاقه المزعومان من تقريع صفية أمامي وأمام أمي - وإن التزم ببقايا الأدب في حضور أبي - كلما حاولت طرق باب غير تقليدي في حياتهما. كل ما يريده منها هو أن تتركه في حاله، وأن تقبل بدور وواجبات الزوجة والأم، وتهدأ وتكفّ عن الاقتراحات. وتمسك غصة بتلابيب معدتي كلما رأيتهما معا.

أما عمر الفارّ فقد واصل فراره في إيطاليا وحصل على الجنسية بعد زواجه بخديجة ذات الأصل الفلسطيني وأنجبا ثلاثة أطفال. أتى لزيارتنا بفرقته الكاملة وأشاع جوا من البهجة المؤقتة في البيت الصامت المظلم، ثم رحل فجأة مثلما أتى لنشعر نحن من جديد بصمت وظلام حياتنا العائلية التي كنا قد اعتدناها حتى أتى وكدرها ببهجته.

وفي نهاية ١٩٩٨ كانت أمي قد حزمت أمرها: الحل الوحيد لنا جميعا أن أتزوج. هكذا أعلنت، متسائلة في غضب حقيقي عما أنتظره. ولما صمتُّ ظلت تطاردني، ولما زاد صمتي انفجرَت فيّ سائلة لأول مرة إن كنت أعاقبهم بسبب تلك الفتاة الصينية التي تركتها في بكين. وأعقبَت ذلك بهجوم متواصل على عدم تحمُّلي المسئولية واستمرائي حياةً من الأنانية والطفولية وعدم النضج وبقية مجموعة «كيف تُشعِر أبناءك بالذنب وتبتزُّهم عاطفيا؟». وأقول لك هذا كأب، الآن، سواء عشت أم لا، لا تتركني أو أمك ـ وبالذات أمك ـ نبتزك عاطفيا أبدا. مهما قال الأبوان ـ بالذات الأمهات ـ فإنهم عادة ما يبتزون أبناءهم، فلا تستسلم لهذه اللعبة فهي قاتلة. لا تستسلم مثلما استسلمت أنا.

وهكذا، في يناير ١٩٩٩، تزوجت ندا القطان؛ العروس المُعَدَّة لي سلفا.

أريد أن أحدِّثك عن زواجي بأمك: الفرح، والبيت، وشهرنا الأول، لكن الوقت يداهمني. يمكنك، إن مِتُّ، أن تعرف التفاصيل منها، إن لم يمنعها غضبها عليّ من ذكرها لك. هناك شيء واحد أقوله لك، كأب، وهو أن لا تدخل في عش الدبابير هذا؛ تَزوَّج كما شئت، لكن تَجنَّب هذه الشكليات التي ستخنقك دون أن تلاحظ. سيقولون لك «ليلة وتعدي»، «مظاهر لإرضاء ماما أو بابا»، «الناس ستأكل وَجْهنا». دعهم يأكلونه، وفرّ بنفسك مع من تحب، على طريقتك أنت، لأنك إن دخلت من هذا الباب فلن تخرج سالما. خذها مني كلمة.

دخلت أنا وأمك من هذا الباب المرتب والمُحكَم، الذي قادنا إلى بيت مرتَّب ومُحكَم، عشنا فيه حياة مرتَّبة ومُحكَمة؛ كان بعضها سعيدا، وبعضها صعبا، وكثير منها تمريرا للأيام، كثير منها لا يمكن تذكُّره. كنت في التاسعة والعشرين وأمك أصغر مني بأربع سنوات، جميلة، أنيقة، ذات خلق رفيع وشخصية قوية، وتقدِّس البيت والعائلة، زوجة مثالية كما قالت أمي المغرمة بها. أمك التي تعرفها هي المرأة التي أعرفها، هي السيدة التي يعرفها الجميع؛ ظاهرها كباطنها. سيدة مرتَّبة وشديدة الإحكام. كانت هكذا وهي في الخامسة والعشرين، وظلت هكذا حتى رأيتها آخر مرة. لا أدري كيف أصف لك مشاعري إزاءها بدقة: أحبها طبعا، وأحترمها، وأشعر بالعرفان لكل ما فعلته لي ولك ولحياتنا. لكن، ظل هناك

دوما شيء زجاجي في علاقتنا: نتحدث ونأكل وننام ونسافر بحساب. كأنها مغلَّفة بزجاج رقيق؛ أشعر أني إن قمت بحركة غير متوقعة، سأشرخه أو أكسره، أو كأننا في حفلة مستمرة، نرتدي ملابسا رسمية، ضيِّقة بعض الشيء في الأجناب، ولو تحركنا فجأة لتمزقت وأصبح شكلنا مُحرجا بين الناس. حاولت كثيرا التسلل خلف هذا الزجاج، خلف الملابس الرسمية، لكني كلما نزعت طبقة وجدت أخرى تحتها، حتى توقفت عن المحاولة.

لا تنزعج مما أقول. ندا هي أمك، رابطة أخرى بيننا لا يمكن فصمها. وحبك لها جزء منك، لا يمكنك تغييره حتى لو حاولت. وحياتنا الزجاجية الباردة هي واحد وعشرون عاما من حياتنا جميعا، لا يمكننا تغييره حتى لو حاولنا. لا تنزعج، فأنا أقول ذلك لأشرح ما سيأتي، كي تفهم أو على الأقل تتفهم لِم سارت الأمور في الطريق الذي سارت فيه. وأيضا لتعرف أن البرودة الزجاجية التي كبرتَ أنت فيها ليست سمة الحياة الزوجية بالضرورة، فهناك طرق أخرى، أؤكد لك هذا.

اصبر عليّ وسأقصّ عليك كل شيء. نعم هناك طائرات ستهبط علينا، وهناك موت ينتظرنا، لكن هكذا الحال دائما، ولو سمحتُ للموت الذي يداهمني بمنعي من الحديث إلى ابني لانتصر الموت، وهذا ما لن يحدث. أنا جالس في قمرتي، هادئا مثلما قلت لك في بداية رسالتي، وأمامي كوب من القهوة، وأرتدي روبا أزرق اللون، كأن شيئا لن يحدث بعد ثماني عشرة ساعة. كل شيء هادئ من حولي، وسأظل هادئا. يجب أن أظل هادئا.

مر العام الأول لزواجنا سلسًا، ورتبت ندا كل شيء في حياتي. حتى عندما حملَت فيك، استمرت في العناية بي وبالبيت كأن شيئا لم يتغير. لم أرَ عليها علامة اضطراب واحدة، ولا أي شيء مما تذكره الكتب والأفلام عن اضطراب الهرمونات وجنون النساء الحوامل. حتى بطنها لم يكبر كثيرا، وظلَّ متناسب الحجم مع قدها الصغير المتناسق. لم أرَها يوما إلا وهي في زينتها، مصفَّفة الشعر صبيحة الوجه، بابتسامة صغيرة ونظرة نصف متسائلة نصف متفهمة. وظلت هكذا حتى وضعتك في الثامن من فبراير من العام التالي لزواجنا، أي بعد بداية القرن الجديد بشهر، وكانت سعادتنا جميعا بك لا توصف، وعادت ملامح البهجة حتى إلى أبي الذي بُعث من جديد كأنه استيقظ من غيبوبة، وصار يقضي معظم نهاره معك أو حولك. وعوض هذا عن غيابي في المكتب معظم اليوم.

وكان وجهك حلوا عليّ أنا أيضا، إذ تَحسَّن وضعي في العمل بشكل ملحوظ؛ صرت المترجم الأثير للرئيس، وكاتب محاضر معظم الجلسات والمسئول عن حفظها. وبدءوا يستعينون بي لتدوين محاضر جلسات واجتماعات تتعلق بالشأن الداخلي أيضا، مما فتح أمامي عالما كنت أجهله تماما. ثم عهد إليّ سكرتير الرئيس للمعلومات بمهمة مساعدته في إعادة تنظيم الأرشيف، ويا لها من مهمَّة! يمكنني القول دون مبالغة إن هذه المهمة قد غيَّرتني. حين دخلت الأرشيف أول مرة هالني الغبار والفوضى وكل الأشياء التي تراها في الأفلام مرتبطة بغرف الأرشيف: ملفات من الورق المقوَّى متراصَّة، لا تعرف أولها من آخرها ولا ما إذا كانت ستتفتت في يدك

لو أمسكتها أو يخرج منها ثعبان يلدغك. اقترحت على السكرتير أن نُدخِل هذه الملفات بالتدريج على الكمبيوتر، فضحك واستبعد الفكرة تماما باعتبارها حماقة. وكانت وجهة نظره أن تحويلها إلى ملفات ضوئية أو رقمية يسهِّل اختراقها وتسريبها، ومن ثم تَعيَّن علينا إعادة تنظيمها يدويا، كما هي، والعثور على طرق للحفاظ عليها وتبويبها وتسهيل الوصول إليها عند الحاجة مع بقائها في صورتها الورقية دون نسخ أو تصوير: نسخة واحدة فقط، وتظلّ هنا. سألته عن احتمال الحريق فضحك وطمأنني أن لا حرائق تحدث في القصر الرئاسي.

ومن ثم ألقيت بنفسي داخل الملفات كي أبدأ عملية إعادة التنظيم هذه، فوجدت وسط التراب والملفات كنزا، بالمعنى الحرفي للكلمة. آلاف الأوراق التي تحوي مذكرات من كل جهات الدولة «للعرض على السيد الرئيس»، ورأي الرئيس وتعليماته بشأن كل منها. يمكنك أن تجد كل شيء وأي شيء هنا: إجراءات أمنية، قرارات تتعلق بالحرب والسلام، صحة وتعليم وميزانية وتعيينات... كل ما يخطر ببالك. كأنك واقف في وسط صورة مجمَّدة لعقل حكم مصر؛ كلما تحركت تلمس جزءا منه. قضيت شهورا أقرأ في هذه الملفات، وكلما قرأت أكثر فهمت أكثر، حتى امتلأت. وبدأت أشعر أني لا أريد معرفة المزيد، وزاد ميلي إلى الصمت.

حتى مع عزالدين، الذي وجد عملا أخيرا، مدرسا بالجامعة الأمريكية. بدأ حديثي معه عن الأمور السياسية يقلّ. لا لشيء إلا أن

قدرتي على شـرح خلفيات الأمـور التي أعرفهـا تقلصت مع تعمُّق معرفتـي بهذه الخلفيـات. هل تفهم ما أعنيه؟ كلمـا عرفت تفاصيل الأمـور ودواخلها، صعب عليك شـرحها لمـن لا يعرفها. عزالدين أستاذ في العلوم السياسـية، وتفكيره شديد التنظيم وحديثه واضح. يفكِّر ويتحدث كأنه يضع رسوما هندسية لمبنى. أما أنا فأعيش داخل المبنى، بكل تفاصيله ومشـكلاته وأقبيته وفئرانه والرطوبة الناشـعة علـى جدرانه والفطر والجير المتسـاقط منه. أعرف كيف تُسـتخدم غـرف المبنى ولِـمَ توجد قطع الأثاث في الأماكـن التي توجد فيها، ومن أين أتت ومن يحرص على مكانها ومن يتربص بها ويريد نقلها أو الاسـتيلاء عليها. المهندس، برسومه الواضحة، لا يرى شيئا مما أراه. وكلمـا ازدادت معرفتي بهذه التفاصيل بـدا لي حديثه الفكري الأنيق بعيدا عن واقعي، وتصعب عليّ مهمة الشرح، فأصمت. لكن صداقتنـا لم تتأثر بهذا الصمت، بل علـى العكس، أظن أن عزالدين قد طوَّر ملكة الكلام عنده وأصبح يستمتع بصمتي. ربما لهذا علاقة بكونـه محاضرا ظـل محروما مـن المحاضـرات لسنوات. وحين عرّفني إلى خطيبته «أسماء»، التي كانت تحضِّر درجة الماجستير في الأدب المقارن بنفس الجامعة، لاحظت أنها هي الأخرى صَموت.

ومـع تزايـد ميلـي إلـى الصمـت زاد ميلي إلـى الانسـحاب من المجتمعات، في حين بدأت علاقات عزالدين تتسـع، حتى إنه قابل محمود بشـير وتَعـرّف إليه في أحـد المؤتمرات التـي ينظِّمها مركز أبحـاث تابع لمؤسسـة إعلامية صغيرة يعمل بهـا محمود منذ طرده من الرئاسة. لم أقابل محمود أو أتحدث معه مرة واحدة منذئذ تجنُّبا

للمشكلات، خصوصا بعد ما حدث لعفاف عاملة التليفونات. أدركت أن لحركتي واتصالاتي عواقب وقررت أن أستغني عما هو غير ضروري منها. لكني احتفظت ناحيته بوُدٍّ قديم وببعض التعاطف، وسعدت بمعرفته بعزالدين التي أعادت بعض هذا الود ولو بطريق غير مباشر. وذات يوم جاء عزالدين يضحك، وقال لي إنه شاهد محمود مع سالي القصبجي! استغرق الأمر عدة أيام كي أصدّق، حين عاد عزالدين إليّ بالقصة كاملة وكيف أن محمود ظل تائها هائما في حياته حتى استأنفا علاقتهما. ظللت أسأل نفسي: كيف فعل هذا بنفسه؟ كيف سمح لنفسه أن ينقاد خلف مشاعره إلى هذه الدرجة؟ أتَفهَّم الضعف الإنساني، لكن إلى هذه الدرجة؟!

لم يمهلني القدر كثيرا من الوقت للتفكير في علاقة محمود بسالي، ففي اليوم التالي تُوُفِّي أبي. هكذا دون مقدمات. ذهب للنوم في الحادية عشرة مساء مثلما يفعل كل ليلة؛ قال لأمي: «تِصبحي على خير»، ونام، ثم لم يستيقظ. مات ضابط المخابرات العسكرية في فراشه، بهدوء تامّ ودون ضجة.

حين يموت أبوك، مثلما قد يكون حالك الآن وأنت تقرأ هذه الرسالة، ستعرف الشعور الذي انتابني ساعتها. حزن عميق لا يخفف منه عزاء، بل ورغبة في الغرق في هذا الحزن. جاء عمر من إيطاليا، مع خديجة والأبناء ومكثوا أسبوعا. فاجأتني جدتك بصلابتها في الأيام التالية للوفاة، وتركيزها على إتمام الأمور العملية بشكل حسن والاعتناء بزوجة ابنها وأحفادها. لكن بمجرد

رحيلهـم ونهاية جلبة المعزِّين بدأت رحلة ذبـول لن تتوقف. أما أنا فقـد أصابنـي حزني أعمـق بكثير ممـا توقعت، وهبـط عليّ صمت لـم أقطعـه إلا اضطـرارا. حمـدت الله علـى وجود نـدا وعزالدين، بـل وخطيبته أسـماء، في حياتي خلال تلك الأيـام، وعلى حكمتهم وحبهم اللذَيْن أحاطوني بهما. لم يحاول أي منهم تعزيتي بالكلمات المعتادة أو حثّي على التقليل من حزني. وحين قررت الاستماع إلى القرآن طوال اليوم في البيت والسـيارة لمدة أربعين يوما دون توقف شـاركوني الاسـتماع في هدوء. ورغم حداثة معرفتي بأسـماء فإنها شـاركت بإخلاص فـي عملية مرافقتي فـي أثناء فترة حـدادي على أبي. وسـاعد على ذلك صداقة ندا السريعة معا رغم اختلافهما. ندا تعـرف أهمية عزالدين فـي حياتي، ومن ثم قـررت مصادقة خطيبته فور ظهورها. مُحكَمة هذه المرأة.

كان عامـا غريبا، كأنـه يقلب صفحة القرن جديـد، فمن انتخاب جـورج بوش فـي أمريكا إلى انتفاضة فلسـطين، ومـن ولادتك إلى مـوت أبي، بدأ العالـم الذي أعرفه يتوارى ويظهر عالم جديد. موت أبـي في نهايـة العام أكثر ما مسَّـني، ولـم أفهم مصـدر حزني العميق إلا بعدهـا بسـنوات: لـم يكن هذا حزنا على فقد الأب فحسـب، بل علـى الزمـن الذي يمضي بلا رجعـة ولا يوقفه شـيء أو أحد، حتى أقـوى النـاس في نظري. حين مات أبي شـعرت أني كبرت: انتقلت بيـن عشـية وضحاها مـن طابق الصغـار إلى طابق الكبـار. صعدت إلـى الطابق الأعلى الذي ليـس فوقه طوابق أخرى، والذي لا يمكن النزول منه ثانية، مهما فعلت.

- ١٣ -

هل بدأت تشعر بالملل من رسالتي؟

فما بالك لو كانت هذه هي حياتك؟!

منذ مولدك، في عام ٢٠٠٠ ولأكثر من عشر سنوات لم يحدث شيء تقريبا في حياتي. كل هذه السنوات راحت، كما قال اللواء القطان - هل قلت لك إنه صار لواءً؟ - في عملية «تمرير الوقت». بعد وفاة أبي انغمستُ في عملي أكثر، ربما لتفادي التفكير في ما لا أريد التفكير فيه، وربما لشعوري أني صرت «كبيرا» ولم يعُد يليق بي اللعب والحلم بحياة أخرى. كذلك زاد انغماسي في العمل بسبب زيادة فهمي لما يدور من حولي، سواء في الرئاسة أم في مصر عموما، ومن ثَمّ زيادة إدراكي لعدم إمكانية تغيير أي شيء، ومن ثَمّ لعدم فائدة الكلام. ولكن ربما كان أكبر أسباب انغماسي في العمل هو انغماسي في العمل نفسه، فعندما تبدأ في السير على هذا الدرب تفقد الأصدقاء والأهل سريعا، وتتقلص حياتك الاجتماعية حتى لا تعود تعرف ماذا تفعل بالوقت إن وجدت نفسك في إجازة. تظلّ تحوم في بيتك، ثم تبدأ في مشاهدة الأخبار، أو ترفع سماعة التليفون وتتصل بالمكتب لتتأكد من أن أمرا ما تمت معالجته. وحين تفعل ذلك تدرك أنك قد انغمست في العمل بالكامل ولم يعد لك حياة خارجه.

العمل في القصر الرئاسي يشجّع على ذلك، بسبب الأبهة والإحساس بالخطورة الذي يتملك العاملين به، حتى لو لم يكن

هناك شـيء مهم يفعلونـه في الواقع. الأبهة والإحساس بالخطورة يمكّنانك من التظاهر أمام نفسـك بأهمية ما تفعله؛ لا يمكنك تأخير هـذا التقريـر وإلا لما عُرض علـى الرئيس في موعـده. ولا يمكنك تأخير إعداد هذه المذكرة وإلا لما قرأها الرئيس قبل مقابلته مع ذلك الضيـف الآتي من آخـر الدنيا ليراه لمدة نصف سـاعة. ولا يمكنك التأخُّـر فـي الرد على الرئيـس حين يطلب معلومة مـا، وإلا انهارت الدنيا. كل شـيء هـامّ وخطير وفوري، حتى لو لـم يكن أي من هذا يقود لأي شـيء. الخطورة والأهمية لا تحتاج إلى سـند من الواقع؛ يكفـي أن تؤمـن بهـا أنت ومن حولـك. وكلما انغمسـت في العمل وتقلصـت حياتـك خارجـه أصبح مـن مصلحتك أن تؤمـن بأهمية هذا العمل.

كمـا يسـاعد النظـام الحديـدي والصرامـة كثيرا علـى خلق هذا الإيمـان بالأهمية. لكني، رغم رغبتي الشـديدة فـي المحافظة على إيماني، بدأت ألاحظ تراخي الصرامة وتفككها مع الوقت، خصوصا منذ ٢٠٠٥، وحلول درجة من الاسـترخاء تزايدت بسرعة بعد ذلك مع تعدد مراكـز اتخاذ القرار في القصر. قابلنا ذلك، نحن العاملين، بالامتعـاض. فلا ناقة لنـا ولا جمل في انتصار هـذا الطرف أو ذاك. جُـلّ مـا نريده هو احتـرام النظام وعـودة الصرامة، لأنهما يشـكّلان العمود الفقري لأهميتنا. إذا توقف الرئيس عن قراءة المذكرات التي نعرضهـا عليـه، أو قرأها ولم يتخذ قرارا بل جاء القرار من شـخص آخـر لم يقرأها، فما قيمة هذه المذكرات؟ وإن كانت المذكرات بلا قيمة، فما قيمة عمل مَن كتبوها وشـاركوا في صياغتها أو ترجموها

أو وضعوها في ملف ووضعوها بكل احترام وتبجيل على مكتب الرئيس؟ لا شيء. وإن فقد عملنا أهميته، فما قيمتنا نحن أنفسنا إن كان كل ما نفعله في حياتنا هو هذا العمل؟ إن كان كل ما تفعله في حياتك هو ترتيب مواعيد الرئيس، فما فائدتك إن تَدخَّل شخص آخر في تحديد مواعيده أو أصبحت مواعيده تُغيَّر وتُلغَى دون سابق إنذار؟ نحن، الموظفين، كبارا وصغارا، نعتمد على احترام النظام، لا من أجل لقمة عيشنا فقط، بل كي يكون لحياتنا ولنا قيمة كبشر. لهذا كنا نستاء من الفوضى، ومن تعدُّد مراكز القرار في القصر، ومن التدخلات الآتية من خارجه، ومن التردد في اتخاذ القرار أو تقلص الاهتمام، ومن الجمود والفشل الذي بات واضحا للجميع. صار هذا الجمود حياتنا، وانطبع الفشل علينا جميعا؛ نقضي أيامنا في محاولة دفع عجلة لا تدور، وينتهي بنا الأمر جميعا إلى أن نجري في مكاننا، مثل العجلات الرياضية التي انتشرت في ذات الوقت في مصر. لكن ما العمل؟

كلما التقيت عزالدين كرَّر عليّ مخاوفه من المستقبل القريب؛ «نحن نجري بسرعة نحو حائط أو هُوّة». لا أدري كم مرة سمعت منه هذه الجملة خلال تلك السنوات، وكم مرة قرأتها في مقال له أو كتاب، هو الذي صار نجما لامعا منذ قابل جورج بوش في نيويورك وانتقده علنا لازدواجية إدارته في التعامل مع قضايا الحريات، ولانتهاكها الصارخ لحقوق الإنسان في العراق ودعمها لانتهاكات إسرائيل في فلسطين. ثم عاد إلى القاهرة في اليوم التالي وانتقد النظام المصري لانتهاكه للحريات وحقوق الإنسان. وبعد

أن كانت الصحف المصرية قد قدَّمته كبطل قومي، لم تعد تعرف كيف تهاجمه في اليوم التالي (لكنها طبعا هاجمته بعد أسبوع).
المهم، كلما قال لي ذلك هززت كتفي يأسا وقلت له إني لا أرى حلا للمشكلة، فيُغدِق عليّ من أفكاره غيضا من فيض. وأكرر ما قلته له في لقائنا الذي سبقه، من أن ذلك كله كلام معقول وموضوعي، لكنه لن يتم. لماذا؟ لأن كل طرف له سمات وتفكير وطريقة وعقلية، ولن يتغير بالإقناع، بل في أغلب الظن لن يتغير إطلاقا. كل خطط عزالدين كانت جيدة، ولو أخذنا أيا منها لأمكن إصلاح الأحوال، لكن كان من المستحيل الأخذ بأيّ منها. هذا هو الأمر ببساطة.

أحيانا كان عزالدين يتهمني -بالأصالة عن نفسه ونقلا عن محمود بشير الذي توثقت علاقته به- بأني أفتقر إلى الشجاعة. ويحرِّضني، أنا المترجم الجالس عند أذن الرئيس، أن أطرح عليه رؤى مختلفة، وأن أقنعه. وأنا أبتسم من تفاؤله. لا يعلم أني إن قلت شيئا خارج السياق فلن يسمعني أحد، لا الرئيس ولا غيره. لا يفهم عزالدين الأكاديمي ولا محمود الفوضوي أن لغة خاصة تُستخدم في القصر الرئاسي، بكلمات محدودة العدد، وأفكار وقوالب محدودة العدد ومتوارَثة وأُقِرَّت من قبل. إن استُخدمت كلمة أخرى، أو فكرة أخرى، أو قالَب آخر، فلن يسمعك أو يفهمك أحد. ستتعلق نظرتهم إليك في الهواء، مثل شاشة كمبيوتر لا تستجيب لضغطاتك، وبعد وقت، يتجاهلون ما قلتَ أو يستبعدونه باعتباره مزحة أو فكرة خرقاء ويواصلون ما كانوا بصدده. ولو كررت

استخدام تلك اللغة الغريبة لصنَّفوك مع الأغيار، هؤلاء الذين لا يفهمون واقعنا وظروفنا، أو المُغرِضين والسائرين في ركابهم ممن يتحدثون اللغات الأجنبية. أجلس إذن في مقعدي القريب من أُذُن الرئيس، ويميل عليّ ليتأكد من أنه سمعني جيدا، يعطيني هذه اللحظة من تركيزه، لأنه متأكد أني أتحدث اللغة التي يفهمها ويثق بها. أما إن تحدثت بلغة أخرى، فلست مترجمه الذي يعرفه. هذا ما لم يفهمه صديقي الأكاديمي، برسومه الهندسية الباهرة وعديمة القيمة، وطبعا ما لم يفهمه صديقه الفوضوي، الذي لا يكاد يفيق من البيرة الرخيصة على مقهاه بوسط البلد.

لكنِّي لا أريدك أن تعتقد أن حياتي كانت كلها معاناة، لا، لم يكن الأمر كذلك. فقد استمتعت كثيرا، وشعرت بأهمية العمل الذي أقوم به حتى مع إحباطي وشكوكي وتساؤلاتي التي لا تنقطع. فلا يمكنك الجلوس بين رئيسين وأضواء الكاميرات مسلَّطة عليكم ثم ينسحب الناس كلهم وتُغلَق الأبواب وتظل أنت وحدك معهما ولا تشعر بأهميتك وأهمية ما تفعل. حتى لو أضاعا اللقاء كله في العبث وتبادل التفاهات، مثلما كان الحال معظم الوقت. لكنك هناك، في بؤرة الاهتمام، والآخرون في الخارج يتساءلون عن الأسرار التي تطَّلع أنت عليها. وحين تعود إلى بيتك في آخر الليل، مُرهَقا، وتهبط من سيارة الرئاسة أمام الباب فيحييك البوَّاب أو الجار تحيَّة خاصَّة، ثم تصعد إلى بيتك المنمَّق فتقابلك زوجتك بحنان وتقول لك إنها لمحتك مع الرئيس في نشرة التاسعة، لا يمكنك إلا أن تشعر بأهميتك وأهمية ما تفعله.

تَفَكُّك الصرامة في الرئاسة كان له فوائد، أهمها أننا صرنا نقضي الصيف كله في الساحل الشمالي حيث ينتقل العمل إلى برج العرب، ومعظم الشتاء في شرم الشيخ لنفس السبب. وكان ذلك مفيدا لنا جميعا خصوصا لأمي التي تدهورت صحتها بشدة وانتقلت للحياة معنا بسبب احتياجها إلى رعاية دائمة. ولم تعد قادرة على المشي وأصبح الجلوس أمام البحر متعتها الوحيدة الباقية تقريبا. وبين شرم والساحل، صرت أسافر كثيرا إلى الخارج مع الرئيس، وهي دائما فرصة طيبة لرؤية العالم وشراء الهدايا والملابس لأمك الأنيقة، ولك أيضا. واعذرني إن تباهيت عليك بذلك؛ لكنك لم ترتدِ شيئا واحدا من مصر خلال هذه السنوات العشر، حتى أحذيتك الصغيرة التي ذابت على رمال شرم الشيخ والساحل الشمالي أتت كلها من أوربا وأمريكا. كما عوَّض صعودي الوظيفي أمي بعض الشيء عن الذي فقدته، وصارت تعاملني باعتباري رجلها وابنها الأكبر والمسئول الرئيسي عن العائلة. حتى إبراهيم، زوج أختي السمج، غيَّر من معاملته لي وخصَّني بالاحترام الذي كان يسبغه على أبي، مما أسعد صفية وقوَّى من مركزها أمامه، وزاد ارتباطها بي وزادني ذلك سعادة. كما ترى، دائما ما تأتي الأمور مختلطة: الإحباط والتحقق، الشكوك والإيمان، البرودة والسعادة، ولا يمكنك الفصل بينهم واختيار جانب واحد. لا يحدث هذا إلا في قصص الأطفال. صحيح أنه لم يحدث شيء تقريبا خلال هذه السنوات العشر، وأظنها ضاعت هباء في معظمها، لكنها لم تكن خالية تماما من السعادة والتحقُّق.

ثم تَغيَّر كل شيء فجأة. رغم أننا كلنا رأينا الإشارات، فقد بُوغِتنا حين وقع ما وقع. كان عيد الشرطة يوم ثلاثاء. فأخذت إجازة يومي الأربعاء والخميس واتفقت مع ندا على اصطحاب أمي إلى العين السخنة لقضاء عدة أيام على شاطئ البحر، كي ترى أمي المريضة البحر ربما للمرة الأخيرة. لكنها سبقتنا، وأسلمت الروح وهي نائمة مثل أبي، قبل بدء الإجازة بيوم واحد.

الفصل الثاني

- ١ -

في صبيحة ٢٥ يناير كنا مشغولين بإجراءات الدفن. اتفقت وصفية على تلقِّي العزاء بعد الدفن مباشرة وعدم إقامة سُرادق مسائي كما جرت العادة. لا هي ولا أنا نحب المظاهر، ولم يكن حزننا العميق الهادئ يحتمل إزعاج الساعين لتأدية الواجب. من أحب أمي سيأتي للصلاة عليها ويصاحبها حتى مثواها الأخير؛ نقوم بدفنها معا، ثم يعود كل منا ليحزن بطريقته. حاول عمر إقناعنا بتأجيل الدفن يومين حتى يتمكن من الحضور من إيطاليا، لكننا امتعضنا لمجرد التفكير في ذلك، وطلبنا منه البقاء حيث هو. هذا هو ثمن الغربة: أن تموت أمك وأنت عنها بعيد، لا تشهد ضعفها وهزالها، لا تكون لها أبا حين تعود هي إلى طور الطفولة، ولا تستطيع حتى المشاركة في دفنها. اللواء القطان اعترض على قرارنا من باب الوجاهة الاجتماعية والأصول، وقال إنه حجز

بالفعل القاعة الكبرى في مسجد عمر مكرم، لكني أنا وصفية تمسكنا بموقفنا فرضخ في النهاية. وهكذا، تَحرَّكنا قبل الظهر، صفية وزوجها وأنا وأمك ولفيف من الأصدقاء والأقارب حتى مسجد أبي بكر الصديق بمصر الجديدة حيث صلينا الظهر وصلاة الجنازة، وكان حشد الناس كبيرًا، ثم ذهبنا إلى المقابر الجديدة في طريق السويس.

لا أريد أن أثقل عليك بوصف مشاعري عند الدفن، فهذه أشياء يَحسُنُ تركها حتى تأتينا بنفسها. لكن تَذكَّر أن هذه سُنَّة الحياة، وهذا الأمر لا يحدث لك وحدك بل لكل الناس، وسيأتي الدور علينا جميعا. أعلم أن هذه الكلمات قد تُضحِكك من فرط اعتيادها، لكني أؤكد لك أنك ستحتاج إلى التمعُّن فيها يوما ما، وستجد أنها تلخِّص الموقف كله. كلنا نمر من هذا الطريق.

كنتُ حتى هذا اليوم أتغافل عن الموت، وأتظاهر بأنه لا يعنيني في شيء؛ أقرأ عن أناس ماتوا، أعرف أناسا مات لهم أقارب وأحباء، أتابع الأخبار وأشاهد جثث القتلى في الحروب التي لا تنقطع، وكلها بالنسبة إليّ أرقام وأحداث، مثل المذكِّرات التي أكتبها في عملي أو الترجمة التي أقوم بها. كم مرة ترجمت أحاديث عن قتلى وجرحى بالجملة، دون أن أشعر بشيء، دون أن أشعر أني أنا شخصيا معنيّ بالموت! وحين مات أبي مسَّني موته في أعماقي، وكان أول أجراس الإنذار التي دقَّت في حياتي القصيرة، لكني تغاضيت عنه بعد ذلك لسنوات طويلة. ثم ماتت أمي، ومن

هذا اليوم حل الموت ضيفا مقيما في حياتي. كأنه كسر الباب الذي حماني، وأصبحت حياتي مَشاعا له يرتع فيه صباح مساء. سيظل مقيما معي، يحصد أرواح من أحب، حتى يجيء دوري، ربما غدًا أو بعد غد. سنرى. لا داعي لاستباق الأحداث. لأعُد إلى حكايتي.

كنا في طريق العودة من المقابر حين بلغتنا أنباء المظاهرات. عدت إلى المنزل وعاد اللواء القطان إلى الرئاسة، ورحل الأصدقاء والأقارب. وبينما كانت أجواء ما بعد الموت تتسلل إلى أرجاء المنزل، جلست أنا وأمك نشاهد التلفزيون، وهو الوضع الذي سيستمر لأيام كثيرة قادمة. اتصلت باللواء القطان لأعرف ما الذي يحدث لكنه لم يردّ. اتصل بي عزالدين ودعاني لمشاهدة لقطات بعينها تبثُّها محطات «الجزيرة» و«العربية» وأخرى على شبكة التواصل الاجتماعي القديمة ـ «فيس بوك». ظلت اللقطات المدهشة تتوالى، من الفتى الذي وقف أمام عربة الأمن يواجه خرطوم المياه بجسده، إلى الحشود التي تسير نحو قوات الأمن دون خوف، إلى الفتية الذين يلتقطون بأيديهم قنابل الغاز ويرسلونها إلى من ألقاها عليهم. كان من المستحيل أن ترى تلك المشاهد ولا تفهم أن شيئا كبيرا يحدث، شيئا مختلفا.

لكن حماي لم يتفق معي في الرأي، وحين مر على المنزل مساء ذلك اليوم أخبرني أن المعلومات المتوفرة تؤكد أن ما يحدث خطة مُعدَّة من قِبَل الإخوان المسلمين وحلفائهم في المنطقة، وباتفاق مع الولايات المتحدة، وأن هذه الخطة تشبه انقلاب الضباط

الأحـرار في عام ١٩٥٢، مع فارق هامّ هو أن الإخوان يسـتخدمون هذه المرة جموع الشـعب والشـباب المطالب بالديمقراطية سلاحا فـي مواجهة النظام بدل تكتيك الانقـلاب القديم. هذه المعلومات، وفقـا للقطـان، ليسـت جديـدة، وإنمـا تعود إلـى إضـراب ٦ إبريل و٩ مـارس، اللذين كانا يمثِّلان تمرينـات لهذه الأحداث، أما تونس فهـي البيـان العملي الذي تم تجربة الخطة فيـه؛ بلد صغير ومحدود الأهمية ومن ثَمّ لا ضرر كبيرا إن فشلت الخطة. وبعد نجاح التجربة فـي تونس جاء الدور على مصـر. حاولت أن أحاجَّه، مذكّرا بمعاناة أغلبية الشعب من الظلم والفساد الذي نعرف أكثر من غيرنا إلى أي مدى استشـرى، والشـعور العامّ بالإهانة بسـبب التوريـث، والقمع والتزوير، وغياب الأمل، وفشـل أجهزة الدولـة المتزايد، من حريق القطار إلى غرق العبَّارة، وغير ذلك من الأشـياء التي نعرفها جميعا. لـم ينكـر اللـواء القطـان أيا مـن هذه الأمـور، لكنـه ذكَّرنا بـأن هذه المظالـم قديمة وممتدة، ولا تفسـر الانفجار بهذا الشـكل وفي هذا التوقيـت، وكرر أن مـا يقوله لـي معلومات لا اجتهـادات. صمتُّ، ومضـى يؤكد أن الهدف من هذه الخطة هو إسـقاط الدولة نفسـها، بمؤسسـاتها، تمهيدا لقيام دولة الإخوان المحكومة من قِبَل التنظيم العالمي للإخوان، وهو ما لا يمكن السماح به.

سـألته عمَّا سـيحدث بعد ذلك قال إن الأمور ما زالت مضطربة، وهنـاك تخبُّـط على أعلى مسـتوى فـي اتخـاذ القـرار، وحذَّرنا من الخروج من المنزل أو الذهاب ناحية ميدان التحرير.

لم نذهب إلى العين السخنة طبعا، ولا إلى أي مكان آخر. ولم يطلب مني أحد قطع إجازتي والعودة إلى المكتب. سألت اللواء القطان إن كان يجب عليّ الذهاب إلى المكتب فنصحني بالعكس تماما، قائلا إن تجنُّب المكتب أفضل لمستقبلي. هل كان يعرف أكثر مما قال؟ مؤكَّد، فهو دائما يعرف أكثر مما يقول، دائما. قضينا الأربعاء والخميس دون مغادرة المنزل. مساء الخميس مر علينا عزالدين وأسماء للاطمئنان. أخذ يحكي عما يعرفه من أحداث جرت في الميدان وفي السويس من مواجهات ومعارك وكر وفر. كان مصدر هذه القصص طلبته بالجامعة ومحمود بشير، ثم مال عليّ وقال بصوت خافت إن سالي القصبجي كانت مع محمود في الميدان، ويبدو أنها أبلت بلاء حسنا في المواجهة مع الأمن، وكذلك كان هناك أناس آخرون أعرفهم. نظرت إليه مستفسرا عمن يقصد فغمز لي بعينه وصمت.

قصص عزالدين لم تكن كلها لطيفة، بل شملت تفاصيل مريعة عن وحشية العنف المستخدَم، وعن القتلى الذين سقطوا. أسماء جلست صامتة طويلا ثم قالت شيئا نافذا كعادتها، وبصوت لا يكاد يُسمع. سألت زوجها لم لا يشارك شخص مثله في هذه المظاهرات، هو الذي يدعو طَوال الوقت إلى التغيير والديمقراطية. أجاب بأنه لا يعرف هوية الذي نظّم هذه المظاهرات وأتى بكل هؤلاء الناس. ردت بأن الذي نظم المظاهرات هم قوى الشعب. فصحَّح لها: الذين يشاركون هم قوى الشعب، لكن من الذي نظم؟ أجابت: الشباب وتجمُّعاتهم على الإنترنت، فعاود: لكنهم هم أنفسهم

فوجئوا بحجم المشاركة، وهذه الجماهير ليست جمهورهم التقليدي، فمَن هؤلاء؟ وكيف خرجوا في هذا التوقيت وبدعوة من أناس لا يعرفونهم ولا يتواصلون معهم؟ أجابت أسماء في ضيق المحاصَر بأن الشباب دعوا إلى المظاهرات، فاستجاب البعض من جمهورهم، ثم انضمَّت جموع الشعب، هكذا بتلقائية. هز عزالدين رأسه غير مقتنع، وقال إنه سيذهب إلى الميدان في اليوم التالي ليرى الأمر على الطبيعة.

رنّ كلامه في رأسي، ونظرت إلى ندا فوجدتها تنظر إليّ نظرة «أرأيت أن أبي على حق؟». أقصّ عليك هذه التفاصيل لأن هذه لحظة فارقة، وهذا الخلاف في تفسير ما يحدث في ميادين مصر سيكون له أبلغ الأثر على الأحداث بعدها. في خضمّ الإثارة لم نلحظ أهمية هذا الخلاف، أو لم نتوقف عنده تحت ضغط الأحداث، وكانت له فيما بعد نتائج بالغة الأهمية.

اكتشفنا بعد ذهاب عزالدين وأسماء أن الإنترنت قد توقفت عن العمل. اتصلت بالقطان فقال لي إنهم وقفوا خدماتها بشكل شبه كامل، وستُقطَع اتصالات التليفونات المحمولة كلها في الصباح، ونصحني بالحصول على أرقام أرضية لمن أريد الاتصال بهم لأن المسألة قد تطول. سألته عما سيحدث في الغد فلم يُجِب، لكني لما قلت له إن عزالدين سيكون في الميدان وسيخبرني من هناك بما يجري صمت لحظة، ثم طلب مني أن أهاتفه وأقول له أن لا يذهب إلى الميدان، «لاحْسَن طلقة كده ولّا كده تطيش وتيجي ف عينه».

قال لي هذا، حرفيا، ولم أعرف حتى يومنا هذا هل كان يعني ما أظنه يعنيه أم كان حديثه من باب الحرص بشكل عامّ.

كان الجميع يدرك أن الجمعة هو يوم فاصل، فإما تتفتّت المظاهرات وتخفت، وإما تتحد نيرانها المشتعلة في ميادين وساحات متفرقة في أرجاء مصر في نار واحدة كبيرة وتتحول من حركات احتجاجية إلى ثورة شعبية. في الصباح قرأت بعض القرآن لأمي حتى قرب موعد صلاة الظهر، ثم جلست مع ندا في مركز المراقبة أمام التلفزيون. حاولت الاتصال بالقطان، وساعتها اكتشفت أن الاتصالات قد قُطعت بالفعل. بدأت الموقعة الحاسمة. اتصلت به بالتليفون الأرضي، وصرنا نتبادل الحديث كل نصف ساعة تقريبا ليُطلِعَني على تطورات الأمور.

كلما اتصل وجدت غضبه قد تزايد. ولم يكن هذا الغضب موجها ضد المتظاهرين وإنما ضد القائمين على الأمر في الرئاسة. اشتكى من التخبُّط والبطء في اتخاذ القرار، وسيادة المصالح الشخصية على المصلحة العامة، قائلا إنهم سيخربون البلد، كأنه مرآة لِمَا يشتكي منه الشعب الذي يملأ الميادين. قال إن هناك خطة، ثم قال إن الخطة تم التخلّي عنها، ثم خطة أخرى، ثم لا يعرف من الذي يتخذ هذه القرارات، وهكذا. ثم اتصل في الثالثة وقال إن الأمر انتهى، وإن الجيش سينزل الشوارع ويتسلم مسئولية الأمن. سألته إن كان يظنّ أن ذلك سيحلّ المشكلة، فصمت قليلا ثم قال: «ربنا يستر».

- ٢ -

استيقظت في صباح يوم ٢٩ وأنا أشعر برغبة جارفة في الذهاب إلى ميدان التحرير. ورغم تحفُّظ أمك الشديد، لم أستطع البقاء في المنزل، خرجت وتوجهت إلى الميدان. كانت الشوارع خالية أو تكاد. لا أثر للشرطة أو الجيش. وصلت إلى ميدان التحرير في نحو ربع ساعة، وهالني المنظر هناك؛ كأنه ساحة حرب انتهت لتوِّها. سيارات الأمن المدمَّرة متناثرة في مداخل الميدان ومخارجه، وعلى مطالع كوبري أكتوبر. على حطامها شعارات تندِّد بالنظام وتدعو الرئيس إلى الرحيل. شعارات مشابهة مكتوبة على الدبابات وسيارات الجيش القليلة الموجودة. مقر الحزب الوطني المحترق يهزّ المرء، والدخان لا يزال يتصاعد من المبنى ومن عشرات السيارات المحترقة في فنائه ورائحة الحريق تملأ الجوّ. لا أثر لسلطة الدولة في الميدان أو حوله: لا شيء سوى شعارات ضد النظام ورموزه على الحوائط، وبشر يسيرون ويتحدثون ويحملون لافتات ويهتفون. أمام مبنى التلفزيون كانت هناك بعض المدرعات، لكنها بدت ضعيفة وبلا حول أو قوة في وسط الجموع التي تتجاهلها أو تقفز فوقها لتلتقط الصور أو تكتب عليها شعارات ضد النظام.

أدهشنيْ ما أري وهزّني من أعماقي، أنا الذي لم أرَ الشعب من قبل. سرت وأنا أتساءل مَن هؤلاء ومن أين خرجوا ولِمَ الآن. لن أحدثك عن تفاصيل الميدان وسلوك الناس والروح التي سادته،

فقـد كتب الناس عن هذا بما فيه الكفاية، وسـتجد آلاف الصفحات والتعليقـات والشـهادات التـي تحكـي عـن هـذه الأيام إن شئت. لكنـي أقول لك شـيئا واحدا، إنِّـي وأنا جالس علـى حافة الرصيف فـي الميدان أرقب الناس من حولي عرفـت أن النظام قد ولَّت أيامه ولـن تعـود. أنا المترجـم الذي قضيـت معظم حياتـي داخل القصر الرئاسي، الذي يتوه إن خرج من مصر الجديدة ولا يعرف شيئا يُذكر عن «الشعب»، والذي لا يفهم كثيرا في السياسة، ويكره المبالغات، عرفـت وأنـا جالس هناك فـي صبـاح ٢٩ ينايـر ٢٠١١ أن الأمر قد انتهـى، أن مصر قد انفجـرت وخرج ما في باطنها إلى السـطح ولن يعود كما كان قبل ذلك اليوم.

قابلت عزالدين وأسـماء ومحمود بشير وسالي القصبجي، معا، جالسين على رصيف عالٍ بجوار مسجد عمر مكرم. كانت أول مرة أرى فيها محمود منذ خمسة عشر عاما، رأيت صورته عدة مرات في صحـف ومواقعِ علـى الإنترنت لكن لم نلتقِ وجها لوجه. لم يتغير كثيـرا، بل نضج وبـدا أكثر عقلا وإن كان لا يـزال مجنونا. لا أعرف كيـف أصـف لك ذلـك، لكن حيـن تراه تـدرك على الفـور أنه قادر علـى فعل أي شــيء فـي أي وقـت إن أراد، لكنه بدا أكثـر نضجا مع ذلـك، مثل ممثِّل قديم اعتاد لعـب أدوار الفتى الأول. تعانقنا طويلا وشـعرت بسـعادة حقيقية أن التقيته، ومال عليّ معاتبا بضحك وهو يسأل إن كان لقائي يحتاج إلى ثورة كي يتمّ. سالي كانت تظهر كثيرا على الشاشـات، وأظنها اسـتعانت بأطباء التجميل عدة مرات، لكن ظهورها المستمر عوّدني على التغييرات التي لحقت بشكلها. بدت

لطيفة ومجاملة مثلما كانت في الماضي، ولكن أقل تدللا وأكثر جدية في طريقة معاملتها وفي حديثها. محمود وسالي بدوَا كأنهما في بيتهما، وبالفعل فهمت أنهما قضيا الليلة في الميدان وأرسلا في طلب خيمة وينويان البقاء في الميدان حتى تحقيق مطالب الشعب. مال عليّ عزالدين وهمس بأن عفاف موجودة في الميدان. سألته عفاف مَن فضحك وقال: «بنت بتاعة الجبنة». جفلت؛ هل تَحوّل الميدان إلى اجتماع عامّ لكل من قابلتهم في حياتي؟ الحقيقة أنه كان كذلك بالفعل، نزلَت مصر كلها هناك، يوما بعد يوم، والتقى أناس لم يرَ بعضهم بعضا من سنين، وآخرون رأى بعضهم بعضا كما لم يروهم من سنين.

سألت محمود وسالي عن مطالب الناس فقالا كلاما كثيرا لكن غير محدد. عزالدين تَدخّل ليصوغ هذا الكلام في شكل قائمة مطالب، لكنه كلما ذكر بندا اعترض أحدهما، ثم تَدخّل آخرون في النقاش حتى أصبحوا عشرين شخصا لا يعرف أحد منهم أحدا، وكلهم يتناقشون في قائمة عزالدين ويضيفون إليها ويخرجون منها ويغيّرون ترتيب بنودها، وتركتهم بعد نحو ساعة يتناقشون، وعزالدين واقف في وسطهم مندمجا تماما في المناقشة، دون أن يبدو بصيص أمل في توصلهم إلى ما يمكن وصفه ببداية اتفاق. سِرت في الميدان مع الناس.

بعد قليل رأيتها، وللوهلة الأولى لم أتعرف عليها. توقف وجهي عندها وشعرت أني رأيتها من قبل، للحظات، قبل أن أدرك أنها

هي؛ عفاف، عاملة التليفونات. يا إلهي! كم تغيرت! شعلة الأنوثة المتوهجة، القد الممشوق المتمايل ثقة، الابتسامة الماكرة والنظرة التي تجعلك تعترف، كل هذا راح؛ طمسه جسم ثقيل وعباءة وطرحة ورقبة غليظة. لكن في وسط كوم اللحم والقماش هذا رأيت في عينيها شيئا من عفاف القديمة، شيئا يضحك من وراء قسمات الحدّة السائدة. وزادت الضحكة اتساعا لمّا أدركَت أني تذكرتُها، تقدمت نحوي وتعانقنا بودّ خالص.

تعانقنا كأخ وأخت، نحن اللذَيْن عملنا معا لأكثر من عام لم يحدث خلاله بيننا أكثر من المصافحة باليد. لكن كان هناك شيء في الجو يجعلك تشعر بأنك أخ لكل الموجودين. لسبب ما اختفت الحواجز بين الناس، وصرنا ننظر في أعيُن بعض دون خوف ودون حاجة إلى إخفاء نظراتنا. كأننا اكتشف بعضنا بعضًا فجأة، وبدأنا في الكلام والتواصل. وقفنا أنا وعفاف ينظر كلانا إلى الآخَر ونبتسم، ثم لمحت رجلا وفتاة ينظران إلينا باستغراب. انتبهت عفاف وقدمتهما لي: حسن وميرفت، أخوها وأختها. ثم قدمتني لهما باعتباري الرجل الذي وصّلها أغلى توصيلة مجانية في حياتها، وضحكوا ثلاثتهم. تصافحنا وتبادلنا بعض الكلمات حول ما يحدث. حسن في نفس عمرها تقريبا، لكنه أكثر سمرة منها ونحيف حاد الملامح، ومضطرب بعض الشيء. ميرفت أصغر منها بعشر سنوات أو أكثر قليلا، محجَّبة أيضا لكنها أكثر اهتماما بزينتها، ونظرتها لا تستقر في مكان، تبدو ضجرة أو تنتظر حدوث شيء.

جلسنا على الرصيف نتبادل الحكايات والتوقعات عما سيحدث، وقالت لي بصوت خافت إنها رأتني مؤخرا في التلفزيون مع الرئيس، متسائلة إن كان وجودي في الميدان قد يتسبب لي في أذى. هززت كتفي ولم أردّ. لم أعتقد أن هذه مشكلة حقيقية، فلديهم أشياء أهمّ مني بكثير في تلك اللحظات. سألني حسن عن رأيي فيما يحدث، فتلعثمت ولم أقُل أكثر من أن هذا شيء مدهش. لم يهتمّ كثيرا بإجابتي، فكل ما أراده هو إيجاد مدخل للكلام. أمّن على ما قلت، ثم قال إن المدهش فعلا هو صمت الناس طوال السنوات الماضية، لكن ذلك انتهى. الشعب تَحرَّك، كفر بالنظام وظلمه وفساده، ولن يعود إلا بعد أن يُطيح به. سألته عن عمله فقال إنه عاطل عن العمل بشكل عامّ، فمنذ تخرج في المعهد العالي التجاري لم يعمل بشكل منتظم أكثر من ستة أشهر، بعدها يلقّط رزقه من هنا وهناك، وعند كل خطوة يجب أن يقسم ما يكسبه مع أحد. حاول عدة مرات بدء نشاط تجاري صغير، «ولو حتى كشك»، لكنه وجد الأبواب مُوصَدة في وجهه. كل شيء يحتاج إلى شيء، وهو لا شيء لديه يعطيه سوى القدرة البدنية على العمل، ولا أحد يحتاج إلى قوّته هو بالذات. وعندما أصابه مرض في كُلْيته، لا يعرف كيف أصابه، تدهورت هذه القوة أيضا، وزادت احتياجاته. استطاعت عفاف مساعدته في دخول مستشفى التأمين الصحي حيث يعالَج من وقت إلى آخر، لكن المرض يتزايد وسيحتاج حتما إلى عملية أو إلى غَسل بانتظام، ويعلم الله كيف سيدبّر هذا. نظر إليّ وسألني ماذا يفعل، وكيف يجب عليه أن يشعر هو الذي يجاهد كل يوم كي

يبقى عائما على السطح وسط بذخ يُعمِي الأعين ولا يستطيع أن يصيب منه ولو الكفاف. حلال هذا أم حرام؟ سألني.

هززت رأسي ولم أردّ. ثم سألت عفاف عن أحوالها فقالت إنها تعمل في نفس الوحدة الإدارية بالمحافظة التي نُقلت إليها منذ خمسة عشر عاما، وراتبها الآن ستمئة وخمسون جنيها بالإضافي والحوافز، مع خمسين جنيها مكافأة تحصل عليها من وقت إلى آخر، في رمضان ودخول المدارس والعيدين وأحيانا في المولد النبوي، حسب الظروف. ضحكتُ وقالت إن الله وحده هو العالم كيف تتحايل بهذه النقود على احتياجاتها وإخوتها، ومع هذا فهي ليست الأسوأ حالا بين جيرانها، بل من المحظوظين الذين لديهم وظيفة ودخل ثابتان. لا حسن ولا ميرفت استطاعا الحصول على شيء مشابه، وفي الشارع الذي تسكن فيه لا يوجد سوى خمسة في مثل حالها، أما الباقون فعلى باب الله؛ وظائف متقطعة، خدمة في البيوت، بيع في المحلات وعلى الأرصفة، أو أسوأ. سكتت عفاف وبدت عليها ملامح صرامة لا أذكرها لها.

تململَت ميرفت في وقفتها ونظرت إليّ بعداء ثم حوّلت نظرتها، ثم عادت تنظر إليّ ثانية مباشرة في عينيّ. نظرت إليها مستفهما فسألتني عن شعوري بعد أن تسببتُ في ضياع مستقبل أختها وظللت أنا أستمتع بمزايا الوظيفة الأبهة. فوجئت بالسؤال المباشر، وبحدة غضبها بعد خمس عشرة سنة على شيء حدث لأختها لا لها. سألتني إن كنت أعرف كيف فُصلت. قلت إنها نُقلت، فرمقتني

بنظـرة «لا داعـي للتظاهـر بالعَبَـط»، وقالـت إن مدير عفاف مسـح بكرامتهـا الأرض ناعتا إياها بأقبح الأوصـاف، ومعيّرا إياها بأصلها المتواضـع وهددها بتشـريدها لو حاولت الاتصال بـي مرة أخرى. قالت إن أختها سـكتت يومها لأنها تحتاج إلى الوظيفة ولا تسـتطيع الوقـوف في وجه هؤلاء النـاس، وكانت أمهم على قيد الحياة وقتها وتحتـاج إلى كل قـرش من مرتبهـا للعلاج وخلافـه. وقفت صامتا لا أعـرف بمَ أرد، فسـألتني عـن وظيفة جد اللواء الـذي أمر بطردها من الرئاسـة. ظننت أني لم أسـمع جيدا فاستوضحتُ السؤال، وهنا انفجرت بالسباب في أصل هذا الرجل الذي دمر مستقبلهم، ونعتته بأنه ولا بد «من بيئة واطية» واعتلى منصبه بالنفاق والتدليس ثم نسي نفسـه وأهله واسـتكثر على عاملة التليفونات «بنت بتاعة الجبنة» أن تُعجَب شـابا ابن ناس. ثم ثبَّتت عينيها في عينَيّ وشخَصَت بوجهها إلى وجهي فسـدَّت عليّ الأفق كي لا أهرب بنظراتي بعيدا وسألتني إن كان المطلوب أن تعيش عاملة التليفونات عيشة أهلها ولا تحاول تحسـين أحوالهـا أو تبنـي لنفسـها وأبنائهـا حيـاة أفضـل. ألم يكن أبو مارجريت تاتشـر بقّالا؟ وزوجة هلموت كول ممرضة؟ سكتت ميرفت فجأة، واعتذرت عن احتدادها، ثم أضافت أن أختها سكتت يـوم ما مسـح بها الأرض فـي الرئاسـة، لكنها مـن الآن فصاعدا لن تسكت، لا هي ولا غيرها، وليُرونا ماذا سيفعلون. نظرت إلى عفاف فوجدتهـا واقفة وعيناها مثبّتتان في عينَيّ، تلمعان ، وتشـعَّان ثقة لم أرَها فيهما من قبل.

- ٣ -

قضيت الثلاثة عشر يوما التالية بين مصر الجديدة والتحرير. صمّم اللواء القطان أن أظل بعيدا عن القصر - خلال هذه الفترة - التي لم نكن نعرف إلى متى ستستمر. حصل لي على إجازة مفتوحة بذريعة العناية بأمور العائلة بعد وفاة أمي، وطبعا لم يكن أحد في الرئاسة ليهتمّ في ذلك الوقت بمن جاء ومن غاب. قصصت على ندا ما رأيته في الميدان، واستقبلَت ما قلتُه باهتمام لكن دون حماس. سألَت بعض الأسئلة عن الإخوان المسلمين وما إن كنتُ لاحظت وجودا ملموسا لهم في الميدان، وكيف يأكل المتظاهرون ومن أين يأتون بالمال. هذا النوع من الأسئلة المرتابة، لكن دون اتهام محدَّد. دعوتها للمجيء معي في اليوم التالي فاستبعدَت الفكرة، مفضِّلة البقاء في المنزل للعناية بك، ولأن المنطقة كانت تحت حراسة شديدة ولم تُرِد المخاطرة بالخروج منها وتعريضك أو تعريض نفسها لأي من المخاطر التي تسمع عنها في وسائل الإعلام.

ذهبتُ في اليومين التاليين إلى الميدان، أستيقظ في الصباح وآخذ بعض الماء والطعام وأشدّ الرحال حتى هناك، وأظل مع المتظاهرين حتى الرابعة بعد الظهر، موعد حظر التجوُّل، فأعود إلى البيت. لم يكن أحد يحاول فرض حظر التجوُّل، واستمرت السيارات والناس في التجوال بعد هذا الوقت، لكن أمك كانت قلقة لدرجة لا تسمح لي بالبقاء خارج البيت بعد هبوط الظلام. يوم ٣١ يناير قال لي اللواء القطان إن هناك أصواتًا تنادي باستخدام

القوة لفضّ المظاهرات والقبض على أكبر عدد من المحرِّضين عليها ومنظِّميها ، إلا أنه شخصيًّا، وآخرين، مقتنعون بعدم جدوى استخدام العنف وبضرورة التوصُّل إلى حلّ سياسي، لكن المشكلة فيمن يمثّل المتظاهرين. واقترح عليّ الحديث إلى عزالدين ومحمود و«أصدقائي» في الميدان لمعرفة ما إذا كان هناك استعداد لتفويض أحد أو مجموعة للتفاوض باسم المتظاهرين.

وافق عزالدين في حين استبعد محمود الفكرة تماما. قضينا النهار نتنقل من خيمة إلى أخرى داخل الميدان. الخيمة التي تتّسع لشخصين تضمّ سبعة. اختار محمود وعزالدين عددا محدودا من الشباب يثقون بهم، وقدموني لهم. تَصلّبوا فور سماعهم بجهة عملي وبدوا غير راغبين في الحديث. لكنهم ضغطوا على أنفسهم ربما بسبب وجود محمود الذي يعرف الناس في الميدان ويعرفونه. نتحدث همسا كيلا يسمعنا مَن في الخيام الملاصقة. نتناقش مطولا، ثم ننتقل إلى مجموعة مختلفة، وفي كل مرة نسمع نفس الكلام ، هناك مقترحات كثيرة، بعضها جنوني، لكن معظمها معقول. وظلت المشكلة أن لا أحد يملك التفاوض باسم الميدان؛ لا يمكن. ومحمود يهزّ رأسه ولسان حاله يردّد: ألم أقل لكما؟ حاولنا طوال النهار، وفي حين وجدت نفسي ألوذ بالصمت فور رفض الشباب للفكرة، فإن عزالدين واصل محاولة إقناعهم. وهم يردون بعدم رغبتهم في التفاوض: يرحل. يقول لهم غير الرحيل هناك كثير مما يحتاج إلى التفاوض، لكن الشباب يرفض. لا أحد

يتحدث باسم أحد هنا. والحل؟ سألت، فأجابوا، في كل مرة، مطالبنا واضحة، ولن نرحل قبل أن يرحل النظام.

شرح محمود لنا الوضع كما يراه: مجموعات كثيرة من الشباب وغير الشباب تنتمي إلى توجُّهات سياسية وفكرية متباينة، وكثير منها غير مسيَّس أصلا، ولا شيء يجمعهم سوى المطالب السلبية: رحيل رأس النظام، إلغاء مباحث أمن الدولة، إلغاء الحرس الجامعي، أشياء مثل هذه. كذلك هم لا يثقون بأحد، ولا يمكنهم أن يفوِّضوا أحدا. سألته عن الحل فردّ بأنه ليس هناك مشكلة تقتضي الحل؛ هذه ثورة، وهكذا تكون الثورات.

لكن عزالدين لم يعجبه هذا الحديث، ففي نظره الشباب يخاف من الإخوان المسلمين، الذين يمنعون أي محاولة لبناء توافق على فكرة أو مطلب داخل الميدان، لأنهم يريدون الميدان كما هو، مجرد أداة للضغط، في حين تأتي الرؤية من عندهم هم، جاهزة، ويكون التفاوض معهم هم. وهذه مشكلة، وتحتاج إلى حل. وما الحل؟ بناء توافق من خلال التفاوض. وهكذا، أخذ عزالدين على عاتقه هذه المهمة. وظللنا يومًا آخر نتنقل من خيمة إلى خيمة، ومن اجتماع في بيت غريب بوسط البلد إلى اجتماع آخر في بيت غرباء أُخَر، ندخل ونُلقِي التحية فنجد ثُلَلا من البشر الذين لا أعرف منهم أحدا، طبعا، ويعرف عزالدين بعضهم فقط، ثم ننزوي مع شخص أو اثنين في غرفة، أو شرفة، ونبدأ الحديث. أصعب أنواع التفاوض ذلك الذي يتم مع عدد لا نهائي من الأطراف: تجلس مع

أربعة، وبعد نقاش مجهد تتوصلون إلى اتفاق، لكن هؤلاء الأربعة لا يمثلون سوى جزء من المشهد، ومن ثم فعليك أن تجد الآخرين، مجموعة مجموعة، حتى تصل إلى اتفاق أو شبه اتفاق. يبدو الأمر عبثيًّا، لكنه الطريقة الوحيدة لخلق إجماع بين مجموعات متناثرة.

ثم توصلنا إلى ملامح عامة لاتفاق، وأبلغتها للقطان في المساء. وفي اليوم التالي بدا أن بعض بنود هذا الاتفاق بدأ يجد طريقه للتنفيذ. لكن اليوم التالي لذلك شهد هجوم الجِمال على الميدان ومَن فيه. لم أكن في الميدان حين حدث الهجوم، وعلى الفور اتصلت باللواء القطان فوجدته مُحبَطا مما حدث، وقال إنه ترك مكتبه في الرئاسة وعاد إلى البيت احتجاجا. لكنه عاود الاتصال في الصباح التالي وقال إن ما حدث محاولة ممن يحبّذون استخدام القوة لوقف إدخال أي إصلاحات جذرية لأنها ستضرّ بهم وبخططهم للمستقبل، هؤلاء هم منظمو حملة الجِمال. ثم طلب مني العودة إلى الميدان للمحاولة مرة أخرى، مؤكدا أن أنصار استخدام العنف داخل النظام قد تمّ تهميشهم بعد فشل هجوم الجِمال المزري.

عدت إلى الميدان فوجدته مختلفا؛ محمود مرهَق وعيناه زائغتان. سألته كيف كانت الليلة فقال عصيبة، وشرح لي كيف هجم البلطجية باستخدام الخيل والجمال من ناحية ميدان عبد المنعم رياض واستمرت المواجهات طوال الليل في حين وقف الجيش دون حراك. في البداية تراجع المتظاهرون بسرعة ثم أعادوا تنظيم

صفوفهم شيئا فشيئا، وساعدهم شباب الأُلتراس وشباب الإخوان المسلمين الذين تدفقوا على الميدان. في البداية كانت كرات النار وزجاجات المولوتوف تُلقَى عليهم من أسطح العمارات في الميدان، ثم صعد بعض الشباب على سطح العمارة وطهَّروها من المهاجمين، وبعدها تَحوَّلوا إلى العمارة التالية وهكذا، حتى طهَّروا الميدان كله من البلطجية قرب الفجر. نفس الشيء حدث عند كوبري أكتوبر واستمرَّت المواجهة هناك حتى الرابعة صباحا. ومن ساعتها يسيطرون على هذه المواقع الاستراتيجية ويمنعون عودة البلطجية. أخذني محمود لرؤية أكوام الحجارة التي أتوا بها لا أدري من أين؛ خلعوها من الرصيف وأحواض الزرع على ما أذكر ووضعوها بجوار مداخل ومخارج الميدان. كانت جموع البلطجية لا تزال تحوم، وأستطيع رؤيتها في شوارع وسط البلد، وهناك مناوشات على التخوم، لكن الجيش الآن يقف حائلا بينهم وبين المتظاهرين. ثمانية قتلى هذه الليلة.

أخذني عزالدين مع طبيب شابّ لزيارة «المستشفى الميداني»، وهو زقاق صغير بين عمارتين يُستخدم للصلاة أيام الجمعة. وجدت جرحى يفترشون الأرض على جانبَي الزقاق، أمام أبواب المحلات المغلقة، وبينهم ملاءات معلَّقة كيفما اتفق، وقد عُلّقت على أبواب المحلات المغلقة أسماء «أقسام الجراحة»، ووُضعت في الوسط كومة من الأدوية. قال الطبيب إنه وزملاءه المتطوعين ظلوا يعملون طول الليل. لم يكن من الممكن نقل الجرحى في

معظم الأحيان، فليس لديهم نقالات، ولا يوجد أحد لنقل الجرحى فالكل يدافع، ومن ثم كان الأطباء يضمدون الجراح وسط المعركة؛ يسقط أحدهم فيجرون إليه ويعالجونه على الأرض حيث سقط. أخرج الطبيب من جيبه أدواته الجراحية: حقنة ومخدرا ومطهرا وخيط الجراحة وشيئا آخَر لم أتعرف عليه. حكى لي عن متظاهرين أصيبوا في رءوسهم، كان يضمدهم وهم يستعجلونه كي يعودوا مرة أخرى للدفاع عن الميدان ضد البلطجية. قال الطبيب باقتضاب شيئا عن إصابات الرصاص، والأعين، وشيئا عن القتلى، ثم صمت.

عدت مع عزالدين إلى الميدان، وقال لي إن معظم الفتيات والسيدات قد رحلن، وحلّ محلّهن رجال من الإخوان المسلمين الذين أصبحوا يشكّلون قرابة نصف الموجودين في الميدان، وأبدى قلقه من هذا التطوُّر. أحيط الميدان بلجان من الشباب يفحصون الداخل والخارج، بمرح واعتذار وتعاوُن من الجميع. أعتقد أني فُتشت في هذه الأيام أكثر مما فُتشت في حياتي كلها. لكن الميدان أصبح الآن أرضا محرَّرة، وتَفنَّن المتظاهرون في إبداء آرائهم، والتعبير عن أنفسهم، بالرسم والكتابة والغناء والرقص، وكل الأشكال الممكنة.

لكن رغم الجو الاحتفالي الظاهر، كان الشباب مُرهَقا ولا يدري بمن يثق ولا كيف يفاضل بين المقترحات المتباينة التي يسمعها. يخشون من الكل، حتى هؤلاء الذين يعرفونهم من قبل كمحمود وعزالدين، فمن يدري مَنْ يعمل لحساب مَنْ؟ ومن يريد أن يقفز

على أكتاف مَنْ؟ لم أكن الوحيد الذي يحاول التفاوض معهم أو مع جزء منهم على اتفاق، وكنت متأكدا أن اللواء القطان ليس الوحيد الذي يحاول من الجهة الأخرى. لكني حاولت قدر استطاعتي على أمل أن يؤدِّي ولو إلى بعض التفاهم بين الجانبين، أو على الأقل لفهم الصحيح للواقع هنا بدلا مما ينقله إليهم مخبروهم والطائرة العمودية التي لا تكفّ عن التحليق فوق الميدان. حاولت لعدة أيام، وكلما ظننت أن تقدما يتم، حدث شيء فتتقهقر المسألة برمتها إلى الخلف. لم يتمّ التوصل إلى اتفاق، سواء لأن وتيرة الأحداث كانت أسرع مما يمكن معه اللحاق بها، أو لتعدُّد المنابر والوساطات والأطراف والنيَّات والمشروعات. وكلما طال الوقت زاد غضب المتظاهرين وتصميمهم وارتفع سقف مطالبهم. وفي صباح التاسع من فبراير قال لي اللواء القطان إنه لم يعد من المحاولة فائدة، وإن الناس التي بيدها الأمر لم تفهم بعدُ ما يحدث، ولم تقتنع بعد أن تغييرا كبيرا أصبح ضروريًّا، أو تحاول أن تتعامى عن هذه الحقيقة، ومن ثَمَّ فهي تناور. وفي اليوم التالي، عند الظهر، اتصل بي وأخبرني أن الموضوع انتهى وأن الرئيس سيرحل. شعرت براحة شديدة ممزوجة بأسى عميق في نفس الوقت. لِمَ كان يجب أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة؟ رغم كل شيء، ألم يكن من الأفضل الخروج بشكل أكرم؟ لو كان قد فعلها منذ شهر واحد لصار بطلا يخلده التاريخ. ولو فعلها منذ أسبوعين لتَذكَّره الناس بالخير. طال صمتنا، ثم سألته عمَّن سيتولى زمام الأمر الآن فقال في عصبية: «ربنا يستر».

- ٤ -

في أول مارس عدت إلى العمل. وجدت القصر الجمهوري الفارغ كئيبا، وقد حلّ الصمت الكامل محلّ الهدوء الحذر المعتاد. في البداية لم أكن أعرف ماذا أفعل بالضبط في المكتب، وأظن أن معظمنا شعر بنفس الشيء، فاستمر كثيرون منا يفعلون نفس ما كانوا يفعلونه من قبل، حتى لو كانت قمّة الهرم غير موجودة. واصلتُ إعداد التقارير وغير ذلك من الأمور الاعتيادية، ومع تطوُّر الأحداث أصبحت هذه التقارير تذهب للمجلس العسكري، ثم أصبحت أنا أيضا أذهب هناك حين يأتي زوار ذَوُو أهمية. في بعض الأحيان كنت أجلس بالساعات في مقر المجلس دون أن أفعل شيئا، وأحيانا كنت أشارك في الاجتماعات كي أترجم أو أدوِّن الملاحظات، أو أردّ إن كان لدى أصحاب الاجتماع سؤال عن خلفية الموضوع محلّ المناقشة.

كانت الفترة الانتقالية عصيبة مثلما قرأت عنها. وأثَّرت الاضطرابات التي سادتها علينا كلنا، لا في العمل وحسب، بل في حياتنا الخاصة كذلك. أمُّك أصبحت شديدة التوتر، وبدأَت تشعر بجفوة تجاهي بسبب قربي ممن أسمتهم «جماعة التحرير». وكلما حاولت تهدئتها وبعْث أملها في المستقبل أظهرت مخاوفها أكثر واحتدَّت وحمَّلَت الثورة مسئولية هذه المخاطر التي تحيق بنا. وكانت تفعل ذلك في صيغة لوم كأني أنا شخصيًّا الثورة. الطريف أن أصدقائي من «جماعة التحرير» كانوا يفعلون نفس الشيء معي

ولكن من الجانب الآخر، فكلما تعثرت العملية الانتقالية، أو ارتكب المجلس العسكري واحدا من أخطائه الفادحة أو ألقى القبض على نشطاء منهم وحاولتُ أن أشرح لهم صعوبة الانتقال احتدُّوا عليّ كأني أنا شخصيًّا المجلس العسكري. انتهى بي الأمر سريعا إلى الصمت، مرة أخرى. كنت أظن أن الثورة ستُنهِي حالة صمتي هذه، لكني أخطأت.

لم تقتصر المشكلات على أمك وأصدقائي الثوريين، فقد جاء عمر من إيطاليا في منتصف فبراير وهو ثائر وغاضب إلى أقصى درجة، عليّ وعلى صفية بسبب إصرارنا على دفن جدتك دون انتظار عودته. لم يشفع لي شيء، ولا حتى قيام الثورة. وانتهى الأمر بأن أعلن مقاطعته لي ورحل عائدا إلى إيطاليا. تضايقت أشد الضيق من هذا الأمر، صحيح أن عمر كان حادًّا دائما ومنفلتَ الغضب بحق ودون وجه حق، لكنه هذه المرة تَعدَّى حدود احتمالي، أو لعله احتمالي الذي تَقلَّص بسبب الجوّ العامّ. وغاظني بشكل خاصّ أنه صبّ غضبه عليّ وحدي، إلى درجة مقاطعتي، مع أن صفية كانت شريكتي في كل ما قررناه.

صفية كانت سعيدة بالثورة، ولعلّها الوحيدة من عائلتي الصغيرة التي شاركتني السعادة بهذه الثورة، ورأت فيها أملا كبيرا للمستقبل. لكنها كانت مثل الكل متخوفة، من العثرات، ومن الفشل، ومن اختطافها من قِبَل هذا أو ذاك، ثم ـ مثل بقية الشعب ـ صارت مخاوفها تزيد مع استفحال الأزمات وانتشار الفوضى وانعدام

الأمن وانفجار المشكلات الاجتماعية والسياسية، بل والأخلاقية، الذي استمر في التزايد. لم تكن صفية تعتقد أن شيئا من هذا بريء، لكنها ملَّت من كل هذه الفوضى، وصارت مخاوفها تطغى على الأمل في معظم الأوقات. ساعد على ذلك زوجها إبراهيم؛ ضابط المدفعية السمج الذي لم يفقد سماجته حين خلع بزته الرسمية وانتقل للعمل في مجال السياحة قبل الثورة بعام. طبعا قضت العملية الانتقالية المتخبطة على السياحة وعلى عمله، وظلّ هو يشحن الجو من حوله بالكراهية لكل ما له علاقة بالثورة، حتى شهر يناير نفسه كرهه.

حماي اللواء القطان استمر في عمله، لكنه صار يقضي معظم وقته في مقر المجلس العسكري ووزارة الدفاع. لم يكن دوره واضحا لي بالضبط، وعرفت فيما بعد أنه لم يغير وظيفته الرسمية كجزء من سكرتارية الرئيس، رغم خلوّ منصب الرئيس، لكنه عمل بشكل فعليّ مع المجلس العسكري. وتصادف وقتها أن مساعده القديم محمد المنيسي، الذي كان بصحبته يوم زار بيت أبي في بكين منذ سنوات طويلة، كان وقتها يعمل في الأمانة العامة للمجلس العسكري، وهو ما ساعد القطان أيضا على توطيد علاقته بالمجلس. المنيسي كان برتبة مقدّم، وهو جالس الآن في القمرة المجاورة دون أن يشك أن خطته كلها على وشك الانهيار. تَحمَّس اللواء القطان في البداية للعملية الانتقالية، ورفض كل تحفُّظاتي على الاستفتاء والجدول الزمني وترتيب المحطات الرئيسية لهذه العملية، كما استبعد كل ما تناقله الناس من حديث عن صفقات مع

الإخوان وتحالفات مع السلفيين، وعن اضطهاد للنشطاء وشباب الثورة، وعن الثورة المضادة، وعن نيات العسكريين. في البداية أخذ هذه التحفظات والمخاوف بجدّية، رفضها لكنه أخذها بجدية، ورتَّب عددا كبيرا من الاجتماعات بين العسكريين والشخصيات السياسية والإعلامية. لكن هذه الجدية تناقصت مع الوقت، وحين اقتربنا من الانتخابات، بدا واثقا أن كل شيء سيسير على ما يرام، وأن مجلس الشعب الجديد سيكون «موزاييك» يعكس أطياف الشعب كله، وقال لي إن الإسلاميين لن يحصلوا على أكثر من ٣٥٪ من المقاعد.

محمود بشير، الذي صرت أراه مرة في الأسبوع على الأقلّ ونتحادث كثيرا في التليفون، كانت حياته مرآة للمرحلة الانتقالية نفسها. أيامًا يكون في السماء، من السعادة والثقة بالمستقبل، وأيامًا أجده في الأرض من الاكتئاب والإحساس بالمؤامرة ودنوّ الأجل. حكى لي قصته مع سالي بالكامل، منذ أيام الرئاسة وخيانتها وانفصالهما حتى عاد لها. قال إنه قضى أسوأ أيام عمره حين تركها، وإن غضبه على خيانتها لم ينفعه بشيء. وبين موقف متسق مع العقل والقواعد لكنه مدمِّر لمشاعره بل ولحياته، وموقف آخر أقلّ اتساقا لكنه يعيد البهجة إلى حياته، انتهى به الأمر إلى الموقف الأخير. هز كتفيه وقال إنه لم يكن مثالا للوفاء هو الآخر، فلِمَ يجعل من مبدأ نظري عائقا أمام سعادته؟ لم أردّ. هناك أشياء لا يمكن الجدل فيها، والعلاقة بين رجل وامرأة أحدها. لا يمكنك، مهما أوتيت من منطق

أو عقل، أن تفهم علاقة رجل بامرأة ما لم تكن أنت هذا الرجل أو هذه المرأة. فكيف أحكم عليه أو أنصحه؟ ولِمَ؟

محمود وعزالدين عملا معا ومن قُرب بعد الثورة، وإن كان من موقعين مختلفين، ففي حين انخرط محمود مع الجماعات الثورية والمجموعات اليسارية، فإن عزالدين، المتشكك في العقائد السياسية وفي الاندفاع الثوري من ناحية، والمتخوف من الإسلاميين ونزعتهم إلى السيطرة من ناحية أخرى، انخرط مع المجموعات والأحزاب الليبرالية الناشئة، وإن كفّ عن المشاركة المباشرة في العمل السياسي مكتفيا بدوره التحليلي والأكاديمي، وهو ما جعله مثار سخرية محمود اللاذعة، الذي وصف موقفه هذا بأنه مزيج من الضعف والانتهازية.

هكذا كان العام الأول من الثورة؛ لم يُسقِط نظاما ويُقِم نظاما جديدا مثلما كان المتظاهرون يأملون، لكنه خلخل الأشياء وهزَّها من أعماقها. ستسقط كل هذه الأشياء فيما بعد، وتقوم مكانها أشياء جديدة، مثلما تعلم. لكن ليس هذا بيت القصيد، فقد درستَ هذا وقرأتَ عنه بما يكفي. ما أريد قوله لك أن العام الأول من الثورة خلخل حياتنا نحن، حتى حياتنا الشخصية وأصدقاءنا وعلاقات بعضنا ببعض. لا أدري كيف حدث ذلك، لكنه حدث. كأننا كلنا كنا مربوطين بشيء وانقطع، فصرنا نتحرك بحرية أكبر. أو كأننا عشنا تحت غطاء انكشف وطار في عاصفة، فصرنا يرى بعضنا بعضا، ونرى أنفسنا، بشكل أوضح. أو لعلنا ببساطة صرنا أحرارا أكثر، ليس تماما، لكن أكثر مما كنا قبلها. وانعكس ذلك على كل شيء

في حياتنا، وإن لم ندرك ذلك وقتها، ونحن مشغولون بقرارات المجلس العسكري، وبحوادث الاعتداء على الأبرياء، وبقتلى ماسبيرو، وبالمحاكمات العسكرية، ومن الذي ظل في موقعه ومن أُطيحَ به، واختفاء البنزين وأنابيب البوتاجاز، وكل هذه التفاصيل التي شحبَت أهميتها وتضاءلت بعد ذلك.

ومن ضمن الخلخلة والحرية أن حياتي أنا انفتحت أكثر، فصرت أقابل أناسا لم أكن لأقابلهم من قبل، وأذهب إلى أماكن لم أعرف بوجودها في مصر من قبل. على سبيل المثال اكتشفت أن «أرض اللواء»، التي كنت أظنها على حدود العالم المتحضر، في الحقيقة عاصمة لمناطق وأحياء وقرى تعيش في أحوال أسوأ منها بكثير. اكتشفت العشوائيات، والناس الحقيقيين الذين يعيشون هذه الحياة، يوما بعد يوم، دون ماء ودون صرف صحي وأحيانا دون سقف. رأيت عفاف وعائلتها مرات كثيرة، في تظاهرات الجُمَع المختلفة بميدان التحرير، ثم استضافوني عندهم عدة مرات، وأخذني حسن - الأخ العاطل - في جولة داخل العشوائيات المحيطة بأرض اللواء. فكّرت في دعوتهم إلى منزلنا لكن أمك ارتاعت للفكرة وثنتني عنها من باب عدم الإساءة إلى مشاعرهم إن قارنوا أحوالهم بأحوالنا. محمود وجد لميرفت عملا بشركة للتليفونات المحمولة عن طريق أحد معارف سالي القصبجي. لكن لا هو ولا سالي استطاعا كسر نحس حسن الذي ظل بلا عمل ثابت، وبدأت كُلْيته في التدهور خلال هذه الفترة، وساعدته - دون علم أمك - ببعض المال لتغطية نفقات العلاج.

لكن مشكلة عفاف وإخوتها لم تكن - على الأقل خلال هذه الشهور - مشكلة مالية أو ظروفا معيشية قاسية، وإنما الإحباط من مشكلات المرحلة الانتقالية وعثراتها. وفاجأتني درجة الوعي والنضج السياسيين لهم، وخصوصا حسن، الذي كان قادرا على صياغة موقفه بوضوح شديد وبلغة بسيطة رغم تعليمه وثقافته المحدودَين. كان لديهم جميعا منحنى للأمل واليأس، يصعد ويهبط مع سرعة التغييرات السياسية، ولديهم جميعا حاسَّة قوية تمكِّنهم من تمييز التغييرات الحقيقية من الشكلية. والحقيقة أن المنحنى ظلّ يتدهور في الشهور الأخيرة من العام، وعاد ثلاثتهم إلى ميدان التحرير كثيرا، ثم إلى ماسبيرو، لكنهم لحسن الحظ لم يُصابوا بسوء. وعندما وقعت أحداث محمد محمود - ستجد تفاصيلها على الإنترنت - اتصلت بي ميرفت لتقول لي إن حسن هناك ولا تستطيع إقناعه بالعودة، وطلبت تدخُّلي. لكن ماذا كان في استطاعتي فعله؟ ولحسن الحظ لم يُصِبْه مكروه وقتها، وجاءت الانتخابات التشريعية لتضع حدًّا لذلك.

كان تخوُّف اللواء القطان ومَن صِرت أدعوهم أصدقاءه من «جماعة العسكر» هو حدوث انفلات أمني في أثناء الانتخابات، وكان سعيدا سعادة بالغة حين تمَّت المرحلة الأولى بهدوء. وعندما أشارت النتائج الأولية إلى اكتساح الإسلاميين - على عكس توقعاته هو وأصدقائه العسكر - سألته عن معنى ذلك، فأطرق ساهما ثم هز رأسه وقال: «ربنا يستر».

- ٥ -

لم يأتِ العام الثاني للثورة بما تشتهي السفن.

الخوف والتوتر الذي بدأ يتجمع في الأفق خلال العام الأول تراكم عبر أحداث ماسبيرو، ثم محمد محمود، ثم مجلس الوزراء، وبلغ أشده مع نتائج الانتخابات البرلمانية. وانتاب كل من أعرفهم حالة من الاكتئاب التي خلَّفَت آثارها على حياتنا اليومية. حتى تفاؤل صفية المشرق الذي بدا بلا نهاية خفَت. لم تُذعِن لليأس، لكنها كفَّت عن متابعة ما يحدث. صفية التي لم يكن لها في السياسة من قبلُ تَحوَّلت مع الثورة إلى متابِعة مدقِّقة للحياة السياسية. ولم يقتصر الأمر على مشاركتها في التظاهرات بميدان التحرير، وتشجيعها لأبنائها الثلاثة على المشاركة، بل ولومها لكريم ابنها الأكبر على تقاعسه عن المشاركة، بل تعدى الأمر ذلك إلى بحثها عن أسماء المرشحين في الانتخابات في دائرتها والدوائر التي لها فيها أصدقاء، وجمع ما تَيسَّر من معلومات عنهم، وحشد صديقاتها وأقربائها لتأييد مَن رأت أنه الأصلح. صفية، المحجَّبة، التي تنظِّم دروس القرآن في المسجد القريب من بيتها، كانت تخشى الإخوان والسلفيين وترى أن بعضهم يتبنى رؤية متخلفة للدين والآخر يستغلُّه لأغراض دنيوية لا تليق به. وحين أتت نتائج الانتخابات بما أتت به، انطفأت حماستها، وتوقفت عن متابعة التطورات السياسية، وعن الذهاب إلى التحرير.

أما الزوج فبدأ يخطِّط للسفر إلى الخارج. ضحكت صفية من خططه هذه، فأين يذهبون؟ هم الذين لم يعيشوا خارج مصر قَطّ كيف يمكن لهم أن يفكِّروا في الهجرة؟! تركَته يفعل ما يشاء وقالت لي أن لا أهتمّ، لكنّ قلقًا عميقًا اعتراني. وأثبتت الأيام أني كنت مُحِقًّا. لم يكُن رد فعل صفية وزوجها فريدا، بل فعل كل من أعرفهم شيئا مشابها لما فعلاه، بدرجات متفاوتة. حتى ندا أمك بدأت هي الأخرى الحديث عن السفر والاستقرار خارج مصر. في البداية ظننتها تمزح، لكن هذا المزاح تَكرّر وتَطوّر. كانت قلقة، فمصر في رأيها يجري تسليمها لحفنة من المتطرفين والمهووسين، وهي لا تريد الحياة وسط هذا الجنون، لا تريد شيوخا يقولون لها ما يجب أن تفعله وما يجب أن لا تفعله، ولا رجالا يوقفونها في الطريق أو حتى ينظرون إليها نظرات استهجان. كانت تقول لي إنها تشعر بالأكسيجين يتناقص من الجو، ولا تريد أن تعيش وسط هذا الجو الخانق، ولا مجرد الاستماع إلى الكلام الفارغ والمسيء الذي تسمعه في وسائل الإعلام كل مساء، لا تريد ذلك. وقطعا لا تريد لك، أنت الذي تخطو لعامك الحادي عشر، أن يصيبك هذا الهوس بسوء. حاولتُ كثيرا التهدئة من روعها، ثم لجأتُ إلى أبيها لطمأنتها، لكنه في الحقيقة زاد الطين بلة، فالرجل الذي كان قد تَخلَّى عن تفسير الثورة بأنها مؤامرة من الإخوان المسلمين، وأقر بأنها تَحوَّلت إلى ثورة شعبية حقيقية ضد الظلم والفساد الذي نعرفه جميعا، عاد إلى النغمة القديمة بحلول العام الثاني للثورة. «شباب الثورة الأنقياء» أصبحوا «عيال تافهين وضايعين» ولا يفقهون من

أمرهم شيئا، مضللين ومفتونين بالأضواء والتلفزيونات وبعضهم مأجور لجهات أجنبية، أما الإخوان فسائرون في مؤامرتهم التاريخية لإسقاط الدولة، وإما أن يلتفت الشعب إلى هذه المؤامرة ويحبطها وإما ستضيع البلد. زاد حديث جدّك هذا مخاوف أمك سوءا، فلا هي ولا غيرها يعوِّل على وعي الشعب لإنقاذ البلاد. أنت الوحيد الذي ظللت متفائلا وسعيدا بالثورة، ربما لكثرة الإجازات التي حصلتَ عليها هذا العام من المدرسة.

أكثر المكتئبين كان محمود بشير. ظل متماسكا طوال العام الأول حتى أحداث محمد محمود، لكن تراجع المجلس العسكري أمام الإخوان في موضوع الدستور ومبادئه ثم أحداث مجلس الوزراء، أصابت هذا التماسك في مقتل، وأجهزت نتائج الانتخابات على ما بقي لديه من أمل. انتعش قليلا في ذكرى الثورة الأولى، لكن تلا ذلك مباشرة قتل عشرات من خيرة شباب الثورة في مباراة بين الأهلي والمصري، ودخلت الأمور في نفق مظلم لم تخرج منه بعدها، وهو معها. أذكر أني جلست معه ومع عزالدين فكري في أوائل إبريل من ذلك العام نتناقش فيما يحدث. قال محمود يومها إن الثورة انتهت؛ فشلت أو تمت سرقتها، أو الاثنان معا.

عزالدين كان المتفائل في ثلاثتنا، وظلّ يردد أن الثورة أعمق من كل ما نرى حولنا، وأن هذه موجة أُولَى ستتلوها موجات، ونحن الاثنين ننظر إليه كما تنظر إلى مرضى الضلالات الذين يسمعون أصواتا ويتحدث إليهم أناس غير مرئيين. فقد محمود أعصابه

عليه في وسط حديثه، وأمسك به من كتفه وهو يدعوه للإفاقة من هذا الهراء والنظر حوله، إلى ضَعف وإنهاك قوى الثورة، وانقسام وتفتُّت الائتلافات والتحالفات المدنية التي تدلُّ كثرتها على انعدام قيمتها، وتحالُف الإسلاميين مع العسكر وبيعهم شركاءهم في الثورة، وانصراف الناس عن الثورة ويأسهم من تحقيق أهدافها، بل وكراهيتهم لمن أوهمهم بإمكانية ذلك وعرَّض حياتهم للخطر بلا معنى، غير جهلهم واستعدادهم شبه الفطري لتأييد أي نوع من الاستبداد، مرة عسكريًّا ومرة دينيًّا. ظل غضب محمود يتزايد يومها حتى خشيت عليه من نفسه، وانسحب عزالدين في هدوء بعد أن طلب منا التمهل قبل إصدار الأحكام، قائلا إن العسكر والإخوان لا يمكن أن يتحالفا إلا إلى حين، وعلينا التخطيط لليوم الذي سيصطدمان فيه. نظر إليه محمود بزهق وأشاح بيده. وذهب عزالدين وهو يبتسم ويهزّ رأسه.

كان غضب محمود أكبر بكثير من أن يكون بسبب الوضع السياسي، فظللت أستجوبه حتى اعترف. سالي، مرة أخرى تلك المرأة. قال لي إنها منذ بدأت الثورة وهي في قلبها، وكانا معا في كل المعارك والمواجهات، من فوق أسوار أمن الدولة في مدينة نصر وحتى شارع محمد محمود. ووضعت المؤسسة الإعلامية التي تملكها في خدمة قوى الثورة وائتلافاتها. إلا أنها بدأت منذ أحداث بورسعيد تفسح المجال بشكل غريب لفلول النظام السابق. في البداية أنكرت وراوغت ولفَّت ودارت، ثم اعترفت أخيرا أنه

لا خيار آخر أمامها، فالثورة تنحسر ولا بد لها من عمل حساب المستقبل. كان محمود مصدوما وغاضبا مثلما رأيته في الرئاسة يوم اكتشف خيانتها الأولى وضرب شريكها وطُرد. أخذ يهز رأسه في حنق، وكلما تحدث في الموضوع ازداد غضبه اشتعالا. ثم وقف مرة واحدة وهو يزعق بأعلى صوته: «صحيح، القحبة إن تابت عرّصت». ومضى خارجا تاركا إياي أتلقّى النظرات المستنكرة للجالسين حولنا في المقهى. الدرس المستفاد من هذه القصة أن لا تأخذ أصحابك المجانين إلى مكان محترَم.

كان عاما سيئا على الجميع.

اتصلت بي ميرفت وقالت إنها تتصل دون علم عفاف أختها، لكن حسن سُرقت كُلْيته ولا يعرفون ماذا يمكنهم فعله. ظننت أني لم أسمع جيدا، وبين استفساراتي المذهولة وتلعثمها فهمت أنه ذهب إلى المستشفى للعلاج من طلقات خرطوش أصابته في أثناء اشتراكه في احتجاجات لاظوغلي التي أعقبت قتل الشباب في مباراة المصري. ذهب إلى مستشفى خاصّ مجهول لأنه خاف القبض عليه إن ذهب إلى مستشفى عامّ، وقالوا له إن الأمر يحتاج إلى عملية لاستخراج عدد من طلقات الخرطوش المستقرة في جنبه الأيمن. وحين خرج بعدها اكتشف وجود خياطة كبيرة في جنبه، فقلقَت عفاف وأخذته لإجراء أشعة، وعندئذ اكتشفوا اختفاء كُلْيته اليمنى. أخذوا جيرانهم وأصدقاءهم وذهبوا إلى المستشفى، وبعد لفّ ودوران اعترف المستشفى بأنهم «أزالوا» الكُلْية مدّعين

إصابتهـا بالطلقات وبأنهـا كانت خطرا على حياتـه. لم يصدق أحد هذه الترهات، لكنهم لم يسـتطيعوا فعل شـيء. خافـوا من الذهاب إلـى الشـرطة، وفيمَ تفيد الشـرطة فـي أيّ حال؟ ذهبـت عفاف إلى نقابة الأطباء لكنها عادت مُحبَطة، ولا يعرفون إلى من يلجئون. فكر حسـن في اللجوء إلـى الصحافة، لكن الصحفي الـذي تَحدَّث معه أخبره أن قصصا مثل هذه تحدث طوال الوقت. فاتصلت بي ميرفت علّـي أسـتطيع المسـاعدة باتصالاتي. صُدمـت؛ أيّ بلد هـذا الذي يسـرق فيه الأطبـاء كُلْية مريض فـي أثناء علاجه في مستشـفى؟ كم نظاما اجتماعيا يجب أن ينهار حتى نصل إلى هذه النقطة؟ لكن ماذا أسـتطيع فعله؟ الاتصال بالمجلس العسـكري كي يبحـث عن كُلْية حسـن المسـروقة؟ تَحدّثت مع شـخصية أمنية في الرئاسة ووعدني بالمسـاعدة، لكنه سأل في استياء عن سبب وجود هذا الشخص في محيـط لاظوغلي في أثناء الأحداث. غمغمت بأنه ذهب لمشـاهدة ما يحدث، فنظر إليّ بارتياب ووعد بالمساعدة.

وقبل أن يمر شـهر على حديثي أنا ومحمود وعزالدين، وصلَت دوامة العملية الانتقالية إلى مرحلة المواجهة بين الإخوان والأجهزة الأمنيـة القابضة علـى الأمور في البـلاد. وصرنا كالجالسـين أعلى منحدر حادّ، ننزلق بسـرعة متزايدة نحو السفح ونحن نرقب انزلاقنا مستائين متعجبين كأننا مسلوبو الإرادة أمام جاذبية أرضية تشدُّنا إلى أسـفل دون مقاومة منا، حتى وقع ما وقع وانهارت العملية الانتقالية برُمَّتها في هُوَّة الحكم العسكري المباشر.

هل كان الأمر كله مؤامرة منذ البداية، أم سوء إدارة من المجلس العسكري وسوء تصرُّف من القوى السياسية؟ لن تعرف الإجابة عن هذا السؤال أبدا. مر على هذا الأمر ثماني سنوات، تبدلت فيها الأحوال أكثر من مرة، وسمعت خلالها شهادات عديدة من أناس شاركوا في الأحداث، لكل منهم رواية مختلفة لما جرى وأسبابه ومنطقه. حماي، اللواء القطان، وعدد من أعضاء المجلس العسكري أكدوا لي أن الحكم العسكري جاء ردّ فعل على الأحداث التي سبقته والتي عرَّضَت سلامة البلاد لخطر حقيقي، بالضبط مثلما تَدخَّل المجلس في يناير ٢٠١١، وأن لا شيء من هذا كان مدبَّرا أو في الحسبان أو حتى محل رغبة أو ترحيب. وليس لديّ ما يدعوني إلى الشك في إخلاص هؤلاء الرجال الذين عرفتهم لسنوات طوال. آخرون، من القيادات الأمنية التي أُطيحَ بها خلال الأحداث، حكوا لي عن صراعات مكتومة بين العسكر والأمن، وانقسامات ومناورات وطموحات وتحالفات ووعود لم يتم الوفاء بها. وآخرون، من رجال أعمال وسياسيِّي النظام القديم، روَوا أمامي تفاصيل مؤامرات وأموال وصفقات وخيانات معقَّدة، ناهيك بروايات السياسيين من الإخوان، والسلفيين، واليساريين، والليبراليين، وغيرهم. كل هذه الروايات تقصُّ جوانب مما حدث. الأمر يتعدى اختلاف الرؤى لنفس الحدث، فهناك جوانب مختلفة لهذا الحدث نفسه، ولعلها كلها صحيحة، على الأقل بدرجة ما. ليس لديّ معرفة شاملة كاملة بكل ما دار، ولا أظن أحدا غير الله

سبحانه وتعالى لديه هذه المعرفة. لكني أفضّل أن أرى ما حدث كأنه حريق كبير، أسهم في إشعاله كثيرون، بعضهم بإهماله وغبائه وبعضهم انتقاما، بعضهم طمعا وبعضهم سهوا وغفلة، ويظنّ كل منهم أن عمله هو الذي يفسِّر نشوب الحريق. لكن الحقيقة، والله أعلم، أنهم جميعا شاركوا في إشعاله. فلا تُتعِب نفسك يا بُنيّ في محاولة التوصل إلى معرفة حقيقة ما حدث بالضبط، وهل كان الأمر انتخابات مزوَّرة أم انتخابات ملغاة أم انقلابا أم إنقاذا أم صفقة... لا فرق بين هذه الروايات. المهم أنهم أشعلوها، واستولى العسكر على الحكم بدعوى إطفائها.

- ٦ -

تم بسط الحكم العسكري بشكل أذكى مما توقعه الجميع. فبعد حل البرلمان وبدء وقوع الأحداث تَدخَّل المجلس العسكري لتولِّي دفة الحكم، لكنه أعلن أنه سيتدخل لإنقاذ البلاد من الفوضى وتسليم السلطة بمجرد ملء الفراغ الدستوري والسياسي الذي نتج عن هذه الأحداث. لم يصدِّقه أحد بالطبع، واحتشدت مليونية ضخمة في ميدان التحرير تندِّد باستيلاء العسكر على السلطة. أذكر أن اللواء القطان كان عندنا في البيت ذلك المساء وقال لي إننا مخطئون، أنا و«أصدقائي»، وإن الغد سيحمل لنا مفاجآت لم نتوقعها. وفي الصباح، بالفعل، أعلن المجلس العسكري استقالته

بكامل هيئته، وتقاعُد أعضائه من الخدمة ومن أي مناصب عامة، وعودة القوات المسلحة إلى ثكناتها فورا، والبدء في مشاورات مع القوى السياسية لتشكيل مجلس رئاسي مدني عسكري مشترك يتولى الحكم لفترة انتقالية يتمّ في أثنائها إعداد دستور للبلاد والإشراف على الانتخابات التي تلي إعداد الدستور.

نزل هذا الإعلان كالصدمة على الجميع، وبرّد كل السخونة التي تراكمت منذ حلّ البرلمان وبدء الأحداث. فقد كان الجميع مقتنعا أن العسكريين لن يسلموا السلطة. أيدت القوى المدنية والثورية هذا الإعلان كما أيده السلفيون والأحزاب التقليدية، ولم يبقَ في المعارضة سوى جماعة الإخوان المسلمين الذين نزلوا إلى الشوارع احتجاجا على حل البرلمان وبقية الإجراءات التي عطّلت انتقال السلطة لرئيس مدني منتخب. لكن الإخوان وجدوا أنفسهم وحدهم، فالسلفيون اتفقوا مع المجلس العسكري، والقوى الديمقراطية كانت غاضبة على الإخوان واستئثارهم بالسلطة خلال الشهور التي سبقت تلك الأحداث. أما عامة الشعب فقد ارتاحت لحزمة الإجراءات التي أعلنها المجلس، وأدَّت استقالة أعضاء المجلس العسكري إلى استعادتهم لثقة أغلبية الشعب. ومن ثَمَّ لم تؤدِّ التظاهرات المليونية للإخوان في ميدان التحرير إلى شيء. وحين صعَّد الإخوان احتجاجاتهم وبدءوا يحتلُّون الطرق والمباني العامة ويوقفون الخدمات قامت الأجهزة الأمنية بإلقاء القبض على كل قياداتهم العليا والوسيطة في يومين، دون أن يثير ذلك اعتراض

أحد. بل على العكس، ساد ارتياح عامّ الأوساط الشعبية والسياسية على حد سواء.

في اليوم التالي بدأت مشاورات تشكيل المجلس الرئاسي الذي تَقرَّر أن يضم خمسة أشخاص: اثنين من المدنيين واثنين من العسكريين ويرأسه قاضٍ. اتصل بي اللواء القطان وطلب مني التشاور مع أصدقائي واقتراح أسماء لمن يشارك في هذه المشاورات، وفعلا اقترحتُ عليه بعض الأسماء بناءً على نصيحة عزالدين ومحمود اللذَيْن اشتركا في المشاورات الرسمية. كانا متفائلَيْن في البداية، لكن بعد عدة أيام من الاجتماعات التقياني غاضبَين، وقالا إن الموضوع كله خدعة، وإن المجلس العسكري لا يريد سوى واجهة مدنية له، ثم أعلن معظم القوى السياسية المدنية مقاطعته للمشاورات. استدعاني اللواء القطان واثنان من أعضاء المجلس وطلبوا مني التدخل مع أصدقائي لإقناعهم بالعدول عن الانسحاب. شرحت لهم ما فهمته من أصدقائي، وأبدوا تفهُّما لمنطقهم، لكنهم دفعوا بأهمية تغليب المنطق العملي وعدم الاستسلام لأحلام رومانسية قد تدمِّر العملية برُمَّتها. فليس من المعقول ولا الممكن الانتقال مرة واحدة إلى حكم مدني خالص، ديمقراطي بالكامل، ومن هنا جاءت فكرة المجلس المشترك، وهو خطوة إلى الأمام، وأفضل من ترك الساحة لآخرين أو قصره على العسكريين. وختموا حديثهم بتأكيد أن هذه مرحلة مصيرية، يتوقف عليها مستقبل مصر كله، ومن ثَمّ ضرورة تنحية

المواقف المتشددة جانبا والقبول بحل وسط كي يسير المركب. لم أكن مقتنعا تماما، لكني قلت لهم ما عندي ولم يغير ذلك من موقفهم، كما أن لمنطقهم وجاهته، فقلت لنفسي وقتها أن لا ضير من المحاولة، وإعطائهم فرصة لإتمام عملية التحول التدريجي نحو الحكم المدني.

لكن لا محمود ولا عزالدين اقتنعا بالعودة إلى المشاورات، وفي النهاية لم ينضمّ إلى المجلس الرئاسي سوى حزب الوفد، وشخص آخر ينتمي إلى حزب التجمع، لكن الحزب فصله بعد انضمامه، هذان هما المدنيان. إضافة إلى عضوين عسكريين وقاضٍ كبير تَبيَّن أنه كان في الأصل عسكريا، لكن عُيِّن في سلك القضاء منذ عدة سنوات. ورغم استياء القوى السياسية كلها من هذه التركيبة، وتشكُّك الرأي العام في مدى مدنية هذا المجلس، فقد جرى الإعلان عنه والاحتفاء به بوصفه بداية جديدة لعملية انتقال ديمقراطي صحيحة تتفادى أخطاء العملية الفاشلة التي سبقت والتي أدخلت البلاد في فوضى أفزعت الجميع.

وفي اليوم التالي لتنصيب هذا المجلس، أعلن كل أعضاء المجلس العسكري تقاعدهم وخروجهم من الخدمة في مشهد مهيب، وحلّ محلهم ضباط جدد أصغر سنا تَسلَّموا قيادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة بدلا من هؤلاء الذين تقاعدوا، وأعلنوا في أول اجتماع لهم دعمهم للسلطة الرئاسية الجديدة وعودة القوات المسلحة للتفرغ لمهمتها الأصلية في حماية سلامة

واستقلال التراب الوطني. وفي نفس اليوم أقسم سعيد الدكروري اليمين الدستورية أمام المجلس الرئاسي كرئيس لحكومة انتقالية ضمَّت اللواء القطان وزيرا للدفاع، كما ضمَّت وجوها جديدة في كل الوزارات ـ عدا وزيرة التعاون الدولي التي احتفظت بموقعها.

كان واضحا للجميع منذ اليوم الأول أن المجلس الرئاسي هذا ليس أكثر من واجهة، بالكاد، للحكم العسكري. لكن رد الفعل كان خافتا. استقر الإخوان في السجون وخفتت احتجاجات قواعدهم سريعا، ولزم السلفيون الصمت وفقا لاتفاقهم مع العسكر، وباستثناء الإدانات اللفظية وبعض الوقفات الاحتجاجية الرمزية لم يفعل أحد من القوى الثورية والمدنية شيئا يُذكر، إذ قرروا النأي بأنفسهم عن صراع بين ديناصورَين سينهك كلٌّ منهما الآخر. وكان تدخلهم إلى جانب الإخوان سيجعلهم ـ إن انتصروا على العسكر ـ يعودون إلى دور الأخ الأصغر الذي سئموه، فقرروا بدلا من ذلك الاكتفاء بمظاهر الاحتجاج، مع تركيز طاقتهم في تنظيم صفوفهم من جديد استعدادا لمواجهة مع أحد الديناصورات فيما بعد. وقد كان. أما عموم الشعب فقد انتابتهم راحة، جزء منها نتيجة هدوء الفزع الذي أثاره المتطرفون خلال عامَي الثورة، وجزء منها لأن ذلك بدا كأنه عودة للحياة الطبيعية، تلك التي اعتادوها ويعرفونها ويعرفون كيف يدبِّرون أمرهم في إطارها. وكذلك كان موقف المجتمع الدولي مائعا، فقد وفر المجلس الرئاسي غطاء وجه للحكومات الأجنبية التي تتبنى تأييد الديمقراطية كسياسة لها، فاعتبروها خطوة

في الاتجاه السليم، أما الحكومات ذات الوجه المكشوف فلم تحتَجْ إلى غطاء وأعربت عن سعادتها بعودة الاستقرار لمصر.

وسط هذا الإذعان العامّ عاد الحكم إلى القصر الرئاسي. وتم تعيين المقدم المنيسي رئيسا لديوان رئيس الجمهورية، وطلب مني القيام بوظيفة سكرتير الرئيس للمعلومات. وبعد تفكير لم يطُل قبلت بالمهمة. لو سألتني وقتها لِمَ قبلتُ لأجبتك بأني صدّقتهم، وأمّلت أن تكون هذه الفترة مرحلة انتقالية حقيقية تصحِّح الأخطاء التي وقع فيها المجلس القديم وتضع البلاد على الطريق السليم. وأيدني في هذا عزالدين فكري. حتى محمود شجّعني على قبول الوظيفة المعروضة عليّ، رغم أنه لم يرَ فيما جرى أكثر من انقلاب عسكري قامت به الدرجات الوسطى ضد القيادات العليا والمدنيين المنتخَبين في آنٍ واحد. لكن بشكل أو بآخر كنا نأمل في أن يكون لوجودي داخل الحلقة الضيقة لصنع القرار أثر إيجابي على مجريات الأمور. كذلك أستطيع لوم أمّك على هذا، أو حتى لومك أنت، وأن أدّعي أن قبولي بالوظيفة هذه جاء من باب الشعور بالمسئولية عنكما، والرغبة في توفير نفس مستوى الحياة والأمان والحماية الذي اعتدتماه، خصوصا وأنت في بداية مرحلة المراهقة الحرجة ووسط بلد متقلب. لكن هذا غير حقيقي، فقد صار جدك وزيرا للدفاع في بلد يحكمه العسكر، فأي حماية أكثر من هذه؟!

حين أفكر الآن في الأمر، أعتقد أن قبولي هذه الوظيفة لم يكن فقط لهذه الأسباب، بل لأني خفت. خفت أن أخرج من القصر

الرئاسـي إلى عالم لا أعرفه. صحيح أن الثورة فتحت لي آفاقا كنت أجهل وجودها، وجعلتني أكتشف مِصر أخرى غير تلك التي عرفتها من قبل. وصحيح أن ذلك فتح في حياتي أبوابا لبهجة جديدة عليّ، وصرت أرى حياتي القديمة ضيقة ومحدودة وأتعجّب كيف قضيت أربعين عاما في هذا الإطار الخانق. لكن حين جاءت لحظة الاختيار بيـن أمان ما أعرفه واعتدته، والمجهول، خفت الخروج من المكان الوحيـد الذي أعـرف فيه الأمان، خفـت أن أضيـع إن تركت العالم الوحيـد الـذي لي فيه قيمة وأصبـح عالة على أصدقائـي أو حماي. بالمقارنـة مع هذا الضيـاع المحتمَل، كان المقدم المنيسـي يعرض علـيّ الجلوس بجوار العرش، وربما القدرة على التأثير في قراراته. ومن ثَمَّ قبِلت.

ومـع عودة الحكم إلى القصر الرئاسـي انفـضّ المولد في وزارة الدفـاع. تـم إسـقاط جميع التهـم الموجَّهـة إلى مدنييـن والأحكام الصـادرة بحقهـم مـن القضـاء والنيابـة العسـكريِّين، وانسـحبت الشـرطة العسـكرية من الشـوارع، وأُعيـدَ الحظر على نشـر أي أمر يتعلق بالقوات المسـلحة دون إذن مُسبَق، ولم يعُد أحد يسـمع عن العسـكريين شيئا. أما السـيد وزير الدفاع؛ اللواء القطان، فقد توارى عن المشـهد السياسـي برمته مركزا جهده كله على «تطوير» القوات المسلحة. ولم أفهم ماذا كان يفعل حتى وقت متأخر.

وفي إطار تطعيم السلطة بالمدنيين من أبناء الثورة عرض المقدم المنيسـي على عزالدين فكري ترك الجامعة والعمل متحدثا رسـميا

باسم المجلس الرئاسي. ناقشه عزالدين كثيرا في هذا العرض، في حضوري، محاولا إقناعه. وأكَّد له أنه لن يكون مجرد بوق للمجلس الرئاسي وإنما سيشارك في وضع السياسة نفسها كي يتمكن من الدفاع عنها. شرح له أن المطلوب ليس متحدثا رسميا بالضبط وإنما مستشار، سياسي وإعلامي، يشارك في صياغة القرارات كي تلقى قبولا من الناس. وبدا أن الأمر يروق لعزالدين، لكنه رفض العرض في النهاية. وحين سألته على انفراد قال إن لديه أشياء أخرى أكثر أهمية يفعلها. سألته ما هي، فأجاب بثقة: «الإعداد للانتخابات المحلية». استغربت، ولم أفهم إلا متأخرا.

ومع إحكام قبضة العسكريين على البلاد واختفائهم من المشهد في نفس الوقت بدأت الناس تشعر بالاستقرار والطمأنينة التي افتقدوها لسنوات. حتى ندا؛ أمك، عادت إلى ابتساماتها المُحكَمة، وعدت أنت للذهاب إلى المدرسة كل يوم دون إجازات ممتدة، وتوقف إبراهيم زوج أختي عن التخطيط للسفر إذ عادت السياحة بسرعة للانتعاش. كأن الجميع كان متعطشا للعودة إلى هذه الحياة. حتى محمود وسالي عادا لبعضهما البعض مرة أخرى، وتوسعت سالي في مؤسستها الإعلامية وساعدها محمود في ذلك. كما بدأ المجلس الرئاسي مشاورات مع القوى السياسية لكتابة دستور جديد وإعداد قانون للانتخابات، وبدا لعدة شهور أن كل شيء يسير في طريقه بهدوء... لكن هذا الهدوء كان أكثر هشاشة مما ظننت...

- ٧ -

بدأت سلسلة الأزمات في ٢١ مارس في العام التالي، ٢٠١٣، بحادثة أمنية بجوار أرض اللواء. توجه مسئولون من المحافظة مدعومين بقوة من الشرطة إلى منطقة قريبة من أرض اللواء لتنفيذ أمر إزالة لخمس عمارات أقيمت دون ترخيص على أراضٍ زراعية. حاول أصحاب العمارات تأجيل تنفيذ قرار الهدم لكن القوة مضت في طريقها، فاستنجد أصحاب العمارات بمالكي الشقق وأهاليهم لمنع القوة من هدم البيوت، وتطور الأمر إلى اشتباكات وقع فيها ثلاثة قتلى؛ اثنان منهم من قوة الشرطة. انسحبت الشرطة لكنها عادت في الليل للقبض على الجناة، فوجدت الأهالي متحصنين بالعمارات، ووقعت اشتباكات أكبر أدّت إلى تدخُّل مزيد من الأهالي حتى أصبح موقف قوة الشرطة حرجا. فاستنجدت القوة بوزارة الأمن الداخلي التي أرسلت تعزيزات لإنقاذ الموقف. وفي خلال أربع وعشرين ساعة تحول الوضع في أرض اللواء إلى حرب، وسقط ضحايا كثيرون من الجانبين، ومع سقوط الضحايا اشتعل الموقف أكثر وامتدّ ليشمل مناطق ناهيا وصفط اللبن وبولاق الدكرور حتى كفر طهرمس. ثم أعلنت جماعة مجهولة عن اختطاف دورية شرطة تضمّ أربعة ضباط بينهم عميد، وخمسة عشر جنديا بأسلحتهم وسياراتهم. وكرد فعل لذلك طوقت الشرطة المنطقة الواقعة غرب شارع السودان بأكملها، وأقامت المتاريس وبدأت حصارا مفتوحا للمنطقة حتى يعود المخطوفون. حاولنا

التوسط لدى الخاطفين، حتى إني اتصلت بعفاف أسألها إن كانت هي أو حسن يعرفان أحدا له علاقة بما يحدث، فضحكت بمرارة ونفت معرفتها بما يحدث، قائلة إن بيتها بعيد عن الأحداث وإن أرض اللواء لا يعرف كل سكانها بعضهم بعضا. حاولت مع أصدقائي الثوريين وغيرهم علّ أحدا يستطيع التوسط لكن أحدا لم يقبل الوساطة ونأى الجميع بنفسه عن المشكلة. حتى اللواء القطان رفض تدخُّل الجيش في الأزمة، قائلا إنها ثقب أسود يمكن أن يبتلع من يدخله. ومن ثم طلبنا من حكومة الذكروري التعامل مع المشكلة بطريقتها... واستمر الحصار.

بعد هذه الحادثة بأيام بدأت الاحتجاجات تظهر في مناطق أخرى من المدينة، هذه المرة لأسباب فئوية تتعلق بالأجور أو بأسعار السلع وتوفُّرها. كان الاحتياطي النقدي قد نفد منذ شهور، ورفضت الحكومة الشروط القاسية التي وضعتها مؤسسات التمويل الدولية لأنها كانت ستؤدِّي إلى رفع أسعار الوقود والخبز أكثر من ضعفين، بما يعني إشعال البلد فورا. وفي نفس الوقت لم يتطوع أحد بمدّ يد المساعدة المالية، فاضطُرّت الحكومة إلى تمويل العجز بطبع مزيد من أوراق النقد. لم ينهَرْ الاقتصاد، فقد كانت السياحة مستقرة نسبيًا واستمر الدخل الآتي من قناة السويس ومن الصادرات في تأمين مستوى معقول من الدخل القومي. لكن الأزمة كانت تتزايد، ببطء ولكن بشكل مستمر، مثل سفينة تغرق شيئا فشيئا. ولم يمكِّن ذلك الوضع المالي الحكومة من رفع الأجور كما وعد المجلس

الرئاسي ،أو إدخال أي إصلاحات في أي مجال، بل على العكس، زاد التضخُّم باطِّراد وبدأت شكوى الناس تزداد. لم يكن لدى المجلس الرئاسي - ولا العسكر القابعين من خلفه - حل للمطالب الفئوية التي عادت تطل برأسها بقوة، فلجأ إلى القوى السياسية من أجل التوصل إلى حل لكن أحدا لم يقدم شيئا مفيدا. لم يكن من الممكن الاستجابة لهذه المطالب، ولا قمعها. فظلت الحكومة تسوِّف وتماطل، مما أطال فترة الاحتجاجات والإضرابات، وبدأت قطاعات أخرى تنضمّ إليها.

وفي منتصف إبريل نشرت اللجنة المشكَّلة لكتابة الدستور الدائم مشروعها. لم أكن شخصيا راضيا عنه، ولا المجلس الرئاسي بمن فيه رئيسه؛ القاضي العسكري. وأجرينا مناقشات لمسوَّدته مع عدد من رموز القوى السياسية سرا، بمن فيهم صديقي عزالدين ومحمود اللذان اكتسبا نفوذا واسعا في أوساط الليبراليين واليساريين. ولم نلمس رضاء أي مِمَّن ناقشناهم عن الدستور المقترح. وشرحت هذا لأعضاء المجلس الرئاسي العسكريين، وللواء القطان وبعض مساعديه ممن أعلم أن لهم نفوذا على المجلس. لكنهم لم يهتموا، وقالوا إن هذه القوى ستعترض في كل الأحوال، ثم سيتقبلونه مع الوقت، ربما بعد تعديل مادة أو اثنتين. لم أقتنع، وحاولت شرح وجهة نظري لكنهم لم يستمعوا، فصمتُّ، وقلت لنفسي دعهم يرون بأنفسهم، ربما كانوا مُحِقِّين. لكنهم كانوا مخطئين، فقد رفضت جميع القوى السياسية مشروع الدستور فور إعلانه، واعتبروه مجرد نسخة منقحة من دستور ١٩٧١ . وبدأت

سلسلة من الاحتجاجات والتظاهرات أدهشتني حيويتها. كنت أظنهم قد نسوا الاحتجاجات الشعبية.

محمود بشير وعزالدين كان عندهما ـ كالعادة ـ تفسير لقوة التظاهرات؛ استكان الجميع للحكم العسكري على أساس تهدئة الوضع وتجميع الصفوف، أو على أمل أن تسفر المرحلة الانتقالية الجديدة عن شيء أفضل. حتى هؤلاء الذين وصفوا ما حدث بأنه انقلاب عسكري مقنَّع اختاروا الانتظار حتى يرتاح الشعب ويلتقط أنفاسه، وحتى لا يُتهموا بنفاد الصبر والعجلة. أما الآن، وقد تمخض الجبل فولد فأرا، فلم يعد للإحجام من مبرر.

الأخطر من تحرُّك القوى السياسية المدنية ومؤيديها كان تحرك السلفيين، فهؤلاء قبِلوا التعاون مع العسكر مقابل تغيير نصوص محددة في الدستور تجعل تطبيق الحدود الشرعية بنصها واجبا ـ الجلد وقطع اليد والرجم وضرب العنق وغير ذلك ـ لا استلهام مبادئ أو روح أو مقاصد الشريعة مثلما ينصّ مشروع الدستور. العسكر القابعون خلف المجلس الرئاسي، في لؤمهم المفضوح، لم يكن لديهم أي نية في إدخال هذه التعديلات على الدستور، لكنهم كانوا يحتاجون إلى دعم السلفيين في مواجهتهم للإخوان فرضخوا. أما الآن وقد حانت ساعة الحقيقة، فقد أسقطوا هذه التعديلات من المشروع، وجُنّ جنون السلفيين. أغرقوا الشوارع والميادين في مشاهد أعادت إلى الأذهان أيام ما قبل الانقلاب، ثم بدأ بعض الجماعات السلفية المتناثرة في حمل السلاح ضد ما أسموه «الحكومة الكافرة»، بدءوا في المناطق

النائيـة في مطروح والوادي الجديد وسـيناء، ثم ظهرت لهم جيوب فـي العشـوائيات والمناطـق الفقيـرة. ويُعتقد أنهم هـم من اختطف دورية الشـرطة فـي أرض اللواء. وقـد ألَّب ذلك بقية الشـعب على المجلـس الرئاسـي والعسـكر من خلفه، فقـد تنازلوا عـن جزء من حريتهم وأحلامهم مقابل الاسـتقرار والأمان مـن الفزع الذي يثيره فيهـم السـلفيون، والآن وجـدوا أنفسـهم وقد خسـروا الاثنين معا. وهكذا، زاد التذمر من المجلس الرئاسـي والعسـكر القابعين وراءه يوما بعد يوم.

لـم تكن تلك الأزمات بركانا سـيفجر الموقف، بل كانت أقرب إلى السـاعة الرملية المقلوبة التي كانت تظهر فـي «ويندوز» القديم أثنـاء تنفيـذ الكمبيوتر لأمر معقَّـد. الوقت ينفد. هذا مـا كانت تلك الأزمـات تشـير إليه. وسـواء فهم العسـكر هـذا أم لـم يفهمـوه، فإن الناس العاديين فهموا أن عودة تلك الأزمات تعني بداية تبدُّد الراحة المؤقتة التي نعموا بها. ومثل الفئران التي تفرّ من السفينة قبل غرقها، شـرع إبراهيـم زوج أختي فـي الإعداد للسـفر. هذه المـرة لم تقلل صفية من أهمية ما يفعل، بل قالت إن عمله من القاهرة أصبح صعبا ولا يمكن الاعتماد عليه، كما أنها تشـعر بالاختناق، حتى المسـجد الـذي تعطـي فيه دروس القرآن منذ عشـر سـنوات لـم تعُد تسـتطيع الذهاب إليه بعد اسـتيلاء السـلفيين على إدارته، بمعرفة المسئولين في وزارة الأوقاف. ومن ثَمَّ وافقت إبراهيم على الاسـتقرار في دبيّ مـع أولادهـم الثلاثـة لعامين أو ثلاثة حتى تتضـح الصورة. كان هذا القرار طعنة في قلبي، لا أقلّ. فصفية أقرب الناس إليّ وآخر من بقي

لي من العائلة. ومنذ وفاة أبي، ثم وفاة أمي، لم يعد لنا سوى بعضنا. حتى عمر الذي يعيش في إيطاليا نفَّذ تهديده وقطع الرسائل القليلة والمكالمات النادرة التي كنت أتلقاها منه. لم يكن لي أحد سواها، والآن سترحل أختي المحجَّبة حافظة القرآن، بسبب السلفيين!

لـم تعلِّق أمك على قرار صفية، وإن قالت نظرتها بجلاء ما يدور في ذهنها. وأصبحت تصرّ على اصطحابك بنفسها إلى المدرسة والذهاب لإحضارك. وكنت أنت أيضا مندهشا من ذلك، لكننا كلينا لم نقُل شيئا. اللواء القطان، الذي صرت أدعوه سيادة الوزير، كان حذرا في تفاؤله. وعند الحديث عن المستقبل والسفر والاستقرار كان يغيّر الموضوع ويقول إن لكل وقت أذانا. وقد عزونا ذلك إلى انشغال ذهنه بالواجبات اليومية للوزارة وعدم استعداده لإنفاق وقته أو تركيزه على أمور بعيدة. فمنذ تعيينه وهو يعمل تقريبا ثماني عشرة ساعة في اليوم، إذ بدأ عملية إعادة تنظيم شاملة، خصوصا مع إحالة كل الضباط الأقدم منه إلى التقاعد فور تعيينه. احتفظ لنفسه برتبة اللواء، وقلل عدد اللواءات العاملين، في حين نقل كثيرا من المسئوليات القيادية إلى رتب أصغر كي يفتح الباب لمشاركة أكبر من الرتب الوسيطة في إدارة الجيش. وقد أدَّى ذلك إلى ضخِّ دماء جديدة في كل مواقعه تقريبا، وإلى استبعاد كثيرين أيضا. وفي حين احتفظ قادة الأفرع الرئيسية بالسلطة الحقيقية في البلاد، فإنهم حرصوا على ممارستها من خلال المجلس الرئاسي، ولم يظهر أحد منهم على شاشة تلفزيون أو يصدر تصريحا أو حتى ـ في حالة بعضهم ـ عُرف له اسم.

أما المجلس الرئاسي الذي عملت معه فقد أصبح هاجسه الرئيسي هو كيفية التصرف حيال الأزمات التي تمتدّ كل يوم لتضمّ قطاعات جديدة. كنا نشعر أننا نجلس فوق قمة ماكينة ضخمة تتيبَّس أجزاؤها يوما بعد يوم وتتوقف عن العمل تدريجيا دون أن يكون لدينا المال أو القدرة على إصلاحها. وكلما حاولنا إعادة تشغيل جزء توقف جزء آخر. أجرينا كثيرا من المشاورات، والاجتماعات، والمقابلات، بهدف جمع أكبر قدر من المقترحات. ومر بين يدَيّ مئات المذكرات التي تحمل أفكارا ومشروعات لمواجهة هذا التذمر المتزايد بين فئات الشعب. معظم هذه الاقتراحات سقيم وجاهل كمن كتبه، وبعضها فيه رمق من فائدة. لكن الكارثة الكبرى كانت علمي التامّ أن المجلس الرئاسي هذا لن يفعل شيئا لتهدئة التذمر، لا هو بأعضائه الخمسة الضعاف التائهين، ولا القادة العسكريون المختبئون وراءه. لا المال عندهم، ولا الرؤية، ولا التأييد، ولا القدرة السياسية. ومن ثَمَّ لم يكن أمامهم إن أرادوا تجنب السقوط في الفوضى سوى اللجوء إلى تشديد القبضة الأمنية. وكانت وزارة الأمن الداخلي قد تم إعادة تنظيمها وتسليحها وتجهيزها بناءً على اتفاق خاصّ تَوصَّل إليه اللواء القطان مع الجانب الأمريكي، تم بمقتضاه توجيه جزء من المساعدات العسكرية لتمويل إعادة بناء الشرطة وبقية أجهزة الأمن. وباكتمال هذه العملية، ظل وزير الأمن الداخلي يتحين الفرصة لاستعادة سيطرة وزارته على الأمور. وهو الأمر الذي كان اللواء القطان وبقية زملائه يشجِّعونه على القيام به.

- ٨ -

كنا في الاجتماع اليومي المسائي حين جاءتنا أنباء هجوم الأُلتراس. نظرت في الورقة التي جاءتني وفركت عيني غير مصدق. ولما رأيت أن محتويات الورقة لم تتغير بعد الفرك أعطيتها للرئيس. نظر القاضي المبجل فيها مطولًا ثم أعطاها بملل ظاهر لزميليه العسكريَّيْن، العميد هشام والعميد مدحت. تشاركا النظر في الورقة وبدأ صوتهما يرتفع بالسباب وقاما واقفين وهما في منتصف القراءة. العضوان المدنيان، الدكتور سيد والدكتور رفعت، ظلا يسألان عن محتوى الورقة، لكن العميد مدحت لم يفلتها من يده وقام خارجًا يتصل بالتليفون وتبعه العميد هشام وهو يسب بالدين. أمسك القاضي رأسه بكلتا يديه وأخذ ينظر إلى المنضدة في صمت. الدكتور سيد يسأل القاضي في رتابة عما حدث، ولا القاضي يرد ولا الدكتور سيد يكف عن السؤال، في حين قام الدكتور رفعت يسعى خلف العميد مدحت وهشام. أخيرا تنبه الدكتور سيد أني مصدر الورقة فسألني عما فيها. قلت له: وزير الأمن الداخلي يفيد بقيام عناصر من تنظيم «كتائب الأُلتراس» المحظور بقتل اثنا عشر ضابطا وثمانية من المدنيين هذا المساء خنقا بكوفيات عليها علامة النادي الأهلي، ونشر صور القتلى على الإنترنت. سألني عن هوية القتلى فأكدت له أنهم هم الذين سبق تبرئتهم في قضية أحداث مباراة الأهلي والمصري.

هكذا بدأتْ سلسلة الكوارث.

ظللنا ليلتها جالسين لا نفعل شيئًا. طلب القاضي الرئيس مني تنظيم اجتماع للمجلس الرئاسي بحضور الدكتور الدكروري ووزيرَي الأمن الداخلي والدفاع. لكني حين هاتفت اللواء القطان اعتذر عن الحضور باعتبار القضية تخص الأمن الداخلي. أما وزير الأمن الداخلي فلم أتمكن من العثور عليه، وتبين لي فيما بعد أنه كان مجتمعًا مع اللواء القطان في بيته. حتى العضوان العسكريان، مدحت وهشام، لم يعودا لمبنى الرئاسة، فلم أر ضرورة للاتصال بالدكروري. وظللنا نحن الأربعة؛ الأعضاء الرئاسيين الثلاثة وأنا، ننتظر حدوث شيء حتى قاربت الساعة منتصف الليل، فقرر القاضي تأجيل الاجتماع للغد. وكان هذا قراره الوحيد تلك الليلة، والأخير.

لم نجتمع في الصباح. ففي الرابعة صباحًا أيقظني اللواء القطان بالتليفون ليقول لي إن إسرائيل شنَّت هجوما مباغتا على المنشآت النووية الإيرانية، ويطلب مني الحضور فورًا لمكتبه. أسقط في يدي؛ تردد الحديث عن مثل هذا الهجوم لسنوات حتى اعتدنا عليه واستبعدنا وقوعه، لكنه وقع. وكنت أعلم أن هذه كارثة، ليس فقط على إيران والمنطقة، بل على استقرار مصر نفسها. وَمَض ذلك كله في ذهني في أقل من ثانية، وسألت القطان إن كان يريدني أن أبلغ المجلس الرئاسي فقال إن هشام ومدحت عنده، وإنه سيبلغ الباقين فيما بعد لتفادي البلبلة. أقص عليك هذه التفاصيل لتعرف كيف كانت تدار الأمور أثناء هذه الفترة. كنت قد اعتدت هذه الطريقة؛ سألته وأنا أتوقع إجابته. حتى الثلاثة الآخرون، القاضي وشريكيه، كانوا قد اعتادوها.

ذهبت للوزارة فوجدت القطان مع كبار مساعديه في «غرفة العمليات»، وهي قاعة اجتماعات كبرى بها خرائط كبيرة وبعض الوسائل الإلكترونية البسيطة. جلست أستمع للشرح، وأدركت لحظتها أن الكارثة قادمة لا محالة. نظرت للواء القطان فوجدت وجهه شاحبًا وملامحه متجمدة، فعرفت أني لست وحدي في تقديري المتشائم. استمر القصف الإسرائيلي لإيران لمدة أربعة أيام، واتهم السلفيون والإخوان حكومة الدكروري والمجلس الرئاسي بالتواطؤ مع إسرائيل. وأقول لك كشاهد أن هذا غير حقيقي، بل إن اللواء القطان ظل يسب في الأمريكان والإسرائيليين ويصفهما بالخسة والخداع، حيث أعطته كلتا الدولتين تأكيدات بعدم نيتهما شن مثل هذا الهجوم. وبعد أربعة أيام من تلقِّي الضربات بدأت إيران تردّ من خلال حزب الله في لبنان الذي أمطر حيفا وتل أبيب بوابل من الصواريخ، فقامت إسرائيل بقصف الأراضي اللبنانية. وحين انضمَّت حركة حماس إلى المعركة من غزة ردَّت إسرائيل بقصف وحشي للقطاع حتى الحدود المصرية، وأشاع السلفيون والإخوان أنها قصفت خط الحدود بالكامل، بل وتجاوزته في مطاردتها لعناصر حماس داخل الأراضي المصرية، واتهموا مرة أخرى المجلس الرئاسي وحكومة الدكروري بالتواطؤ، لكنهم هذه المرة كانوا على حق. لم يكن الأمر تواطؤًا بالضبط، بل غيابًا للخيارات. لم يكن هناك شيء يمكن فعله: لا نستطيع مطاردة عناصر حماس أو منعها من الرد على قصف إسرائيل للقطاع وإلا اتهمنا بالقتال إلى جانب إسرائيل. كما لا نستطيع منع الإسرائيليين من القيام بذلك

بأنفسهم وإلا اعتبرونا طرفًا في القتال معهم. وكلا الأمرين يستحيل علينا التورط فيه، فتركناهم لبعضهم البعض.

ثم بدأت الصواريخ الإيرانية نفسها في الهطول على إسرائيل، وعند هذه النقطة تدخلت الولايات المتحدة مباشرة في القتال. وأستطيع أن أقول لك إنه حين وقع ذلك، في اليوم السابع للحرب، أدركنا ـ اللواء القطان وأنا ـ أن نظام الحكم في مصر قد دخل أيامه الأخيرة. خرجنا من الاجتماع وأخذني على جنب وطلب مني العودة للمنزل وإعداد نفسي وندا وأنت للسفر. حدقت فيه مذهولًا فأومأ برأسه في صمت. قلت له إني باقٍ، وتناقشنا دقائق معدودة لكن كان عليه الذهاب فلم نكمل الحديث وظل يشير لي بسبباته وهو ماضٍ.

عبرت السفن الأمريكية من قناة السويس على مرأى ومسمع الجميع، واستخدم الأمريكان المجال الجوي المصري. أنكرت المتحدثة باسم الحكومة، قائلة إن ذلك تواطؤ في قتال ضد دول عربية ومسلمة لا يمكن لحكومة مصرية أن تقوم به. لكن مسئولين عسكريين أمريكيين أكدوا ذلك في شهاداتهم أمام الكونجرس بعدها بيوم واحد، وأوضحوا أن هذه ترتيبات عسكرية متفَق عليها بين الجانبين، وتم تفعيلها مرارًا. وطبعًا أشعلت هذه التصريحات الوضع الداخلي أكثر. اتصل محمود بي في ذلك المساء نفسه من عند حسن وعفاف وميرفت في أرض اللواء، وحذرني من أن البلد كلها تغلي، ولا أحد يعلم من الذي يقود هذا الغضب العارم، لا هو

ولا أي من التنظيمات الثورية التي يعرفها. ما قاله يتفق مع تقديرات أجهزة الأمن. لكن لا أحد لديه مخرج أو حل. أخبرته بذلك فارتاع أكثر، وصمت لحظة ثم نصحني - إن كان الحال كذلك - بالاستقالة علنًا، فورًا. ولما قلت له إني لا أستطيع التخلي عن عملي في أشد الأزمات أهمية اتهمني بالغباء والجبن، وأغلق الخط. اتصلت بعزالدين فوجدته هادئًا، وسألته عن رأيه فقال إن وقت الآراء فات ولم يعد هناك ما يمكن عمله، فهذا هو الانفجار الذي طالما حذر منه هو والقوي المدنية، وهو انفجار لا أحد يعرف من الذي يسيطر عليه، إن كان أحد يسيطر عليه. ثم نصحني بالرحيل بأسرع وقت من الرئاسة والبقاء في البيت.

لكني لم أرحل. كيف يمكن لي أن أرحل والسفينة توشك على الغرق هكذا؟ الدكتور سيد، عضو المجلس الرئاسي من حزب الوفد، هو الذي رحل. وتذكرت فئران السفينة حين علمت. حاول العسكريون «إقناعه» بالعدول عن الاستقالة لكنه رفض في صلابة لم أرَ لها أثرا لديه قبل اليوم. ثم تبعه العضو المدني الآخر بالمجلس الرئاسي، ممثل حزب التجمع المفصول من حزب التجمع. وشيئا فشيئا أعلنت القوى السياسية تبرُّؤَها من المجلس الرئاسي وترتيبة الحكم القائم الذي عاد عسكريا عاريا كما ولده من أقاموه. ومع استمرار العمليات العسكرية في الخليج ولبنان وعلى الحدود، تراجعت قوة الرد الإيراني وبدا واضحًا أنها ستنكسر في النهاية، مما أشعل غضب المتظاهرين أكثر. وتزايد احتشاد المظاهرات المنددة بالعسكر وحكمهم في ميادين مصر، وأصبح النداء واحدا:

سقوط حكم العسكر الذين فشلوا في السياسة والعسكرية على حد سواء، ومحاكمة قادتهم. لم نكن نعلم من الذي يقود هؤلاء الناس، ولا ماذا يمكن أن نعطيه لهم كي يهدأوا. وقبل أن نجد الإجابة تحولت المظاهرات لاضطرابات. وبدأ ذلك ـ كما تنبأ محمود بشير ـ في أرض اللواء التي لم تتعافَ من حربها القريبة مع الشرطة. ثم تبعتها بقية الأحياء الفقيرة، ثم العشوائيات المحيطة بالقاهرة وبقية المدن المصرية. لم يكن ما يحدث ثورة، بل انفجارا كاملا.

هذه المرة انهارت الشرطة في خلال يومين، رغم التجهيزات والمعدات والأسلحة الأمريكية. صبّ الغاضبون حقدهم المتراكم على عناصر الشرطة فقتلوا مئات منهم ومثلوا بجثثهم في مشاهد مروِّعة. وقُطعت الكهرباء بعد أن أسقط الغاضبون أبراج الضغط العالي في أنحاء متفرقة من البلاد. وفي محاولة يائسة لاحتواء الموقف، أعلن الدكروري استقالة حكومته وتكليف وزيرة التعاون الدولي بتسيير أعمالها إلى حين تشكيل حكومة جديدة. لكن ذلك لم يكن له أي أثر على الغضب الشعبي. وفي اليوم التالي توقفت شبكة المياه في معظم أحياء القاهرة وبعض المدن الأخرى، وتوقفت شبكات المواصلات بين المدن بالكامل. في مساء هذا اليوم المشئوم اتصل بي اللواء القطان من المطار ومعه ندا وأنت، وطلب مني الحضور فورا للحاق بالطائرة العسكرية التي ستقلهم إلى أثينا قبل إغلاق المطار. صُدمت. أعتقد أن أكثر ما صدمني أنه اصطحب زوجتي وابني دون أن يسألني، بل رغم معارضتي للفكرة من قبل. والذي صدمني أكثر هو ذهاب ندا بك دون أن

تحدثني في الأمر. رفضتُ الذهاب، وقلت له إني سأبقى، فسبَّني ووصفني بالعَتَه وقال إنه ندم كل يوم في السنوات الماضية على تزويجي بابنته، لكن ندمه اليوم أكبر من ندمه في كل الأيام السابقة، وأغلق الخط في وجهي. حاولت الاتصال بأمك فلم أستطع. كان تليفونها مغلقا أو قُطعت الشبكة، لا أدري. اتصلت بصفية ثم بزوجها إبراهيم فوجدت تليفوناتهم جميعًا مغلقة. جلست في مكتبي بالقصر الرئاسي في مصر الجديدة وأنا لا أصدق ما يحدث. هناك فارق كبير بين تحليل الخبراء والسياسيين للوضع، وتنبؤاتهم، وبين أن تحدث تلك الأمور فعلًا. ولم تتحقق كل النبوءات معًا؟ فات الوقت.

كنت أجلس في مكتبي لا أعرف ماذا أفعل حين سمعت أصواتا هادرة وتكسيرا، وقبل أن أفهم ما يجري بالضبط كانت الجموع التي اقتحمت أسوار القصر قد دخلته وبدأت في تحطيم ما تجده في طريقها والفتك بمن تجده وإشعال النار فيما تَبقَّى. دخل عليّ في المكتب ثلاثةٌ ممسكون بهراوَى وأشياء أخرى لا أعرف كُنهَها. انتزعني أحدهم من وراء مكتبي وألقاني على الأرض وبدءوا في ركلي هم الثلاثة. ظلوا يركلونني حتى فقدت الوعى، أو هكذا أظن. أتذكّر طعم السجادة في فمي وسلة المهملات تحت المكتب تملأ عيني وأقدام تمر من وقت إلى آخر. ثم وجه نظر في وجهي مليا وقال شيئا وغاب. ثم رائحة حريق، ودخانا كثيفا. ثم أصواتا أخرى، وبدأت أسعل من كثافة الدخان. ثم بدأ شخص ما في جرّي على الأرض، ثم فقدت الوعي تماما.

الفصل الثالث

-١-

كـم السـاعة الآن؟ تقارب العاشـرة صباحا. مضـى ربع الوقت. لا بـأس. مـا زال أمامـي ثمانـي عشـرة سـاعة؛ أعتقد أني سـأتمكن مـن سـرد القصة كلها لـك. مثلما تـرى يا يحيـى، أحيانـا أغرق في التفاصيـل وأحيانا أقفز فوق سـنوات بكاملها. سـامحني، فأنا أقصّ عليك الأشـياء والقصص الأقرب إلى قلبي، تلك التي مسَّتني أكثر، وتلك التي أظنها ستمسُّك وتؤثر عليك أكثر. وسامحني إن داهمني الوقـت واضطُـررت إلـى الاختصار فـي النهاية. سـآخذ اسـتراحة قصيرة، ربع سـاعة أو شـيئا كهذا. سـأغمض عينَيّ قليلا وأحاول أن أتوقف عن التفكير في الحكم العسكري، وفي الثورة، وفي الشحنة النوويـة القابعة في حاويات هذه السـفينة، وفي الطائرات التي لا بد أنهـم يجهّزونها الآن لتهبـط علينا في الفجر. سـأغمض عينَيّ قليلا

كـي أرتـاح، وأفصل روحـي عن كل هـذا، كي أتمكَّن مـن مواصلة هذا الخطاب.

...

أوشـكت علـى الموت فـي ليلة أول أغسـطس من ذلـك العام، ولسـت متأكـدا مَن الـذي أنقذنـي. آخر ما أذكـره كان الألـم الحادّ في ضلوعي وأحشـائي، عجزي عن الحركة، وشـعوري بأن نهايتي حانت، والأقدام التي تأتي وتروح وسلة المهملات التي تملأ عينيّ. كان هناك ورقة ممزقة وملقاة داخل السـلة وبعض كلماتها تبدو من فتحاتها: «وتَفضَّلوا بقبول وافر الاحترام». هذه هي الكلمات، وهي آخـر ما رأيته قبل أن أغيـب عن الوعي تماما. أخبرنـي محمود فيما بعد بأنه حين سمع بأنباء اقتحام القصر الرئاسي طلب إلى مجموعة من «الشـباب» دخول المكاتب والتأكد من سـلامتي إن كنت هناك. لكنهـم لـم يجدونـي، وأبلغـوه بـأن المحتجيـن أفرغـوا المكاتـب مـن العاملين ثم أشـعلوا فيها النيـران. ظل يومين يبحـث عني دون نتيجة، ثم شـاهدني أحد أتباعه الشـباب في مستشـفى عين شـمس مـع عشـرات ممن أصيبوا في الأحـداث، وأبلغه. تَوجَّـه على الفور إلى المستشـفى ووجدني في غيبوبـة ودون رعاية طبية حقيقية. فقد كان المستشـفى يعانـي من تدفـق المصابين ويعمـل بنصف طاقمه وبأدويـة ومواد طبية متناقصة وَسْـط فوضى عارمـة وفي ظل انقطاع للميـاه والكهرباء والاتصالات. لـم يكن أحد يعرف ما بي بالضبط، فأخرجنـي مـن هناك بمعونـة أصدقائه ونقلني إلى شـقة أحدهم في

ميـدان الجيزة بعيدا عن الأعين حتـى تهدأ الأمور. لم تكن إصاباتي الظاهـرة بالغة: بعض الحروق وضلوع مكسـورة وغيبوبة أفيق منها ثـم أعـود إليها. أتى بطبيبة شـابة فحصتني وأعطتـه تعليمات العناية بي، ووجد صديقه الشاب؛ عبده، ما يحتاج إليه في صيدلية محطمة الأبـواب بجـوار مستشـفي أم المصريين. كان البقاء في هذه الشـقة أفضـل وأكثـر أمانـا من المستشـفى مـن وجهـة نظـره، وكان محقا فـي ذلك، فعلـى الأقل لم يـأتِ أحد للبحـث عنـي أو القبض عليّ أو حتـى لقتلي، مثلما حدث لآخرين ممـن كانت وجوههم معروفة للمحتجين الغاضبين.

مـرت هـذه الأيـام ككابـوس متصل. هـل تعرف شـعورك حين تُصِيبُـك الحُمَّى، فتظلّ تنام وتسـتيقظ ولا تعرف إن كنتَ نائما فعلا أم يقظـا، وأحيانـا تشـعر كأن أجـزاء من جسـمك تغـادرك، أو تريد المغـادرة، ويأتي أناس داخل غرفتـك وداخلك وحولك ولا تعرف مَـن هـؤلاء ولا ماذا يحدث لـك. هكذا ظللت أيامـا طويلة، اختلط الليـل والنهـار فيهمـا، ولـم أكـن أعرف هـل الحرارة التـي أعوم فيها مـن داخلـي أم حر أغسـطس الخانق فـي تلك الشـقة. والأصوات: هديـر لا ينقطع وأبـواق سـيارات وقرقعات أخرى، تأتـي وتذهب، كأنها تحدث داخل رأسـي، أكاد أشـعر بدبيبها يجرح مخي ويعتصر جمجمتي. ثم سـكون، ثم تعـود مرة أخرى. والعرق. أحيانا أشـعر بقطـرات العرق تسير أسـفل عنقـي، على كتفَـيّ ثم أعلـى ظهري. تمضي ببطء كأنها شـفرة صغيرة تشـق جلدي. وأحيانا أشـعر كأني أغـوص فـي فـراش مشـبع بالمـاء. وعبـده؛ صديق محمود سـاكن

الشـقة. كان وجهــه أول ما أتذكر رؤيتــه بعد «وتَفضَّلـوا بقبول وافر الاحترام». وجه أسـمر نحيل، حليق، لامع السـمرة، وشـعره شديد السـواد وخشـن، وعينـاه متسـائلتان فـي دهشـة طبيعية. ينظـر إليّ بعينيـه العميقتين وتسـاؤله هـذا لفترات طويلة، وأنـا حبيس الحُمَّى أو الغيبوبـة أو كليهما، أريد أن أصرخ به أن يكفّ عن التحديق إليّ، أحاول إغماض عينَيّ ولا أستطيع. ثم يأتي الهدير من ناحية النافذة. أحيانـا تُخرِجـه الضوضاء من تحديقه فيذهب إلـى النافذة ويغلقها، لكن الضوضاء تستمر. هذا الهدير لا يأتي من النافذة، بل من الجدار ذاته، بل من رأسي نفسه. وأحيانا لا يتحرك رغم الضوضاء والهدير. وأرغب بشـدة في الغرق في سـكون وظلام ولو كان أبديا، أي شيء أفضـل من هذه الدوامة، ومـن هذا العرق الذي يغرقني. وفي النهاية أستسلم لما يحدث لي، وعندها أسقط في هوة سحيقة من السكون والظـلام. حتـى يعيدني شـيء ما إلى ذلـك الهدير، والعـرق، وإلى وجه عبده.

ورأيـت وجه محمود كثيرا، لا أعلم إن كان حلما أم علما، لكن كل المرات كانت متشـابهة. أرى هيئته في آخر الغرفة. يضع أشـياء علـى منضدة في الزاوية البعيدة ثم يذهـب، ويعود. ثم يقرِّب وجهه ناحيـة وجهـي ويمعن النظـر فيّ وهـو يهزّ رأسـه مبتسـما. يمد يده ليربت على رأسي وأشعر بها ثقيلة كأنها ترجّ عالمي كله. وأريده أن يرفع يده عني لكنه يبقيها ويمسـح على شعري فأدوخ وأختنق أكثر، وهو يبتسـم، ثـم يمضي. ورأيت عزالدين مـرة، وكان وجهه ممتقعا وملامحه متجمدة وجبينه مقطبا. أطال النظر نحو وجهي ثم مضى.

وكانت عفاف هناك أيضا، كل يوم تقريبا. وأحيانا ميرفت أختها. عفاف كانت تطعمني. أذكر أنها كانت ترفع رأسي على وسادة إضافية وتجلس بجانبي وتطعمني حساء، أو تحاول. أحيانا كنت أراها مبتسمة وأحيانا أخرى مقطّبة، وكثيرا مرتبكة تمسح أشياء أو تجمع أشياء من فوق الفراش. وأحيانا بلا طعام، ممسكة بقطعة باردة من القماش على جبهتي، أو رقبتي، أو صدري. وأحيانا قطعة من القماش الجافّ تمسح العرق المتصبب. وأحيانا كنت أراها مستلقية بجواري على الفراش، ملتصقة بي، وحين أمعن النظر في وجهها لا أجدها عفاف بل ميرفت، وأشعر بلحمها ملتصقا بلحمي في عَرَق غامر، وخانق، وأنفاسها تخرج في وجهي وتمنع عني الهواء، ثم أراها رابضة فوقي تضغط عليّ بكل أجزاء جسمها كأنها ستُخرِج روحي من حلقومي، وأغمض عينَيّ وأفتحهما فأجدني وحدي في الغرفة، أو أجد عبده يحدِّق إليّ، أو محمود يبتسم، أو عفاف تحاول إطعامي.

وفي وسط كل هذا يستمر الهدير في نحر خلايا رأسي.

أسوأ ما في الكابوس أنك لا تستطيع له دفعا.

في الأسبوع الثالث من أغسطس، بدأت أوقات يقظتي تزيد وتستقر، وأوقات الكابوس المستمر هذا تتراجع حتى اقتصرت على الليل. فهمت أين أنا، وبدأت أغادر الفراش قليلا. تبينت مصدر الهدير المستمر، وهو كوبري الجيزة الملاصق سُورُه المعدني لجدار الشرفة، والمروحة المعدنية المثبتة في سقف الغرفة، وصوت

محرك الثلاجة من المطبخ المجاور. محمود كان يأتي مرة أو اثنتين أسبوعيا للاطمئنان عليّ. وتَبيَّن أن عبده شخص حقيقي، هو صديق لمحمود من «الشباب»، ليس ثوريا بالضبط لكنه يساندهم، وكان معهم يوم وجدوني في المستشفى فتَطوَّع لإيوائي في شقته الصغيرة هذه. وظلت عفاف تأتي يوميا للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. تمر عادة في الرابعة أو الخامسة بعد الظهر. سألتها إن كانت تأتي من عملها بالمحافظة فضحكت وهي تهز رأسها وصمتت لحظة ثم قالت: «أي محافظة؟»، وفهمت منها بعد ذلك أن دواوين الحكومة كلها متوقفة عن العمل منذ بدأت الاضطرابات في أول أغسطس. ميرفت أيضا كانت تمر ولكن مرة أو اثنتين، وبصحبة عفاف. لم تقُل لي شيئا، وظلت نظراتها كما كانت دوما، زائغة وغير مستقرة على نقطة معينة. حاولت تبيُّن ما حدث بيننا، إن كان قد حدث شيء، لكنها لم تنظر إليّ أبدا.

بنهاية الأسبوع الأخير من أغسطس بدأت أسترد عافيتي، وصرت أتناول طعاما عاديا ودون مساعدة، وبدأت أتنقل في الشقة دون نوبات دوار أو أي من الأعراض التي كانت تبقيني في الفراش معظم الوقت خلال الأسابيع الفائتة. لكني ظللت راغبا عن الحديث، ولا أجيب من يكلّمني إلا بإيماءة أو نظرة. لم يكن لي أي رغبة في الحديث. تراجع طرق الهدير داخل رأسي، ولم أكن أريد سوى الصمت.

أخبرني محمود باختصار بما وقع خلال الشهر المنصرم: الاضطرابات التي اندلعت في كل المدن تقريبا كانت بلا سيطرة،

بلا قيادة، وبلا مطالب محددة. ولم يقف في وجهها شيء. الشرطة التي حاولت في البداية تم تمزيقها إربا فآثر قادتها إنقاذ ما تبقى لها من قوة وانزوت في معسكراتها البعيدة، وحتى تلك لم تسلم من الهجمات تماما. الجيش قرر رئيس أركانه في لحظة من الحكمة عدم التدخل ونأى بنفسه عن الأحداث ومن ثَمَّ تفادى الدخول في مواجهة مع الجموع الغاضبة، ثم أخلى كل معسكراته الموجودة داخل المدن لتفادي أي احتكاكات.

قال محمود إن المصالح والخدمات كلها تقريبا معطلة، وإن اضطرابات أخرى اندلعت: سرقات وأعمال نهب وقتل. بدأت هذه الأعمال ضد البنوك والمحلات التجارية الكبرى وبعض المؤسسات العامة ثم امتدت إلى أملاك الأفراد، خصوصا المناطق الغنية حيث اقتحم كثير من أهالي العشوائيات والأحياء الفقيرة، بل وكثير من الشباب الذي لا يجد سكنا، الفيلات في الأحياء الجديدة حول القاهرة، ثم الشقق الخالية داخل المدن. لم يكن هناك شرطة بالمعنى المفهوم، بل خليط من اللجان الشعبية في بعض الأحياء، والمجالس العرفية في الريف وبعض المناطق النائية، وتحولت «كتائب شهداء الألتراس» إلى «حرس ثوري» في المدن الكبيرة، وظلت هناك بقايا للشرطة في مناطق محدودة. ثم بدأ بعض الخدمات في العودة ولكن بشكل متفرق ومتقطع. لم تكن هناك حكومة خلال هذه الفترة، فبعد أن قتل المحتجون الدكتور الدكروري في مكتبه ومثّلوا بجثته في شارع قصر العيني، فرّ بقية أعضاء الحكومة والمجلس الرئاسي خارج البلاد، ولم تتمكن

القوى السياسية المتناحرة من تشكيل حكومة حيث لم يكن لأحد سيطرة على الشارع المتفجر غضبا. قال محمود إن الكل ينتظر بلوغ موجة الغضب مداها وبداية انحسارها كي يبدءوا في تشكيل حكومة يكون لديها فرصة للحكم. كنت أستمع إلى هذا وأنا غارق في الصمت، وأتساءل إن لم يكن كابوس الحمى والغيبوبة أرحم من هذا الكابوس. أنهى محمود حديثه، وأمام صمتي المتواصل تَأَهَّب للرحيل. ثم مال عليّ وطلب مني بصوت خافت البقاء بالشقة لدى عبده لفترة من الوقت، لأن اسمي مُدرَج مع رموز النظام القديم المطلوب القبض عليهم من قِبَل «كتائب حراس الثورة».

-٢-

أنا عدو الثورة.

أنا من قضى أيام التحرير الأولى يحاول دفع مطالب الثورة داخل نظام غاشم وعنيف، ركله الثوار بأحذيتهم حتى كادوا يقتلونه، ولم ينقذه سوى الصدفة.

أنا.

تركوا المستبدين، والقتلة، والمفسدين واللصوص، وركلوني أنا بأحذيتهم حتى كادت روحي تخرج من أحشائي. والآن، يريد الألتراس، الذين قمعهم أمن الدولة والعسكر والشرطة ورجال

الأعمال ومجالس إدارات النوادي، يريدون القبض عليّ أنا، يريدون المترجم سكرتير المعلومات وكاتب الجلسات!

طلب مني محمود أن لا أهتمّ ولا أغتمّ، فسيتمكن هو وأصدقاؤه من إقناع «حراس الثورة» أن لا علاقة لي بأي شيء جرى. قالها وضحك وهو يردف أني «يا حرام» لم أفعل شيئا في حياتي، لا كنت ضد أحد ولا مع أحد، وهذا جزاء المحايدين. ومضى وهو يضحك. لكني لم أجد ذلك مضحكا، البتة. ثم علمت من عزالدين حين أتى لزيارتي أنه يسعى مع بعض رموز القوى المدنية لمراجعة قوائم المطلوبين لدى «حراس الثورة» وهو متأكد من نجاحهم في حذف اسمي منها. أجمع الاثنان، وأيدهما عبده، أن المسألة مسألة وقت ليس إلا، حيث إن الفوضى تَحُول دون إتمام أي شيء بسرعة، فلا أحد يعرف من يسيطر على ماذا.

لم يعد هذا الحديث يعنيني، فقد كنت كمن سقط سقف بيته عليه وانهار كل ما عرفه في حياته، ذاهلا ومنقبضا وصامتا ومستسلما. كل ما أردت معرفته هو ما حدث لك ولأمك، ولحماي اللعين الذي اختطفكما، لكني لم أصل إلى شيء. الإشاعات التي نقلها إليّ عبده، المصدر الدائم للترهات، تقول إن اللواء القطان ذهب إلى أمريكا مع عائلته، وإن بقية أعضاء الحكومة الفارّين موزعون بين أمريكا ودول أوربية لا ترتبط باتفاقات تسليم للمجرمين مع مصر. عزالدين جاء لرؤيتي وهمس لي بأنكم لستم في أمريكا. نظرت إليه مستفهما فقام وفتح باب الشرفة فأغرق الغرفة في هدير

الكوبري وجلس بجواري وهمس في أذني بأن إحدى طالباته بالدراسات العليا؛ سارة رمسدل، في الأصل ضابطة بالبحرية الأمريكية وخدمت في عدة مواقع بالشرق الأوسط قبل أن تأتي إلى مصر في إجازة دراسية، ولديها أصدقاء في مراكز قيادية بالبحرية ووزارة الدفاع في الولايات المتحدة. وقد أكدت له بشكل قاطع أن اللواء القطان وعائلته ليسوا هناك. لا تعرف أين هم، كما قالت، لكنها ستتيقن من الأمر وتبلغه.

وصفية وإبراهيم وأولادهما؟ كان إبراهيم يتأهب للسفر إلى دبي قبل بدء الأحداث، لكن الحرب على إيران قضت على هذه الفكرة. تَحدَّث معي وقتها عن مشروع للعمل مع عمر في إيطاليا فلم أشجِّعه. كل منهما شخصية صعبة، وخشيت إن عملا معا أن يصطدما فيؤثر ذلك على العلاقة العائلية بينهما. تَبيَّن أن هذا ما حدث، لكنني لم أتمكن من الاتصال بهما أو معرفة مكانهما إلا بعدها بأسابيع. مع ذلك كان عندي شعور أنكم بخير، فلو حدث لأي منكم مكروه ـ لا قدَّر الله ـ لذاع الأمر. لكنني كنت أريد الاتصال بكم، والحديث مع أمك. أردت أن أفهم كيف طاوعها قلبها أن تفعل هذا بي وبك. أردت أن أسمع منها قبل أن أستسلم لحكم قلبي عليها. ولم أفلح.

كانت أضلعي لا تزال تؤلمني، وظل عندي مشكلات في معدتي. ومع بدء جسدي في التعافي، ببطء، فإني كنت أهوِي تدريجيا في هوة من الاكتئاب العميق. ذهب كل ما أعرفه ومن أعرفه وعالمي

كله. ووجدت نفسي جالسا في غرفة على كوبري الجيزة، ليست لي، مع شخص غريب الأطوار، في بلد اجتاحته الفوضى وعمَّته السرقة والنهب، ومطلوب القبض عليّ، أنا الذي لم أفعل شيئا، دون كل الذين فعلوا أشياء يستحقون الشنق بسببها.

أقضي يومي جالسا في تلك الشقة المريعة؛ يخرج عبده صباحا ويعود بعدها بقليل ومعه الجرائد وشيء للإفطار ثم يخرج ولا يعود قبل الليل. أظل جالسا بلا حراك معظم الصباح. أحيانا أغفو ثم أستيقظ لأغفو ثانية. أحيانا أدفع نفسي لتصفُّح الجرائد لكني لا أتذكر منها شيئا. لا أذكر أي أخبار قرأتها في هذه الأيام. أحيانا يترك عبده التلفزيون مفتوحا، وهو ما يدفعني إلى القيام من الفراش لإطفائه. ذات يوم أحضر لي كتابا وتركه بجواري؛ نظرت إلى الغلاف فوجدته نسخة مترجمة من «مزرعة الحيوانات» لجورج أورويل، واستغربت. فعبده قال لي إنه يعمل محاسبا لعدد من الشركات والمحال الصغيرة، وغيرَ كتب المحاسبة لا يقرأ أي شيء. لِمَ «مزرعة الحيوانات» بالذات؟!

في النصف الأخير من الشهر تسللت خارجا مرة، عند المغرب. ذهبت في جولة بميدان الجيزة والمنطقة المحيطة بها لرؤية الشارع ومعرفة ما تغير. لكني لم أرَ شيئا مختلفا في ميدان الجيزة، بل ظل كما رأيته آخر مرة، بفوضاه وميكروباصاته وباعته الجائلين وساندوتشاته ومسافريه الآتين والضالِّين والمضلِّين. بدت لي سحنة الناس مختلفة قليلا، كأن في وجوههم صرامة لا أحسبني

رأيتها فيهم من قبل، وسعي حثيث حلّ محلّ الهوينى المعتادة، وبعض الحدة في التعامل. لكني لست متأكدا، ربما كانت هذه مشاعري أنا وأسقطتها على غيري. سرت في الشوارع أنظر، فلم أجد أثرا لشرطة، أو لجان شعبية أو أي سلطة أخرى، سرت ساعة أو بعض ساعة ثم عدت قبل أن يوقفني أحد ويتعرف عليّ.

بدأت الكهرباء تعود لساعات أطول من تلك التي تنقطع فيها، وكذلك المياه. وحين قال لي عبده بعد عدة أسابيع إن الإنترنت عادت للعمل طلبت منه أن يحضر لي كمبيوتر. في هذه الفترة توقف محمود عن المجيء لانشغاله، وكذلك عز الدين، لكنهما كانا يرسلان التحية مع عبده. عفاف أيضا قلّلت من مجيئها بعد تحسُّن حالتي. استغرق الأمر يومين حتى ظهر عبده بالكمبيوتر. وجلست طول الليل أبحث عن خيط يقود إليك أو إلى أمك أو جدك: عنوان بريد إلكتروني، موقع اجتماعي، برنامج للمحادثات، أي شيء. أرسلت إليكم رسائل عديدة على العناوين القديمة، كانت ترتدّ كلها. بعد ثلاثة أيام من البحث وجدت صفية، وتحادثنا بعض الوقت وكانت شديدة القلق، فلم تسمع خبرا مني أو عني منذ الاضطرابات. آخر ما سمعَته هو خبر إحراق القصر الرئاسي والمكاتب التابعة له. الشيء الوحيد الذي طمأنها هو ورود اسمي في قائمة المطلوبين من قِبل حرس الثورة، وهو ما فسرته على أنه شهادة بأني قيد الحياة. سألتها عن ندا وعنك فقالت إن ندا أرسلت إليها منذ ستة أسابيع رسالة قالت فيها إنهم بخير وسيغادرون أثينا

إلى مكان لا تستطيع الإفصاح عنه، إلا أنها ستعاود الاتصال، وأوصتها خيرا بي. تَحدّثنا عما جرى، وعن صدمتي من سفركما هكذا. كنت أريد البكاء ولكني لم أستطِع. ظللت أصمت ولا أكمل الجمل. وصفيّة تعرفني، وتعرف أن صمتي وتقطُّعي هذا هو طريقتي في البكاء. حاولت تهدئتي وحثّي على رؤية الأمر بعينَي أمك المذعورة، لكني لا أذكر أنها نجحت في ذلك، البتة.

حين يعود عبده في المساء يجدني عادةً مستلقيا في الفراش. يدخل الغرفة ويجلس في المقعد الوحيد ويقصّ عليّ آخر الشائعات الرائجة في الشارع، وهي دائما عن حملة أمنية كبيرة سيشنها الجيش على المدن، أو عودة وشيكة لرموز النظام القديم، أو احتلال إسرائيل لشرق سيناء، وهكذا. وكلها لا أساس لها من الصحة. لكن ما له أساس من الصحة، الأخبار التي ينقلها إليّ دون طلب مني، يوجع القلب: المتاريس التي تقيمها اللجان الشعبية على مداخل الأحياء من الحادية عشرة مساء حتى السادسة صباحا، وما يسمى «الشرطة الشعبية»، وحراس الثورة، ونقاط «الجمارك» التي أقامتها «كتائب الفقراء» على الطريق الدائري والأوتوستراد ومحورَي صفط و٢٦ يولية في القاهرة، وعلى مداخل ومخارج الإسكندرية وبقية المدن الكبرى، وحتى في بعض الطرق الزراعية. قال لي عبده إنه وقع في قبضة إحدى هذه النقاط ذات يوم، في وضح النهار، وإنهم يأخذون من كل راكب نسبة مما معه: بعض المال أو ساعة أو خاتما، ويتركونك تذهب بالباقي. واصلت

الصمت. لكن عبده لم يكن يحتاج إلى تشجيع كي يواصل الحكي. وحين يطول صمتي ولا يبدو عليّ أني أسمعه، يشرع في الحديث في موضوع آخر. قال إن نقاط الجمارك هذه أفضل من لا شيء، فالطرق الصحراوية مثلا متروكة ليرتع فيها من يشاء ويقدر. سكت ثم استطرد هذه المرة قائلا إن شبكات المياه والكهرباء عاد معظمها إلى العمل. شركات المقاولات ساعدت في إعادة أبراج الضغط العالي، وساعدها متطوعون من الأهالي كلٌّ في منطقته، وتعاون الناس وتركوا الموظفين والمهندسين يعودون لأعمالهم لتسيير هذه الشبكات. لكنهم لا يتقاضون أجورا، فلا أحد في الحكومة يتلقى أجرا أو راتبا منذ بدأت الاضطرابات. لكن الناس يتصرفون، قال، يقايض بعضهم بعضا، يقترضون ويُقرِضون، يتبادلون الخدمات، ويؤجّلون النفقات التي يستطيعون تأجيلها.

ذات يوم سألته عن الحكومة. فهز كتفيه وقال إنه لا أحد يهتمّ بتشكيل حكومة، فالناس تعبت من الحكومات لأنهم في كل مرة يخدعونهم. كلما أتتهم حكومة تكذب عليهم وتحاول قمعهم دون أن تحقق لهم شيئا أكثر مما لديهم الآن: بعض الأمان، وبعض الاحتياجات الأساسية، وبعض الكهرباء. قال إن أحوال الناس اليوم ليست أسوأ ولا أفضل مما كانت عليه في ظل الحكومات وفي ظل الحكم العسكري بكل هيلمانه، فلماذا يوجع الناس قلبهم بحكومة ورئيس؟ الناس تغيرت، أكد عبده ذلك في لهجة تقريرية؛ خرجت من القمقم ولم يعُد أحد يقبل الظلم أو التكبر

أو السيطرة مِن قِبَل غيره، سواء كان الدولة أم أي سلطة أخرى، حتى المشايخ لم يعودوا قادرين على إلجام الناس. الناس لم يعد لهم كبير، وكلٌّ يفعل ما يريد. ثم إن السياسيين لن يتمكنوا من تشكيل حكومة. فلا أحد منهم يحتكر تأييد الناس ويستطيع تشكيل حكومة وحده؛ الإخوان خرجوا من السجون واستعادوا بعض قواعدهم، والسلفيون خرجوا من المخابئ، والثوريون والقوى المدنية نظموا أنفسهم إلى حد ما خلال هذه الاضطرابات. وكلما حاولت قوة الانفراد بالأمر اتحدت القوتان الأخريان ضدها. ومن ناحية أخرى لن يتفقوا معا، فكل قوة سياسية لا ترى إلا مصلحتها ولا تريد سوى سيطرة رجالها على الحكم، ومن ثَمَّ لن يشكلوا حكومة؛ «سنعيش هكذا في الأناركية». استوقفني استخدام عبده مصطلحا أجنبيا وسط سيل حديثه هذا فنظرت إليه مندهشا. سألته إن كان لا يخشى من الفوضى أو حتى من وقوع مصر في أيدي قوة أجنبية فهز كتفيه ساخرا وسأل: مَن المغفل الذي يمكن أن يُقدِم على احتلال مصر؟ الاحتلال موضة قديمة، قال. وأضاف أنه حتى أمريكا لم تحتلّ إيران بعد أن دكّتها بالقصف الجوي لمدة شهر. كلما حدث ما يعكّر مزاجها ترسل طائراتها لقصفها من جديد؛ «مضى عهد الاحتلال يا أستاذ». أما الفوضى، وفقا لعبده، فلا تختلف كثيرا عن النظام.

كان عبده دقيقا في وصفه لمشاعر الناس آنذاك، بغض النظر عن دقة فهمه للأناركية، لكنه لم يكن مُحِقًّا في تنبؤاته.

- ٣ -

حين أبلغني محمود أن الحرس الثوري قد أزال اسمي من قوائم المطلوبين كنت قد زهدت عفوهم. ظللت طوال هذا الوقت أسأل نفسي: ماذا فعلت؟ هل أخطأت بالعمل في الرئاسة؟ كنت مثالا للمترجم الأمين، ولكاتب الجلسات المدقق. لم أهمل يوما في عملي، لم أحاول استغلاله لمأرب شخصي، وحين طُلب مني الرأي قلت رأيي بأمانة. ففيمَ كان خطئي؟ كنت شاهدا على الظلم والفساد والفشل، نعم، لكن هل سألني أحد وكتمت الشهادة؟ ماذا كان بوسعي أن أفعل، أنا المترجم؟ هل كان واجبا عليّ الصراخ بأن النظام مستبدّ؟ هل كان أحد ينتظر صرختي تلك كي يعلم أن النظام مستبد وفاسد، أم كنا جميعا عارفين؟ ماذا كان يُفترض بي أن أفعل إذن؟ أذهب إلى ميدان التحرير وأقف هناك محتجا على ما أراه من خيبة وتبديد للوطن ولمصالح الناس؟ وحدي؟ أنا بالذات؟ وماذا عن الخمسة والثمانين مليونا من مواطنيّ، لِمَ لا يحاسبهم أحد على عدم وقوفهم بالميدان قبل ٢٥ يناير؟ أين كانوا، هم؟ «حراس الثورة» يدرجون اسمي في لائحة المطلوب القبض عليهم، لكن لِمَ لا يضعون أسماء بقية الخمسة والثمانين مليونا، أو حتى أسماءهم هم؟ وما الفارق بيني وبينهم؟

ما علينا.

كنت في قلبي، مثل الآلاف إن لم يكن الملايين من جيلي، أتوق إلى التغيير، ليس فقط لرئيس جديد ودستور وانتخابات، بل لنظام

جديـد، بلد جديـد، وثقافة أخـرى، وطريقة أخرى نكـون بها، حياة جديـدة. لكن هذا مـا حبانا أو ابتلانا به اللـه. تعاملت مع واقعي بما استطعت، مثلما يتعاملون الآنِ مع واقعهم بما يستطيعون. كل من القوى السياسية السائدة تودّ لو اختفت القوى الأخرى من الخريطة، لكـن لا محيص من تعاملهـا معها، وقَبول بعـض مطالبها، والتنازل لهـا. أيجـوز، بعد عشـر سنين، أن يأتي مجـذوب «ما بعـد ثوريّ» ويحاسب مَن يتعاملون اليوم مع تلك القوى السياسية الأخرى على أساس أنهم تنازلوا عن المبادئ؟ أيّ عَتَهٍ هذا؟ أي طفولة؟!

لـم أرَ ركلي بالأحذية حتى الموت كحادثة عارضة، ولا وضعي على قوائـم المطلوب اعتقالهم. بل كاسـتبعاد متعمَّد. هؤلاء الذين ركلونـي أعلنـوا بأقدامهـم امتلاكهـم للثـورة الثانيـة: «هـذه ثورتنا نحـن»، ذلـك ما كانـت أقدامهـم تقوله وهي تسـتقر بيـن ضلوعي، أما أنا وأشـباهي فلا مكان لنا فيها. هكذا اسـتقرّت في وعيي، مهما قال محمود وشرح عزالدين. لا مكان لي في هذه الثورة؛ وما الثورة إن لم تكن رفقة، في القلب؟ لم أكن أمينا وشريفا فحسب في عملي أيام الاستبداد، بل أخذت جانب الثورة منذ لحظاتها الأولى. وحين ذهبت إلى الميدان لم أحسـبها، لم أفكر أن ذلك سـيضر بمسـتقبلي إن فشـلت الثورة، أو سيفيدني إن نجحت. كنت أسعى، دون مأرب شخصي، كي تنجح، لأني مثلي مثل الكثيرين كنت مستعدا وقتها أن أضـع حياتـي على المحك، من فرط رغبتي فـي إنجاحها. لكن هذا أنا وما فكرت فيه، ولسـت مدينا لأحد بشـرح، ولسـت مدينا لأحد بإثبـات. وإن كان مجاذيـب الثـورة هـؤلاء سـينقلبون علـى كل من

لايعرفونه بالاسم، فلهم الله. هذا ما شعرت به وقتها. قد ترى، أنت ابن الجيل الجديد، أنني بالغت في ردّ فعلي، أو أخذت الأمر على محمل شخصي في غير محله، أو كنت رومانسيا حين كان يجب أن أكون عمليا. لكن هكذا كنت، وهكذا أخذتها، وانسحبتُ في داخلي قبل أن أقرر الانسحاب من الحياة العامة. انكمشت تحت مكتبي وسط الركلات، وظللت منكمشا بعدها لوقت طويل.

أقمت في شقة عبده بلا عمل ولا شيء محدد أفعله. وبعد صدور «العفو الثوري» لم يتغير إيقاع حياتي في كثير. أقضي معظم الوقت في المنزل، أخرج أحيانا. أقرضني كل من عزالدين ومحمود بعضا من المال إلى حين عودة البنوك للعمل بشكل كامل والإفراج عن أرصدة وودائع المواطنين التي جُمدت وقت الثورة الثانية. الأسعار ارتفعت بدرجة ملحوظة، واختفى بعض السلع أو شحّ، على حسب حالة الطرق و«الجمارك الشعبية» المفروضة على بعضها، لكننا اعتدنا الوضع الجديد. كانت أزمة ممتدة لكنها ليست كارثة. حاول أصدقائي واحدا واحدا إخراجي من العزلة التي ضربتها على نفسي. لكن إلى أين أخرج؟ وماذا يمكنني فعله؟ لا أعرف سوى الترجمة والسياسة. أما السياسة ففي ثورة، وللثورة رب يحميها ولا يريدني فيها. ولا حاجة بي إلى المال كي أعمل بالترجمة التجارية. الحقيقة أني لم أُرِدْ فعل أي شيء. ومن ثم واصلت الجلوس في غرفتي بجوار سور الكوبري المعدني الصاخب.

محمود وعفاف كانا أكثر أصدقائي مثابرة، وقد نجحت مثابرتهم في إخراجي من هذه العزلة، وندموا على ذلك فيما بعد، على

ما أظن. محمود قرر اصطحابي عنوة، تقريبا، خارج الشقة. وهو عنده نوعان من الخروجات: اجتماعات سياسية مع تنظيمات ثورية وسهرات عزاء كما يسميها. وبما أني لم أكن شخصا يمكن الظهور به في اجتماعات ثورية فقد خصّني بسهرات العزاء التي أفلت منها في الماضي حين عملنا في الرئاسة معا. أخيرا عرفت معنى السهر، ومقابلة رجال ونساء لا تعرفهم ولا يعرفونك، والتبسط معهم بمجرد اللقاء بهم، وكيف يفتح الكحولّ قلوب الناس للبوح، ويسقط الحواجز النفسية والمادية معا فينتهي بك الأمر تبكي في أحضان شخص قابلته للتوّ، أو تحتضن شخصا يبكي على شيء لم تسمعه جيدا. لكنكما تبوحان بما في قلبيكما، ويساورك الشك أن الآخر لا يسمعك حقيقة أو لا يفهم ما تقول فتضحك بدلا من أن تجفل، وتقترب منه أكثر. وإن استيقظت في الصبح ولم تعرف من الراقد في فراشك، أو في أي فراش أنت، فإنك تضع ذلك على حساب المأساة، في نخب تعقيدات الحياة، وصعوبة البشر، ووحدتهم، وتعاطفهم. كأنها جلسات عزاء حقيقي، نقدمه ونتلقاه، ليعيننا على المواصلة في أثناء النهار. وحين يكون نهارك كنهاري آنذاك، يصبح العزاء الليلي كل ما تتطلع إليه في يومك، فتبكّر بداية مراسمه أسبوعا بعد أسبوع، وتكرره حتى يصير طقسك اليومي، حتى تغرق فيه.

سيطر عليّ وقتها شعور عميق بالندم على أيامي التي انقضت، وبأني كنت غبيا وساذجا بلا مبرر. لو كنت نبيها مثل القطان لعرفت كيف أستفيد من عملي المرموق طوال هذه السنوات، وأبني لنفسي

قاعدة من الأمان والرفاهية والقوة، بالأصول وبالقانون، ثم أفر من السفينة حين توشك على الغرق. ولو كنت مقداما جسورا مثل محمود بشير، أو عاقلا باردا مثل عزالدين فكري، لكان نصيبي مثل أي منهما. لكني، مثلما قال محمود، لم أكن أيا من هؤلاء، ولم أفعل شيئا، لا مع أحد ولا ضد أحد، وهكذا أتلقى جزاء المحايدين، جزاء المترجمين الأمناء الذين لا يفعلون سوى ترجمة ما يقوله الناس بعضهم لبعض.

لم أستطِع دفع الضغينة التي شعرت بها فجأة تجاه ثلاثتهم. كان عزالدين مشغولا في كل الأحوال بمحاولة تنظيم القوى المدنية الديمقراطية، ومثل من يحرث في البحر، كان يجمع فصائل منهم معا لينفرطوا قبل أن يذهب لإحضار الآخرين. وهو لا يكلّ ولا يملّ، وإن واجهته بعبث عمله هذا ردّ عليك بأن البناء يأخذ وقتا، وأن هذه العملية نفسها تدريب للجميع، ولا أحد يمتلك الخبرة ولا عادة العمل الجماعي، وكلها أشياء تأتي من الممارسة، وهذه هي الممارسة، ومن لا يعجبه فعليه التنحي عن العمل العامّ. أصبح حادّا، هو الآخر، مع الوقت.

أما محمود فكان مشغولا مع أصدقائه الثوريين، ولم أكن أراه إلا في مجالس العزاء الليلية، التي صرت أرتادها يوميا، في حين لا يظهر هو سوى مرة أو اثنتين في الأسبوع. حين ألقاه يبدأ في الحكي، لكن ذهني يكون مشوّشا، إذ كنت أبدأ الشرب قبل وصوله بساعات. لكن حتى من دون أثر الكحول لا أعتقد أن ما يقوله كان مفهوما إلا لقلة قليلة. مثلا، ظل ليلة كاملة يحاول أن يشرح لي

سبب انقسام الاشتراكيين الثوريين إلى مجموعتين: الأولى ثورية اشتراكية والثانية اشتراكية ثورية. ستظنّ أنني أمزح، لكن هذه هي الحقيقة. ظل يشرح لي الفارق بين الفصيلين المتنازعين حتى نجوت منه بصديقة أخذته بعيدا عني هو وثورييه واشتراكييه، أيا كان ترتيب صفتيهما.

كنت أهوِي إلى القاع، لكني لم أكن قد وصلت إليه بعد. وكان البلد يهوي معي، بطريقته الخاصة. ففي حين كانت الغالبية العظمى من البشر تسعى لحماية نفسها وتأمين معيشتها اليومية مثلما قال عبده، استمر السياسيون في محاولة تشكيل حكومة والاتفاق على دستور. ونتيجة للعداء المستحكم بين الإخوان والسلفيين - بعد اتفاق الأخيرين مع الحكم العسكري على الإخوان، وتطرف الثوريين وتشرذم الديمقراطيين المدنيين - لم تتشكل الحكومة إلا في يناير، أي بعد خمسة أشهر من إحراق القصر الرئاسي. وجاءت الحكومة في النهاية ائتلافية مفكَّكة وضعيفة، برئاسة مستشار وسطي النزعة غير معروف للكثيرين، اسمه عباس فخري. ووجدت الحكومة الجديدة نفسها بلا أدوات تمكّنها من السيطرة على الشارع أو الاقتصاد أو الأمن. وبالإضافة إلى الحكومة اتفقت القوى السياسية على تشكيل لجنة تأسيسية تضع الدستور، حيث تَعذَّر بالطبع إجراء انتخابات في ظل هذه الظروف.

لكن عبده كان مخطئا في وصفه حياة الغالبية العظمى من الناس. فمع انشغال أصدقائي بمفاوضات تشكيل الحكومة، لم يبقَ سوى عفاف التي ثابرت على إخراجي من عزلتي طوال اليوم، مستعينة

بعبده وأخيها حسن. وشيئا فشيئا صرت أقضي معظم نهاري عند عفاف وإخوتها بأرض اللواء؛ مهد الثورة الثانية. وأتاح لي ذلك فرصة للانغماس في حياة «الشعب» الذي لم أعرفه قبلا إلا سماعا. ولم أجد هذه الحياة بالشاعرية التي ظننتها، ولا بالبساطة والحرية التي ادّعاها عبده، ولم يزدها ترسخ «الأناركية» إلا قسوة. لم أكن أفعل شيئا هناك سوى التسكع مع حسن أو الجلوس عند المغرب بالبيت معه ومع أختيه، قبل أن أذهب إلى رفاق العزاء في المساء. وسارت الأمور هكذا شهورا حتى خلطت الأمرين وارتطمت بالقاع.

- ٤ -

سأفصّل لك هذا الأمر بعض الشيء، أنت الذي تعرف عن الشعب أقلّ من القليل الذي عرفته أنا وقتها. لكن دعني أبدأ بنصيحة مباشرة، هكذا دون لف أو اصطناع للحكمة. أنت مِن هنا، مِن هذا «الشعب» الذي لا تعرف عنه شيئا كثيرا. ومهما طال بك المقام في البلاد الأخرى، ومهما تعلمت لغاتها وأخذت لكنتها وتزوجت منها، سيظل فيك جزء من هذا الشعب، هنا، شئت أم أبيت. فخير لك أن تعرفه، جيدا، ولا تنساه أو تتناساه أو تخفيه. هو منك وإن أغمضت عينيك عنه، والآخرون يرونه فيك وإن أخفيته. فخذه بيدك، وتحمل مسئوليته وإن لم يكن من صنعك، وإن كرهتَه. اقبل ما تريد منه وارفض الباقي، لكن لا تتنكر له أو تُشِح بوجهك كيلا تراه.

لا أزعم لك أن حياة الشعب شاعرية أو نبيلة، بل مليئة بالكد والقسوة. بعض هذه القسوة مباشر في الوجه، كفرض الإتاوة على أكل عيش الفقراء، كسرقة الكحكة من يد اليتيم، كبلطجة الشرطة على الناس وعجزها عن حمايتهم في آن واحد، كمياه الشرب النقية التي يجب أن تمشي إليها وتعبئها في آنية وتعود بها للبيت كالغنيمة، كطابور الخبز المدعم، كالفقر والحاجة التي لن تستطيع سدها مهما فعلت. هذه بعض ملامح القسوة اليومية المباشرة، المعروفة للجميع. لكن القسوة الحقيقية هي تلك التي تَسرَّبت إلى القلوب فعوّدتها ما لا يجب أن تعتاده. مثل سرقة بيت جيران عفاف بعد عودة أبيهم من السعودية بأسبوع، واقتناع الجميع بأن السارق لا بد أن يكون أحد الجيران الذي يعرف بعودة الرجل محمَّلا. مثل الغيرة من جارك حين يشتري ثلاجة أو أثاثا جديدا، أو حين يدخل بيته رجل محترَم أو بنت حلوة أو يركب سيارة. مثل التشنيع على جيرانك إن علا شأنهم قليلا كي تمنعهم من التكبر على الباقين. مثل الشباب على المقاهي وأمام المحلات وقد نصّبوا أنفسهم حُماة لقيم لا يعرفونها، خالطين أهواءهم وفورة غرائزهم بالشرع والرجولة. مثل أن يتحرش ابن الجيران بأختك، ثم يعتذر إليك أبوه لأنه ظنها فتاةً أخرى! مثل الجار الذي يمنع زوجته من العمل، ثم يضربها، ثم يطلقها ويتركها مع عياله دون دخل، ثم يقترن بأخرى؛ جارتهم، ويعود مطالبا القديمة بمغادرة الشقة هي والأبناء. هذه هي القسوة الفاجعة حقا، تلك التي لا يشعر بها أصحابها. ومع ذلك

لا تتسرع وتُدِنْهم، بل حاول قدر استطاعتك الترفق، بها وبهم حتى تزول، إن زالت.

لا أحدِّثك هنا عن أشياء عامة، بل عن بشر عرفتهم وخالطتهم وصرت - على الأقل إلى حين - جزءًا من حياتهم. حسن، الذي استمر بلا عمل ثابت حتى بعد الثورة الثانية، تَبيَّن أن طبيبه اللص سرق كُلْيته السليمة. وبعد شهور، تهاوت الكُلْية الأخرى المعطوبة وتوقفت عن أداء وظيفتها. حدث ذلك قبل الثورة الثانية، ولم تتمكن عفاف التي استعانت بكل من تعرفهم للتوسط له، أن تُدخِله مستشفى عامًّا يُجرِي له الغسيل الكلوي بشكل دوري بالمجان. وأصبح عليه إما توفير تكلفة ذلك لا يدري أحد من أين أو كيف، وإما تركه يموت. لا حل ثالثا. وزاد الطين بلة أن مرضه هذا أخرجه بشكل نهائي من دائرة البحث عن عمل، كما أغلق أمامه فرص الزواج وبناء حياة لنفسه، فصار كومة من الإحباط والضغينة جالسة على مقهى أو في البيت أو واقفة في الشارع تنتظر شيئا تفعله، خيرا كان أو شرا، أي شيء يعطيه شعورا ولو مؤقتا بالفائدة أو بالقيمة. قد يكون ذلك العمل هو الانضمام إلى مظاهرة أو احتجاج، أو التحرش بامرأة يعلم أنه لن يستطيع أن ينالها هي أو مثيلاتها، أو بيع قطعة بانجو أو التشارك فيها. سيان.

وكانت ميرفت قد فقدت عملها في شركة الاتصالات في غضون شهرين من تعيينها، حيث اكتشف مديروها أنها لا تتقن أي شيء، بل وتخطئ في القراءة والكتابة، فميرفت لا حرفة لها ولا مهارة خاصة،

والمعهد الذي تخرجت فيه مثله مثل المدرسة التي كانت فيها، لم يعلّمها شيئا. حاولوا تشغيلها في خدمة العملاء، في العلاقات العامة، سكرتيرة، أي شيء، إكراما لمن توسط لها، لكنهم لم يجدوا لها نفعا في أي قسم فأعطوها ثلاثة أشهر مكافأة وشكروها وتركوها بجوار الباب. بلا عمل هي الأخرى، وباحتياجات وتطلعات مفهومة، وبأخ مريض مكلّف، استسلمت للعمل الأسهل، ذلك الذي سبقته إليها أمها الراحلة، وهو الخدمة في البيوت. لكن حتى الخدمة في البيوت مهنة، وميرفت لم يعلّمها أحد. لا تعرف كيف ترتّب الأشياء، هي التي ترتب بالكاد أشياءها القليلة، ولا كيف تخدم ناسا أو تعد مائدة أو تعتني بطفل، ولا طاقة لها بأي من هذا. هي الشابة المتفجرة أنوثة تهفو إلى الانطلاق والحياة، كيف تحشر نفسها في رداء الخادمة المنضبطة المطيعة التي لا حسّ لها، لم تستقر في أي من البيوت التي عملت بها، ثم وجدت عملا في تنظيف الغرف بفندق، ثم حدثت مشكلة مع مديرها المتحرش وغادرت، وهكذا. وعندما اندلعت الثورة الثانية، سألتها أسماء زوجة عزالدين ـ بعد تردد وبخجل ـ إن كانت مستعدة لـ«مساعدتها» في العناية بالبيت. وهكذا أصبحت تعمل في بيت عزالدين. وتذكرت ساعتها اللواء القطان الذي نهرني يوم خرجت مع «ابنة بائعة الجبن». ماذا لو لم أستمع إليه وقتها وارتبطت بأختها؟ لا إجابة، لا إجابات بسيطة في حياة معقدة وظالمة. عملت ميرفت لدى أسماء وعزالدين شهورا كانت فترة الرخاء الأكبر في حياتها. وفجأة طردتها أسماء ونبهت عليها أن لا تطأ بيتها ثانية. سألت عفاف عن السبب ـ فميرفت كانت

تتحاشى الحديث معي دوما ـ فقالت إن أختها لم تستطع مواكبة التزام أسماء الصارم بالمواعيد والنظام، وإن أسماء تحبّك الأمور زيادة عن اللزوم. ابتسمت ميرفت ساعتها ورمقتها بنظرة غريبة لم أفهمها وقتها.

لا حياة الشعب شاعرية، ولا انغماسي معهم كان كله مشرفا. لست متأكدا مما أصابني وقتها، لكنني كنت مدفوعا برغبة قوية في إيذاء الذات. كأني أردت أن أدفع نفسي إلى القاع تماما، أن أصبح جزءا من القسوة المحيطة بي وأغسل أصولي المرفهة بالانغماس في الانحطاط الذي يغمر البلد. هكذا انغمست في جلسات العزاء المسائية، وهكذا توسعت في الشرب حتى صرت أبدأ في الظهيرة، وهكذا رفضت العمل مترجما في المؤسسة التي تملكها سالي ويديرها محمود، وهكذا رفضت العودة إلى بيتي في مصر الجديدة وظللت عالة على عبده في شقته المريعة وعلى عفاف وإخوتها في أرض اللواء. لم يكن أي من ذلك بقرار أو جزء من خطة، بل نتيجة نازع قوي يسيطر عليّ دون وعي مني، وأظن هذه النوازع أهم وأخطر من الخطط. كأن كل ذلك لم يكفِ، فدفعت نفسي إلى الحافة أكثر حتى هويت إلى القاع تماما.

وكانت ميرفت حافتي. ميرفت التي تقترب من منتصف الثلاثينيات، لم تتزوج، وأصبحت صورة من عفاف القديمة لكنها استبدلت الحدة بدلال عفاف الذي لم يعد موضة منذ الثورة. ورغم تعمدها الدائم الاحتكاك بي فإنها تتجنب النظر إليّ. وأنا أسأل نفسي عما أظنه وقع بيننا وأنا مريض، وهل كان حقيقة أم كابوسا.

ولِـمَ تعاملني بعداء منـذ رأتني وفي نفس الوقت تـكاد تتحرش بي. كنـت قد بـدأت طقـوس العزاء الليلـي مبكرا، وثقل رأسـي بسُـكْر خفيف يشـجّع دون أن يُقعِد. دخلت ميرفت المطبخ تغسل الأطباق قبـل أن تنقطـع الميـاه ثانية، وذهب حسـن لشـراء سـجائر في حين ظللت جالسـا مع عفاف نشـاهد التلفزيون. تظهـر ميرفت وتختفي عند باب المطبخ وترمقني بتلك النظرة التي صرت أعرفها. وقررت لحظتهـا دفـع الأمـر إلى نهايته. سـألت عفـاف إن كانت تريد شـايا فهزت رأسـها بالنفي وواصلـت الفرجة على التلفزيـون. قمت إلى المطبخ أُعِدّ الشاي.

رمقتنـي ميرفـت بنظـرة مـن فـوق كتفها حيـن دخلـت المطبخ وعادت لغسـل الأطباق. ظلّ التوتر الصامـت يعلو صوته بيننا حتى لم يعد من الممكن تجاهله. مرت بجواري واحتكت بي فأمسـكتها مـن كتفها كأني أتفادى الارتطام بها، وشـعرت بها تريح كتفها على يدي بدلا من أن تشـد كتفها بعيدا. تركتها واسـتكملت عمل الشاي وشـعرت بنظرتها الحادة كأنها تسـتحثّني. نظـرت ناحيتها فوجدت تلـك النظـرة الداعيـة ترتسـم علـى وجهها كلـه وتغيّر مـن ملامحه فتقدمـت دون مزيد من التردد واحتضنتها وهي لا تتحرك أو تحاول الإفلات. سـمعتها تردّد اسـمي بصوت خافت عند أذني فتشـجعت وضممتهـا أكثـر مطوقـا ثناياهـا بذراعَـيّ. وعندمـا صرنـا متعانقين متداخليـن تملصَت قليلا وأدارت وجهها نحوي وسـألتني بتحدٍّ لم الآن. ظللت في مكاني دون أن أحير جوابا، فسألتني إن كان صديقي هو الذي أرسـلني. هززت رأسي غير فاهم، فنظرت إليّ ساخرة من

ادّعائي العبط. ظللت جامدا في مكاني مستفهما عما تعنيه فمرّرَت يدها فوق يدي المتيبسة على وسطها وسألتني، بنعومة مفاجئة، إن كان يجب عليّ انتظار تعليمات الدكتور عزالدين في كل شيء حتى في هذا. تراجعتُ خطوة دون أن أفلتها، ونظرت إليها غير مصدّق ما سمعته، فلوَت شفتيها في تبرُّم، وقبل أن أسأل إن كانت تعني ما فهمتُه سمعت حركة خلفي فالتفتُّ ووجدتُ عفاف واقفة تحدق إليّ بذهول. ظللت متجمدا في وقفتي الشائنة، وميرفت بين ذراعَيّ وقد صمتت لكن كلماتها عالقة في أذني، وعفاف تحدق إليّ بعينين ممتلئتين دمعا. وفجأة قطعت ميرفت التوتر بأن استدارت نصف دورة، وصفعتني بيدها اليمنى ودفعتني بعيدا. لملمتُ نفسي، ومسحت بقايا صابون الغسيل الذي تركَته صفعة ميرفت على وجهي، ومررت من باب المطبخ بجوار عفاف المذهولة، وخرجت من الشقة.

- ٥ -

لا أعرف كيف سيكون رد فعلك على هذه التفاصيل، ومن المؤكد أنك لا تفكر في أبيك في مواقف كهذه. ولست متأكدا مما إذا كانت طريقتي هي الأفضل، لكن هذا هو اجتهادي. لا أريدك أن تكبر وأنت تظنّ أني رجل كامل، لا أخطئ ولا يأتيني الباطل ولا أجاهد مثل الكل نزعاتي وغضبي وغرائزي. أريدك أن تنسى هذه الدعاية الزائفة التي تروجها كتب الأطفال، وأنت تراني كما أنا،

رجلا من لحم ودم، بأخطاء أحاول تجنُّبها وغرائز أحاول ترويضها وخير أصبو إليه فأصيبه حينا وأخطئه أحيانا. لماذا؟ لا لأني مهتمّ بشرح صورتي بقدر ما أني لا أريدك أن تحاسب نفسك أنت بمقاييس غير واقعية. لا أريدك أن تقيس سلوكك على ما تظن أنه كمال بشري ممكن، أبوك، فتظل طوال عمرك تشعر بالقصور وبأنك لا يمكنك أن تبلغ ما بلغه أبوك. لا أنا كامل ولا عظيم بأكثر مما يمكنك أنت، بأخطائك وترددك وشكوكك وضعفك أن تكون. كلنا هكذا، وتَذكَّر هذا وإن نسيت كل شيء آخر.

أنت الذي أنقذني من القاع الذي ارتطمت به في رحلة سقوطي، دون أن تعلم.

كنتُ قد عدت إلى شقة عبده بعد حادثة ميرفت وبقيت هناك لا أبرح الشقة إلا مساءً إلى مجلس العزاء. لا شيء آخر، حتى لم أعد أتابع ما يحدث في البلد. من حين إلى آخر يقول لي عبده شيئا، إن التقينا صدفة بين موعد خروجي وعودته، ولا أعرف إن كان حديثه خبرا أم إشاعة كالمعتاد، حتى إني لم أعرف بالانتهاء من إعداد الدستور ولا بسقوط حكومة عباس فخري ولا بأحداث الخليج ولا بالتدخل التركي في شمال سوريا إلا بعد وقوع كل ذلك بكثير. ظللت أغرق هكذا، هذه المرة وحدي، حتى وجدت عزالدين يوقظني من نومي ذات صباح. كان جافا وبعيدا، غاضبا عليّ ولا شك. وكنت أنا أيضا غاضبا عليه، ولديّ أسئلة لا أدري إن كنت أودّ معرفة إجاباتها أم لا. استيقظت وجلسنا بجوار الشرفة

وصوت ارتطام عجلات السيارات الرتيب بفاصل الكوبري يُشعِرنا بصمتنا أكثر. سأل عن أخباري دون اهتمام حقيقي بتلقٍّي إجابة، ثم قام وفتح باب الشرفة وجاء وجلس بجواري على الفراش وبدأ يتحدث في أذني. قال لي إن تلميذته سارة قد حصلت على عنوان اللواء القطان والعائلة، وهم جميعا بخير ويعيشون تحت اسم مستعار في منزل صغير بضاحية هادئة بجوار لندن، وإنك بخير وتذهب إلى المدرسة، وكذلك أمك في حالة طيبة. ودسّ في يدي عنوان بريد إلكتروني خاص بسارة، وقال لي أن أرسل الليلة عن طريقها رسالة إلى العائلة، وسترتّب سارة طريقة لإجراء الاتصالات الصوتية بهم. ثم حذرني من أن هذه المعلومات غير متاحة لأحد خارج دوائر ضيقة جدا ومن ثم عليّ توخي الحرص الشديد. أيقظني ذلك من نومي تماما، كأن العالم الحقيقي عاد وطرق بقوة على باب الفقاعة الوهمية التي أعيش فيها منذ شهور فبدَّدها. ربت عزالدين على كتفي وقال لي أن ألمّ شتات نفسي وأنتشلها من هذا العبث، ويكفي ما جرى. وقام مغادرا دون انتظار ردِّي.

أول ما فعلته هو الذهاب إلى بيتنا، فوجدت هناك أناسا لا أعرفهم. حاولت فتح الباب بالمفتاح فلم يفتح، ولما طرقت الباب خرج لي طفل نصف عارٍ ثم دخل ثم خرجت لي امرأة في منتصف العمر بلا ملامح أذكرها وقالت لي إن زوجها في العمل. سألتها عمن يكونون، فسألتني من أنا. ولما أجبتها ارتبكَت، وظلت تراوح بين العداء والتبرير، وفهمت منها أن لجنة شعبية ما دلّتها على المنزل باعتباره من غنائم الثورة فاستقروا به. لم أعرف ماذا أفعل في هذه

الحالة فقلت لها إني سأعود في المساء حين يعود زوجها. ذهبت من هناك إلى بيت صفية في الرحاب فوجدته محتلّا هو الآخر، بعائلتين فيما أعتقد اقتسمتاه كل منهما في طابق، وأطفالهم يمرحون في الحديقة وحمام السباحة فارغ وبه بقايا ألعاب بلاستيكية. وقفت أرقبه من بعيد ولم أدخل. مررت في أثناء عودتي بالقرب من بيت عزالدين، ووددت لو توقفت وسألته، أو الأهمّ، سألت أسماء عما يساورني من شكوك، لكنني عدلت عن هذا.

وجدت محمود بشير بعد لأي. انتظرته كثيرا على باب مكتبه في المؤسسة التي يديرها، ثم ظهر وابتسم محدقا كأنه يريد معرفة ما ورائي. كان مندهشا لرؤيتي، أو بالأدقّ لرؤيتي مفيقا وفي غير جلسات العزاء. أخذني من يدي ودخلنا مكتبه وعبّر عن سعادته بالزيارة لكنه اعتذر بأن عليه الرحيل بعد دقائق إذ لديه اجتماع لمناقشة تشكيل الحكومة الجديدة التي ستحلّ محلّ حكومة عباس فخري. ساعتها عرفت أن حكومة الثورة الثانية سقطت. هزّ رأسه ضاحكا وقال في كلمتين إنها لم يكن لديها فرصة من البداية، فكيف يمكن لحكومة مفكَّكة دون أدوات ودون مال أن تتعامل مع مطالب شعبية متضخمة كتلك الموجودة لدى الناس؟ المهم، ونظر إليّ. قال المهم، كأن ذلك ليس هو المهم. سألته إن كانت وظيفة الترجمة التي تَحدّث عنها منذ شهور لا تزال متاحة فأومأ أن هناك دائما شغلا لمترجمين، وحاليا لديهم مشروع لترجمة أفلام كارتون للأطفال ويسعده أن يضعني في المشروع، مضيفا أن شركاءه في المشروع يابانيون ومواعيدهم دقيقة ومن ثم إن لم أكن متأكدا

فيمكنه البحث عن عمل لي في شيء آخر. لكني وعدته أن أسلم عملي في مواعيده. طلبت سُلفة تحت حساب مرتبي فوافق فورا، لكنه طلب مني الدعاء كي تتمكن الحكومة الجديدة من فك أزمة البنوك وتفرج عن الأرصدة كي يستردّ المال الذي يُقرِضني إياه منذ شهور. ضحكنا وخرجنا من مكتبه حيث تركني مع السكرتيرة لتتابع إعداد الأوراق، وطلب منها أن يسلموني كمبيوتر جديدا لأعمل عليه، ولوّح لي مبتسما وذهب لاجتماعه الهامّ. ظللت هناك حتى تسلمت الكمبيوتر والمال وعدت إلى منزلي، أقصد منزل عبده.

وجدته في المنزل فحكيت له عما حدث في الصباح فصمَّم أن يأتي معي لبيتنا في المساء. وهكذا عدت بصحبته إلى الطفل نصف العاري وعائلته. كان الرجل، واسمه سلامة، طيبا ومرتبكا. فهمت أنهم من ضحايا كارثة الدويقة، وأن الذي مكّنهم من الشقة وزارة الإسكان في حكومة عباس فخري لا اللجنة الشعبية، وأخرج سلامة أوراق التخصيص الصادرة من وزارة الإسكان، وظل يعتذر طوال الوقت. وجدت في الأوراق إشارة إلى منزلي باعتباره من مصادرات رموز النظام القديم! لم أتمالك نفسي من الضحك، لا أدري لِمَ، ربما لأن الموضوع كله عبث في عبث. الرجل ارتبك أكثر بضحكي، وقال لي إنهم لم يلمسوا الأثاث أو بقية محتويات الشقة التي وجدوها عند قدومهم بل جمعوها كلها في غرفتين وأغلقوا عليها الأبواب كيلا يعبث الأطفال بها، وإني أستطيع أخذها في أي وقت. تمهل كأنه يريد أن يضيف شيئا، لكنه صمت. سألته

كم طفلا لديه فأجاب بأنهم ثلاثة، أحمد ومحمد ومحمود. وقال إن محمد هو الذي فتح لي الباب في الصباح، وهو الأكبر. ظللت ساهما، وعبده يحدق إلينا نحن الاثنين بنظرته المستفهمة، ثم قلت للرجل أن يترك المحتويات حيث هي حتى أدبّر أموري.

لم أكن أعرف ما العمل. المنطقي أن أسترد بيتنا، وأعتقد أن ذلك كان ممكنا. فقد تم رفع اسمي من قائمة أعداء الثورة، ومن ثَمّ يجب أن يسري ذلك أيضا على وزارة الإسكان، التي لم أعرف أنها تصادر بيوت «أعداء الثورة» إلا ساعتها. لكني لم أُرِد اللجوء مرة أخرى إلى عزالدين أو محمود بطلبات، ولم أكن متحمسا لإلقاء عائلة الدويقة بأطفالها الثلاثة في الشارع، خصوصا أني لم أكن أحتاج إلى الشقة فورا. قررت تأجيل الموضوع برمته، والتركيز على استرداد بيت صفية، فهذه لا يمكن اعتبارها من أعداء الثورة، ومحتلو بيتها لا يمكن أن يكون لديهم أوراق تبرر وجودهم هناك. واضطُررت إلى الاتصال بمحمود مرة أخرى، فأرسلني إلى شخص أرسلني إلى شخص، وبعد يومين جاءت معي «قوة» من حرس الثورة و«اللجنة الشعبية لشرق القاهرة» حتى بيت صفية. لم يستغرق الأمر طويلا حتى استسلم المحتلون وطلبوا أسبوعا لإخلاء البيت. ووافقت بعد أن وعدني قائد القوة، وهو شابّ من عمر عبده وهيئته، بأن يأتوا معي مرة أخرى لتسلُّم البيت.

عدت إلى الشقة مع عبده، وفي نفس هذا المساء أرسلت رسالتي الأولى إلى اللواء القطان عبر سارة. كانت رسالة بسيطة، دون ذِكر

أسـماء، أُعـرِب فيهـا عن رغبتـي في الحديـث مع «الأبنـاء». ردت سـارة برسـالة أعطتني فيهـا تفاصيـل «هُوِيَّتي» الجديدة فـي برنامج للمحادثـة على الإنترنت، وهُوِيّتها هـي، وطلبت مني إضافتها على قائمـة اتصالاتـي، وانتظار الرد الذي سـيأتي خلال بضعـة أيام على شكل طلب إضافة إلى هذه القائمة مُوصًى به من هُوِيّتها هي، وذلك تفاديا لاسـتخدام شـبكة التليفونات المصرية. فعلتُ ما طلبَته مني، وظللت أنتظر.

فـي هذه الأثناء، بـدأت العمل في ترجمة أفـلام الكارتون، ومع استصغاري للمهمة في البداية فإني بعد قليل وجدتها شاحذة للهمة وممتعة في نفس الوقت. لم أشاهد أفلام كارتون منذ سنوات طويلة، ربما خمسـة عشر عاما. وأدركت سـاعتها أني لم أصحبك يوما إلى السـينما أو أشـاهد معـك فيلمـا أو كارتونـا فـي بيتنا. كيـف فعلتُ ذلـك؟ كيف انشـغلتُ عنك إلى هذه الدرجة؟ وفيمَ كان انشـغالي؟ كنت أظـن عملي هاما ولا يحتمل التأجيـل أو التقليص أو التخلِّي، وكنـت مخطئـا. في كل ما سـبق هذا ما أنـدم عليه، كل هـذا الوقت الـذي ضاع والذي لا يمكنني اسـتعادته، كل هـذا الوقت الذي كان يمكننـي قضاؤه معك، وتركتـه وتركتك. وعلى هذا، عزيزي يحيى، أسـتميحك عذرا وأطلب منـك المغفرة. هذا خطئـي تجاهك، وأنا مدين لك بأكبر اعتذار ممكن. من يدري؟ لعلِّي أنجح هذه المرة في مسعاي وعندها سيكون لدينا كثير من الوقت لنعوِّض ما فات، كأب وابن حقيقيَّين.

- ٦ -

قررت الإقامة في بيت صفية، حمايةً للبيت من الاحتلال وأيضا للابتعاد عن الجيزة وما جرى فيها. لدى صفية غرفتان على السطح وحمَّام ومطبخ لم تستخدمهم قط، فقررت أن أتخذهم مقرا، وأسعدتني فكرة الإقامة في بيت أختي. أخبرت صفية عما حدث للبيت وطرحت عليها الفكرة فأيدتني وشكرتني عليها بل وأبلغتني شكر إبراهيم زوجها على ذلك. قالت إنهم لن يعودوا قريبا، ولا حتى في زيارة. استقر الأولاد في المدارس واستقر عمل إبراهيم بعد أن فض شركته مع عمر. أخبرتني بمرض عمر؛ لديه شيء في القلب يحتاج إلى متابعة مستمرة، وهي على اتصال به وبزوجته وأطفاله رغم الخلاف الذي وقع بينه وبين إبراهيم. في المجمل لديهم جميعا حياة مستقرة في إيطاليا وليس هناك ما يدعو إلى هزِّها بأسفار لمصر المضطربة أو مجرد التفكير في العودة حاليا.

مرّ الأسبوع الأول دون أن يأتي رد السيد اللواء، لكن سارة أكدت تلقيه رسالتي. في نهاية الأسبوع صاحبني عبده و«القوة» إلى بيت صفية ووجدته بالفعل خاليا. مَن كان هؤلاء الناس؟ وأين ذهبوا؟ قال لي قائد القوة إنهم «مواطنون رُحّل»؛ يتركون الغرفة أو العشّة الصغيرة التي يسكنونها في أحد الأحياء الفقيرة، ويبحثون عن منزل خالٍ يستقرون فيه حتى يظهر له أصحاب فيتركونه في هدوء، بعد أن يطلبوا مهلةً أسبوعا يكونون خلالها قد وجدوا لأنفسهم بيتا آخر خاليا ينتقلون إليه، وهكذا. تَفقّدت المنزل ووجدته في حالة مزرية.

استُخدم الأثاث ومحتويات البيت بلا مراعاة أو رحمة، فتَحطّم ما تَحطّم واتسخ الباقي بكل الأشكال الممكنة، كأن مستخدميه ينتقمون منه. سألني عبده عمّن يسكن غرفتَي البواب، فأشرت له إلى أن الوضع كما يراه. فسألني إن كنت أمانع لو سكن هو فيهما، وعمل حارسا للمنزل. وجدتها فكرة غريبة، فعبده محاسب، ولديه بالفعل عمل في محالّ ناحية الجيزة. سألته مباشرة، لكنه قلل من أهمية عمله محاسبا، قائلا إن مجموع ما يتحصل عليه من المحلات الثلاثة التي يقوم بحساباتها هو ستمئة جنيه في الشهر. وسألني إن كنت مستعدا لدفعها نظير حراسته للمنزل، إضافة إلى إقامته مجانا بالغرفتين الملحقتين بالحديقة، دُهشت، وسألته لِمَ يريد ترك المحاسبة ليعمل بوابا، لكنه لم يهتمّ بسخريتي ولم يبدُ عليه استغراب للموقف؛ هذا عمل وذاك عمل، قال. قلت: ليكُن، ما دام هذا ما تريده. هذه هي قصة مجيء عبده للعمل عندنا، ولم يفارقنا بعدها قط مثلما تعلم.

انتقلت بالفعل إلى سطح بيت أختي، وعبده إلى ملحق البواب، وانتظمَت حياتي شيئا فشيئا. توقفت عن الشرب تماما وعن ارتياد مجالس العزاء، وأرسلت اعتذارا مكتوبا إلى عفاف مع محمود، واجتهدت في ترجمة أكبر عدد ممكن من أفلام الكارتون كيلا يكون عندي دقيقة وقت زائدة. ثم جاءتني رسالة القطان عن طريق سارة، وتحدثت مع أمك ومعك لأول مرة منذ قُرابة تسعة أشهُر. كان الحوار مع أمك جافا، وقليل الكلمات وإن طال. أسئلة عن

الأحـوال، إجاباتها قصيرة وبلا معنى؛ «الحمد لله»، «ماشـي»، هذا النـوع. أسـئلة عنك، فتسـهب في وصـف أحوالك ومدرسـتك كي تعـوض نقص الكلام في الموضوعات الأخرى. أسـئلة من ناحيتها عـن البيت والأحوال، فقلـت لها ما حدث، وكانـت فرصتها لصبّ جام غضبها المكتوم تجاهي على الثورة ومَن قام بها. كل هذا ونحن نحـوم حـول القضية الأساسـية، هروبها بـك. لم أكن أريـد عراكا، فسـألتها أولا عن سـبب عـدم اتصالها منذ سـفرها وعـدم إطْلاعي على مكانكم، فردّت بأنها اضطُرّت إلى ذلك وفقا لتعليمات الأمن. سـألتها إن كانـت هذه تعليمـات الأمن أم الوالد فقالـت أن لا فرق. لكننـا نتحـدث الآن، وبنـاء علـى مبادرتـي أنا، قلـت، فـردّت بأنها لا تعـرف هـذه التفاصيل، كل مـا فعلته كان بمشـورة أبيها. وهكذا، شـيئا فشـيئا تدهـورت المحادثـة حتـى وصلت إلـى نقطـة الصراع الحتميـة: كيف هربتِ من البلاد بابني دون إخباري؟ وكيف تَخلّيتَ عنـا وبقيتَ في مصر دون أي مبرّر تاركا أسـرتك تفر وحدها؟ أكرر سـؤالي وهـي تعطـي إجابـات أجدهـا واهية، وهـي تكرر سـؤالها وأجيبهـا إجابـات تجدها هـي غير مقنعـة. وحتى اليوم، لو سـألتها وسـألتني، سـتجد هذين الوجهين للقصـة: أنا أراهـا تصرفت كابنة اللواء القطان لا كزوجتي وأم ابننا، وهي ترى أني تصرفت كموظف كبير في الرئاسـة دون أن أعطي عائلتـي أي اعتبار. أظن أنها مخطئة وتكابر، وأظنها تظنّ نفس الشيء بي.

حادثتُـك بعد أن وصلنا إلى طريقنا المسـدود. كنـتَ في الرابعة عشرة من عمرك، ولم تكن وقتها مهتما إلا بشئونك المباشرة. تحدّثنا

عن مدرستك وزملائك، وسألتك عن البنات الإنجليزيات وقلت لي إنك لا تحبّهن، ورفضتَ أن توضح أو تزيد. تَحدّثنا عن البيت والمدينة وقلت لي إنها مملّة، ولا تعرف فيها أحدا، ولا تستطيع الخروج وحدك حيث يصر جدك على أن يرافقك أحد الحراس أينما ذهبت. لكنك كنت معجبا بمراكز التسوق، وبـ«الإكس باد» الذي أهدتك إياه أمك، وبالملابس، لكن الطقس كان يزعجك. سألتني إن كنت سآتي قريبا فاضطربتُ وقلتُ إني لا أعرف بعد، فطلبتَ مني إن جئت أن أحضر معي «الهارد ديسك» الأحمر الذي نسيتَه على مكتبك بالبيت وعليه كل أغانيك. وعدتُك بالبحث عنه. واتفقنا أن تشترك في برنامج المحادثة الذي نستخدمه كي نتحدث معا حين نشاء، لكنك نسيت.

فكرت كثيرا أن ألحق بكم، رغم أن أمك لم تقترح ذلك ورغم إحجام جدك عن الحديث معي ورغم غضبي الشديد على كليهما. لكني لم أستطع ابتلاع فكرة أن ألحق أنا بالسيد اللواء القطان الذي أخذ زوجتي وابني وسافر. فكرت أن تعودا أنتما الاثنان، أو حتى أن يذهب ثلاثتنا إلى مكان آخر، إيطاليا مثلا عند إخوتي، لكن شيئا من هذا لم يحدث كما سأشرح لك بعد قليل.

ركزت كل جهدي على الترجمة، وحاز عملي تقديرَ المسئول عن المشروع وشركائه اليابانيين. وشكرني محمود وأبدى سعادته بعودتي للحياة الطبيعية. كنا قرب نهاية شهر إبريل، وصار لدى

محمـود وقت أكبر حيث انتهت مشـاورات تشـكيل الحكومة وقرر هـو وأصدقاؤه الثوريون عدم المشـاركة، وهو نفـس موقف القوى الديمقراطيـة المدنيـة عـدا حـزب الوفد الـذي انضمّ إلـى الإخوان والسـلفيين وشـكّلوا أول حكومـة يسـيطر عليهـا الإسـلاميون منذ الثـورة. مازحنـي محمـود بـأن أصدقاء سـهرات العـزاء يفتقدونني ويبلغوننـي أنـي أسـتطيع العـودة لزيارتهـم إن شـئت دون أن أكرر ذلـك بالضرورة كل ليلة، وقال إن لدي فرصة محدودة قبل أن تغلق الحكومـة الإسـلامية البار الذي يسـهرون فيه، مضيفـا أن لديه وقتا هـذه الأيام ويمكنه أن يذهب معي لحراسـتي مـن الفاتنات اللواتي يتربصـن بي، فابتسـمت واعتذرت. عرفت أن هـذا العالم ليس لي، لا اعتـراض لدي علـى أصحابه، لكن من نعم الله على الإنسـان أن يعرف ما له وما ليس له، وصرت الآن موقنا أن هذا الأمر ليس لي.

لـم أكـن قـد قابلـت عزالديـن منذ مـر علـيّ فـي الجيـزة ودبّر الاتصـال مـع أمـك من خـلال تلميذته سـارة. ولـم أكن قـد قابلت سارة هذه وجها لوجه، فقررت الذهاب إليه في الجامعة كي أشكره وأزيـل بعضا من التوتـر العالق بيننا، وأيضا أقابـل التلميذة الغامضة وأشـكرها. لـم ألمـس منه حماسـةً حين اتصلـت به لكننـي ذهبت، ووجدته لطيفا ومرحبا لكن كان شيء ما يقف بيننا لم أعرف ما هو، كأنه حاجز شفّاف، طبقة من البلاستيك تصدّ نظراتي عن النفاذ إليه، وتجعـل نظراتـه إليّ باهتة. تَحدّثنا في عدة أمور. شـرح لي أسـباب رفضـه وزملائه الانضمـام إلى الحكومة الجديدة، قـال إن التيارات

الإسـلامية تعتقـد أن لديها أغلبية وتريد أن تُملِـي برنامجها ورؤيتها ولـم تتعلم شيئا، وهـم الذين أفشلوا حكومة عباس فخري ومن ثم لم يكن لتشـكيل حكومة ائتلافية أخرى معنى. سـألته إن لـم يكـن خائفا من استئثارهم بالحكم، وأن يستغلوا سيطرتهم على الحكومة لتغيير قواعـد اللعبـة وإعادة صياغـة الأمور على هواهـم فضحك ضحكة مبتسرة وقال ساخرا إنه من الواضح أني كنت مشغولا خلال الأشهُر التسـعة الأخيرة، وأردف جادا أنه لـم يعد لأحـد أغلبية تلقائية تؤيده في كل المواقف، بل على العكس، أصبحت المشكلة الرئيسية الآن هـي تفتُّـت التأييد. كل خمسـين نفرا يمكنهـم أن يبـدءوا احتجاجا يتحـول إلى ثورة صغيرة. حتى داخل معسـكر كل قوة سياسـية، لم يعد هناك من يسـتطيع القيادة، فكل قرار له معارضوه وكل اختيار له من يرون عكسه، وقليلون من يقبلون الالتزام بقرار لا يؤيدونه. كأن كل فـرد في المجتمع صار قوة سياسـية وحده، ومن ثَمَّ لن يسـتطيع الإسلاميون الذين شكَّلوا الحكومة محاكمة أعداء الثورة مثلما يريد البعض، ولا العفو عنهم مثلما يريد الآخرون، ولن تستطيعوا تعديل الدسـتور الذي تم إقراره على عجل كمـا يريد البعض، ولا الحفاظ عليه كما يريد الآخرون، ولـن يسـتطيعوا إعـادة بناء الأجهزة الأمنية واسـتعادة الأمـن ولا تركها كما هي معقلا لقـوى النظام القديم فيها ومصـدرا للبلطجـة. كل حركـة لهم سـتواجَه بتحدٍّ مـن جماعة ما، باختصار لن يسـتطيعوا فعل شـيء في أي من المشـكلات الداخلية الهامَّة، ولا في الفوضى العارمة المحيطة بنا من غزة حتى إيران.

استرسل عزالدين في شرح رؤيته للوضع السياسي، كأنه يلقي محاضرة على طلبته، ربما كي يتفادى الحديث في الأمور الأخرى. وظللت أتوه منه وهو يحاضرني، وأتساءل إن كان غاضبا عليّ بسبب ميرفت، وهل مصدر غضبه ما فعلته أنا أم اكتشافي ما فعله هو، أم أمر آخر. سألته إن كان حانقا عليّ لأمر ما فضحك واعتذر بأنه ينفعل عند الحديث عن الوضع السياسي، لأن الحال يؤلمه. ولو لم أكن أعرفه منذ عشرات السنين لصدّقته. لكنه هكذا، حين يغضب بجد لا يمكنك أن تفتح أبوابه. سيظل موصدا حتى يأتي يوم ويفتحها هو بنفسه.

قاطعتنا امرأة شقراء قوية البنية خضراء العينين جادة الملامح، لا مبتسمة ولا متجهمة. هذه هي سارة رمسدل. بادرتني بالسلام بلغة عربية سليمة، وشكرتها على جهودها فقللت من قيمة ما فعلته وسألتني إن كان كل شيء على ما يرام، ثم دعتني إلى الاتصال بها إن احتجت إلى شيء مِن «هذه القناة» في المستقبَل، «فكلهم أصدقائي هناك»، قالت، وأومأت دون أن أفهم ما تعنيه بالضبط. لم أجد شيئا أضيفه فسلمت عليهما واستأذنت منصرفا. هذه هي سارة رمسدل، ضابطة البحرية الأمريكية التي رتبت العملية التي أنا بصددها، والتي ستهبط مع المروحيات فوق سطح هذه السفينة في الرابعة من فجر غد.

- ٧ -

عندما انتظمت في العمل واستقرت أحوالي المعيشية واطمأننت إلى حد ما عليك وعلى أمك الهاربة، أدركت إلى أي مدى كانت حياتي فارغة من المعنى. محمود بشير يعيش اللحظة ويفعل ما يشاء، حين يشاء؛ يخون سالي القصبجي أو يعشقها، يهجرها أو يعود إليها، يدير مؤسسة تجارية أو يعمل بالسياسة. أي شيء يُدخِل على قلبه السعادة يفعله، دون أن يشغل باله بأفكار وحسابات معقَّدة. في النهاية، سيتمدد على فراش الموت راضيا عن حياته الزاخرة التي فعل فيها ما أراد. عز الدين يسير كالقطار على قضبان تأخذه من محطة إلى التي تليها: من باحث إلى أستاذ إلى سياسي، لديه مشروع محدَّد يعمل عليه ويبنيه خطوة خطوة. وحين يصل إلى المحطة النهائية سيكون سعيدا بالمسافة التي قطعها والأهداف التي حقَّقها. أما أنا، فليس لحياتي معنى؛ لا أنا أجري وراء السعادة المباشرة ولا لديّ هدف أو شيء أبنيه. لم أفعل شيئا عبر أربعة وأربعين عاما سوى الترجمة وأخذ الملاحظات، وحين تحين ساعتي لن أعرف فيمَ أنفقت عمري. لماذا لم أسائل نفسي قبل هذه الفترة؟ ربما بسبب الانغماس في مهامّ وظيفتي «المهمّة» التي، كما قلت لك في بداية رسالتي، تعفيك أهميتها من التفكير في معنى ما تفعله. وحين بدأت أفيق من ضياع العام الماضي، ولم أجد ذلك الغطاء الذي أعفاني من الأسئلة طوال هذه السنوات، وجدت نفسي أمام نفسي، وأمام حياة بلا معنى ولا هدف.

حتـي قلبي تَيبَّس. أحببـت مرة لكني هربت من هـذا الحب لأنه سيكلفني ما لا أحب. شـارفت على الحب ثانية لكني وقفت نفسي منعا للمشـكلات. ثم نسيت قلبي والمشـاعر. تزوجت أمك، وهي امرأة رائعة، لأنها كانت «مناسـبة». بنينا معا حياة زوجية تكاد تكون كاملـة، وأنجبنـاك أنـت قـرة أعيننـا. وبيننا مـودة ورحمـة وصداقة وتواطؤ واعتماد وثقة، هذا ما يسـمى بالعِشـرة. وهذه كلها أشياء في غايـة الأهمية، لا أشـكو، ولا أدعوك إلـى التقليل منهـا. لكني فقط أقـول إن قلبي ظـل بعيدا، نائمـا أو ميتا لم أعد أعـرف، لكن الأكيد أنه قد تَيبَّس. وفجأة شـعرت بهذا التيبس كأنـه صخرة ثقيلة أحملها داخل صدري.

فـي المكالمـة الثانية مـع أمك تَحدَّثـت مع جدك القطـان أولا، وكان حوارنـا شـديد الحدة. لم يُضِع السـيد اللـواء وقته في تحيات ومراسم، بل بدأ بسؤالي مباشرة عما أريده، فلما أجبته بأني متعجب مـن اسـتيلائه علـى زوجتـي وابني والفـرار بهمـا دون إذنـي انفجر بالكامـل فـيّ، وقال إنـه اضطُرّ إلى ذلـك لأني لم أتصـرف كرجل، ولو كنت رجلا لعرفت كيف أهتمّ بعائلتي وأحميها بدلا من الجري خلف أصدقائي الثوريين وترهاتهم. وفي النهاية تركت امرأتي وابني بـلا حماية. وقبل أن أردّ عاجلني بالسـؤال عمـا كان من الممكن أن يحـدث لهـم لو لم يكن هو، بمالـه الذي ادخره وبنفـوذه الذي بناه، قـد تكفـل بهم؛ ألم يكـن الحال قد انتهى بهم معي على سـطح بيت أختـي أو فـي شـقة صديقي بميـدان الجيـزة. ذُهلتُ، وسـألته كيف

عرف فضحك ضحكة مبتسرة وقال متهكما إن كثرة الحكومات قد أنستني فيما يبدو من يكون. قلت كلاما كثيرا، لكني شعرت أن كلماتي كانت كقطرات ماء تنزل على لوح زجاجي. عندما انتهيت قال إنه يرى كيف أني لم أنضج بعد، وأعطى السماعة لأمك.

لم يكن حواري مع ندا أقل حدة، ربما بسبب توتري مما قاله أبوها. بعد تراشق سريع حول السفر والعودة سألتها مباشرة هل ترى في نفسها زوجة لي أم ابنة للواء القطان، فظلَّت تراوغ ولم تُجِب، قالت الاثنين واحد، لا تعارُض، كيف تسأل؟! هذا سؤال غير عادل، وهكذا، ولم تقُل مرة واحدة: «طبعا زوجتك». عشت حياتي مع هاجس ارتباطها بأبيها أكثر مني، هو رجلها الأول والأخير. ولكني ظللت طَوال الوقت أطرد هذا الهاجس باعتباره غيرة طفولية. لكنها حين فرت بك دون استئذاني أو مناقشتي أو حتى إبلاغي عاد الهاجس وتَضخَّم حتى غطَّى على كل تفكيري فيها. وأخيرا، حين جرؤت وحوّلت الهاجس إلى سؤال لم تجد في نفسها القدرة على اختياري أنا، ولو لفظيا، وهي في بيته في تلك الضاحية اللعينة في بلاد الإنجليز دون علم مني. لم تقل «زوجتك طبعا»، لم تقلها. مجرد الإقرار اللفظي بأولوية علاقتنا لم تكن مستعدة له. حين قصصت الأمر على صديقَيّ نصحني عزالدين بالسفر إلى لندن والبقاء هناك لفترة حتى تنصلح الأمور، في حين نصحني بشير بتطليقها فورا وإنهاء هذه العلاقة المزعجة بها وبأبيها غير المحتمَل. طبعا لم آخذ بأي من النصيحتين، لكني لا أبالغ إن قلت لك إن شيئا بيني وبين أمك انكسر في هذه الليلة.

واصلت الحياة في هذا الشهر والذي تلاه، وشغلت نفسي عن نفسي وأسئلتها بمتابعة السياسة من خلال أصدقائي. ولم تكُن السياسة بأحسنَ حالا من أحوالي الشخصية، وربما وجدت في هذا نوعا من العزاء. كانت تلك فترة التقلبات والفوران السياسي الأكبر منذ الثورة الأولى، حيث تبلورت القوى السياسية وتنظمت بدرجة ما وبدأت تتمرس على المناورة والمساومة ويتكون لديها كوادر وقدرات على تنظيم قواعدها، بدرجات مختلفة طبعا. وصعد كل من صديقَيّ في معسكره: محمود بشير، الذي صار يُعرف ببشير فقط، أصبح من قادة المعسكر الثوري الذي اتسع ليضمّ اليساريين والنقابات والعاطلين وصغار الموظفين وعموم الفقراء المستعدين للاحتجاج في أي وقت. أما عزالدين فكري فكان أقل أهمية بكثير، ولكنه كان منهمكا في العمل مع ممثلين للقوى المدنية الديمقراطية على الإعداد للانتخابات المحلية. لم يكن هناك انتخابات محلية أو غير محلية يُنتظر إجراؤها في وقت قريب، لكنه وزملاءه كانوا يعدون كوادر من الشباب ويدربونهم ويبنون لأنفسهم وجودا ولو بسيطا في الأحياء والقرى إعدادا للمستقبل. وكنت أنا ومحمود بشير ـ وعبده الذي ينضمّ إلى جلساتنا دون دعوة لكن لا يصرفه أحد ـ نضحك من هذا المجهود بادي العبثية، ونقول لعزالدين إن عليه الانتباه لصحته جيدا، لأنه بهذا المعدل لن يصير رئيس وزراء لمصر قبل الألفية الثالثة.

في يونية سقطت حكومة الثورة الثانية التي شكّلَتها القوى الإسلامية منفردة (إضافة إلى حزب الوفد) بعد أن فشلت في

تحقيق أي من سياساتها وواجهت اضطرابات شعبية واحتجاجات منظمة من قِبَل بقية القوى، وانقلبت عليها قواعد الحركات الإسلامية نفسها. ونتيجة لذلك، ودرءا لمزيد من الخسارة، قررت القوى الإسلامية الدعوة لتشكيل حكومة وحدة وطنية بحيث تتقاسم المخاطر والأعباء مع بقية القوى. إلا أن الخلاف بينهم وبين التيار الثوري اليساري حول محاكمة رموز النظام القديم المحتجزين منذ الثورة الثانية، وحول إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية وتغيير الدستور المؤقت، كل ذلك دفع هذا التيار إلى الانسحاب، وتشكلت الحكومة الثالثة بائتلاف بين القوى الإسلامية وبعض التيارات الثورية الليبرالية وبعض القوى المدنية الديمقراطية، مثل التيار الذي يعمل معه عزالدين فكري، وترك الإسلاميون رئاسة الحكومة لليبرالي ثوري هو الدكتور حازم شعراوي.

إلا أن هذا المسكين لم يتمكن من عقد اجتماع واحد لمجلس الوزراء، ففور الإعلان عن تشكيل الحكومة بدأت الإضرابات بإيعاز من قوى اليسار الثوري، واحتلّ المحتجون الشوارع المحيطة بمبنى مجلس الوزراء. وشاهدت بشير على شاشة التلفزيون يعلن أنهم لن يرجعوا حتى يسقطوا هذه الحكومة، التي لم تبدأ في العمل أصلا. وفي محاولة لاحتواء هذا الاستقبال الغاضب أعلن الدكتور شعراوي قائمة جديدة بأسماء من يتمّ تطهير أجهزة الدولة والإعلام منهم، وإيداع بعضهم السجن مع بقية «أعداء الثورة»، وبدء مشاورات للإعداد لمحاكمة المقبوض عليهم منذ الموجة الأولى

للثورة، وعدد من الإجراءات الاقتصادية. لكن أحدا لم يقتنع بجدية هذه الإجراءات، كما أن الاحتجاجات كانت منظمة بهدف إسقاط التحالف بين الإسلاميين والليبراليين بغض النظر عما يفعله الدكتور شعراوى. وهكذا استمرت الاضرابات حتى بدأت تشلّ الحياة تدريجيا، وعادت المرافق التي كانت قد بدأت لتوّها في الانتظام إلى التوقف مرة أخرى. وتوالت استقالات ضباط الشرطة وسفرهم إلى الخارج حتى بدأ البعض ينادي بمنعهم من السفر كأن ذلك سيرغمهم على البقاء في الخدمة. كما تواتر الحديث عن خلافات بين القادة العسكريين، لكن الجميع تجاهل الأمر مخافة أن يكون صحيحا واكتفَوا بعدم المساس بمخصصات الجيش والدعوة له بالسلامة والبُعد عن السياسة.

وبعد ثلاثة أسابيع من الإضرابات والاحتجاجات المستمرة أعلن مجلس مدينة بورسعيد إعادة العمل بنظام المدينة الحرة وإلغاء الجمارك على جميع الواردات إلى المدينة، وإعادة تنظيم شرطتها مع اللجان الشعبية الموجودة في الأحياء وتكليفها بتنفيذ ذلك. وبالفعل أخلت وحدات مشتركة من الشرطة واللجان الشعبية مكاتب الجمارك ونقلوا موظفيها وأجهزتهم وملفاتهم بالقوة إلى منافذ الجمرك على مداخل ومخارج المدينة. لم يستطع رئيس الوزراء الجديد فعل شيء أمام هذا التحدي السافر لسلطة حكومته، فأعلن في اليوم التالي استقالته وبدْء مشاورات لتشكيل حكومة وحدة وطنية جامعة.

كان هذا هدف التيار الثوري اليساري؛ محمود بشير وأصدقائه، من كل هذه الاضطرابات، حيث أرغموا طرفَي التحالف الآخرين، الإسلاميين والديمقراطيين المدنيين على قبول شروطهم للانضمام إلى الحكومة. وتم في خلال أسبوع واحد من سقوط حكومة شعراوي الاتفاق على برنامج حكومة الوحدة الوطنية الذي تَضمَّن إجراءات فورية لإنعاش الاقتصاد وتعهُّدا من النقابات والاتحادات بتعليق الإضرابات لمدة ستة أشهر، وخطة لاستعادة الأمن وإعادة هيكلة وبناء أجهزته، وخطة لمحاكمة رموز النظام السابق المحبوسين منذ ثلاث سنوات دون سند من القانون، وتكوين لجنة دستورية جديدة تضع دستورا برلمانيا رئاسيا مختلطا يحلّ محلّ الدستور المؤقت المعمول به، وتشكيل مجلس رئاسي جديد تمثَّل فيه القوى الثلاث الرئيسية المشاركة في الحكومة، كلٌّ بعضو إلى حين إعداد الدستور وتنظيم انتخابات جديدة.

تنفس الجميع الصعداء مع تشكيل حكومة الوحدة والمجلس الرئاسي الجديد. وبدا أن في الهواء روحا جديدة، فلأول مرة منذ الثورة الأولى تتفق القوى السياسية لا على حكومة فحسب بل على برنامج تنفيذي موحد تضطلع هذه الحكومة بتنفيذه. وشعر كثيرون أن هذه هي حكومة الثورة التي طالما نُودِيَ بها، وساد أمل في تمكُّن الحكومة من إعادة الهدوء إلى البلاد وتمكين الناس من التقاط أنفاسهم وعودة الخدمات وبعض الأمن ووقف نزيف الاقتصاد. أما بالنسبة إليّ، فقد راقبت بشغف تعيين صديقي محمود بشير وزيرا لشئون الرئاسة في الحكومة الجديدة. حين زرته وجدته

مبتسما مقبلا على الحياة كعادته، واستهلّ لقاءنا بأن طلب مني الاستعداد للعودة إلى عملي القديم في القصر الرئاسي، معه هو هذه المرة.

- ٨ -

قلبي فرح وقال نعم، حتى قبل أن أفكر. ربما لو فكرت لعقلت الأمر ورفضته. لكني لم أفكِّر بعقلي: شعرت أن الأمان والمعنى الذي افتقدته شهورا طويلة يعود لي، وعلى طبق من فضة، كأنه رد اعتبار. بالطبع خطر على بالي الأسئلة التي سيطرت عليّ طوال الشهور الماضية، إحساسي بانعدام المعنى، وضياع عمري فيما لا طائل منه. لكني طردت هذه الأفكار. طردتها، ببساطة، لأني أردت استعادة ما فقدت، وبشدة. لا أدري ماذا أقول لك عن هذا؛ أحذِّرك من رغباتك؟ أذكِّرك بضرورة الاحتكام إلى العقل؟ وما فائدة ذلك إن كانت الرغبات تتسلل من حول العقل حتى تغمره فلا يرى؟ حاول تفادي ذلك، لكن إن حدث لك ـ ومؤكد أنه سيحدث ـ فحاول على الأقل تفادي تكراره كيلا يصير عادة. أبديت بعض الاعتراضات لمحمود، من باب التمنع؛ ماذا عن عدائي المفترَض للثورة؟ وكيف سيعاملني أصدقاؤه مجاذيب الثورة؟ ما فائدة هذا العمل إن كان المجلس الرئاسي ضعيفا ومحدود السلطات؟ إلى آخر هذه الاعتراضات التي نسوقها كي يدحضها الأصدقاء و«يقنعونا» بقَبول العرض، وقد كان.

وجدت مكاتب الرئاسة وقد انتقلت إلى موقعها الجديد على الكورنيش. القصر الرئاسي القديم في مصر الجديدة احترق تماما وتَهدَّم معظمه، ثم قرر الثوار تحويله إلى متحف للثورة، فاحتلَّته فِرَق فنية وجماعات ثقافية متنوعة بدأت تُقِيم عروضها وسط خرائبه. وشيئا فشيئا تَحوَّل إلى مزار قومي وأصبح علامة انتصار الشعب. ومن ثم لم تجرؤ أي من الحكومات الأربع التي قامت منذئذ على إعادته لوظيفته الأولى. وتَقرَّر، بالتشاور مع القوى الشعبية، تحويل مبنى الحزب الوطني القديم على الكورنيش إلى مكتب للرئيس، بحيث يكون في وسط الناس وتحت يدهم، قرب ميدان التحرير، فلا ينسى أي رئيس قادم نفسه أو يتصور أن باستطاعته الإفلات من غضب الشعب. كما تقرر أن لا يكون مقر الرئاسة قصرا منيعا، بل مجموعة من المكاتب، كي تكتسب الصفة الوظيفية أكثر وتبتعد عن الأُبَّهة والنفخة الكاذبة. وقد كان. وجدت مقر الرئاسة الجديد أقرب ما يكون إلى مصلحة حكومية. مكاتب «الرئيس» ـ ثلاثة مكاتب متطابقة لمراعاة حساسيات أعضاء المجلس الرئاسي ـ في الدور الخامس وسط مكاتب معاونيهم، قاعات لاستقبال الضيوف في الدور الأرضي والأول فقط منعا لتجولهم في مقر الرئاسة، قاعات للاجتماعات في الدورين الثاني والثالث، أدوار للسكرتارية الفنية، أرشيف، مركز معلومات، وهكذا. وأجمل ما في المقر الجديد أنه يطل على النيل، ومن ثَمَّ يسمح لك ـ حين تكون بلا عمل يشغلك ـ أن تجلس إلى مكتبك وتحدق إلى النيل لساعات طويلة دون ن تمل.

عُيِّنت في وظيفتي القديمة، سكرتير الرئيس للمعلومات. ويتضمن ذلك الإشراف على توفير المعلومات ودورانها في مقر الرئاسة وتخزينها والحفاظ عليها. أخبرني محمود أني سأعمل مباشرة معه. هو ليس رئيسي بالضبط، لكنه حلقة الاتصال بين الرئاسة والحكومة، وهو من ثَمَّ مصدر القرارات التنفيذية والاعتمادات المالية التي من دونها لا يمكن عمل شيء في الرئاسة. علمت منه أن هناك منحة بريطانية ضخمة مخصصة لإعادة بناء مؤسسة الرئاسة، ويوجد شركاء بريطانيون مستعدون لتقديم الخبرة إن احتجنا. واتفقت معه على قبول المنحة ورفض الخبرة كيلا نُدخِل يدا أجنبية في المقر، وأن أبدأ عملية كبرى لبناء الجانب المعلوماتي لمؤسسة الرئاسة الجديدة. اتفقنا على كل ذلك وتسلمت عملي. كانت حكومة الوحدة الوطنية قد أعلنت بدء تنفيذ برنامجها المتفَق عليه، وتملَّك الجميع شعور بأننا أخيرا، بعد سنوات من التخبط، على وشك البدء في بناء مصر الجديدة.

حين تسلمت العمل اكتشفت أني سأبدأ من الصفر. ذهبت كل ملفات الرئاسة القديمة وأرشيف معلوماتها في الحريق. كما أن الموظفين القدامى ذهبوا مع الثورة الثانية، إما رحلوا من تلقاء أنفسهم وإما تم التخلص منهم. ومع توالي الحكومات «الثورية» تم تعيين عشرات من الأقارب والأحباب ومصابي الثورة وأهالي الشهداء في جميع مؤسسات الدولة بما فيها الرئاسة. بدا ذلك وقتها حلا معقولا وغير مكلِّف، باعتبار هذه الوظائف موجودة وشاغرة ومرتباتها مدرجة بالموازنة العامة بالفعل ولن تكلِّف الحكومة عناء

البحث عن موارد جديدة. لكن النتيجة أني وجدت هيكلا وظيفيا مكتمل العدد، ويكاد يكون منعدم القدرة على أداء أي من وظائفه، بل لا يعرف ما هذه الوظائف أصلا. باختصار، كل ما كان لدينا هو مقر للرئاسة، فقط لا غير. أما البقية، المؤسسة نفسها، بموظفيها وخبراتها ونظمها وأدواتها، فكان يجب خلقها من عدم، وبموظفين لا يعرفون شيئا عن أي من هذا.

تسلمت مكتبي، واطمأننت أنه يطلّ على النيل والميدان في آن واحد، وفحصت تقارير المعلومات التي ترد إلى المكتب فوجدتها كلها شكلية لا تحمل معلومات حقيقية. سألت محمود بشير فقال إن الأجهزة الأمنية والوزارات ترسل المعلومات الهامّة إلى مجلس الوزراء، أي إليه هو، وابتسم مزهوا. لم يكن ذلك مستغرَبا، فالمجلس الرئاسي برمته مؤسسة شكلية، والسلطة التنفيذية الحقيقية لدى الحكومة. بل إن المجلس الرئاسي لا يجتمع بصفة دائمة أو روتينية وإنما حسب الحاجة، حين يكون هناك داعٍ للفصل في منازعات داخل الحكومة بين القوى السياسية المتحالفة، أو من أجل التصديق على قرارات الحكومة أو القوانين القليلة التي يسنُّها مجلس الشعب المؤقت. وزير شئون الرئاسة، محمود، هو الذي ينسّق العلاقة بين الرئاسة وهذه الجهات، وأحيانا يكون هو القائم بعمل المجلس الرئاسي الحقيقي.

سألت عن مسئولي الاتصال من الأجهزة الأمنية فوجدت أنهم لم يتغيروا! العقداء الثلاثة: لطفي من الداخلية، وحامد من المخابرات

العامة، وسعيد من المخابرات العسكرية. ذُهلت. اتصلت بهم على الفور واتفقنا على اللقاء في مكتبي في آخر النهار. وكان لقاؤنا حارا ومنعشا للقلب، كأني عدت إلى بيتي بعد تيه. جلسنا نتذكر الأيام الخوالي ونضحك على ما جرى وما صار لنا ولمن نعرفهم، ونستعيد أسماء مَن عملنا معهم وما جرى لهم، من سافر ومن فرّ ومن استقال ومن فقد عقله ومن تَحوَّل مع الثورة ومن ثبت على مواقفه الأولى. كأننا أولاد صغار، بلا هموم ولا مسئوليات، نشرب شايا ونحدق إلى النيل ونترحم على البعض ونسبّ البعض الآخر ونزفر همّنا في صوت عالٍ وقهقهة من القلب. سأقول لك شيئا يصدمك يا يحيى، الحقيقة أن هذا هو ما يبقى، هذه الصحبة، والناس الذين تقترب منهم وتصادقهم وتقتسم معهم الأيام. الباقي سُدى.

سألتهم كيف لم يُطَح بهم رغم كل عمليات التطهير والهيكلة وإعادة الهيكلة، فضحكوا ثلاثتهم. سعيد، الفارع الطول العريض المنكبين والشارب صاحب الابتسامة الساخرة قليلا كان أول من أجاب: «إحنا جيش ولا مؤاخذة، وماحدش ليه دعوة بينا». ضحكنا، وعقّب الاثنان الآخران على كلماته ببعض الحسد البريء. العقيد لطفي استطرد ساخرا من حديث الهيكلة والتطهير، قائلا إن كل هذا الكلام لغو فارغ، وربما كان هناك احتمال في البداية للقيام بتغييرات حقيقية، لكن فوضى المدنيين وفشل الحكومات في القيام بأبسط واجباتها جعل الكلام عن التطهير والهيكلة محض هراء. تساءل،

والعميد حامد يهز رأسه مؤمّنا على سؤاله، عمن يستطيع هز ما تبقى من المؤسسات الأمنية العاملة. هذه المؤسسات تأثرت، وبشدة، وقلّت قوتها كثيرا، وأصبحت في كثير من الأحيان عاجزة عن القيام بمهامّها الأساسية، وأي حديث عن تطهيرها بالمعنى الذي يتصوره الناس سيؤدِّي، في هذه الظروف، إلى هدمها بالكامل، فمن الذي يجرؤ، أو حتى يريد، ذلك؟

حامد، وهو أكبر قليلا مني، رياضيّ القامة مدموك، أبيض الوجه وبملامح ثابتة لا تتأثر بما يقوله، إلا عندما يضحك، انتظر حتى فرغ لطفي من الحديث ثم عقّب بالموافقة على ما قاله زميلاه، وأضاف أن الذي حدث مع موجتَي الثورة، بغض النظر عن مسائل الاستبداد والظلم والعدل والحرية والفساد، هو تفتت سلطة الدولة نفسها، خصوصا في الأقاليم خارج القاهرة، وأصبحت قدرة الحكومة على القيام بأي شيء - إصلاحا كان أو إفسادا - محدودة. ولا يقتصر ذلك على النواحي الأمنية، بل يمتد إلى كل شيء، من التعليم إلى الري. فالوزارات نفسها عاجزة عن العمل تقريبا، حتى حين ترغب؛ «النمل أكل العصا»، قال. ومن ثَمَّ فالوزراء والسياسيون يقولون كلاما ويَعِدون بأشياء ويضعون برامجَ لكنهم لا يستطيعون تنفيذها على أرض الواقع، لأن العصا التي يدفعون بها الواقع - أي الوزارات وهيئات الدولة - قد أكلها النمل وأصبحت هشة مخوَّخة. الموظفون - مثلما ترى في الرئاسة هنا - إما لا يعرفون ما عملهم، وإما مشغولون بالقتال حول الفُتات الموجود في ميزانية هيئاتهم،

أو يحوّلـون أي أمـر تنفيـذي إلـى «سَبُّوبة» يأكلون منها عيشـا. هم معـذورون، قال حامد، لكن المحصلة أنك لا تسـتطيع كحكومة أن تفعل شـيئا تقريبا. سألتهم سـاخرا عما يمكنني أنا فعله إذن في هذه الوظيفـة فضحكوا وأشـاروا إلى النيـل، وقال لطفـي إن لدي مكتبا جميـلا، ويمكننـي أن أعيّـن سـكرتيرة «مُـزّة»، وربنا يفتحهـا عليّ. ضحكنـا، وتَشـكَّك سـعيد في أن يكـون لـديَّ اعتماد مالـيّ لتعيين سكرتيرة، وكان مُحِقّا!

صحيح أن شـر البلية ما يضحك، لكني لم أعد إلى الرئاسـة كي أجلس أمام النافذة وأضحك على شـر البليّة. كنت مصمِّما أن أفعل شـيئا مفيـدا. لقد قامـت ثـورة، وذهب الطغيـان. صحيـح أن هناك فوضى، لكن محمود صديقي في موقع يمكِّنه من التأثير، وأنا أيضا، ويمكننـا معـا أن نغيِّر بعض الأشـياء ونضـع لَبِناتٍ للمسـتقبل. هذا مـا يفعله عزالدين وأصدقـاؤه وهم يعملون على بنـاء قواعدهم في المحلِّيات، وكما قال سيسـتغرق الأمر وقتا ولن يكون سهلا، ولكن هكـذا يتـمّ البناء. ويمكننا فعل الشـيء نفسـه في مؤسسـة هامَّة مثل الرئاسة. وعزمت على ذلك. بدأت أخطِّط لعملية إعادة بناء مؤسسة الرئاسـة، خصوصا جانب المعلومات الذي يشـكِّل العمود الفقري لعملهـا، وأفكـر في من سـأحتاج إلى الاسـتعانة بهـم وأين أجدهـم وكل هـذه التفاصيـل. أول شـيء كان يتعيَّـن عليّ فعله هـو أن أجد سـكرتيرا يسـاعدني ويتولى تخليص المهامّ الإداريـة من أنياب بقية المؤسسـة. وجدت سيدة تشـغل بالفعل هذه الوظيفة، لكني أحتاج

إلى شخص أثق به، ليس متورطا مع أي من التيارات السياسية التي تعجّ بها الحكومة، وليس جزءا من المؤامرات الصغيرة التي يعيش فيها الجهاز البيروقراطي. تَبيَّن فعلا عدم وجود اعتمادات مالية أو درجة شاغرة. ظللت قرابة ساعتين أقلِّب الأمر مع المدير الإداري ومسئولة الشئون المالية، ولم نجد حلا. وفجأة خطر الحلّ على بالي: عبده!

- ٩ -

قبِل عبده التطوع للعمل مساعدا لي، بمكافأة يومية لا تتجاوز ستمائة جنيه في الشهر، واستمر طبعا في الإقامة معي بملحق البواب ببيت أختي، وأصبحنا نذهب إلى العمل ونعود منه معا في سيارة الرئاسة. أنهى العقيد حامد الموافقة الأمنية على عمله بالرئاسة، رغم تحفظ أمن الدولة، هكذا نسميها بغضّ النظر عن اسمها الرسمي الذي تَغيَّر عدة مرات. والحقيقة أن مؤهلات عبده، التي لا يراها غيري تقريبا، مكَّنته من أداء مهامه على أفضل وجه أملتُ فيه. هدوؤه الذي يصل إلى حد التناحة، البطء، ودّ الناس بشكل تلقائي كأن الشر غير موجود، الاهتمام بالإشاعات والرغي مع خلق الله كلهم، الطيبة، القدرة على الاحتمال، عقلية المحاسب المدققة... كل هذا جعله خير عون في أوساط البيروقراطية المطعَّمة بالتنافس السياسي والأحقاد. يبدو مأمون الجانب للجميع،

يبتسـم للكل ولا يثير حفيظـة أو غيرة أحد، ويُبقِينـي منتبها لرغبات ومخاوف ومؤامـرات الموظفين الصغار، النمـل الذي يأكل العصا كلما اسـتطاع إلى ذلك سبيلا. ومع الوقت نمت له صداقات عديدة وسـط العامليـن، سـاعدته علـى إنجاز العمـل حين تنسـدّ القنوات الرسـمية. من وقتها، صار عبده ملازما لي في كل خطوة، وساعدني في كل ما فعلت، بل ومكّنني من عبور أزمات طاحنة لا أدري كيف كان يمكـن أن أعبرها مـن دونه. الأمر الوحيد الـذي أخفيته عنه هو موضوع الشـحنة النوويـة التي نحن بصدد نقلهـا، وذلك كي أحميه من العواقب التي قد تصيبني، كي أبقيه عونا أمينا لك ولبقية عائلتنا.

غرقتُ في العمل والسياسـة مرة أخرى، فأنسـتني أملك والقطان وغضبـي عليهمـا، وصـرت لا أتذكرهمـا إلا قليـلا، حيـن أجـري مكالمتـي معـك أو أتحدث مـع صفية أختي؛ أنتما آخـر من بقي في حياتـي الشـخصية الهزيلة. لم أجـرؤ على معـاودة الاتصال بعفاف وإخوتهـا. وواصـل عمـر أخـي مقاطعتـه غيـر المفهومة لـي، رغم وسـاطة صفيـة ورغـم تدهـور حالته الصحيـة، وواصل قلبي تيبُّسـه ونومه الطويل.

وفـي حين اختـار عزالدين البعد عن مجريـات الأحداث وعمل الحكومـة، وركـز مجهـوده بشـكل شـبه كامل على شـبكة شـباب المحليـات التي يعمل معهـا، فإنني ومحمود أصبحنا نلتقي بشـكل شـبه يومـي خلال هـذه الفتـرة. لعـب محمـود بحـق دور المحرك لهـذه الحكومة الائتلافية، فهـو الذي يفض نزاعـات الحلفاء، وهو

الذي ينسِّق عمل الحكومة مع الرئاسة والجيش وبقية الوزارات والهيئات، وكذلك مع مجلس الشعب المؤقت. وهو أيضا الذي يتحدث للإعلام باسم الحكومة، ويناور مع أصدقائه الإعلاميين من خلف الستار لحشد التأييد لعملها. وأنا أرقب كل ذلك وأتعجب متى وكيف اكتسب محمود هذه القدرات! لكن الحقيقة أن هذا أمر طبيعي، أنا الذي لم ألحظ طريقة عمله في الماضي بشكل جيد. كل ما فعله في حياته أصبح يصبّ الآن في هذه البؤرة المتوهجة من النشاط السياسي، حتى علاقته المتخبطة بسالي القصبجي، وبعشاقها وعشيقاته، كل شيء في حياته أصبح مسخرا لخدمة قدرته على توجيه دفة الأمور في الاتجاه الذي يراه. أصبح محمود بشير سياسيا، بحق، وبالكامل.

لكن كل المجهود المبذول، وكل الإرادة الطيبة والآمال العريضة لا تعني زوال العقبات الواقعية أمام نجاح مهمة الحكومة. حتى لو تجرد أعضاء الحكومة والتيارات السياسية التي ألفتها، من كل هوى أو طموح أو حسابات شخصية - وهو ما لم يحدث بالطبع - فلا يزال هناك عقبات حقيقية تعترض طريق النجاح. لم تستطع الحكومة بدء محاكمة رموز النظام القديم، فلم يكن هناك قانون يصلح كأساس كافٍ للمحاكمة، وخشيَت الحكومة إن حاكمتهم بالقوانين الموجودة أن تتكرر مهزلة محاكمات قضية قتل المتظاهرين الأولى. في نفس الوقت، لم يكن هناك فائدة تُرجَى من سَنّ قوانين بأثر رجعي. الحل الوحيد كان إنشاء محاكم ثورية

خاصـة بقانون خاص، لكن لـم يكن بين التيارات السياسـية إجماع على ذلك الأمر، وخشـي البعض من أثره العكسـي على الاستقرار. فـي نفـس الوقـت، فـإن اسـتمرار احتجـاز رمـوز النظام هكـذا بلا محاكمـة لـم يكن أمرا مقبولا، وصار يتسـبب في تعـرض الحكومة لانتقـادات داخليـة وخارجية متزايدة، ونفاد صبـر من الجميع. ولم يكن مـن الممكن أيضا الإفـراج عنهم، وإلا انفجـر أهالي الضحايا وعامة الشـعب غضبـا. وفي غياب حل معقول ممكـن، ظل أعضاء الحكومـة يهـذون بتصريحـات لا معنى لهـا، كأنهم يقذفـون الكرة الملتهبة المسـماة محاكمة رموز النظـام القديم بعضهم لبعض دون أن يعـرف أحد منهم ماذا يفعل بالكرة إن اسـتقرت عنده، سـوى أن يقذفها لآخَر.

نفس الشيء حدث بالنسبة إلى إعادة هيكلة أجهزة الأمن. فتلك الأخيـرة، كما شـرح لي حامـد ولطفي، عقـدت العزم علـى تفادي المواجهـة مـع الحكومـة وتفادي الاستسـلام فـي آنٍ واحـد. ومن ثَـمَّ كلمـا جـاءت حكومة باقتـراح لإعـادة الهيكلة ناقشـته الأجهزة المعنية لأطـول فترة ممكنة، وقبلته مع بعـض التعديلات، ثم تغرق القائميـن عليـه في تفصيـلات ومعوقـات إداريـة وماليـة وقانونية، حتى تسـقط الحكومـة وتأتي أخرى فتبدأ من جديـد. هذا ما حدث مع الحكومات السـابقة، وما بدأ يحدث مجـددا مع هذه الحكومة. الشـيء الوحيـد الذي كان يمكن أن يسـاعد علـى تحقيق الإصلاح الأمنـي فعـلا هو بناء أجهـزة أمنية جديـدة تعمل بالتـوازي مع تلك

القائمة وإخضاع الأجهزة القائمة لإشـراف من خارجها، لكن ذلك كان يعنـي الدخـول فـي مواجهـات مع الأجهـزة القائمـة، ولا أحد من السياسـيين يجـرؤ على ذلك، خصوصا في ضـوء تردي الوضع الأمني بالفعل، الذي سينهار بالكامل إذا حدثت هذه المواجهة، بما سيؤلّب الشعب نفسه على الحكومة. بمعنى آخر، صار الأمن رهينة في يد القائمين عليه، يدافعون به عن أنفسـهم ضد تدخل السياسيين في عملهم ومؤسساتهم.

الوضـع الاقتصـادي كان أكثـر تعقيدا مـن كل ذلك، ففـي نهاية الأمـر، وجدت الحكومة نفسـها أمام المشـكلة المزمنة، وهي الفقر وضعـف الاقتصـاد والمـوارد والقدرات. ومثلما شـرح لـي العقيد حامـد، فإن أدوات الحكومة، الـوزارات والهيئات، كانت جزءا من المشـكلة. فهذه الهيئات نفسها جزء من المشكلة الأصلية، وتحتاج إلى إصلاح وتطوير بشكل عاجل وجذري كي تتمكن من أداء مهامها الأصليـة، فما بالك بأن تصبـح هي أداة للتطوير والإصلاح؟ الكلام سهل، كما اعترف محمود بشير في النهاية، والمشروعات والأفكار تبـدو كلها براقـة عند طرحها، لكـن عندما تبدأ فـي التنفيذ، تجد أن تراكم المشكلات وتجمُّعها كلها يخلق كتلة ضخمة من الفشل تشدّ مشـروعات الإصلاح نحو الأسفل وتجثم بثقلها عليها حتى تغرقها معها وتحوِّلها إلى جزء من إمبراطورية الفشل المترامية الأطراف.

والآن، حيـن صـرت قريبـا مـن منـاورات صنـع القرار ولسـت مجرد مترجم وشاهد بين مقعدين، أفزعتني قدرة الفشل على التهام

الأفكار الجديدة ومشروعات الإصلاح. وأشهد أن محمود بشير وجميع أعضاء هذه الحكومة بذلوا قصارى جهدهم، على الأقل في هذه المرحلة المبكّرة، لكن هذا الجهد مهما بلغ لم يكن قادرا على تحويل الماء إلى نار، ولا على زيادة إنتاجية العمال، أو تنافسية المنتجات، أو خصوبة التربة وكمية المحاصيل، ولم تكن قادرة على دفع الأوبئة والأمراض التي تدمِّر صحة الناس وميزانية الخدمات، أو تنور المدرسين أو ترفع كفاءة الموظفين. كان كثيرون حادّي الانتقاد لأداء الحكومة، سواء من السياسيين كعزالدين أم من عامة الشعب. شهران مرا ولم يلمس الناس تحسُّنا في أحوالهم وبدءوا في الامتعاض. محمود رأى في انتقاد الناس للحكومة استسهالا للكلام وعدم إدراك لحجم المشكلات التي تعاني منها البلاد، وحين قال ذلك انتقده الناس أكثر لأن كلامه ذكَّرهم بما كانت كل حكومة سابقة تقوله تبريرا لفشلها. أما عزالدين وأصدقاؤه الديمقراطيون المدنيون فكانت انتقاداتهم منصبَّة على تردد الحكومة، ففي رأيهم كان المطلوب قرارات حاسمة لتجاوز حالة الثورة نحو الاستقرار، مثل إحالة المقبوض عليهم إلى محاكم ثورية، وفصل من لا يصلح، وهكذا. قال لمحمود إن البطء سيجعل الحكومة تدفع الثمن نفسه ولا تحصد نتيجة، وفي النهاية يخسر كل الأطراف، في حين أن بعض الحدة والحسم سيكون له آثار موجعة في البداية، لكنه سيخفف عن الجميع أثقال الماضي ويسمح للبلد بالانطلاق. بعض أعضاء الحكومة أيّدوا وجهة النظر هذه، لكنهم

لـم يكونـوا أغلبية. ولم يعـد الاختلاف على ما يجـب عمله مرتبطا بالتيار السياسي، فقد أصبح هناك ثوريون وديمقراطيون وإسلاميون يرون ضرورة أخذ طريق أكثر حسما وجرأة، في حين وقف ثوريون وديمقراطيون وإسلاميون آخرون مع منهج الحكومة التدريجي.

أما أنا فقد وقفت أشـاهد كل هذا وأنا غير واثق أي المعسـكرين علـى حـق. العقيد حامـد، الذي كانـت تحليلاتـه دقيقة فـي معظم الأحيان، قال إن وجهتَي النظـر صحيحتان، ويمكن تنفيذهما، لكن الفـارق الحقيقـي هـو الثمن الذي يتطلبـه كل من هذيـن الخيارين. أما هـو فلـم يكن قلقا مـن أي من هذا بقـدر ما كان قلقا مما يسـميه «تفتُّت سلطة الدولة». لم يكن الأمر يتعلق بفوضى محتمَلة، فالناس في نظره لا يعيشون في الفوضى كثيرا. وما حدث منذ اندلعت الثورة الأولى هو نشـأة نُظُم وترتيبات غير رسـمية يديـر الناس بها حياتهم فـي شـتى المجالات، من الحفـاظ على الأمن إلـى توفير حاجاتهم الاقتصادية إلى حل المنازعات بينهم، بعيدا عن مؤسسـات الدولة. لكن هذا الأمر سيحدّ من قدرة أي حكومة قادمة على الإصلاح، بل على إدارة البلاد.

وبيـن الحكومة، ومصـادري الأخرى، ومحاولاتـي لإعادة بناء مؤسسـة الرئاسـة، وجدت نفسـي في نهاية الأمر أعمـل نحو ثماني عشـرة سـاعة فـي اليـوم. معظم هـذه السـاعات يضيع فـي تفاهات بيروقراطية لا مفرّ منها إن أردت إعادة بناء مؤسسة، وكثير من الإحباط

والضجر. وفي وسط كل هذا يصاحبني عبده، وينبهني دائما إلى ضرورة الاهتمام بصحتي، وبالطعام، وبالمشي ولو لبعض الوقت أمام المقر على الكورنيش، وبالاتصال بكَ أو بصفية، وحاول عدة مرات إقناعي بالخروج أو السهر، وأنا أستبعد «نصائحه» هذه. من وقت إلى آخر تأتينا دعوات من بعض السفارات الأجنبية لحضور حفلات أو عروض فنية أو أمسيات ثقافية تتبناها هذه السفارات أو تمولها. بصفة عامة أرفضها وأعطيها للسكرتيرة لتوزِّعها على من يريد. وعبده يحاول إقناعي بالذهاب إلى هذه العروض كلها، ويجد لكل منها سمة خاصة تبرِّر أهمية تعرُّفي عليه أو حضوري ومشاركتي فيه، بشكل أصبح يثير الضحك. حتى جاء يوم كان من المفترض أن ألتقي فيه وفدا من نقابة موظفي الدولة المستقلة في السابعة والنصف مساء ولم يأتِ الوفد، وتَبيَّن أن السكرتيرة أخطأت في إبلاغهم بالموعد. ومن ثم أصبح لديّ فجأة أمسية فارغة، وعندها ابتسم عبده وأخرج من جيبه دعوة لحضور مسرحية «أنتيجون» لجان أنوي تقدمها فرقة المسرح القومي. نظرت إليه كأنه معتوه؛ أفي وسط كل هذا أذهب إلى المسرح؟ أنا الذي لم أدخل مسرحية منذ كنت في بكين! لكني في النهاية وجدت نفسي جالسا بجوار عبده في مقعد أحمر بالصف الأول بالمسرح الكبير بدار الأوبرا أنتظر رفع الستار.

... ثم ظهرَت نور.

- ١٠ -

عندما رأيت نور لأول مرة، لم يحدث لي أي شيء. لا تدَع الأفلام والأغاني والروايات تخدعك، وتوهمك بأن صواعق ستحلّ عليك حين ترى محبوبتك لأول مرة، وأن النور سينبلج من الظلمة ويغشاك توهُّج يجعل خلاياك تحترق. في معظم الأحيان، ربما في كل الأحيان، لن يحدث لك شيء من هذا حين ترى لأول مرة المرأة التي ستصبح حبيبتك. كل ما هنالك أني لاحظتها، كأني أخذت علما بوجودها وأدرجتها في مكان ما في ذاكرتي. نور، الممثلة التي قامت بدور أنتيجون. صار هذا مفتاح ملفِّها عندي. لعل الآخرين يحبون بشكل مختلف، ولعلك تقول لنفسك إن هذه طريقة سكرتير معلومات في الحب. قل ما تشاء، ستجرب بنفسك وترى.

أعجبتني نور. ولم أتابع المسرحية جيدا لأني كنت مشغولا بمراقبتها هي. طريقة حديثها، أدائها، ملابسها، ملامح وجهها حين تقترب من حافة خشبة المسرح وأستطيع رؤيتها جيدا، شعرها، قوامها وحركتها. تتحرك على المسرح بخفة كأنها تنساب لا تمشي بخطوات، وشعرها الغزير يتبعها كأنه يحاول اللحاق بها. كانت دقيقة الملامح صغيرة الحجم بشكل لافت، كأنها دمية. وبشرتها البيضاء الناصعة تُبرِز سواد عينيها وشعرها أكثر. لها غمازتان تشرقان حين تبتسم فتزيد ابتسامتها إشراقا، ونظرة عتاب مستمرة تُبقِيك منتبها كي لا تخطئ في حقها. هناك شيء فيها يمسُّك من قُرْب، لا أعرف ما هو، لكنها حين تحدثك يخرج صوتها كأنه يدها

تمسح على نفسك. راقبتها طوال المسرحية بإعجاب، وقلت لعبده إن فكرته كانت جيدة ويجب علينا تكرار ذلك بشكل دوري كي نخرج من إطار المكتب ومشكلاته وجوه العقيم. ابتهج عبده، وبدأ ينسج خططا لنشاطنا الثقافي: عروض موسيقية، معارض فنية، ندوات... قاطعته، وطلبت منه التركيز على المسرح. نعم، كنت أريد رؤيتها مرة أخرى، لكني لم أكن أفصحت لنفسي عن هذه الرغبة، بعد.

عدت إلى المكتب في الصباح فوجدت أخبارا سيئة تنتظرني، تقريرا من الداخلية عن مشكلات في نجع حمادي بين الأهالي وإدارة مصنع الألمنيوم، حيث يريد الأهالي تعيين أبنائهم في المصنع، وإدارتُه ترفض، بالطبع، وانتهى الأمر بالأهالي إلى أن حاصروا المصنع وقطعوا عنه الإمدادات حتى توقف عن العمل. اتصلت بالعقيد لطفي فقال إن الشرطة الموجودة هناك لا تستطيع التدخل لأنها قوة صغيرة وتعتمد في أمنها وحركتها على قبول الأهالي لدورها. ونصح، كما ورد بالتقرير، المصنع بالتفاهم مع الأهالي وربما تعيين بعض أبنائهم في أي وظائف ولو رمزية كي تسير الأمور. اتصلت بمحمود فلم أستطع الوصول إليه إلا بعد عدة ساعات، اتصلت بالمحافظ فأخبرني أن الموقف تدهور منذ الصباح، حيث رفضت إدارة المصنع تعيين المزيد خصوصا أن هذه ثالث مرة يحدث فيها نفس الأمر خلال عام، ولم يعد الأمر يحتمل تعيين مزيد من الأيدي التي لا عمل لها وترهق الميزانية

وتعطّل العمل. وبعد إعلان الإدارة موقفها اقتحم بعض الأهالي المصنع وحطموا أجزاء منه، ونهبوا بعض محتوياته، وأشعلوا النار في البقية. وتمكنت قوة الشرطة التي راقبت كل ذلك دون تدخل من إجلاء العاملين دون أذى، بعد التفاوض مع المحتجين.

لم تكن حادثة نجع حمادي سوى بداية التدهور في علاقة حكومة الوحدة الوطنية بالناس. تَحوَّل تململ الناس من بطء تحسُّن الأحوال إلى ضجر، ثم انتقادات، ثم احتجاجات، ثم انقلب إلى غضب حين اكتشفوا أن المسألة ليست مجرد بطء بل عجز عن تحسين الأمور، وأن ما يسمونه بطئا هو غاية ما يمكنهم انتظار حدوثه. لن تستطيع الحكومة فعل أكثر من هذا خلال السنوات الثلاث القادمة، هكذا أعلن بشير حين قرر ضرورة مصارحة الناس وتخفيض توقعاتهم. استند في شجاعته المؤقتة إلى قوة التحالف الذي تقوم عليه الحكومة، لكنه لم يرَ ما يجري تحت قدميه، فقد كان حلفاؤه هم أول من انفضَّ عنه. الاتحادات النقابية المستقلة التي دعمت التيار اليساري الثوري هي التي بدأت بالانفضاض عن الحكومة ثم الانقضاض عليها. للحق إن بعض النقابات وقف مع بشير واستمرّ في دعم تياره والحكومة، لكن عملية تفتت السلطة التي لا يكلُّ العقيد حامد عن التحدث عنها كانت جارية داخل النقابات أيضا. ففي حين وقفت معظم القيادات مع تيارها السياسي وممثله بشير واستمرت في مساندة الحكومة، فإن قيادات منافسة وجدت في هذا الموقف فرصة سياسية لها، وعملت على

الاستفادة من الاحتقان الشعبي بتبنّي مواقف أكثر ثورية من قياداتها كي تزيحها جانبا. ونجحت. انقلب السحر على الساحر كما أخذ محمود يردد في مرارة، وأصبح الاحتجاج والثورة حالة دائمة. لم أرَه تائها هكذا من قبل، ربما حين اكتشف خيانة سالي القصبجي له أول مرة. قال إن هذا هو طريق الهلاك، فمهما فعلت سيكون هناك غاضبون ومحتجون، وإن لم تستطع القيادات، وبالذات القيادات الثورية، السيطرة على قواعدها، فلن يمكن التحرك على الإطلاق. قلب حامد شَفَتيه وأشار بيده أن «ألم نقُل هذا من البداية؟!».

بدأت المعركة، ونظمت التجمعات النقابية المنشقّة عن النقابات المستقلة مظاهرات واحتجاجات اجتذبت أعدادا متزايدة من الناس. حاول محمود التنسيق مع الإسلاميين والقوى الديمقراطية، لكن كلتا القوتين خافت على قواعدها أن يصيبها ما أصاب قواعد الثوريين اليساريين إن أخذت موقفا في هذا الأمر، فظلتا على الحياد. وقف بشير وزملاؤه يرقبون الاحتجاجات وهي تتصاعد دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عما يمكنهم فعله، ثم قرر بشير التحرك. بعد خمسة أيام بدأت النقابات المستقلة التي ظلت على ولائها لبشير وتياره في تنظيم احتجاجات مضادة، تدعم الحكومة وتتهم التنظيمات الأخرى بالتخريب والعمل لصالح الإسلاميين من أجل كسر الحركة الثورية. جاءني عزالدين إلى المكتب فزِعا، وقال إن ما يحدث مهزلة، وإن محمود يسير في خطى النظام القديم ويستعين بأمن الدولة لتقسيم النقابات، ولم يعد ينقصه سوى تنظيم

موقعة جمل جديدة. حاولت ترتيب اجتماع للقوى المشتركة في الحكومة مع المجلس الرئاسي لكني لم أفلح. حاولت العثور على محمود ليأتي ويتحدث معي أنا وعزالدين لكنه لم يكن متاحا. انصرف عزالدين وهو غاضب. وبقيت أرقب ما يحدث.

أكد لي العقيد لطفي أنهم يتحركون بالفعل وسط الاحتجاجات بالتنسيق مع بشير وتياره، قائلا إن هذا هو الحل الوحيد إذا أردنا إنقاذ الحكومة من التفكك. وقع بعض المصادمات في اليوم السادس بين المتظاهرين من الجانبين، وعند هذه النقطة اندفع مؤيدو التيارات الديمقراطية المدنية وشباب الحركات الإسلامية لحماية المحتجين والدفاع عنهم ضد «ممارسات الفلول» من قِبل حلفائهم في الحكومة. وفي غضون أربع وعشرين ساعة تحول ما بدأ كاحتجاج نقابي جزئي إلى كرة من اللهب اجتذبت بقية المطالب الشعبية. وبدأ تحالف الحكومة في التشقق.

تمكنت من العثور على محمود في أول المساء، ووجدته في حالة هياج عصبي شديد ويكيل الاتهامات يمينا ويسارا. حاولت تهدئته لكنه لم يكن يسمع. عقدنا اجتماع المجلس الرئاسي مع أقطاب الحكومة في العاشرة مساء ولم نصل إلى شيء، سوى أن ممثلي الكتلتين الأخريين بدءوا يلوِّحون بالانسحاب من الحكومة. لم يكن لدى أحد حل حقيقي، فحتى لو انسحبوا من الحكومة، ماذا سيفعلون بعدها؟ هل سيشكِّلون حكومة دون اليسار الثوري؟ وفي هذه الحالة هل ستكون أقوى سياسيا أم أضعف؟ وكيف

سينجحون في تلبية مطالب الناس التي لا يستطيعون الآن تلبيتها؟ سألهم محمود بشير هذا السؤال مباشرة، فسكتوا جميعا. لم يكن الأمر الآن يتعلق بتلبية مطالب الناس، بل بصرفهم من الميادين واستعادة الهدوء. وفجأة تذكرت اللواء القطان وما كان ينقله إليّ من محادثات تدور داخل الرئاسة في آخر يناير ٢٠١١. انتابني دوار مفاجئ وقويّ، أُغشِيَ عليّ بعده بثوانٍ قليلة.

كانت هذه أول مرة أُصاب بهذا الدوار الذي لازمني بعد ذلك. يأتي دائما في أوقات غير متوقَّعة. قمت بكل الفحوص الطبية التي تخطر على بالك، من فحص ضغط الدم إلى الجهاز العصبي وعلامات الصرع، ولم يجد الأطباء شيئا غير عادي. وفي النهاية نصحوني بالاهتمام بطعامي! لا أريد أن أكون أبا سيئا، لكن بصراحة، في حياتي كلها لم أجد فائدة للأطباء. المهمّ. أفقت فوجدت بعض الزملاء يعطونني مياها وبسكويتا، وتطوعت السكرتيرة لسبب غامض بإغراق شعري بالماء والعطر. انفضّ الاجتماع من دون الوصول إلى نتيجة، كأن إغمائي الدرامي سمح لهم بالقيام والهرب من مسئولية اتخاذ قرارات لا يعرفون ما هي.

عدت إلى مكتبي فوجدت العقيد سعيد قد اتصل بي فعاودت الاتصال به. وجدته متوترا وقال لي فورا إن «صديقك بشير» يلعب لعبة خطرة، ويغازل بعض قيادات الجيش. ولو نجح وأقنعهم بالتدخل فإنه سيجرّ الجميع إلى هوة أكبر، وطلب مني نصحه بالرجوع عن هذا الطريق وتسوية مشكلاته السياسية دون إقحام

للقوات المسلحة فيها. شكرته واتصلت بالعقيد حامد لأرى إن كان لديه شيء فقال لي إن هذه الحكومة في طريقها إلى السقوط في تقديرهم، وقد يكون هذا هو المخرج الوحيد الذي يهدئ الناس. سألته ثم ماذا، فقال لا شيء، حكومة جديدة، ونفس البرنامج، وربما احتجاجات جديدة، حتى يهبط سقف توقعات الناس، أو حتى يصبح السياسيون أكثر مسئولية ويصارحوا قواعدهم بالحقائق دون خشية فقدانهم لشعبيتهم.

في اليوم التالي تحولت انتقادات القوى الديمقراطية المدنية الخافتة للأداء الحكومي إلى نغمة أكثر حدة وعلانية، وتبعتهم التيارات الإسلامية، وبذلك تَخلَّت الكتلتان عن شريكهما الثالث وعن حكومتهم واختارتا الوقوف بجانب الاحتجاجات وهما تعلمان جيدا أنهما لن تستطيعا الاستجابة لطلباتها. اختارت الكتلتان جانب المزايدة مع قيادات الاحتجاج صيانة لقواعدهما السياسية، وحين فعلتا ذلك اكتسبت الاحتجاجات زخما إضافيا، وتحرك المحتجون إلى الكورنيش وحاصروا المقر الرئاسي وأعلنوا أنهم لن يرحلوا قبل استقالة الحكومة. وصل المحتجون إلى محيط المبنى في الحادية عشرة صباحا، ولأول مرة لا أشعر بالتعاطف مع المتظاهرين، بل تجتاحني غصة عميقة لسماع صيحات الاحتجاج و«الشعب يريد» وبقية الشعارات. عند هذه النقطة علمت أني تعبت من الثورة. لم يكن أعضاء الحكومة داخل المبنى حين بدأ الحصار، ولا أعضاء المجلس الرئاسي. لم يكن بالمبنى سوى الموظفين،

وأعتقد أنـي كنت أكبر الموظفين الموجوديـن درجة، إذ كان رئيس الديوان في اجتماع خارج المقر. وحتى العصر لم يصدر شيء لا عن الحكومة ولا عن المجلس الرئاسي، فزاد غضب المحتجين وبدءوا في رشق المبنى بالحجارة. وقفت في مكتبي في الدور السابع أرقب المحتجين يحطمون واجهة المقر، وكل ما يسيطر على تفكيري هو كيفية تفادي الركل بالأحذية مرة أخرى.

- ١١ -

رأس حـازم شـعراوي هـو الذي أنقذنـي من الركل هـذه المرة. كنـت واقفـا في مكتبـي أرقب الجمـوع الغاضبة ترشـق واجهة مقر الرئاسـة، ورجال الأمن يحتمون بدروعهـم. أعلم أنهم لن يتدخلوا إذا مـا اقتحمت الجمـوع المبنى، وحتى لو تدخلـوا فلن يفلحوا في منعها. وبينما كنت واقفا أسأل نفسي إن كان مصيري سيكون كالمرة الماضية أم أسوأ، أعلن الدكتور حازم شعراوي استقالته من منصب رئيس الوزراء وتحمله مسئولية فشل حكومة الوحدة الوطنية في تلبية مطالب الشـعب. وفي غضون خمس دقائق مـن إذاعة الخبر توقف المتظاهـرون عن مهاجمة المبنى، ثم بـدءوا ينصرفون وهم يهتفون بانتصار الشعب. شعرت بالراحة، فلم أتحمل فكرة تكسير ضلوعي مـرة أخرى من قِبل أناس يكرهونني بعنف دون سـابق معرفة. لكني أيضا شعرت بمرارة؛ هؤلاء المحتجون مساكين فعلا، يعانون معاناة

حقيقية، ولديهم آمال يظنونها قابلة للتنفيذ، وعندهم شعور بالقدرة على فرض مطالبهم، ولا يعرفون في ابتهاجهم بالنصر إلى أي حد هم مخدوعون. لو قلت لهم ما صدّقوني، وربما لو عرفوا لساء الوضع أكثر. وقفت أرقب الجموع تبتعد وهي تحتفل في جذل بلا أساس، أسأل نفسي إن كان هناك مخرج من معضلة الخداع المركَّبة هذه. لم أجد، ساعتها، فجمعت أوراقي وغادرت.

بدأت المشاورات من اليوم التالي. تعلم الأطراف جيدًا أن الحكومة القادمة لن تكون أفضل من التي سقطت، وأن حازم شعراوي بريء، كبش فداء ذُبح أمام الجماهير الغاضبة كي تهدأ. سبق إعلان حازم مناورات بين القوى السياسية، كل تحاول تلبيس الأخرى المسئولية، لكن كل قوة دافعت عن رجالها في الحكومة وهددت بإحراق الحكومة التالية إن تم المساس بهم. ولم يبقَ سوى حازم شعراوي، الذي بنى مكانته السياسية حول نفسه كفرد، لأنه لم يُرِد الانضمام إلى أي قوة سياسية، ولأنه كان محبوب شباب الثورة وظن أن هذا الحب سيحميه. لم يقرأ ماكيافيللي جيدا، لم يعرف أن حب الناس في يدهم لا في يده هو، وأنه لا يدوم. وحين حمي وطيس الصراع السياسي وجد نفسه واقفا وحده، لا يستند إلى قوة تحميه وتدافع عنه، وبين الجماهير الغاضبة الزاحفة المتوعدة وزملائه في الحكومة المتمترسين تحت غطاء قواهم السياسية، وقف حازم شعراوي بجسده النحيل وابتسامته الطيبة وتفاؤله المفرط، كبشا ضعيفا وحيدا. خيَّروه بين كأس السم النبيل

والتجريس المفضي إلى الذبح، فاختار كأس السم الدرامية، تجرعه أمام الكاميرات، ثم هوى في جُبّ النسيان العميق.

قام محمود بشير بدور رئيسي في عملية التضحية بحازم شعراوي. وانتقل بعدها إلى ما أسماه الخطوة الثانية، وهي حسم مصير قادة النقابات المنشقّة الذين بدءوا الاحتجاج. حضرتُ جزءا من هذه المشاورات، في اجتماع موسَّع ضمَّ قادة القوى السياسية الرئيسية وأعضاء المجلس الرئاسي وممثلي الأجهزة الأمنية. العقيد لطفي؛ ممثل أمن الدولة أوصى بإدخال هؤلاء القادة في الحكومة، وهو ما رفضه محمود بشير في البداية وسانده في ذلك العقيد حامد ممثل المخابرات العامة والعقيد سعيد ممثل المخابرات العسكرية، اللذان قالا إن مثل هذا الإجراء سيشجع كل طامح إلى تنظيم احتجاجات كي يصعد على ظهرها إلى عضوية الحكومة، وهو باب إن فُتح لن يمكن لأحد إغلاقه وسينهي إمكانية استقرار أي حكومة، بل سيفتت القوى السياسية نفسها. سأل ممثلو القوى السياسية محمود إن كان لديه وسيلة أخرى لاحتواء القادة المنشقِّين فنفى، معترفا بأنهم خارج سيطرته. لكنه في نفس الوقت تمسك بإبقائهم خارج الحكومة. وفُضّ الاجتماع دون التوصل إلى نتيجة على أن نجتمع مرة أخرى في المساء.

قضيت بعد الظهر في اتصالات ومناقشات، وحادثت عزالدين لأستمع إلى رأيه فوجدته من رأي حامد وسعيد، لكنه شدد على أن المشكلة ليست في تشكيل الحكومة بل فيما ستفعله هذه

الحكومة إزاء المسائل المعلقة، وما إذا كانت ستتعامل بحسم مع هذه المشكلات أم ستظل تحاول الإمساك بالعصا من المنتصف فتخسر كل الأطراف. بدأ اجتماع المساء في السادسة ولم يستمرّ سوى لمدة ساعة، أدركنا خلالها أننا لن نحرز تقدُّما يُذكَر، فقررنا جميعا الانتظار إلى الصباح عسى الليل أن يأتي لنا بفكرة مفيدة.

كانت الساعة السابعة والنصف وأنا أتأهب للرحيل حين دخل عليّ عبده وفي يده دعوتان لحضور عرض مسرحي. نظرت إليه مستنكرا؛ لم يكن هذا وقته إطلاقا. لكنه مدّ الدعوة في وجهي وأنا أسأله عن المجانين الذين ينظمون عرضا مسرحيا في وسط أزمة كهذه، ولمحت ساعتها اسمها على الدعوة، فصمتّ. نظرت في ساعتي. لدينا وقت. قال عبده إن الوقت مبكر وليس لدينا شيء نفعله ومن الأفضل أن نغسل حالتنا النفسية بشيء راقٍ كهذا. هززت رأسي موافقا، ومحاولا إخفاء سعادتي، وذهبنا.

هذه المرة حين رأيتها على المسرح حدثت لي أشياء. لا أدري كيف أصفها لك، لكني شعرت كأن شيئا ناقصا مني قد عاد وأكملني. هدأَت نفسي واطمأنَّت. ثم شعرت بدفء في قلبي. وأظن أن ابتسامة بلهاء ارتسمت على وجهي. هذا هو الأمر، باختصار شديد. وحين يحدث لك هذا فاعلم أن روحك قد ارتبطت بشخص آخر. قد يكون ذلك الأمر سبب سعادتك، أو تعاستك، أو كلا الأمرين، حسب ظروفك وظروف الشخص الذي ترتبط به. يمكنك أن تنسحب وتحاول نسيان الأمر أو تجاهله، ويمكنك أن تُقدِم، أو تظلّ تراوح

بيـن الأمرين، ولـكل من هذه الاختيـارات عواقب وثمن سـتدفعه. في حالتي أنا، اخترت المراوحة. لأسـباب بيِّنة، لم أسـتطع الإقدام، لكـن قلبـي الذي يبس منذ عشـرين عاما تعلـق برائحـة الحياة ولم يطاوعني حين حاولت الانسـحاب. أقنعني قلبي أن الأمر لا يتعدى الإعجاب بممثلة، مثلما يجري كل يوم مع ملايين من البشـر، وقال لي أن لا أقسو على نفسـي لدرجة حرماني من مشاهدة ممثلة تؤدي أدوارا على مسـرح لمجرد كونها فاتنة؛ أليـس هذا دور الممثلات؟ أقنعني قلبي ـ واليائس لا يتورع عن الخداع ـ أن لا شـيء غير عادي يحـدث، أو يُتوقـع حدوثه؛ كل مـا عليّ هو العودة لمشـاهدتها، من وقت إلى آخر.

لكني عدت لمشاهدتها في اليوم التالي، والذي تلاه. قلت لعبده إن هـذا العرض رائع، ووافقني متشـككا، ويبدو أنـه فهم بعد قليل، فصـار يأتيني بدعوات وتذاكر لكل عروضها المسـرحية. شـاهدت نـور فـي كل الأماكن التـي قدمت فيهـا عروضا: من مسـرح الجرن الـذي تتبنـاه مع مجموعـة من أصدقائهـا، إلى المقاهي والمسـارح المسـتقلة التي أنشأها الشـباب بالعشرات في كل المدن، وحتى دار الأوبـرا. بـل شـاهدت عروضها السـابقة على الإنترنـت، وجمعت صورهـا المتاحـة ووضعتها فـي ذاكرة هاتفي المحمـول. وجمعت كل المعلومـات المتاحـة عنهـا. وفـي خلال عـدة أسـابيع كنت قد اسـتقررت سـعيدا في حالـة الهوس بهـذه المرأة، نور. لكني أسـبق الأحداث. لنعُد إلى التسلسل الزمني المضبوط.

في الصباح كانت الفكرة قد جاءت، ومن ممثل الإخوان. اقترح إدخال ممثل عن النقابات المنشقّة وزيرا في الحكومة، وفي نفس الوقت، وكيلا يحقّق قادة الانشقاق نصرا على القيادة الأصلية للحركة النقابية واليسار الثوري، يتولى محمود بشير رئاسة الوزارة خلفا لحازم شعراوي، وهو الأمر الذي سيوحي إلى العمال والموظفين والفئات الأفقر بأن أولوية هذه الحكومة هي الاستجابة لمطالبهم التي تسببت في الاحتجاجات الأخيرة. صمتنا جميعا. كان الحل عبقريا، ولكنه غير متوقَّع بالمرة. فحتى الآن قامت حكومة الوحدة الوطنية على مبدأ إسناد منصب رئيس الوزراء إلى شخص مستقل عن القوى السياسية المتحالفة حفظا للتوازن بينها. وتساءل الجميع عن سر هذا الكرم المفاجئ من قِبَل الإخوان وما إذا كانوا يدبِّرون مكيدة ما. تمتم كل واحد ببعض الكلمات التي لا تعني الكثير، ثم أخذنا استراحة للتشاور.

طلب ممثلو الأجهزة الأمنية الثلاثة الاجتماع بمحمود بشير وزملائه من التيار الثوري لمناقشة الموقف، وطلبوا مني المشاركة في الاجتماع. بدأ العقيد لطفي الاجتماع بتهنئتهم بهذه الفرصة، مضيفا أن معلوماتهم تشير إلى أن الإخوان وبقية التيارات المتأسلمة قررت عدم المنافسة على قيادة الحكومة في هذه الفترة بل وتشجيع القوى الأخرى على ذلك كي تتفادى أي مواجهة مع الجماهير في ضوء استحالة تلبية المطالب الشعبية في وقت قريب، وكذلك كي تتفرغ لإعادة تنظيم صفوفها التي أصابها ما أصاب المجتمع كله من

تفتُّت وتشرذُم. ومن هنا جاء عرضهم بترك رئاسة الحكومة لبشير، مشيرا إلى وجود تقديرات باستعدادهم في المستقبل للانسحاب من الحكومة برمتها. رد بشير بأن ذلك أدعى إلى رفض العرض وتحميلهم مسئولياتهم إزاء الوضع المتردي.

وهنا انبرى له العقيد حامد الذي حاول طوال الاجتماع السيطرة على غضبه البادي. عدَّد له حامد المخاطر التي تواجهها البلاد: الشرطة تفتَّتت وأصبحت وحداتها غير قادرة على تنفيذ الأوامر الصادرة إليها، ولا تستطيع العمل في محيطها دون معونة اللجان الشعبية في المدن والعائلات في الأرياف. وظهرت شرطة للسلفيين والإخوان في بعض المناطق. وروابط الأُلتراس المسلحة تتجول جهارا نهارا في المدن وتعمل كحرس ثوري يتدخل في الأزمات الكبرى. شركات الأمن الخاصة توسعت في العمل بحيث لم تعد تقتصر على حراسة المنتجعات بل بدأت المنشآت الاقتصادية الكبرى العامة والخاصة تستعين بها، إضافة إلى البنوك والسفارات، وظهر كثير من الروس وبعض الصينيين في هذه الشركات. قال حامد، بهدوء العازم على السيطرة على غضب متفجر، إن هذا التردي في الوضع الأمني يصاحبه تردٍّ في قدرة بقية مؤسسات الدولة على العمل، بحيث لم يعد للقرار المركزي الصادر من الحكومة كثير معنى. وأصبح للقرار مراكز أخرى. هذا بالإضافة إلى المخاطر الخارجية المتفاقمة، من الوضع في سيناء إلى انتشار القوات الأمريكية في كل مكان في الخليج إلى

الحرب الأهلية في سوريا. كل هذا معناه تآكل لسلطة الدولة في الداخل ولقدرتها على الحركة في الخارج، إن استمر فسيؤدي إلى انهيار الدولة نفسها بالتدريج. أضاف حامد أن هذا تقدير موضوعي للموقف لا دخل للعواطف والرغبات فيه، وأن السؤال الآن هو: هل هناك قوة سياسية مستعدة وقادرة على معالجة الموقف وتغييره نحو الأفضل؟

نظر حامد إلى محمود في عينيه وقال له إن الفرصة مواتية الآن أمامه، هو ممثل التيار الثوري، لحشد هذا التيار خلف عملية إصلاح جذرية تنقل البلاد إلى الأمام وتنقذها، ولا يصح التخاذل في هذه اللحظة. سكت. أضاف العقيد سعيد بصوته الجهوري أنه لا يريد صدمة الحضور لكن الحقيقة أن الجيش بدأ يتململ من هذه الحالة، ومن عبث المدنيين بمقدَّرات البلاد، وعليهم أخذ ذلك في الاعتبار. ران صمت عميق. قطعه لطفي قائلا إن قيادات الداخلية أصبحت تستشعر الخطر المحدق بالوضع، وهي مستعدة للتعاون في مجال الإصلاح الأمني إن لمست جدية من الحكومة.

صمت محمود بشير لحظات ثم طلب يومين للتشاور بشكل موسع مع زملائه ومؤيديه.

قَبِل محمود بتشكيل الحكومة الجديدة، وصار رئيسا للوزراء، وفي خلال أسبوع أعلن عن حكومة تضمُّ ممثلين لجميع التيارات، بما في ذلك ممثل عن قادة النقابات المنشقَّة، مع موازنته بممثِّل عن قادة النقابات المستقلَّة. هل أخطأ بقبوله هذه المهمَّة؟ كانت التحديات كبيرة، لكنها أيضا فرصة له وللتيار الذي يمثِّله. ووعده الجميع بالمساندة، فأغراه ذلك بالقَبول. تناسى أنه وتيَّاره جزء من سلسلة متعددة الحلقات، ومهما شدّ من عوده وتَقوَّى لم يكن بمقدوره شد الحلقات الأخرى كي تستقيم وتنتظم حركتها مع حركته. كما لم يكن بوسعه التحرك منفردا دون الحلقات الأخرى. نجاحه يتطلب القدرة على ضبط حركة الحلقات الأخرى، والذهاب بعيدا، وهو ما لم يكن مستعدا له ولا قادرا عليه. لكن كم منا يستطيع مقاومة الأمل حين يتعارض مع حسابات العقل؟ قليلون، ومحمود بشير ليس من بينهم. انطلاقه الدائم، ورغبته في دفع الأمور وخوض غمار التجربة، غالبا ما تَغلَّبا على حساباته. لهذا قَبِل هذه المهمة، وهكذا بدأت نهايته.

كان اليوم التالي لتشكيل الحكومة هو عيد العمال، وقررت قضاءه في البيت لأرتاح وأُجرِي بعض الاتصالات الشخصية التي لا أجد الوقت لإجرائها. جلست على سطح المنزل أرقب السماء والبيوت الأخرى والحديقة الصغيرة التي اعتنى بها عبده وحوَّلها إلى مشتل صغير بعد أن دمَّرها «المواطنون الرُّحَّل». لم يكتفِ

بإعـادة زرع نباتـات الزينة الأصليـة بل أضاف إليهـا ريحانا ونعناعا ثـم بعـض الخضـراوات، فأصبحت هـذه الحديقة الصغيـرة تعطينا خَسًّـا وجرجيرا وبقدونسا وشبتا وطماطم. لكنه حين اقترح تحويل حوض الاسـتحمام الخالـي إلى مزرعـة صغيرة للسـمك رفضت؛ لا أعتقد أن أختي ستغفر لي هذا.

فـي نفس اليوم الـذي أُعلِـنَ فيه عن تولي محمود بشـير رئاسـة الـوزراء تم الاتفاق بين البنـك المركزي ووزير المالية على تسـوية لمشـكلة البنـوك ففُكَّـت الأرصـدة المجمَّـدة منـذ الثـورة الثانيـة. اسـتعدت أموالـي أخيرا، وسـدَّدت ديوني لمحمـود وعزالدين، بل وعبده الذي دفعت له مقابل سـكني عنده في الجيزة. أرسلت بعض المال إلى عفاف وميرفت وحسـن عن طريق سالي القصبجي، التي طمأنتـي علـى أحوالهم وأخبرتنـي أن ميرفت أخـت عفاف صارت «تعمل عندها». لم أشـأ أن أسـألها عن طبيعة «عملها» عندها مخافة أن تتأكـد ظنونـي. نظـرَت إلـيّ وقتهـا سـالي وأظنها فهمـت ما دار بذهني، وسـخرت مني ومن سـذاجتي وتعامِيّ عـن الحقيقة. لكني واصلت الصمت.

اتصلـت بأمـك لأخبرهـا بفـك أرصدتـي، وكنت في سـذاجتي أعتقـد أن ذلك سـيغيِّر في الأمر شـيئا؛ ربما يقنعهـا بالعودة بك إلى مصر. أخبرتها أيضا أني أستطيع استعادة بيتنا بمنشية الطيران. لكنها استنكرت فكرتي، واتهمتني بانعدام المسئولية ـ تجاهك ـ لتفكيري فـي إعادتكمـا إلى مصر في هـذه الظـروف. حاولت أن أشـرح لها

أن الحياة مستمرة، وأننا لا نأكل بعضنا بعضا فسخرت من كلامي وظلت تردد على مسامعي قصص الحوادث التي تجري للناس في الشوارع. نعم هذه الحوادث حقيقية، قلت، لكن ألا يحدث مثلها في لندن وفي نيويورك؟ أخذنا نتحاور والطريق بيننا يتغلق كلما تحدثنا، كأننا نتحدث بلغتين مختلفتين، كل ما يجمع حوارنا المبعثر هو بعض الكلمات التي يتخذها كل منا تُكَأة للرد على الآخر. لم يكن هذا نقاشا بل حديثين متوازيين حول نفس الموضوع. صمتُّ في النهاية وتركتها تواصل كيل الاتهامات والأسئلة التي لا إجابة لها. كرهتها في هذه اللحظة، اعذرني إن قلت لك هذا، لكني كرهت عنادها وأنانيتها المفرطة وانحصار اهتمامها في أمرها الخاص وانغلاق قلبها عني وعن حياتنا وعن مصر كلها. وشعرت أن كل ما أريده هو إنهاء المكالمة وعدم التحدث إليها ثانية، أبدا. ظلت تلاحقني بأسئلتها السخيفة وأنا صامت. ثم قلت ألا فائدة من هذا النقاش، فهاجمتني بعنف أكبر. توقفت عن السمع. انتظرت حتى صمتت لحظتين، ثم قلت مع السلامة، وأغلقت الخط. اتصلت بصفية على الفور لأقصَّ عليها ما حدث فردّ عليّ إبراهيم زوجها وأخبرني أنها في المستشفى مع عمر لإجراء فحوص له وستعود في الليل.

اتصلت بعزالدين فوجدته في حالة انطلاق لم أعهدها فيه منذ سنوات طويلة، فسألته عما به، وكانت هذه آخر فرصة لي لقول أي شيء في تلك المكالمة. قال إنه نجح أخيرا في جمع الشباب

الديمقراطي المدني في شبكة حقيقية تعمل على الأرض، وبعد أكثر من سنة من العمل اكتمل بنيان هذا الكيان على مستوى المحليات في مصر كلها، أصبح لديهم أقسام في كل المحافظات وفروع ممتدة حتى القرى والنجوع. لا يقومون بعمل سياسي مباشر، ولا علاقة لهم بالتظاهرات والاحتجاجات وغير ذلك وإنما يركزون على القضايا المحلية التي يواجهها الناس: الري، الائتمان الزراعي، الطرق، المدارس، تراخيص البناء، وغير ذلك من الأمور التي تقضّ مضاجع الناس. أضاف عزالدين أنهم اختبروا مدى كفاءة هذه الشبكة على مدى الشهر الماضي، فأجروا تمرينات لقياس قدرتها على التواصل في الاتجاهين: من القاعدة إلى القمة وبالعكس، وبالفعل، جاءت نتيجة القياس اليوم، وهي مذهلة؛ وصلت الرسالة المركزية إلى القواعد بدرجة ٨٥٪، واستطاعت القواعد رفع رسائل إلى المركز خلال أسبوع. استعانوا بشركة محترفة لعمل هذا القياس وللتحقق من وصول الرسائل ودرجة دقتها. هذه النتيجة، أعلن لي عزالدين بصوت احتفالي لم أسمعه منه منذ زمن، تؤكد أن هذا الجانب من العمل اكتمل، ويستطيع الآن البدء في تقوية هذا الكيان على المستوى القومي وإفراز قيادات سياسية جديدة من بين هؤلاء الشباب ودون الحاجة إلى السياسيين القدامى الذين يئس منهم هو وأصدقاؤه الشباب. سألته كم من الوقت سيستغرق هذا فأجاب ببساطة كأن الوقت لا يعنيه: سنتين تقريبا. هنأته، وحين سألني عن سبب اتصالي لم أجد مجالا للحديث عن مشكلتي فقلت إني أردت الاطمئنان. فأضاف أن سارة

رمسدل أنهت دراستها، وستناقش رسالة الماجستير التي أعدتها خلال بضعة أيام، بعدها ستعود لعملها الأصلي في سلاح البحرية قائلا إني يمكنني الاتصال بها لأشكرها قبل مغادرتها مصر، إن أردت. شكرته وتركته يحتفل بإنجازه السياسي الهامّ.

أجريت عدة اتصالات أخرى ثم جاءني عبده ليصطحبني إلى ميدان التحرير. لم أكن أريد الذهاب لكنه أصر على ضرورة «اختلاطي بالشعب» خصوصا في يوم مليونية دعم العمال. وافقت، واصطحبته دون تحمُّس، فآخر ما كنت أشعر به وقتئذ هو الحاجة إلى دعم العمال. وصلنا إلى الميدان، وشعرت للتو أني أرتدّ أربع سنوات إلى الوراء، وتذكرت الروح السائدة في التحرير في أثناء العام الأول للثورة. شعرت بحسرة وغصة عميقتين. من كان يظن أن هذا يقود إلى ذاك؟ سألت نفسي وأنا أسير مع عبده بين حشود البشر. وشعرت مرة أخرى بالتعاطف معهم والأسى لهم في ذات الوقت: كيف سيتمّ دعم العمال؟ من الذي سيفعل ذلك؟ حتى حكومة العمال الوليدة لن تستطيع دعمهم. لكن الروح السائدة كانت احتفالية ومتفائلة؛ من أنا كي أفسد الحفل؟

فجأة رأيتها. واقفة أمامي، مع خمسة أو ستة من الشباب. ترتدي قميصا أبيض وجينزا أزرق وشعرها معقوص من الخلف. وجهها الأبيض بلا مكياج يحبس نوره. ظلت نظرتي محدقة إليها حتى لاحظَت تحديقي فابتسمت في مزيج من الخجل والحرج. انتبهت وعبده يحدق إليّ بعينيه المتسائلتين وهي تبتسم. لم يكن للتراجع

فرصة فابتسمت أنا الآخر وهززت رأسي لها فردّت بالمثل. مددت يدي مصافحا وقلت شيئا عن إعجابي بتمثيلها ثم صمتّ. انضمّ عبده إلى الحوار فتعارفنا كلنا، بالخمسة المحيطين بها. بعد كلمات التعارف والإعجاب نفد الكلام وصمتّ ثانية، فبدأ عبده يسألها عن عروضها ومشروعاتها. تَحدَّثَت عن مشروعها لإنشاء مسرح في كل قرية، مسرح «الجرن»، واسترسلَت في الشرح، ربما كي تتخلص من حرج تحديقي وصمتي. كنت أستمع إليها وكلماتها تذوب حين تلمسني وتتحول إلى شيء آخر لا أميزه لكني لا أريده أن يتوقف، دون أن أعرف ماذا تقول بالضبط. انتهت من حديثها وظللت أنا صامتا، فقال عبده بثقة كاذبة إن في الرئاسة برنامجا لدعم الفنون يمكن أن يكون مفيدا لمشروعها، وأخذ أرقام تليفونات الأصدقاء الستة، بمن فيهم نور.

ظللت بعدها سائرا كأني أخفّ من وزني المعتاد. درنا في الميدان دورة كاملة، على أمل أن أراها ثانية في النقطة التي كانت بها، لكنها اختفت. درنا نصف دورة أخرى، وحين فقدت الأمل قلت لعبده إني تعبت، وعدنا إلى البيت. قضيت الساعات التالية مبتسما وهانئا، أقاوم شعوري بالسعادة، وأقاوم رغبتي في الاستماع إلى أم كلثوم، وأقول لنفسي أن لا شيء يحدث. اضحك على نفسك كما تشاء يا يحيى، فلن تستطيع خداعها طويلا.

في آخر المساء عاودت الاتصال بصفية وتنفست الصعداء حين ردّت أخيرا. وجدت صوتها مُغلَقا مخنوقا وأخبرتني على التو

بتدهور حالة عمر الصحية، وتزايد مشكلات القلب التي يعاني منها، قالت إن الأطباء يدرسون إمكانية وجدوى التدخل الجراحي ومخاطره، وحتى يستقروا على رأي سيُبْقُونه في المستشفى تحت الملاحظة. ماذا لو جرى له شيء؟ طردت الخاطر من رأسي بأسئلة اعتيادية لصفية عن الأولاد والحياة في إيطاليا. تطرقنا بعدها إلى موضوعي الأصعب، وهو أمك الخاطفة. قصصت على صفية ما دار بيني وبينها في مكالمتنا الأخيرة، فوجدت موقفها مائعا. ظلت تطلب مني أن أنظر إلى الأمر بعينَي أُمّ، وأن أفكر في الضغط الذي كانت تحته حين فرت بك، وبالمشاعر التي تعتري المصري في الخارج حين يشاهد طوال الوقت تقارير عن خطف وقتل ونهب وانفلات أمني فيتصور أن البلاد كلها في الفوضى... لم أنكر أنها في فوضى، قاطعتها، لكني قادر على حماية زوجتي وابني، ثم هل تقف معي زوجتي أم تفرّ؟ وتأخذ ابني معها!

بعد عدة دقائق أدركت أن صفية تأخذ صفها، فسألتها صراحة. صمتت هُنيهة ثم قالت إن العقل يقول بسفري أنا لكما لا العكس. حاولت أن أشرح وجهة نظري، وصفية تستمع إليّ وتردِّد أن كل هذا جميل لكن الاهتمام بزوجتي وابني هو الأهم، والذي حدث نتيجة الظروف هو أنهما سافرا والآن تصعب عودتهما، ومن ثم يجب عليّ إبداء المرونة والسفر للعيش معهما، وشيئا فشيئا تنصلح الأمور. ظل صوتي يختنق داخلي وأن أحاول شرح ما أشعر به، شعوري بأن ندا ليست زوجتي بقدر ما هي ابنة القطان، أنها فرَّت من البلاد دون

عناء إبلاغي، اختفاؤها مع ابني شهورا حتى عثرت أنا عليها عن طريق رئاسة أركان الجيش الأمريكي: هل يُعقل هذا؟ والآن تريدين مني السفر لأكون في معية أبيها؟ أحاول الشرح ولا أستطيع. قلت هذه الكلمات لكنها لم تنفذ إلى صفية، بل ارتدَّت إليّ. وظللت أنا وكلماتي واقفَين على هذه الناحية من الخط، وصفية تقول لي ما يجب عليّ فعله على الجانب الآخر. صمتّ وانتظرت حتى انتهت من حديثها.

- ١٣ -

في صباح اليوم التالي لعيد العمال بدأ محمود بشير مفاوضات شاقة مع شركائه حول برنامج الحكومة، كما بدأ اتصالات مع الأجهزة الأمنية الثلاثة حول عملية إصلاح الأمن. لم يكن لي مكان رسميا في هذه المشاورات حيث إن دور المجلس الرئاسي ظل رمزيا خلال كل هذه الفترة، لكن الأطراف كانت تشركني في مناقشاتها من وقت إلى آخر، حين يحتاجون إلى شاهد أو حكم يمكنهم تجاهل رأيه دون عواقب. البرنامج الحكومي الذي تَمخَّض عنه أسبوع المفاوضات لم يكن باهرا؛ بعض العناصر من هنا وبعضها من هناك في محاولة لإرضاء كل الأطراف. وأهم شيء بقاء مصدر تمويل هذا البرنامج مجهولا. مَن الذي سينفق على كل هذه المشروعات؟

لم يكن لدى محمود بشير وزعماء الائتلاف الحكومي إجابة. قال بعضهم إن الاستقرار سيجذب السياحة، وقال بعضهم إن الدول العربية ستساعد لأنهم باتوا قلقين من تدهور الوضع أكثر، وقال البعض الآخر إن المؤسسات الدولية ستساعد لخشيتها من انهيار الدولة نفسها وعواقب ذلك على استقرار المنطقة. ضحكت بيني وبين نفسي؛ أي عرب الذين سيساعدون وهم جميعا إما منشغلون في حروب أهلية وإما واقعون تحت السيطرة إن لم يكن الاحتلال الأجنبي؟ وأي استقرار ذلك الذي تخشى عليه المؤسسات الدولية؟ سألتهم عن حكمة الارتكان إلى تقديرات غامضة كهذه فاستنكروا تشكُّكي وقالوا لي الجملة الأكثر شهرة في مرحلة ما بعد الثورة: «لا تكُن سوداويا». سكتّ.

حين تطرقت المفاوضات الحكومية إلى موضوع الإصلاح الأمني الذي وعدت قيادات الداخلية بمساندته ظهرت المشكلات. بدأت كل من المخابرات العامة والعسكرية باستبعاد نفسها من عملية الإصلاح، لعدم وجود مشكلة لا يستطيعون حلها بأنفسهم وتفاديا للعبث بالمؤسستين الوحيدتين اللتين تعملان بشكل جيد؛ «يجب أن ينصبّ الإصلاح على المكسور، لا السليم، وهو الداخلية». ولم يعجب هذا الكلام أحدا في الحكومة، التي أراد بعض أعضائها وضع إشراف ديمقراطي على هذه الأجهزة وأراد البعض الآخر مد سيطرته عليها للتأكد من ولائها له. ولم تكن هذه المشكلة الوحيدة، فحين أبدى محمود بشير استعدادا لقَبول إعفاء

الجهازين من عملية الإصلاح مقابل مساعدتهما له في الضغط على الداخلية اكتشف أنهما لن يساعداه، لحساسية العلاقة بينهما وبين الداخلية. العقيد لطفي ممثل أمن الدولة قالها صراحة، إنهم لن يستسلموا للتضحية بهم كي ينجو الآخرون.

سألت العقيد لطفي عن تصورهم للإصلاح واكتشفت سريعا ما اكتشفه بقية أعضاء الحكومة، وهو أنهم يريدون أسلحة وذخائر ومعدات جديدة، ومقرات ومكاتب، وزيادة أعداد الجنود، ورفع رواتب الضباط، وعفوًا عامًّا. كان كلام لطفي واضحا، فهو يستخدم كلمة «إصلاح أمني» عنوانا للمناقشة، لكن سريعا ما يتحول الأمر إلى «إعادة الداخلية لتقف على قدميها». سأله محمود عن تغيير العقيدة الأمنية، وإدماج احترام حقوق الإنسان، وكل هذه المسائل التي من أجلها قامت الثورة، فقال لطفي إنها هامة جدا، ويجب إدخالها كمواد في كلية الشرطة و«إعطاء الضباط الحاليين بعض المحاضرات التثقيفية» في هذا المجال.

لم يتغير شيء، أسرَّ إليّ محمود بشير في يأس. بعد أكثر من أربع سنوات من الثورة، وبعد انكسار الشرطة وتفتتها وانهيار سلطتها، لم يتغير شيء في تصور قياداتها للأمن. والحل؟ سألته ولم أجد عنده إجابة. درسنا مشروعات كثيرة متداوَلة لإصلاح الأمن، لكن ظلت المعضلة الرئيسية هي كيف تقنع الجهاز الحالي بالتعاون، أو كيف تحفظ الأمن خلال فترة بناء جهاز جديد إن أردت الإصلاح دون تعاون الجهاز القائم. عزالدين فكري قال إن التعاون لن يأتي

بالإقناع، بل يجب تطوير اللجان الشعبية وروابط الأُلتراس وشرطة السلفيين والإخوان وغير ذلك إلى شبكة أمنية فاعلة، والضغط على بقايا الشرطة، فإما تتعاون وإما تخرج من الخدمة. في جلسة خاصة وافق العقيد حامد على هذا الرأي، لكنه قال إن الأجهزة الأخرى لا تستطيع دعمه رسميا وإلا بدت كأنها يأكل بعضها بعضا. عدت إلى محمود بهذا التقييم، لكنه استبعد الفكرة تماما، قائلا إن كلام عزالدين نظريّ، وتطبيقه سيؤدي إلى فوضى ودماء. لكنه لم يكن لديه بديل سوى الانتظار.

وصلت إليّ دعوة من سارة رمسدل لحضور مناقشة رسالة الماجستير التي أعدتها، ولم يكن لي رغبة في حضور أي مناقشات، لكني تذكرت قرب رحيلها فاتصلت أشكرها. حدَّثتها وهنَّأتها على نجاحها المتوقَّع وشكرتها على مساعدتها لي ولعائلتي الصغيرة وتمنيت لها التوفيق. شكرتني وقالت إنها ستحتفظ بعنوانها الإلكتروني كما هو، ودَعتني للاتصال بها لو احتجت إلى شيء مجددا. سكتُّ لحظة ثم سألتُ بدافع الفضول عن وجهتها فقالت إنها ستنضمّ إلى العملية الجارية في الخليج، حيث ستستقرّ في إقليم الأحساء بشرق السعودية الذي كثفت القوات الأمريكية انتشارها فيه حماية لمنابع النفط منذ الحرب على إيران. سألتها مستغربا إن كانت ستنتقل للعمل مع القوات البرية فضحكت وقالت إنها لا تستطيع البعد عن البحر، تماما كالسمك، لكنهم يبنون مركزا للبحرية في الأحساء ليشرف على قاعدة بحرية مزدوجة في الساحل

الشرقي للسعودية وسلطنة عمان تحمي حرية الملاحة في مضيق هرمز، بحيث تحلّ محلّ القاعدة القائمة على الساحل الإيراني التي تتعرض لهجمات يومية من المقاومة الإيرانية. لم أعرف بمَ أردّ سوى تمنّي السلامة لها. قالت إنها تود لو بقيَت بمصر واستكملت الدراسة وتفادت العودة إلى البحرية، لكنها التزمت بذلك حين قبِلَت المنحة الدراسية التي قدمتها لها وزارة الدفاع. سألتها إن كانت تستطيع الاستقالة فأجابت بأن ذلك غير ممكن إلا بعد استكمال عدد معين من سنوات الخدمة، أما الآن فستكلفها الاستقالة تسديد عشرات الآلاف من الدولارات مقابل ما أنفقته البحرية على تدريبها ودراستها. صمتُّ مرة أخرى، ثم أوصيتها مازحا بأن تنتبه لنفسها ولا تقتل أحدا، فقالت بكل جدية إنها عازمة على ذلك فعلا. انقبض قلبي بعد هذه المكالمة، ولم أعرف بمَ أشعر بالضبط حيال سارة، التي ساعدتني حين لم يساعدني أحد، والراحلة صوب الخليج تحمل السلاح. من يقف مع مَن؟ وضد مَن؟

وبينما أنا في مكتبي أنتقل من اجتماع إلى آخَر ومن اتصال سياسي إلى مشاورات أمنية إذ يدخل عليّ عبده ليخبرني أن موعدي مع الأستاذة نور قد حان. نظرت إليه غير فاهم، هل يقصد نور التي في ذهني (وفي تليفوني، وفي خيالي، وفي نومي)؟، وأي موعد؟ احمرّ وجهه وتلعثم قليلا وهو يتظاهر بالعبط ويسألني إن كنت نسيت أن لديَّ موعدا معها لمناقشة كيفية دعم مشروع مسرح الجرن. الجرن؟! سألته وأنا أكاد أنفجر، لكنها ظهرت من خلفه

بابتسامتها الرائقة فتَبخَّر غضبي. رحَّبت بها ودخلَت وجلسَت وطلبتُ لها عصير ليمون، وهدأ يومي فجأة.

جلسنا متقابلَين على طاولة اجتماعات صغيرة في آخر مكتبي. أخرجَت أوراقها وبدأت تشرح بهدوء وجدِّية تفاصيل المشروع، ثم أخرجت كمبيوتر وبدأت تريني صورا من الأماكن التي أعَدّوها كمسارح وتجارب من بعض القرى وردود فعل الأهالي والمدرسين بالقرية. تتحدث، وضوء النافذة الكبيرة يأتي من خلفها، يمر من أعلى شعرها ويتخلل أجزاءه العليا المهوَّشة قليلا. تمسح بيدها على شعرها من وقت إلى آخَر فتغلق تلك الفتحات الصغيرة التي يتخلل النور شعرها منها. بدأت كلماتها تقلُّ وهي تركِّز على الصور المتتابعة على شاشة الكمبيوتر، وأنا أقترب بوجهي من الشاشة فأشعر بوجودها متناثرا في الهواء من حولها، ويغمرني هذا الوجود. أنظر إليها من وقت إلى آخر محاذرا أن أطيل نظرتي أكثر مما يسمح به هذا السياق المهني، كأني أغترف في ثواني النظرة السريعة كل ما أستطيعه من ملامح وجهها لأستبقيه معي. حين تبتسم ابتسامة صغيرة، ترسم غمازتاها منحنيات في خدَّيها، تنتهي بهدوء عند انحناءة ذقنها. تهز رأسها إلى اليمين أحيانا وهي تنظر إلى الصورة، ثم تعلق بشيء. تخطئ في اختيار الصور أحيانا، فتضحك وتعتذر. تعلِّق على بعض الأحداث التي عاصرت هذه الصورة أو تلك، أو تحكي قصة سريعة عن رد فعل هذه الأسرة على المسرحية التي مثَّل فيها ابنهم، وكلما تكلمت غرقتُ فيها أكثر، وكلما حركت

وجهها واختلف وقْع الضوء عليه غيَّر جمالُها شكلَه، لكنه لا يخفت ولا يهدأ ولا يتركني في حالي. مسحَت شعرها بيدها وقالت إنها انتهت مما لديها، وسألتني كيف يمكن أن نساعدها.

لم يكن لديّ أي فكرة، لكني كنت أتشبث ببقائها أطول فترة ممكنة. لا أريد منها شيئا سوى أن تظل هنا، تتكلم، أو حتى تصمت، لكن تظلّ. طلبت لها شايا، لأنه يأخذ وقتا في إعداده وفي شربه، وستُحرَج من الرحيل قبل إنهائه. وظللت أسألها عن المشروع وتمويله الحالي والمشاركين فيه. واضح أني لم أكن منتبها لإجاباتها لأني كررت عددا من الأسئلة. جاء الشاي وأنا مستمر في الأسئلة، وبدأت هي ترشفه، وأنا أغوص مع رشاقة شفتيها وهما تلامسان حافة زجاج الكوب وتتركانه وتعودان إليه. قلت كلاما كثيرا عن دعم الفنون، والمجلس الرئاسي، والحكومة، والرئاسة نفسها كمؤسسة، والوضع التعليمي العامّ، وكثيرا من الكلام أحسب معظمه هذيانا غير مترابط. وهي تنتظر الإجابة وتهز رأسها تمشية للكلام عديم الفائدة، فتهتز خصلات شعرها الكثيف وتتماوج واحدة وراء أخرى حتى الخصلات البعيدة الراقدة في أمان على ظهرها. أتفادى عينيها، فستفضحني عيناي ولا ريب. لا يحتاج الافتتان إلى دليل، تعرفه حين يصيبك، وحين لا تعرف ماذا تفعل به ولا تأبه، كل ما تريده هو البقاء قريبا والنظر إلى فاتنتك. حين انتهى الشاي قلت لها إني سأحيل الموضوع إلى المشرفين على دعم البرامج الفنية ـ لا وجود لهم طبعا ـ وأتابع الموضوع من قرب

وأتصل بها. قالت إنها ستتصل بي في أول الأسبوع القادم لتذكِّرني، واستأذنتني في رقم هاتفي المحمول كي يمكننا التواصل أسرع. تبادلنا الأرقام وتأكدنا من أنها تعمل وقد سقط قلبي تماما، لا أدري أين. صرت أومئ إليها وأبتسم كأني فقدت النطق، وصافحتها ووقفت أرقبها وهي خارجة. وحين خرجت من الباب الخارجي واختفت ظللت واقفا لحظات حتى انتبهتُ على نظرة السكرتيرة المستفهمة وعبده المبتسم.

وددت لو انتهى اليوم في تلك اللحظة، لكنه استمر. الاجتماع التالي كان مع مجموعة الأمن الداخلي لمناقشة التقرير الأسبوعي عن الوضع الأمني. نفس التقرير الذي يأتي كل أسبوع: «ارتفاع معدل الجريمة بنسبة كذا عن مثيله في العام الماضي، وبنسبة كذا (أكبر بكثير) عن سنة الأساس (٢٠١٠، والمقصود طبعا قبل الثورة حين كان الأمن «مستتبًّا») ـ تَواصُل عملية تحوُّل الجريمة من كونها أعمالا فردية إلى نمط العصابات المنظمة الصغيرة التي تعول عائلات كبيرة العدد ـ تقدير لأعداد هذه العصابات ومناطق نفوذهم التي يوفرون فيها الأمن من خلال نظام الإتاوة ـ الأشكال الجديدة للجرائم الصغيرة المنظمة مثل سرقة الأطفال والتوك توك ـ ثم صور لبعض قادة هذه العصابات المعروفين للأمن. وهناك، في وسط هذه الصور، رأيت حسن، أخا عفاف، زعيم عصابة صغيرة متخصصة في سرقة الموتوسيكلات وبيعها بالقطعة.

طلبت من عبده أن يأتيني بعفاف في الصباح. وقضيت الليل أفكِّر فيما يمكنني عمله، لكني لم أهتدِ إلى شيء. في طريقنا إلى المكتب في اليوم التالي تحدثت مع عبده في الأمر فهزّ كتفيه في لا مبالاة وقال إن كثيرا من الناس يأكلون عيشهم بهذه الطريقة. سألته دهِشا إن كان يرى ذلك أمرا عاديا فنفى، لكنه أضاف أن لا شيء أصبح عاديا. أشار من زجاج السيارة ونحن نمر من فوق ميدان العباسية إلى تحصينات وزارة الدفاع وسألني إن كنت أعتقد أن هذا أمر عادي؟ سكتنا.

جاءت عفاف وأجلستُها في مكتبي. بدت شديدة التحفظ وكنت أنا مضطربا ومحرَجا، فنحن لم نلتقِ منذ حادثة المطبخ المشئومة. طلبتُ لها عصير ليمون وسألتها عن الأحوال فردَّت باقتضاب وحمدت الله على كل حال. أبديت اعتذاري عن «اللخبطة» التي حدثت وأشرت إلى اضطراب ظروفي وقتها فأشاحت بيدها كأنها تُبعِد الموضوع من هواء الغرفة وقالت أن لا معنى للعودة للحديث عمَّا مضى. أشارت إلى المكتب وقالت إن الأحوال تحسنت كثيرا مقارنة بمكتب المعلومات بالرئاسة الذي عملنا به بشارع الخليفة المأمون. قلت شيئا عن التطوير لكني لاحظت استعدادها للهجوم فسكتّ. استطردَت قائلة إن من سخرية القدر أن تتدهور أحوال الناس بعد ثورة شعبية وتتحسن أحوال المسئولين عن النظام. أدركت إلى أين سيقودنا هذا الحديث فقطعته، وأخبرتها بالأمر

الذي طلبتها بشـأنه. لم يبدُ عليها تأثُّر ولا دهشـة؛ واضح أنها كانت تعلم. رشفت من كوب الليمون ونظرَت إليّ نفس النظرة التي رأيتها في عينيها منذ أربع سنوات في ميدان التحرير، ثم انهالت عليّ.

فـي البداية قالـت إنها تعرف طبعـا، مثلما يعـرف الجميع، فهذه العصابـات لا تعمل فـي الخفاء. بـل إن أصحاب الأشـياء الضائعة يلجئـون إليهـا قبل إبلاغ الشـرطة، وفـي معظم الأحيـان لا يكلّفون أنفسـهم عناء إبلاغ الشـرطة. كما أن كثيرا من هذه الموتوسـيكلات مملوكة لشـركات قطاع عـامّ أو لمصالح وهيئات حكومية، وهؤلاء لا يريدون سـوى إثبات السرقة كي يُخرِجوا الموتوسيكل المسروق من العهدة. مالت عليّ وسألتنـي فـي تهكُّم إن كنت أريد معرفة ما هو أفضل من ذلك، وقبل أن يأتيها ردي قالت إن هذه العصابة لم يبدأها حسـن، بل بدأها محامٍ مـن وزارة الثقافة. ولما لاحظَت استغرابي أسـهبت: هـو محـامٍ في الشئون القانونية للـوزارة قابله حسـن عن طريق معرفة مشتركة على القهوة في فيصل، وعرض عليه المحامي المحترم أن يسلمه موتوسيكلات الوزارة القديمة التي لا يستخدمها أحـد لكثـرة أعطالهـا على أن يقـوم حسـن بتفكيكها وبيعهـا ويقوم المحامـي وأصدقاؤه في الوزارة المحترمة بالإبلاغ عن سـرقتها ثم إخراجها من العهدة. وهكذا يكسـب الجميـع: الوزارة تتخلص من عبء موتوسـيكلات لا تسـتخدمها وتحتاج إلى مكان وحراسة بل ونفقات صيانة أكثر من ثمنها، وحسن يكسب ويقسم مع المحامي. بعـد ذلك تَطوَّر العمـل، فبعد الانتهاء من الموتوسـيكلات القديمة

بوزارة الثقافة تحولوا إلى الوزارات الأخرى، حيث أدخل المحامي زملاء له من بقية الهيئات والوزارات. يعني أصبحت عصابة تنظيف العهدة الكهنة في الحكومة. ثم تَوسَّعوا في عملهم بعد الانتهاء من الكُهْنة إلى الموتوسيكلات العاملة، وهكذا.

سكتت عفاف ثم حدجتني بنظرة نافذة وسألتني إن كان هذا هو السبب في «استدعائي» لها. وقبل أن أجيب أردفت أنها غبية أن أتت كل هذه المسافة لتسمع هذا الكلام، وأنها كانت غبية طوال السنوات الماضية، حين ظنَّت أن علاقة أخرى غير الاستغلال يمكن أن تنشأ بين ناس «مثلهم» وناس «مثلنا». حاولت الاعتراض فعلا صوتها لتُسكِتَني، ودَعَتني إلى التفكير قبل الردّ، التفكير في كيفية تعامل أمثالي، أنا وعزالدين ومحمود وسالي وأسماء والقطان والبقية، معها وإخوتها. لا العمل، ولا الحب، ولا حتى الرغبة، استطعنا التشارك فيها، كل ما رأيناه فيهم هو مادة للاستغلال. قالت ذلك ثم صمتت هنيهة، أضافت بعدها بمرارة شديدة: «كلكم». حاولت الدفاع عن نفسي، شرح موقفي، ما لم يكن مقصودا وما تم بنيَّة حسنة. قاطعَتني بأن هذا الكلام لا داعي له، كذلك لا داعي لأن أرسل إليها نقودا مرة أخرى، فهي لا تريد صدقة من أحد، كفاية، مالهم سيأخذونه بأنفسهم، وإن كنا نظن أن مال الدولة حلال لنا وحرام على الباقين، فنحن مخطئون. قالت «إننا» نسرق بالقانون وباللوائح والنظم التي نحتكرها لأنفسنا ولا نسمح لأحد بالدخول فيها غيرنا، لكن «هم» أيضا لهم طريقتهم التي يحتكرونها. زفرت

هازئة وهي تقوم، وأضافت أن حسن لا يفعل شيئا لا تفعله الحكومة نفسها؛ كلاهما يأخذ من المال العامّ، وكلاهما يحوّله لقطع غيار يبيعها. نظرت إليّ وهي خارجة وقالت لي إن حسن في أحسن أحواله منذ خرج من المدرسة، ويشعر للمرة الأولى أنه رجل ومسئول عن نفسه وليس عالة على أحد، وإن كانت الداخلية فالحة تتفضل تقبض عليه. وصفقت الباب خلفها.

شعرت وقتها بغضب شديد عليها وعلى أختها المنحلّة وأخيها اللص، وعلى تبريرها لسلوكهما بل والهجوم عليّ أنا الذي أحاول مساعدتهم. لكني كنت أكابر، أحمي نفسي من هجوم لا أملك له ردا. فالحق معها. كنا جميعا مخطئين في حقها وحق مَن هم في وضعها. لكني لم أفهم وقتها. ولم يفهم كثيرون منا. وحين فهمت كان الضحايا قد تراكموا. يا ألله! هناك أشياء تفعلها أو تسكت عنها، دون سوء نية منك، سهوا أو خطأ أو غفلة، وحين تدرك هول نتائجها يكون الوقت قد فات والثمن أصبح هائلا. وهذا من بينها. أقول لنفسي الآن إني فعلت ما بوسعي، حسب ظروفي وما كنت أعلم وأفهم. أسرِّي عن نفسي، أحاول تخفيف المسئولية عني. لكني في مكان ما داخلي أبكي ندما: كيف لم أرَ كل هذا؟ كيف عميت عنه ولي عينان؟ كيف نظرت إلى الناحية الأخرى كيلا أرى؟ لك الله يا عفاف ومن معك، قد يسامحك على أخطائك ويعوِّضك عمَّا لحق بك من ظلم. لكن أنا، وأمثالي مثلما قلت، من سيسامحنا، وبأي وجه؟

مثلما كان لقائي بعفاف كانت اجتماعاتي ذلك الصباح، بلا نفع. فكل شيء معلَّق في انتظار الانتهاء من برنامج الحكومة؛ كل قوة سياسية تَريد حسم أمرها ومعرفة ما إذا كانت ستشارك بفاعلية أم تبدأ في إعداد انسحابها تمهيدا للقفز من السفينة. ذهبت إلى محمود في مكتبه بمجلس الوزراء بعد الظهيرة لتناول القهوة ومعرفة التطورات. وجدته ممتلئا بالحيوية واليقظة، بل ومنتشيا إلى حد ما، كأن صراع القوة هذا أيقظ حواسه كلها. لم يصل إلى شيء مفيد في مفاوضات الإصلاح الأمني، ومن ثم قرر ضرب الفوضى بالفوضى وإدارة الأزمة بالأزمة. ماذا يعني ذلك؟ يعني أنه لن يوافق على إصلاح أمني يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة، وقيادات الداخلية لن توافق على إصلاح حقيقي يغيِّر طبيعة جهاز الشرطة، ومن ثم فلا إصلاح، بل إنه سيقلص مخصَّصات الشرطة ويجمِّد رواتبها ويقصّ مميزاتها، ولينهَر ما ينهار، ولنرَ من سيصرخ من الألم قبل الآخر.

بدا لي ذلك مغامرة غير مأمونة العواقب. سألته كيف سيكون الحال حين يبدأ الوضع الأمني في التدهور، ونعود إلى أيام «البلطجية» و«الطرف الثالث» و«مشعلي الحرائق». هز كتفيه وقال عليّ وعلى أعدائي، ليشعلوها إن شاءوا، ولنر من ستحرقه النار. كانت روح القتال قد تَملَّكَته، وهو ما أقلقني أكثر، وحين ردَّدتُ على مسامعه ما قاله له عزالدين فكري من خطورة اللعب بالنار، وعدم تمييز الفوضى بين ضحاياها، سألني إن كان لديّ حل بديل.

قلت لـه الحل البديل من قبل، ورفضه باعتباره حلا نظريا، فسـكتّ هذه المرة.

عُـدتُ إلـى المكتب فـي الرابعـة وأنا أشـعر أن اليـوم يغرق في البـؤس ولا بـد من إنقاذه، فاسـتجمعت شـجاعتي واتصلـت بنور، لأول مرة. ردَّت وأتاني صوتها الرخيم مرحِّبا. سـألتها عن الأحوال وسـألتني. ثم شعرت بضرورة تبرير الاتصال فقلت لها إني تحدثت مع المسـئولين وأريد إحاطتها ببعض الأمور، فشكرتني وقالت إنها سـتكون قرب وسـط البلد في أول المسـاء ويمكنهـا لقائي في نحو السادسـة، فقلت كاذبا إن هذا موعد مناسـب جدا، ودعوتها لشرب القهوة في مقهى صغير بوسـط البلد. مرت السـاعتان التاليتان فورا، ورمقنـي عبده بنظرة متشـككة حيـن قلت له قُبيل السادسـة إن لديّ موعـدا وسـأعود بعد سـاعة. تحررت مـن رابطة العنـق والجاكيت وتمشـيت حتـى المقهى بقميصـي الأبيض وبنطلونـي الرمادي. لم أسـتمتع بهذه المسـافة مـن المكتب إلى وسـط البلد بهـذه الطريقة مـن قبل، ولا كنت بهـذا اللطف مع الناس ولا متقبلا لفوضى الباعة الجائليـن في وسـط البلد وسـماجتهم مثلمـا كنت في ذلـك اليوم. ثم جاءت.

أهلّـت من باب المقهى، وسـارت بخطواتها الواثقـة كأنها على خشـبة المسـرح، رأسـها مرفـوع، وابتسـامة صغيـرة علـى شـفتيها الدقيقتيـن، ونظرتهـا تلمـس أعلـى رءوس مَـن تراهـم، كتفاها إلى الـوراء قليلا وصدرها نافر في افتخار ودلال محكوم. قمت لتحيَّتها

وجلسنا. لم أُرِد خداعها أكثر، وبعد حديث قصير عن مشروعها قلت لها إني تحدثت مع المسئولين وتَبيَّن عدم إمكانية دعمه لأن هذا المشروع تمت تجربته من قبل الثورة وتَلقَّى دعما حكوميا ولم يحقق أهدافه فتَوقَّف. وسياسة البرنامج الموجود بالرئاسة هي عدم دعم مشروعات فشلت من قبل أيا كانت الأسباب. تَفهَّمَت ذلك، رغم غباء هذه القاعدة الظاهر كما قالت، لأن المشروع لم يفشل وإنما انهار بسبب توقُّف التمويل. كنت أكذب طبعا، لكني وجدت في هذه الحجة أفضل وسيلة للخروج من الوهم الذي خلقه عبده في محاولته الجمع بيننا.

لم يعد بيننا ما نقوله، وتوقعت أن تنهض منصرفة. لكنها طلبت شايا جديدا، وبدأت تتحدث عن الوضع العامّ، والمسرح، والحياة، وتسألني عن حياتي، وعائلتي، وأسهبَت في السؤال عنك أنت وكيف أعيش انفصالنا هذا. كانت تعرف الكثير عني، واضح أنها قامت ببعض البحث مثلما فعلت أنا. تحدثنا عن الماضي، ماضيّ وماضيها. وسألتها كيف صارت بنت من طنطا ممثلة مسرح مرموقة فضحكت وقالت: مثلما صار ابن المنصورة سكرتير معلومات الرئاسة. ظللنا نتحدث حتى نبّهتني أن الساعة تجاوزت التاسعة والنصف. ابتسم كلانا في ارتباك، ومضينا. اتصلَت بي في صباح اليوم التالي تشكرني على الصراحة في موضوع «الجرن» وعلى الوقت الممتع. واتصلتُ بها في الصباح الذي يليه دون البحث عن مبرر، وتَحدّثنا لمدة نصف ساعة. ثم صرنا هكذا، يتصل كلانا

بالآخَر كل يوم، ونلتقي، دون حاجة إلى اختلاق عذر. ودخلنا في طريق لم نخرج منه حتى لحظة كتابة رسالتي هذه.

- ١٥ -

أعرف أن هذه القصة تزعجك. لا أعرف ما قالته لك أمك عني خلال سنوات غيابكما، ولا ما تظنه أنت بي. ربما أقنعتك أني تخليت عنكما وفضَّلت الجري وراء الثورة وحرافيشها. سأقول لك إني لم أتخلَّ عنك ولا عنها، وربما تصدقني أو تصدقها أو تدعك منا نحن الاثنين. كما تشاء. ليس همي الآن إثبات خطئها وصحة موقفي، لكن همي أن لا تحمل على ظهرك أثقالا من الوهم. أنزلْ ما تحمله على الأرض؛ ضع هذه الحقائب الثقيلة التي حمَّلَتها لك أمك أو أبوك أو أيّ كان. ضع كل ما تحمله على الأرض، وابدأ من جديد. فكر فيما تريد أن تأخذه معك في رحلتك، ودع الباقي خلفك ليحمله أصحابه. همِّي الأول أن لا تجرّ وراءك ما لا يجب أن تجرّه. للنساء طريقة في إعادة صياغة الوقائع، خصوصًا إذا ما شعرن بالجرح، أو بافتقاد الحب. لا تصدّق أبدا أن امرأة ستغفر لك رحيلك عنها. لن تغفره لك مهما قالت، حتى لو أرادت. لكن لا تدع ذلك يوقفك عن الرحيل حين يكون الرحيل هو الحل الوحيد. عليك ساعتها أن تتحمل العواقب، بما فيها اللعن والتجريح، عليك أنت أن تفعل ذلك، أن تكون الرجل.

لـم يكن ما بيني وبين أمك حبا، بل عِشـرة وودا مثلما قلت لك. وقـد قضـت عليهما خـلال أعوام الفـرار. حين دقت سـاعة القرار، أخـذَت ما تهتم بـه ـ أنت وأباهـا ـ وألقت بالزوائد ـ أنـا والحياة في مصـر ـ وفـرَّت. وبعـد تيقنـي من أني لـم أسـئ الظـن بهـا، وبعد أن حاولـت عدة مرات إقناعها بالعودة، فهمـت أن ما بيننا انتهى، لكني أبقيـت على الحد الأدنـى الذي يجمعنا ـ هذا الربـاط القانوني ـ من أجلـك. تلـك أمـور محزنة، لا أتمناهـا لك، بل أدعـو الله أن تحب وتعشـق وتبقيا في الحب أنت وامرأتك طوال عُمرَيكما. لكن إن لم يحـدث هذا، ووجدت نفسـك في موقف مشـابه، فلا تدَعْ شـبحي، وما قالتـه أمك عنـي، يُقعداك عن التصرف السـليم. ولا تدع الرغبة فيما لم يحدث تُقعِدْك عن التصرف الوحيد اللائق في ظرف صعب. باختصار، لا تدَع الذكريات وتشوُّهاتها تقف أمام صواب قلبك.

غرقـت مع نـور وفيها. شـيئا فشـيئا دخلـتْ ثناياي، سـارت في الماضي وعرفت الحاضر. امرأة تسـير بثقة وتُؤَدة في غابة لا تهابها، تجـد حجـرا فتقلبـه كي تـرى ما تحتـه، تقابل وحشـا فتمسـح عليه بيدها فيسـكن وتسأله عن قصته، تصادف طرقات فتطرقها، أشجارا تتسـلقها، فواكـه تقطفهـا وقبـور موتـى تدعو لهـم. تجـد مركبا في نهـر فتتنزه به، أو بحيرة فتخلع ملابسـها وتسـبح فيهـا وتغري ماءها بجمالهـا حتـى تتعب وتسـتلقي على الشـاطئ بعدها وتنـام. ويوما بعـد يوم صارت تعرف الغابـة كلها، بحلوها ومرهـا، وتعرف كيف تسـير في أكثر طرقها وعورة دون أن تصاب أو تؤلـم صاحبها. وشيئا

فشيئا، تركتني أكتشفها، وفتحت لي حكاياتها. ومثلما لم تكن حكاياتي كلها مشرقة لم تكُن هي بلا خطايا. لم تولد في بلد آخر، ولم تشقّ طريقها في عالم مثالي، بل تعاملت مع الأفَّاقين والذئاب. أحيانا نجحَت في صدِّهم وأحيانا نهشوها وأحيانًا استسلمت لهم كي تعيش. لكننا أحبَّ كلانا الآخَر، وحين تحب حقا لن تحتاج إلى أن تغفر الماضي لمن تحب، بل ستحبه بماضيه وأخطائه التي جعلته من هو.

يكفي هذا؛ لا أريد أن أتحول إلى واعظ. ربما سبقتَني أنت وقفزت هذه الفقرة في الخطاب. لا تهتمّ إن فعلت، فأنا أبوك، ولا أستطيع مقاومة الرغبة في الوعظ والإرشاد. ربما تعود ذات يوم وتقرأ هذه الكلمات وتجدها مفيدة، أو تكون قد أتيت بحكمتك الخاصة في الموضوع، وتطارد بها ابنك أنت. نعود إلى حكايتنا.

بينما كنت أغرق في نور نور، كان محمود بشير يصارع التنِّين. وعلى عكس القديس مار جرجس الذي وضع حياته أمام التنين، فإن محمود بشير، مثل أي سياسي بارع، وضع الشعب بينه وبين التنِّين. رأى محمود - وأظنه كان محقا - أن الاستقرار لن يأتي ما غاب الإصلاح الأمني؛ لن يقوم الاقتصاد ولن تستقر السياسة وطبعا لن ينتهي الانفلات الأمني وتفتُّت الدولة ما لم يتم إصلاح الأمن بشكل حقيقي، لا بإعادة الداخلية لما قبل الثورة كما تريد قياداتها. ومن ثم صمَّم على تعيين وزير مدني للداخلية. وصممت القيادات الأمنية أن ذلك غير مقبول، وهكذا ظلت الحكومة بلا

وزير داخلية. انغمست مع أعضاء المجلس الرئاسي في محاولات للتوصل إلى حل وسط، وساعدني إلى حد ما ممثلو الأجهزة الأمنية في الرئاسة، حيث قام بيننا من طول عملنا معا تعاون وثقة وفهم متبادَل، شجَّعوهم على تجاوز المواقف الضيقة التي تأخذها الجهات التي يتبعونها. وصرنا في بعض الأحيان نتناقش بيننا ونتفق على ملامح موقف، ثم يحاول كل طرف إقناع الجهة التي يمثلها به. لكن كل هذه الجهود ضاعت هباء. صممت قيادات الداخلية على الرفض، فأعلن محمود بشير ذلك على الملأ، واضعا الداخلية في مواجهة مع الشعب مباشرة. وهكذا دخل محمود بشير والداخلية في مرحلة تكسير العظام.

هذه المرة لم يكن الرد من خلال إطلاق البلطجية أو إشعال الحرائق أو قتل الألتراس، وإنما من خلال ما عُرف بقضية «تلفزيون المدينة». تم القبض على سالي القصبجي صاحبة الشركة المالكة لـ «تلفزيون المدينة» بتهمة إدارة شبكة للدعارة. ونُشرت على الفور صور لوثائق وأذيعت تسجيلات مكالمات وكُشفت حسابات بنكية ومعاملات مالية وعقارية وظهرت اعترافات فتيات ليل... يعني فضيحة كاملة. وطبعا تم ذكر محمود في الإعلام، بالإشارة إلى علاقته «الخاصة» بها ولكن دون تفصيل، ودون ظهور تسجيلات له معها، لا قديمة ولا جديدة. كما لم تظهر تسجيلات لسالي نفسها، وإنما وثائق تثبت إدارتها لهذه الشبكة الواسعة التي تخصصت في توريد الفتيات لعِلية القوم والمسئولين والأغنياء والسياح ومن في

هذه الفئة المقتدرة. تم الإفراج عن سالي في آخر اليوم بكفالة مالية، لكن التحقيق استمر وتوالى نشر الاعترافات في المساء ووقعت موجة أخرى من القبض على المتورطين في القضية.

في البداية اعتقدت أن هذه القضية مفبرَكة من أولها إلى آخرها، ودهشت مع كثيرين من سرعة وكفاءة أجهزة التحري والضبط التي لم نسمع عنها منذ سنوات. شملت الأسماء المتورطة عددا من السياسيين الصغار، أعضاء مغمورين بالبرلمان وبالأحزاب من جميع التيارات، وهو الأمر الذي أثار شهية الإعلام للغوص أكثر في القضية وفي موضوعهم الأثير منذ ظهور السلفيين في الحياة السياسية، وهو علاقاتهم بالنساء. انشغل الرأي العامّ بالكامل بهذه القضية في ذلك المساء، وساد اعتقاد بأن قيادات بالداخلية لفَّقت الأمر كله كي تتخلص من ضغط رئيس الوزراء المدعوم شعبيا عليهم. ولكن محمود الذي التقيته مساء ذلك اليوم أسرّ إليّ بأن للقضية أساسا. ولا بد أن صدمتي قد بدت على ملامح وجهي لأنه نظر إليّ بحدة وسألني بحنق إن كنت أظن أن ميرفت تعمل مذيعة عند سالي! قلت شيئا مثل «ليس إلى هذه الدرجة» فانفجر. أخرج كل غضبه عليّ؛ حالة السذاجة المفرطة والمزعجة التي أحبس نفسي فيها، وكيف أتعامى عن كل ما يضايقني كيلا أراه وألتحف ببراءة لا أفيق منها، وكيف أني ـ حين دهمني الواقع ولم يعد لحاف البراءة هذا يجدي التجأت إلى الخمر والنساء كأي تافه لا يستطيع تحمل الواقع. ثم أمسك بي من كتفي وهزَّني بعنف طالبا مني أن

أفيق وأنظر حولي وأفهم أخيرا أين أعيش، وأخذ بعدها يصرخ أن هذه ماسورة مجارٍ ضخمة ونحن غارقون في فضلاتها، وظلّ صراخه يعلو حتى دخل علينا مدير مكتبه وأغلق الباب وأمسك به يهدِّئ من حالته. دفعه محمود بعنف لكنه لم يفلح في التخلص منه، ورغم صدمتي المركَّبة فقد قمت واحتضنت محمود الذي يمسك مدير مكتبه بذراعه اليسرى، وظللنا نحن الاثنين ممسكَين به حتى هدأ.

عدت إلى البيت قرب منتصف الليل مُنهَكا جسدا ورُوحا. اتصلت بنور فارتاعت من صوتي وأخذت تحاول التسرية عني. تغرقني بالحنان ثم تضحك عندما لا أستجيب وتقول إن أغبى شيء هو محاولة التسرية عن أحد بأن تظل تسأله «مالك؟»، ثم عندما يحكي لك لا تجد ما تقوله له سوى «ماتزعلش». وأصمت، فتردِّد ماتزعلش، وتضحك. ثم تقول بين الجد الهزل إنهم يريدون محاكمتهن لأنهن يأخذن مالا مقابل الاستغلال الجنسي في حين أن الداخلية تريد جعله مجانيا. فكرت أني لو سألت عفاف أو ميرفت لقالتا هذا الكلام بالضبط. وأخذت أفكّر إلى أي مدى كان عفاف وسالي ومحمود على حق، وأنا الذي كنت أتعامى. لم تتركني نور إلا عندما وعدتها بأني سأخلد إلى النوم. وفعلت.

في الصباح بدأت المناوشات حول وزارة الداخلية، وبحلول الظهيرة كان كل الغاضبين قد انضموا إليها، ويعلم الله أنهم

كثيـرون. أتى شـباب الألتـراس، المسـلحون منهم والذيـن رفضوا العنف، وأتى شـباب الأحزاب كلها تقريبا، ومن لا يجد عملا، ومن يشـعر بالإحبـاط لاسـتمرار الظلم بعد الثـورة بأربع سـنوات، ومن ليس لديه شـيء يفعله أو يشـعر بالضيق لأي سـبب، ومن لا يحب الداخليـة، وغيرهـم. اتصلت بمحمود بشـير ونجحت في الوصول إليـه، وقلـت له إن عليـه واجبا بـأن يوقف هـذا فورا، فهـو يعلم أن للقضية أساسا، وحتى لو كانت تُستخدم في صراع سياسي فليس من الحكمة دفع الأمور إلى هذه الدرجة، فسـتقع مواجهات وسـيموت ناس. رد بهدوء شـديد إن قيادات الداخلية لا تفهم غير لغة واحدة، وإنهم الذين تسـببوا في هذه المشـكلة، ومن ثـم عليهم أن يحلوها، وأغلق الخط.

سـقط أول قتيل في الواحدة ظهرا، فاشـتعل الموقف أكثر، وظلَّ القتلى يتسـاقطون في هذا النهار الدامي حتى بلغوا خمسـة وسـتين قتيـلا عند المغرب. والباقي أنت تعرفه. هذا هو اليوم الشـهير الذي حاصر فيه المحتجون «لاظوغلي» وأشـعلوا النار في مباني وزارتَي الداخليـة والعـدل ومنعـوا سـيارات الإطفـاء مـن المـرور وظلـوا يحاصرونها حتى احترقت بما فيها ومن فيها.

- ١٦ -

ظهـرَت نور على باب البيت في الصباح. أرادت الاطمئنان عليّ قبل ذهابي إلـى العمل. احتضنتني وغمرتـني برقّتها فهدأت روحي قليـلا. أعدّ لنا عبده قهوة وجلسَـت معي في الشـمس على السـطح وأخرجَت من حقيبتها ساندوتشات فول وطعمية ساخنة اشترتها في الطريق. لم أكن قد أكلت شـيئا منذ ظهر اليوم السابق، فأكلنا ونحن صامتـان. لم يكـن أي منا بحاجة إلـى الحديث، ولـم نكن نتحدث كثيرا عادة؛ نجلس متقابلَين ونتبادل النظرات كأنها ماء نشربه. أكلنا، واحتسـينا قهوة عبده وشكرناه. هممت بالرحيل فاحتضنتني مجددا وهمسـت فـي أذنـي أن لا أحمّل نفسـي أكثر مما تحتمـل. نظرت إليها مسـتفهما لكنها ابتسـمت وطبعت قبلة على يدها ومسحت بها وجنتـي. وخرجنا كلنا. عـادت هي إلى بيتها وتوجهـتُ أنا مع عبده إلى مقرّ الرئاسة.

وجـدت أن إحـراق وزارة الداخليـة لـم يـزد قياداتهـا إلا عنادا. وبعـد الصدمة الأولى ليوم القتل والحرق، أغلقت أقسـام الشـرطة أبوابهـا احتجاجـا، وبـدأ «البلطجيـة» هجومهم الكبير فـي كل مدن مصـر دون أن يجدوا شـرطيا واحـدا يوقفهم. اجتمع قـادة الأجهزة الأمنيـة الثلاثة مع أعضاء المجلس الرئاسـي عنـد الظهيرة، وانضم إليهم محمود بشـير لفترة ثم غـادر. ثم عقد القادة اجتماعا منفصلا. ثـم انعقد اجتماع موسـع في الخامسـة عصـرا ضمّ القـادة الأمنيين وأعضاء المجلس الرئاسـي وممثلي القوى السياسـية المشاركة في

الحكومة ومحمود بشير. وظلت المعضلة كما هي، وانفضت كل هذه الاجتماعات دون نتيجة.

في أثناء ذلك طاحت جموع البلطجية في أرجاء البلاد. كان ما يحدث صورة مكبرة ـ وأسوأ بكثير ـ من أحداث يوم ٢٩ يناير ٢٠١١. تصدي للبلطجية «حرس الثورة» من الأُلتراس المسلحين، وعناصر «شرطة» السلفيين والإخوان، كما نجحت اللجان الشعبية في صدّ هجمات متعددة بل والقبض على عدد منهم. وهذه المرة لم يَسْلم أحد البلطجية المقبوض عليهم للشرطة، بل تم احتجازهم بمركز شباب الجزيرة الذي اتخذه الأُلتراس مقرا. إلا أن شراسة البلطجية كانت بلا حدود، كأنهم جنود المماليك الذين اعتاد قادتهم إطلاقهم على مدينة حين يريدون معاقبة أهلها: عاثوا فسادا في البيوت والمحالّ والناس لستة أيام، ولم يسلم أحد من الأذى، لا الذي تصدى ولا الذي استسلم. ستجد وصفا مفصّلا لهذه الأيام المروّعة في الكتب وفي أفلام وثائقية بلا حصر، كلها متاح على الإنترنت. ولا أريد وصفها هنا، فما زالت نفسي تجزع حين أتذكر تفاصيلها. لم أكن ـ في تعاميّ عما أكره ـ أتصور أن للبشر كل تلك القدرة على الانحطاط، لكن هذه الأيام الستة علّمتني، من ضمن ما علمتني، أن الحيوان الكامن في الإنسان أشرس وأَحَطُّ من بقية إخوته.

لم يقتصر الأمر على هجوم البلطجية ومحاولات الأهالي تنظيم أنفسهم والتصدي لهم، بل تبعه في اليوم التالي رد فعل لم يتوقعه

محمـود بشـير فـي حربه مـع التنِّيـن الجريـح، وهو انفجـار غضب الناس على السياسـيين أيضا. حين جـاءت الأنباء بالعنف الآتي من ناحيـة العشـوائيات المجاورة لطريق «صلاح سـالم» ظننَّـا أنه جزء من حـروب البلطجية مع الأهالـي، لكن تواترت الأنبـاء بعد الظهر عـن أعمـال عنف مشـابهة، وفـي المسـاء اتضحت الصـورة: هناك انتفاضـة كاملـة للجوعـى والفقراء والتعسـاء والغاضبيـن. لـم يكن النـاس بالغباء الذي تصوره محمود بشـير؛ فهموا أن السياسـيين في الحكومة ـ ومحمود بشـير شـخصيا ـ يحاربون قيـاداتِ الأمن بهم. يبـدو أنهم يعرفون ذلك من البدايـة، لكنهم تحملوه لما كانت كلفته مناوشات حول الداخلية أو في العباسية أو مجلس الوزراء، وبعض القتلى من الشـباب. ولأن هؤلاء الشباب كانوا يتطوعون بالانخراط فـي المواجهـات، فقـد سـهَّل ذلك علـى كثيريـن احتسـاب موتهم تكلفة مقبولة لصراع سياسـي يشـاركون هم فيـه بإرادتهـم. أما حين نقـل السياسـيون وقادة الداخلية سـاحة صراعهم إلـى حياة وأرزاق وأعراض الناس المسالمين الجالسين في بيوتهم، فقد انفجر الناس وثـاروا. البعض ثار بالإحـراق والنهب والتدمير لحسـابه الخاص، فهاجمـوا مـا وجـدوه فـي طريقهـم واسـتولوا على مـا ظنـوه نافعا وأشـعلوا النيـران في البقية. البعض الآخر خرج لينتقم ممن تَسـبَّب فـي هذه الفوضى. ولما كانت الشـرطة مختفية، ووزارة الداخلية تم إحراقهـا بالفعل، لمَ يبقَ أمامهم سـوى سياسـيي الحكومة، فصبَّت الجماهير جمّ غضبها على هؤلاء، وبالذات على محمود بشير.

نجا محمود بحياته بمعجزة، حين تسلل في الوقت المناسب خارج مجلس الوزراء من باب خلفي قاده إلى مبنى مهجور ومنه إلى مبنى آخر، وهكذا حتى خرج في شارع المبتديان وغادر المنطقة كلها واختفي عن الأنظار. أما الغاضبون الذين حاصروا المبنى فقد بدءوا يُضرِمون فيه النيران نحو التاسعة مساءً، وظلوا يحاصرونه حتى أتت النيران عليه بالكامل، وبدأت تنتقل إلى المباني المجاورة. كان المشهد مروِّعا، واستمرت النيران مشتعلة حتى صباح اليوم التالي حين بدأت تخمد تدريجيا بعد أن دمَّرت كل ما يمكنها تدميره.

انتهى محمود بشير سياسيا في هذه الليلة، وانتهت معه حقبة كاملة من المناورات والتحالفات العقيمة، لكنه لم يكن يعرف ذلك بعد، ولا كثيرون منا فهموا ذلك آنذاك. كأن الناس عبروا خطًّا غير مرئي، لفظوا عنده كل هذه الطريقة في إدارة الأمور وصاروا مستعدين، بل يبحثون عن طريقة جديدة. لم نفهم آنذاك، تحت ضغط الكرب الذي أصاب الجميع. ولم يفهم محمود بشير وبقية السياسيين والقوى التي تقف وراءهم. حتى قادة الأجهزة الأمنية لم يفهموا. ومثل ما حدث في أول ٢٠١١، كانت الموجة تنقلب دون أن يلحظ أحد أو يفهم بوضوح كافٍ ما يجري. ربما شعر البعض أن شيئا على وشك الحدوث، لكن لم يستطع أحد أن يضع يده عليه بالضبط.

أما أنا فقد جمعت حاجاتي من المكتب وأخذت عبده وتركت المقر الرئاسي يواجه مصيره. كنت محطما من اليأس، وتحدثت

قبل رحيلي مع أعضاء المجلس الرئاسي عديمي الفائدة وبعض رموز القوى السياسية ولم أجد لديهم سوى كلام فارغ وعبارات ممضَّة ومكررة عن «ضرورة تغليب العقل والمصلحة العامة في هذا الوقت الخطير». شكرا على البلاغة. بحثت عن العقيد لطفي مرة أخيرة ولم أجده، فقد اختفى مع قيادات الداخلية، حتى التليفونات أغلقوها. سعيد قال لي إن الجيش سيحمي منشآته لكنه لن يتورط في أي مواجهات أو يخرج من هذه المنشآت تحت أي ظرف. وحامد قال لي إن الوضع انهار بالكامل ولا يوجد ما يمكن عمله حتى تنحسر موجة الغضب الشعبي، داعيا أن لا تكون الخسائر أفدح مما يمكن احتواؤه. أمضت مصر هذه الليلة؛ الثاني من يولية ٢٠١٥، بلا دولة.

كنت على اتصال دائم بنور، وحادثتها مرة أخرى وأنا أغادر مكتبي فدعتني أنا وعبده لقضاء الليل ببيتها. وافقت على الفور. كنت قلقا عليها ولا أريد تركها وحدها. لا أدري إن كان وجودي سيحميها ساعة الجد، لكن على الأقل نكون معا. وصلنا إلى المنيل ووجدنا أن اللجان الشعبية قد أقامت تحصينات مدهشة عند مداخل الجزيرة كلها؛ لم يبقَ سوى أن ترفع الكباري وتطلق التماسيح في النيل. بعد عدد من نقاط التفتيش، واتصال تليفوني أجراه مسئول النقطة الأخيرة بمنزل نور ليتأكد من أنها تنتظرنا، سمحوا لنا بالدخول. كانت التليفونات تعمل في معظم أرجاء المدينة، ووجد الشباب طريقة لإعادة ربط تليفونات بعض الأحياء التي تعطلت

فيها الخدمة بشبكات المحمول. لا أعرف كيف بالضبط لكن شرحها لي أحدهم. وجدت نور هادئة وحزينة. احتضنتني طويلا وأدخلتنا وأكلنا طعاما معا نحن الثلاثة. بعد العشاء دخلت آخذ دشا كي أحاول غسل كوارث اليوم عن ذهني، وحين خرجت وجدت نور دامعة العينين وعبده مضطرب الحال. جرت إليّ واحتضنتني في حين أنبأني عبده بخبر مقتل عفاف.

لم أتحرك، لم أنطق بكلمة. شعرت بأني أصرخ لكني اكتشفت أن صوتي لا يخرج، ثم شعرت بتلك النقطة في رأسي تختنق وضاع الأكسيجين، وسقطت.

حين أفقت كنت في الفراش ونور جالسة بجواري تربت على وجهي وعبده واقفًا عند الباب. استغرق الأمر مني ثانيتين حتى تذكرت أين أنا وماذا حدث. شربت الماء الذي أعطتني إياه نور، وسألت عبده عما حدث فأخبرني بأن مسلحا مجهولا هاجم عفاف في ميدان الجيزة وضربها بسيف على رأسها فماتت على الفور، هكذا. ظللت أحدق أمامي في الفراغ ونور ممسكة بذراعي. هذه هي النتيجة الطبيعية لمقامراتنا، فلِمَ فاجأني ذلك؟ كل يوم يسقط ضحايا؛ في كل مرة يفشل فيها السياسيون يُقتل أناس مثل عفاف. يفشل النظام فتضيع أرواح وأرزاق وحياة ناس، مثل عفاف؛ على يدي أنا، وتحت سمعي وبصري. تمر عليّ الأرقام وأقيِّمها كل مرة: خمسة قتلى غير خمسين، غير سبعين، غير مئة وخمسين. ثم أضع المعلومة جانبا وأواصل «العمل»: مشاورات ائتلافية جديدة،

وحكومة أخرى، وإصلاح أمني لا يتمّ، وحسابات معلَّقة لا تُحسَم، وصراع آخر، ثم مناوشات أخرى وقتلى جدد. لِمَ يفاجئني قتل عفاف إذن؟ كم عفاف قُتلَت بين يدَيّ؟ وما الفارق بين شجّ رأسها بالسيف وشق روحها بالاستغلال والعَوَز والحرمان؟ قالت لي نور في الصباح أن لا أحمِّل نفسي أكثر مما تحتمل، لكن ماذا كانت ستقول لو علمت أني كنت شاهدا على المقامرة من البداية: قال محمود إنه سيضرب الفوضى بالفوضى، وقلت له إن اللعب بالنار خطر، ثم مضى فيما انتواه وسكتُّ أنا. والآن صارت عفاف جثة، نضعها في قبر ونقرأ الفاتحة على روحها ونمضي كأننا لسنا نحن مَن قتلها.

نظرت إلى نور ورأيتها تنظر إليّ كأنها تقرأ ما يدور بذهني، ودمع غزير يسيل من عينيها. انسحبَت ناحية طرف الفراش، وانكمشت في نفسها، وأجهشَت بالبكاء.

- ١٧ -

لم يكن حالي أفضل في الصباح؛ نظرت إلى نور وشعرتُ كأن رُوحها غائبة. كان عليّ العودة إلى مقر الرئاسة والبحث عن مخرج من هذه الفوضى العارمة، أيًّا كان رأيي في جدوى عملي أو مسئوليتي عما جرى. وجدت الشوارع خالية من المارة، وبها حواجز ونقاط تفتيش شعبية لا حصر لها. ثُلَل متناثرة من الشباب

تحمل سلاحا، ولا تعرف إن كان هؤلاء بلطجية أم مدافعين ضد البلطجية، فبعد سبعة أيام من المواجهات أصبح الكل يتشابه في ملابسه وسحنته و«تسليحه». وصلت إلى الرئاسة فوجدت المبنى سليما تماما؛ يبدو أن الناس نسوه من فرط انعدام قيمته. بحثت عن محمود بشير فلم أعثر له، ولا لبقية أعضاء الحكومة، على أثر.

اتصلت بعزالدين لأطمئن عليه فوجدت روحه المعنوية مرتفعة. سألته مستغربا فاستغرب استغرابي وسألني بدوره إن كنت لا أتابع ما يحدث. سألته، وسمعت منه لأول مرة عن المعارك التي دارت والتي وصفها بـ«موقعة جمل» كبرى تجري في أنحاء البلاد كلها. دارت مواجهات عنيفة مساء أمس وطوال الليل، ولا أحد يعرف حتى اليوم عدد القتلى والمصابين، لكن بشروق الشمس كان البلطجية ينهزمون. قُتل من قُتل منهم والباقي جُرِّد من أسلحته وزُجّ به في مراكز احتجاز أقامها الشباب في عدد من الساحات الشعبية ومراكز الشباب. كان صوته ينضح بموسيقى لم أسمعها فيه من قبل: قال لي إن شبكة «الشباب المدني الديمقراطي» أخذت المبادرة منذ عدة أيام، ونجحت في ربط اللجان الشعبية مع «حرس الثورة» من الألتراس المسلحين مع «شرطة» السلفيين والإخوان، ونسَّقوا دفاع هذه المجموعات في كل المدن، بل وسيَّروا دوريات على الطرق السريعة، وشيئا فشيئا تَحسَّن موقفهم حتى دارت المعارك الفاصلة مساء أمس وحتى الفجر. كان في صوته شجن وفرحة في نفس الوقت. صمت لحظات ثم قال وصوته يختنق من التأثر إن هذه

الكتلة من الشباب نجحت في استعادة الأمن فعليا، وإن لم يكن مخططا فإن هذه هي البداية الحقيقية للخروج من الفوضى. سألته إن كان عليّ اتصال بهم أو يستطيع توصيلي بهم فقال إنهم على اتصال دائم به وسيُصدِرون بيانا بعد قليل.

اتصلت بممثّلي الأجهزة الأمنية الرسمية فلم أجد سوى حامد، واتفقنا على اللقاء في مكتبي في الواحدة بعد الظهر. اتصلت بأعضاء المجلس الرئاسي فوجدتهم متحصنين بمنازلهم في المنتجعات التي تحرسها شركات الأمن الخاصة. عاودت محاولة الاتصال بمحمود ولم أنجح فطلبت من عبده الذهاب والبحث عنه بطرقه الخاصة، ومعرفة ما يدور في الشارع. بعد أقل من ساعة صدر بيان «اتحاد شباب مصر» الذي اشتهر بعد ذلك، وكان أهمّ ما فيه وقتها هو اتضاح قدرتهم على صيانة الوضع الأمني بدرجة معقولة، وطلبهم عودة الحكومة لعملها مع تعيين وزير داخلية مدني يقوم فورا ببناء أجهزة أمنية جديدة. كانت هذه أول مرة تطلب فيها حركة ثورية من حكومة الاستمرار في العمل، لا الاستقالة. وشعرت أن لعز الدين يدا في صياغة هذا البيان. اتصلت به وطلبت منه تحديد موعد لي مع قيادة الاتحاد فقال إن وفدا من خمسة أشخاص يمثّلون الاتحاد سيتوجه للرئاسة في الرابعة بعد الظهر.

دخل حامد فور إنهائي للمكالمة. بدا متحفظا، وأخذ يكرّر أن حديثه لي شخصي، من صديق إلى صديقه ولا علاقة له بموقف الجهاز، ثم أخبرني بوجود خلافات حادة بين الأجهزة الثلاثة، لأن

كلا مـن المخابرات «العامة» و«العسـكرية» نفـد صبرها إزاء رعونة قيـادات الداخلية وتصرفاتهم اللامسـئولة، وبعد أحداث الأسـبوع الماضـي بـات واضحـا للجهازين ضـرورة تنحـي هـذه القيادات، فحدة الفوضى هـذه المرة توضح بجلاء أن هذه القيادات لن تتورع عـن إحـراق البلد كلها من أجل حماية نفسـها، وكل من يهمه الأمن القومي يشعر بقلق شديد، خصوصا في الجيش الذي لا يفهم ضباطه وقوفهـم مكتوفـي الأيـدي بينما تدمّـر حفنة مـن قيـادات الداخلية الدولة. أخبرته عن بيان «اتحاد شباب مصر» واكتشفت أنه لم يسمع به من قبل. قرأ البيان واندهش بشـدة، ثم قال إنه ـ مرة أخرى بشكل شـخصي ـ يعتقـد أن هـذا كلام عاقـل ومسـئول ويمكـن قبوله من «العامة» و«العسكرية». لكن المهم العثور على شخص مستقلّ، ليس طرفا في هذه الصراعات، يتسـم بالعقل والمسئولية ويكون اهتمامه الرئيسـي استعادة الأمن لا تصفية الحسابات أو بناء شـعبية لنفسه، ويسـتطيع تمرير تفاهمات تسـمح بطيّ صفحـة الماضي، ولكن في نفس الوقت تكون يده ثابتة ولا يخضع للضغوط. وإذا ما توفـر هـذا الشـخص، فإن الجهازين سـيفرضانه على قيادات الداخلية. أخبرته بموعـدي مع ممثلي اتحاد الشـباب، وطلبت مسـاعدته في إحضار أعضاء المجلس الرئاسـي وأكبر عدد ممكن من الوزراء، بمن فيهم محمـود بشـير المختفي، لنقـرر ما سـنفعله بعد اللقاء مع الشـباب.

اتصلـت بنور لكنها لم تردّ. وفـي الثالثة عاد عبده وقال إنه لا أثر لمحمـود بشـير، وإن الشـوارع تبـدو عادية ولا يوجـد أعمال عنف

ذات بال، وإنه اتصل بأصدقاء كثيرين له في بقية الأحياء وقالوا له إن الوضع يهدأ تدريجيا وإن اللجان الشعبية وشركاءهم يسيطرون على الوضع بشكل كبير. حاولت مرة أخرى الاتصال بمحمود وطلبت من حامد المساعدة في العثور عليه. حاولت الاتصال بنور فوجدت تليفونها مغلقا هذه المرة.

تم الاجتماع في الخامسة، وشارك فيه أعضاء المجلس الرئاسي وبعض أعضاء الحكومة، وكذلك مديرو المخابرات العامة والعسكرية، لكن محمود ظلّ مختفيا. لم يقُل الشباب شيئا مختلفا عما ورد في بيانهم؛ يريدون مباشرة الحكومة لعملها، مع تعيين وزير للداخلية، بشرط تحويل اللجان الشعبية و«شرطة الإخوان والسلفيين» و«حرس الثورة» إلى قوة شرطة شعبية يتمّ تدريبها وتسليحها وتتولى مهامّ حفظ الأمن إلى حين بناء جهاز شرطة جديد، ثم يتم تحديد اختصاصات كل من جهازَي الشرطة فيما بعد مثلما هو الحال في كل البلاد الديمقراطية. ثم أضافوا أنهم يرشحون الدكتور عزالدين فكري لمنصب وزير الداخلية.

دارت مناقشات طويلة، معظمها عقيم. والحقيقة أنني انبهرت بهؤلاء الشباب وبوضوح تفكيرهم ونزوعهم نحو الحلول العملية؛ بون شاسع بين ما قالوه وما كان كبار السن المشاركون في الاجتماع يرددونه. رفعنا الاجتماع للتشاور على أن نجتمع ثانية في التاسعة مساء، وقال الشباب وهم يغادرون، وبثقة شديدة، إن زملاءهم لن يغادروا مواقعهم، أو يسلموا أسلحتهم، أو يسلموا البلطجية الذين

قبضوا عليهم، أو يسمحوا بعودة الشرطة القديمة، قبل الاستجابة لمطالبهم. ثم غادروا القاعة في هدوء.

أعقب ذلك كثير من التفاصيل والمناورات، سأوفر عليك تفاصيلها فلا قيمة لها الآن. تم العثور على محمود أخيرا وحضر عند قرابة الثامنة مساء، وعرفت حين رأيته أن حياته السياسية انتهت؛ راحت زهوة القتال وحلّ محلها انكسار وهزيمة لم أرَهما فيه منذ طُرد من الرئاسة وهو شابّ بعد حادثة سالي القصبجي الأولى. هززت رأسي أسًى وأنا أفكر، لِمَ تنتهي مغامراته دوما بفضيحة مدوّية بطلتها سالي. لكن لم يكن للأسى وقت. حيّيته برأسي وابتسم لي في تشوش وجلس صامتا حتى نهاية الاجتماع. رفض عزالدين فكري قبول المنصب، قائلا إنه يريد التركيز على بناء تنظيم سياسي للشباب الديمقراطي المدني. نظر إليه الحاضرون غير واثقين إن كان كلامه مزاحا أو جنونا، لكنه كان جادا جدا. وفي مناقشة جانبية مع مديرِي المخابرات قال لهم إن مساعدة الشباب على تنظيم أنفسهم أقرب لمؤهلاته من قيادة إصلاح أمني في بلد مفكَّك، وغادر. لكن الشباب ذهبوا إلى منزله لإقناعه.

أسر لي محمود بأنه عائد من جنازة عفاف، وهنا تذكرت. واتصلت بنور فاكتشفت أنها كانت في الجنازة هي الأخرى: سألتني بصوت حزين كيف لم آتِ إلى الجنازة. أخبرتها بما نحاول فعله فسألَت في نبرة لا تخلو من تهكُّم إن كنت قد توصلت إلى شيء مفيد. صمتّ. وصمتَت. فتح عبده الباب وبدا حامد من

خلفه فأنهيت المكالمة مع نور. ثم توجهت مع حامد إلى منزل عزالدين. في الطريق علمت منه بوجود توافق بين الأجهزة على تكليف الدكتور عزالدين فكري بوزارة الداخلية. سألته عن محمود بشير فقال إنه في حالته هذه لن يكون مؤثرا، كما لن تعترض القوى السياسية طالما استمرت الحكومة الحالية لأن أحدا منهم لا يرغب في بدء مفاوضات تشكيل حكومة جديدة. فتحت أسماء لنا الباب وهي مكتملة الأناقة كعادتها، وأشارت لنا ضاحكة بالدخول أينما شئنا لوجود عشرات الشباب بالداخل وفقدانها السيطرة على البيت. مالت عليّ وهمست في أذني راجية مني إنقاذ عزالدين من المصير الذي يدفعونه إليه. ضحكتُ، وليتني استمعت لها جيدا.

أخذناه على حِدَة وتحدثنا مطوَّلا. وعده حامد بمساندة الجيش والمخابرات، شريطة التعامل بذكاء مع قيادات الداخلية، بحيث يكون قويا معهم دون أن يطلب من الجيش أو المخابرات مواجهتهم، وهذا هو بيت القصيد. استمر عزالدين في الرفض، لكن مقاومته بدأت تضعف. لم أرَ في حياتي أحدا قاوم منصبا وزاريا هامًا حتى النهاية. في محاولة أخرى منه للمقاومة قال إنه شخص مثالي، يفعل الأشياء كما يجب فعلها، وليس له طاقة على أنصاف الحلول التي يحبها الناس، وإن تطوع للقيام بهذه المهمة فسيقوم بها بشكل كامل، بحيث يطبق القانون على الجميع، وهو أمر لن يعجب أحدا، بما في ذلك هذا الشباب الذي يؤيده ويضغط عليه الآن لقبول المهمة. مال علينا وأسرّ لنا بصوت خافت أن كل

هؤلاء يعجبهم فيه أنه منظَّم ويفعل كل شيء بنظام، لكنهم يتناسون أنهم هم أنفسهم لا يحبون النظام ولا يطيقونه، وسيكونون أول من يشتكي حين يصل النظام والضبط والربط إلى بابهم.

واصل عزالدين مقاومة العرض، لكني وحامد لاحظنا أنه بدأ يتكلم عن نفسه كمسئول عن الأمن، فتبادلنا الابتسام. لم يتبقَّ سوى بعض الوقت والمناقشات والوعود والشروط حتى يوافق. وفي آخر محاولة منه لإفشال الفكرة طلب دعم الجيش؛ بإنشاء قوة انتشار سريع من الجيش، يكون لها مهامّ محددة في مواجهة الأزمات الأمنية الكبرى، وتخضع عملياتها وتحرُّكاتها لسلطته. كانت هذه أصعب الطلبات، فلم يسبق أن وضع الجيش وحدة متكاملة من قواته تحت إمرة مدني. لكن الكيل كان قد فاض بالجميع من الفوضى التي نعيش فيها. فحصل حامد على موافقة الجيش. وهكذا صار الدكتور عزالدين فكري، أستاذُ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية، وزيرا للداخلية في حكومة محمود بشير الثانية.

لم يكن أحد يتصور، خصوصا أنا رفيق دربه القديم، أن أستاذ العلوم السياسية هذا، صاحب الهدوء البارد والمنطق المنظم والأناقة الفكرية، سيصبح الدكتاتور الدموي الذي تعرفه. لكن رسالتي هذه طالت عما خطّطتُ له. والشمس توشك على المغيب، ولم أتناول شيئا طوال النهار. سأستريح قليلا، وآكل شيئا، ثم أعود.

الفصل الرابع

- ١ -

ها أنا ذا مرة أخرى.

لا أكتب هذا الخطاب الطويل كي أحكي لك ما جرى، فأنت تعرف ما جرى. وإنما لأشرح لك ما فعلته، وما أنا على وشك فعله. ولأن حياتنا اختلطت بما جرى، ولأن ما أفعله لا يمكن فهمه دون أن أعرّج على بعض ما جرى، أجدني مدفوعا ـ أيضا، ربما، بفعل العادة، ولأني رأيت ما لم يرَه كثيرون ـ لأن أقصّ عليك بعض تفاصيل الأحداث التي ستجدها في أرشيف أي جريدة أو موقع إخباري محترم. وأكرر رجائي بأن تسامحني إن أطلت عليك، أو إن اضطربت حكايتي وتداخلت، وأوجزت أحيانا وأسهبت أحيانا أُخَر، فليس كل يوم يجد المرء نفسه في ظرف كهذا.

ولا تبتئس كثيرا من سواد حكايتي. واعلم أن سوادها لا يقارَن بما آلت إليه حياة الملايين غيرنا، في مصر ومن حولها، في

زماننا وقبلنا، وأننا كنا محظوظين في كل ما جرى. فليست الحياة نجاحات وازدهارا فقط كما تصوّر القصص، بل هي خليط من كل شيء، والمهم، كما اكتشفت وكما سأحاول أن أشرح لك، هو كيف تعيش في هذا الخليط، وأي مسار تختار لنفسك، وهل تختاره أم تدع الآخرين يختارون لك. هناك أشياء بيدك، وأشياء لا خيار لك فيها أو سيطرة عليها، والتحدي الحقيقي أن تميز بين الأمرين. فمن العبث، بل من الغباء، أن تترك ما بيدك أمره كي تشغل نفسك بما لست عليه بمسيطر. وقد استغرق الأمر مني عمرا كاملا لأجد الطريق بين الأمرين، لكني أزعم أني وجدته، وأريد أن أحكي لك كيف وجدته، وهذا هو مبتغاي. لكن دعني لا أستبق الحكاية، سنأتي إلى هذا، فما زال أمامي اثنتا عشرة ساعة كاملة. وإن كنت استطعت كتابة ما كتبت في مثلها، فسأستطيع إكمال رسالتي لك حتى نهايتها قبل الفجر.

توقفت بك عند اللحظة التي أصبح فيها عزالدين فكري وزيرا للداخلية؛ وفور أدائه لليمين الدستورية أمام المجلس الرئاسي عدت أنا للاهتمام بأموري التي تنتظرني، وأولها نور. كان قلبي يحدّثني أنها غاضبة عليّ، منذ الليلة التي قضَتها منكمشة في الفراش تبكي وحتى اختفائها خلال المفاوضات مع عزالدين وتعليقها على غيابي عن جنازة عفاف. لكني تجاهلت إحساسي وتظاهرت بأن كل شيء على ما يرام. ربما هو الحزن، قلت لنفسي.

ذهبت للقائها في مسرح التحرير حيث تتمرن على الأداء مع زملائها. جلست أنتظرها على أحد مقاعد الصف الأخير. لا أدري

من أين أتوا بهذه المقاعد الخشبية القديمة، لكني أحبها وترتبط عندي بالمسرح. جلست أرقبها وهي تتمرن مع الفريق. لا أمل من مشاهدتها تتحرك، وتتحدث، تؤدي جزءا من دور ثم تتوقف وتعيده. أحيانا يضحكون، وأحيانا يتململون، وأنا جالس أرقبها وأحبها أكثر. حين تغيب، أغلق روحي وأمضي لأداء شئوني، كأني لم أعرفها قط. وأستطيع أن أقضي أياما بكاملها دون التفكير فيها ما دمت مشغولا بأشياء أخرى تبتلع تركيزي. لكني إن توقفت وفكرت، إن فتحت الباب لنفسي، إن فتحت تلك الطاقة ونظرت منها داخلي، فقدت السيطرة ولم أستطع المواصلة دون أن أراها. وعندها أكتشف إلى أي حد كانت روحي جافة دونها. كالصائم الذي لا يفكر في الماء وينشغل بأشياء أخرى كي ينسى العطش، ثم يجد الماء. وتتشقق كل خلية فيه تعطُّشا إلى ملمسه. هكذا كنت وأنا جالس على ذلك المقعد الخشبي في الصف الأخير أرقبها تتحرك كالفراشة في وسط المسرح مع بقية الممثلين. أنظر إليها، وأريد لمسها، وأعلم أني صرت أسيرها.

حين رأتني وقفَت التمرين وجاءتني، وعلمتُ حين التقت عينانا أنها غاضبة عليّ. حاولتُ التظاهر بأني لم ألحظ لكنها حدجتني بنظرة أخرجتني من لعب الصبية هذا. سألتها عما بها فصمتَت، وكلما ألححت في سؤالي غابت في صمتها أكثر. ثم وضعت يدها على ساعدي وقالت لي أن نلتقي في وقت آخر ونتحدث، لأن هذا ليس المكان ولا الوقت الملائمَين للحديث. واتفقنا على اللقاء بعدها بيومين لأنها كانت مشغولة في التمرينات. شعرت بالقلق،

لكنـي صمتّ. عادت هي لتمريناتها، ورحلت أنا متوجها إلى البيت لأرتاح بعد هذا اليوم الطويل.

كنت في الطريق إلى البيت أفكر فيما يجب عليّ عمله لمساعدة إخـوة عفاف حين اتصلت صفية وأنبأتني بوفاة عمّك عمر. لا أدري لِمَ تأتي المصائب صحبة هكذا دوما. لم نكُن، أنا وعمك، متقاربَين، بل إنه طالما أثار حنقي بأسـلوبه وطباعه. لكنه حنق من نوع خاص؛ يكاد يكون غضبا على نفسـي. كأن عمـر صورة قريبة مني لا أحبها، أو كأنـه يُرِينـي عيوبي مكبَّرة أو معكوسـة؛ أحيانا يبدو كأنه تجسـيد لمـا لا أحب فـي نفسـي، وأحيانا لما أحـب أن أكونه ولا أسـتطيع. لا أدري، لكـن هكـذا علاقـة الأخوّة، أكثـر تعقيدا بكثيـر مما تبدو. وزاد حنقي عليه كما قلت لك إنه وجد في نفسـه من القسوة ما دعاه إلـى مقاطعتي في سـنواته الأخيـرة لمجرد أننا قررنـا دفن أمي حين ماتت دون انتظار تشـريفه من إيطاليا. وقطـع أخباره وأخبار زوجته وبناتـه عنـي. ونتيجة كل هـذا، والأحـداث المثيرة التـي مررت بها خـلال السـنوات الثلاث الأخيـرة، غـاب عمك عمر عـن تفكيري بشـكل شـبه تامّ ـ فيما عدا تلك المـرات التي تذكره فيهـا صفية في أحاديثنـا التليفونيـة. نسـيته، أو كأني تركته مع صفيـة لتعتني هي به. حدّثتنـي أكثر من مـرة عن مرض قلبه، وبدت قلقـة أحيانا خصوصًا فـي الآونـة الأخيرة حين حدثتني عن ضرورة إجرائـه عملية وتردُّد الأطبـاء، لكني لم أُعِر الموضوع اهتماما، كأني لا أصدّقه. لم أتوقع أبـدا أن يكـون مرضه قاتـلا، وحين قالت لـي إنه لم ينـجُ من عملية القلـب التي كان يُجرِيهـا لم أصدّق في البدايـة. أعلم أنها لا تمزح،

لكن كلماتها تنزلق على مسامعي دون أن تنفذ. لا، لا يمكن أن يكون عمر قد مات. عمر لا يموت. الإخوة لا تموت هكذا وهي في آخر الأربعينيات. ماذا؟! هو في أوائل الخمسينيات؟! بالفعل؟ ياه! لقد مر الوقت سريعا. لكن مع ذلك، لا يمكن أن يموت عمر، فعليًّا، فهو أخ. الآباء والأمهات يموتون حين نكبر، لكن الإخوة؟! وشيئا فشيئا بدأ الخبر يسكنني، وبدأت أفهم أنه مات، رحل عن هذا العالم، لم يعُد له وجود مادّي، توقف عن الحياة، لم يعُد من الممكن أن يقول شيئا آخر، أو يفعل شيئا، أو يأتي للغداء، أو يخرج معنا، أو يتشاجر على التليفون، أو أي من هذا. انقطع وجوده وعمله في هذه الدنيا. حينها، وأنا أفكر في أننا سنضعه هو الآخر في بطن الأرض ونُهيل عليه التراب ثم نغلق عليه القبر بالأسمنت كأننا نخشى أن يفرّ منه، حينها فهمت أنه مات. وعندها شعرت أن جزءا مني أنا قد مات.

تساءلت عندها: لماذا حين يأتي الموت يأبَى الرحيل دون أن يحصد روحا أخرى معه؟ كنت أفكّر، حين سألت نفسي هذا السؤال، في عفاف وعمر؛ لم أكن أعلم، ساعتها، أن موسم الموت يوشك على البدء، وأنه سيقيم معنا سنتين، يحصد فيهما عشرات الآلاف من الأرواح، على مقربة مني، بل تحت سمعي وبصري. أخبرَتني صفية أن عمر أوصى بدفنه في إيطاليا، وفي اليوم التالي مباشرة. قد تظنّ أني أبالغ، لكني متأكد من أنه فعل ذلك خصيصا كيلا أتمكن من حضور جنازته؛ لم يُرِد أن يرحل دون أن يردّ لي الصاع القديم الذي يعتقد أنه بيننا. هذا الأحمق. ضحكت حين أخبرتني صفية بوصيته تلك، لعله قصد إرسال سلام خاص إليّ،

لعلـه أراد أن يضحـك منـي ومن نفسـه ومـن خلافنا القاسـي التافه الأسباب. اذهب يا عمر، عليك محبة قلبي، عليك السلام.

قالت صفيـة أيضا إن خديجة، زوجة عمر، الفلسـطينية الأصل، قـررت العـودة إلى مصـر بأبنائهـا الثلاثـة بعد وفـاة عمر. لـم تكُن معرفتهـا بمصـر تتجاوز الإجـازات التـي قضوها معنا عـدة مرات، ولا أحـد مـن أبنائهما الثلاثـة؛ لارا وتمـارا وزياد، يتحـدث العربية أو يفهمها. لكنها، خديجة، صممت على تنشئتهم كمصريين، صَونًا لصلتهـم بأبيهم الراحل وبجذورهم. فلو أكملوا حياتهم في إيطاليا، أطفـالًا لأب ميت وأم فلسـطينية قد لا تعود هي نفسـها إلى وطنها، فلـن يكون لديهم جذور يمكنهـم العـودة إليها أو الانتماء. لن يكون لهم سـوى أنفسـهم وهـو أمر لا يُطـاق. ظنّت صفية أن هـذه الرغبة عارضـة؛ رد فعـل عاطفـي علـى رحيل الزوج سـتتبدد مـع الوقت، فسـايرت خديجة، ولكنها أقنعتها بتأجيل بحث المسـألة حتى نهاية العـام الدراسـي ومعرفـة مـا إذا كانت الأوضـاع في مصر ستسـتقر حسبما يتوقع الجميع من الحكومة ووزير داخليتها الجديد.

وهكـذا، لـم يكن قد مر أكثر من يومين على تولي عزالدين وزارة الداخلية حين بدأت الناس تتساءل عن موعد تحسن الوضع الأمني، بمـن في ذلـك المصريون الذين يعيشـون هانئين آمنيـن منعَّمين في إيطاليـا. فمـا بالك بمـن يعيش تحت وطـأة الخـوف، وينقبض قلبه كلمـا اقتـرب منـه مجهول فـي شـارع أو بدا له مـا يمكـن أن يكون حاجزا وهو يقود سيارته، ويظل القلق يأكل نفسه في كل مرة يخرج

فيها أبناؤه لقضاء حاجة أو زيارة صديق أو الذهاب إلى مدرسة. في البداية أشفقت على عزالدين من هول المهمة، ولو علمت الغيب لأشفقت علينا نحن.

- ٢ -

وصلت إلى البيت عند المغرب وأنا مشتَّت الذهن. عبده الذي قضى اليوم في البيت يعتني به دُهش عندما رآني عائدًا مبكرا. وظلّ يطاردني بكلمات العزاء والأسئلة حين أخبرته بوفاة عمر، حتى اضطُررت إلى إغلاق باب غرفتي في وجهه كي أتخلص منه. أردت الاتصال بنور لكنني قررت أن أدعها تنهي تمريناتها في هدوء. وبالطبع اتصل بها عبده وأخبرها بوفاة عمر، فاتصلت بي. تظاهرتُ بالصلابة، وبأن كل شيء على ما يرام. لم أتظاهر بالضبط، لكني خبأت مشاعري داخل درع الصلابة التي أستخدمها في هذه الحالات. وفهمَت نور ذلك، فجاءت بعد نهاية التمرينات، في نحو منتصف الليل. لم يكن الانتقال سهلا في ظل تعدُّد نقاط تفتيش اللجان الشعبية، وإن كان أكثر أمنا. احتضنتني حين رأتني، وبينما كنت أنهي عناقنا ظلت هي ممسكة بي حتى بدأت درع الصلابة تتفكك، وشيئا فشيئا بكيت في حضنها، ثم تحول بكائي إلى نحيب ورجفة وهي ممسكة بين لا تفلتني. وظلت ملتصقة بي حتى الصباح.

أخـذت اليوم التالـي إجازة، ولم تكـن تمرينات نور سـتبدأ قبل الرابعـة عصرا فقضينا الصباح كله معـا. في البداية تحدثنا عن عمر، ورغبة خديجة في الاستقرار بمصر مع أبنائها، واستحسنت نور هذه الفكرة بشدة. سألتُها عما يمكنني فعله لإخوة عفاف، فاقترحَت عدة أفـكار لـم أجد أيا منها قابـلا للتنفيذ، فلم أكن قـد أخبرتها بعد بكل تعقيـدات هذه العلاقة. سـكتُّ. ثم تحدثنا في السياسـة، والسـؤال الـذي يطرحـه الجميع عما سـيفعله عزالديـن مع قيـادات الداخلية وما إذا كان سيسـتطيع تنفيذ مشروع الإصلاح الأمني الذي يتحدث عنه، وكم يوما سـيمر قبل أن تقع أول مواجهة بين الطرفين، ومصير اللجان الشـعبية وكم تسـتطيع الصمود في الشوارع، ومحمود بشير وما إذا كان سيعود من الهوة السياسية التي سقط فيها. وبعد كل هذا اللفّ والدوران سألتها عن سبب غضبها، ورفضَت الرد، ظلت تردد أن الوقت غير مناسب، وأني أمرّ بوقت صعب ولا داعيَ لمناقشات إضافيـة في هـذا الوقت، لكنـي أصررت، وواصلـت الإلحاح حتى دفعتها إلى الحديث.

قالـت ـ بعد تردد طويل ـ إنها تخشى عليّ من سـلبيتي. بوغتُّ، فلا أذكر أن أحدا اتهمني بالسـلبية من قبل! اسـتطردَت أنها تخشـى تآكل إنسـانيتي تدريجيا بفعل السـلبية، التي قـد تدمرني تماما إن لم أفعل شيئا لمواجهتها. كدت أضحك، فقد ظننت أن هناك أمرا فعلته وضايقهـا، ولم أتوقع أن يكون ما فعلته هو أني لم أفعل شـيئا. وبعد الرغبـة فـي الضحك فكرت أنهـا مجنونة بعض الشـيء، أو مثل كل النسـاء تبحـث عن طريقة «لتحسـين حال» رَجُلها. أنا سـلبي؟! أين

هذه السلبية؟ ألأني أجد وسيلة لتفادي الصراعات أو حلها؟ أم لأني أقبل بطبيعة البشر وأفهم اختلافهم؟ سألتها، وجاوبتني بأني لا أفعل شيئا إطلاقا، بل أقف في وسط المأساة متفرجا عليها.

سألت عما يمكن للمرء أن يفعل حين يجابه مآسي بهذا الحجم! هل يمكنني منع الفقر الذي دمّر حياة عفاف وإخوتها؟ وإن أنقذتها فهل أستطيع إنقاذ الملايين غيرها ممن في نفس وضعها؟ أجابت بأن هذه بالضبط هي المشكلة، أني لا أستطيع وقف المأساة لكني أقف في وسط الآلة التي تنتجها، وهو أمر يجعلني شريكا، ولو بالشهادة، في هذا الدمار. مشاركتي في الظلم ولو بالمشاهدة والصمت تثقل على نفسي سواء أأدركت هذا أم لا، والطريقة الوحيدة أمامي للتعامل معه هي ارتداء دروع من الصلابة أو عدم الاهتمام أو التعود، وكلها دروع تأكل إنسانيتي تدريجيا، وسينتهي الأمر بأن تدمّرها تماما وتحلّ محلها فلا يتبقى لي سوى هذه الدروع. صمتَت لحظة ثم عاجلتني بما كنت أنتظر مجيئه في نهاية هذا الحديث، وهو أنها تحبني، ولا تستطيع أن تقف وتتفرج عليّ وأنا أدمّر نفسي بهذه الطريقة، وتفضّل في هذه الحالة أن تبتعد من الآن.

شعرت لأول مرة بأن نور لا تفهمني. وأردت أن أشرح لها، لكني كلما حاولت الكلام تَبخّرَت الكلمات على شفتَيّ. أبدأ الجملة ثم لا أجد للكلمات معنى. تبدو الكلمة في ذهني مقنعة، ومفعمة بالمعاني، لكني حين أسمعها أجدها فارغة، فأتوقف في منتصف الجملة. ثم أهزّ كتفَي، وأعرف حينها أني لن أستطيع

مواصلة الكلام. لا أحب الكلمات، لا أثق بالكلمات، لا تحمل الكلمات حين أنطقها المعنى كما يكون داخلي. كيف لا ترى نور، وحدها، حين تنظر إليّ، أن رحيلها مستحيل، أني أحتاج إليها كي تستمر إنسانيتي التي تتحدث عنها. أحاول شرح ذلك، فأقول شيئا في سذاجة الرجاء أن لا ترحل، أو في بساطة النفي: «لا»، ثم تتبخر الكلمات. مَن قال إن الكلمات يمكن أن تحمل المشاعر وتنقلها؟ أمسك بيدها، وأضعها على صدري، وأُحكِم قبضتي عليها، فتحتضنني. لكني أفكر أن عقلها لا بد أنه يحملها إلى أماكن أخرى غير تلك التي أريدها أن تذهب إليها، وأني في خطر، وأنها يمكن أن تذهب. فأمسك بها أكثر، كما يمسك المرء بما تقع عليه يده وهو في طريقه للسقوط آملًا أن يكون ثابتًا ولا يسقط معه. بعد صمت طويل من ناحيتي قالت أن لا داعي للدراما، فهي لا تهجرني ولا شيء من هذا القبيل، لكنها تريد تحذيري كيلا أستمر في إيذاء روحي، وساعتها لن أفقدها هي فحسب، بل سأفقد مشاعري برمّتها، وساعتها لن أهتمّ إن هجرَتني. طبعَت قبلة على جبهتي، واحتضنتني مرة أخرى، وذهبت لتمريناتها.

ظل عبده يحدق إليّ بعد رحيل نور من البيت، ولم يكن بي طاقة للكلام معه أو الاستماع إلى قصصه، ولا على البقاء وحيدا والتفكير فيما قالته نور الآن، أو في عمر أو عفاف أو أي من كل هذا الذي يحدث، فقررت الذهاب إلى المكتب ومتابعة ما يحدث من هناك. ورافقني عبده إلى مبنى الرئاسة الخاوي تقريبا. كان هذا هو اليوم الثالث لتولي عزالدين الوزارة، وما زال الوضع الأمني

كما كان، معلَّقا، وبحاجة إلى توضيح سريع. وقد جاء التوضيح في هذا المساء. أعلن عزالدين في بيانه الأول عن اتخاذ عدة إجراءات فورية لفك التوتر القائم وبدء عملية الإصلاح التي ينتظرها الجميع. وتَضمّن بيانه الإعلان عن الاتفاق مع اللجان الشعبية على مواصلة عملها الحالي، ودعوتها للتنسيق مع جهاز صغير أنشأه في مكتبه وكلفه الاتصال بهذه اللجان وتقديم الدعم لها. كما أعلن عن إنشاء جهاز أمني جديد سمَّاه «الشرطة المحلية»، وفتح باب التقدم للانضمام إليه لمن يرغب دون التقيد بسن أو مؤهّل، مع دعوة أعضاء اللجان الشعبية و«الحرس الثوري» و«شرطة» السلفيين والإخوان بشكل خاص للتقدم بطلب انضمام إلى هذا الجهاز في أقرب وقت بمراكز التسجيل التي فتحت أبوابها في المحافظات. كما أعلن عن إنشاء جهاز «الحرس الوطني» والمختص بالانتشار السريع ومواجهة الأزمات الكبرى ودعم الشرطة المحلية والتنسيق معها، وظهر بجواره في المؤتمر الصحفي قادة هذا الجهاز المكوَّن من رجال القوات المسلحة من أفرُع الصاعقة والعمليات الخاصة والشرطة العسكرية. وبعد هذين الإعلانين ألقى بسلسلة المفاجآت التي أوضحت للجميع أنه طراز جديد من وزراء الداخلية.

أُولَى المفاجآت كانت قراره نقل مصلحة السجون لتتبع وزارة العدل، وفصل مصلحة الأحوال المدنية وإدارة المرور والمطافئ عن الشرطة لتصبح هيئات مستقلة لها كادرها الخاص، مع تخيير العاملين بها بين البقاء فيها حتى تقاعدهم والعودة لهيئة الشرطة فورا دون إمكانية العودة لأي من هذه الهيئات في المستقبل، وتعيين

مديرين جدد لهذه الهيئات ومجالس إدارات. ثانية هذه المفاجآت كانت الإعلان عن حلّ جهاز أمن الدولة ونقل جميع العاملين به لديوان وزارة الداخلية تمهيدا لتوفيق أوضاعهم بعد دراسة حالة كل منهم على حدة. وقال الوزير في تبرير ذلك إن جمع المعلومات عن النشاط المعادي للأمن القومي هو مسئولية هيئة الأمن القومي التابعة للمخابرات العامة، ولا حاجة إلى تدخُّل الشرطة في هذا العمل، ضاربا المثل ببلدان أخرى تتبع هذا النموذج، أيرلندا قال أو شيئا كهذا، لا أذكر بالضبط. كنا كلنا نتابع المؤتمر الصحفي ونحن لا نكاد نصدق، وكان يمكنك سماع التصفيق وصيحات الإعجاب على المقاهي في الشوارع، بل وآتية من البيوت. ثالثة هذه المفاجآت في هذا المؤتمر المشهود كانت إعلانه عن تشكيل اللجنة القومية لإعادة بناء الشرطة، التي ضمَّت قضاة وخبراء في الأمن والتدريب والتربية والعمل وحقوق الإنسان وممثلين للعاملين بجهاز الشرطة من جميع الدرجات والفئات، وتكليفها ببدء حوار فوري مع الأطراف المعنية من أجل وضع تصوُّر عملي لعملية إعادة بناء الشرطة يتمّ تقديمه له خلال أربعة أسابيع. ثم أضاف عزالدين قنبلته الأخيرة، وهي تجميد عمل جهاز الشرطة القديم حتى الانتهاء من وضع هذا التصور، واستمرار اللجان الشعبية والحرس الوطني بالتنسيق مع مكتبه، في الحفاظ على الأمن خلال هذا الشهر.

مهما قلت لك لن يمكنني شرح حجم الفرحة والتأييد الذي حظي به هذا الإعلان، في كل مكان تقريبا داخل وخارج مصر. لقد تحول عزالدين فكري في تلك الليلة، وهو واقف في هذا المؤتمر

الصحفي، إلى بطل شعبي. لمسَت جرأة هذه الإجراءات وترا لدى الناس، بمن فيهم كثير من الضباط، الذين سئموا ميوعة السياسيين وعدم قدرتهم على مواجهة المشكلات أو حسمها. كما بدت الإجراءات معقولة، خصوصا أن قدرة الشرطة الفعلية على الأرض تضاءلت خلال السنوات الأربع الأخيرة. صحيح أن الجميع توقع رد فعل سلبيا من جانب قيادات الداخلية وتحديدا قيادات أمن الدولة، لكن هذا الرد السلبي كان يأتي في كل الأحوال، ويتخذ صورا عديدة، فشعر كثيرون أنه من الأفضل الدخول في مواجهة حاسمة معهم والانتهاء من هذا الأمر.

لكن بالإضافة إلى الجرأة، كان في الطريقة التي أعلن بها الوزير عن إجراءاته شيء ما جذب الناس وسحرهم. هناك شيء لا يقاوم في رجل يعتلي المنصة وينطق بكلمات يشعر الناس أنها ما يريدون سماعه بالضبط، رجل يأخذ قرارات واضحة وسط أناس يخافون الوضوح، ويفعل ذلك بثقة تُعدِي من حوله فتمنحهم الطمأنينة والثقة بالمستقبل. تَعلّق به الناس فورا، لأنه جعلهم يشعرون بهذه الثقة. أنا نفسي شعرت، وأنا أرقب المؤتمر الصحفي، بما يشبه النشوة: نعم، هذا هو عزالدين فكري الذي أعرفه، بقدرته المذهلة على الدفاع عن مواقفنا وإقناع أهلنا ومدرسينا منذ كنا صبيانا في المدرسة. هذا هو بطلي، أنا الصامت، يعود وقد صار رجلا، لينقذنا من الفوضى ومن التردّي وسوء الحال ومن تفاهة السياسيين وعقمهم. هناك، في تلك الليلة، في ذلك المؤتمر الصحفي، وُلد بطل الثورة وقائدها الذي كانوا يبحثون عنه سنوات.

تحسنت الأحوال بشكل ملحوظ خلال شهرَي يولية وأغسطس. قوة «الحرس الوطني» التي عُرفت شعبيا باسم «الانتشار السريع» ثم اختُصرت إلى «الانتشار» أحرزت نجاحا كبيرا في احتواء الأزمات الأمنية. كما نجحت في تأمين الطرق السريعة وتثبيت الوضع في المناطق النائية عندما حصلت في أول أغسطس على الدفعة الأولى من طائرات الهليكوبتر التي أقنعنا الحكومة الصينية بإمدادنا بها بشكل عاجل وقبل إتمام إجراءات الشراء. كذلك فإن عملية إنشاء الشرطة المحلية خلقت أجواء إيجابية بين صفوف الناس وبخاصة الشباب، وتطوع عشرات الآلاف للانضمام، وكوّن عزالدين لجنة وطنية متنوعة اتفقت على معايير الانضمام والشروط المبدئية لعمل هذه الشرطة، ضمّت خبراء أمنيين وممثلين للجان الشعبية والحركات الثورية المتعددة وكذلك عددا من رءوس العائلات في الأرياف والصعيد والمناطق النائية. وبحلول أغسطس كانت طلائع هذه الشرطة تجوب الأحياء السكنية في المدن الرئيسية بزيّها البرتقالي وتقدّم نفسها لسكانها وتفتتح مقراتها وتتسلم مهامّ الأمن من اللجان الشعبية القديمة، التي اندمج كثيرون من أعضائها في قوة الشرطة هذه وتطوع الباقون بإدراج أسمائهم في كشوف «أصدقاء الشرطة المحلية» بحيث يمكن استدعاؤهم في حالات الضرورة.

لم تكن الشرطة المحلية مسلحة في ذلك الوقت، واعتمدت في عملها على فض المنازعات وتعاون الناس، مع إمكانية استدعاء

قـوات «الانتشـار» حيـن الحاجـة، وكان أهمّ مـا ميزها هو سـهولة الاتصـال بهـا لكونها مقيمـة داخل كل حـي، ولها أرقـام تليفونات محمولة وحسابات على «تويتر» وغير ذلك. انضمّ كثير من الشباب العاطل إليها، وبعض كبار السن من المتقاعدين من الشرطة القديمة والجيش، واستقبلها الناس بترحاب شديد وتعاونوا معها. وسعدتُ شـخصيا حين علمت أن حسـن أخا عفاف قد التحق بها ومعه عدد من أفراد عصابة الموتوسيكلات القديمة.

لكـن أهـم ما حدث خـلال الشـهرين الأوليـن لتسـلم عزالدين الداخلية هو تغيُّر في مشـاعر الناس وفي الجو العام. أسـقط كثيرون ممن كتبوا عـن دكتاتورية عزالدين فكري هـذه الفترة من تحليلهم، وهـذا خطأ كبير في رأيـي. فلا يمكنك فهم ما جـرى بعد ذلك دون تمعُّـن في هذين الشـهرين. صحيح أن التحسـن السـريع في الأمن كان مؤقتـا، وأعقبته الكوارث التي نعرفها جميعا، لكن خلال هذين الشـهرين شـعر النـاس بالأمل مـن جديـد، وبأن تحسـين الأوضاع وبسـرعة ممكـن إن تَسـلَّم السـلطة شـخص منحـاز إلـى الشـعب والثورة ويعمل بطريقة منظمة وحديثة، واتضح لهم بجلاء أن سبب المشـكلات التي واجهوها هو اسـتمرار التفكير القديم وأسـلوب الحكـم القديم حتى وإن ذهب رموز النظام القديم. اتضح للشـعب مَن عدوُّه ومَن نصيره.

شـعر النـاس مـن جديـد بالقدرة علـى تحقيـق أحلامهـم، ربما لأول مـرة منذ اندلعت الثورة فـي ٢٠١١. ومرة أخرى أصبح الغني

والفقير يسيران معا في دورية لحماية أسرهم وممتلكاتهم وحيّهم، وأصبح الناس يتحدثون معا: ينظرون بعضهم إلى بعض في العين وهم يتحدثون. يرى بعضهم بعضا: يختلفون، بل يتنازعون، لكنهم يحسمون نزاعهم هذا بالحوار فيما بينهم. ولأنهم يرى بعضهم بعضا يصعب على الواحد منهم تجاهل مصالح ومشاعر الآخر، وإن فعل، فسيجد آخرين يخطّئونه ويحاسبونه. مرة أخرى عاد الناس ليكونوا جماعة لا أفرادا يتحاشون بعضهم بعضا ويحاول كل منهم أن يقبض على غنيمة ويفر بها قبل أن يمسكه الآخرون. وعاد الشارع ليصبح مكانا عامًّا، أي مكان يملكه ويتقاسمه عموم الناس، رجال ونساء، أغنياء وفقراء، صعاليك وذوات، لا غابة بلا صاحب يفر منها الناس بأسرع ما يستطيعون. وصار عزالدين فكري وشرطته المحلية يجسّدان كل ذلك. ومن ثم، حين بدأ عزالدين يصطدم بأقطاب الأمن والنظام القديم لم يتردد الناس في أيّ صف يقفون، وانحاز الشعب بأغلبية كاسحة خلف الرجل الذي كرس حياته لتحقيق أحلامهم. في هذين الشهرين وُلد التأييد العارم والأعمى لعزالدين فكري، الذي من دونه لا يمكنك فهم القوة الكاسحة التي مكّنته من فعل ما فعل.

والحقيقة أني انجرفت في هذا التأييد مع من انجرفوا. وسخّرت نفسي وموقعي لمساعدته على تنفيذ برنامجه الطَّموح، وعملت على التوسط بينه وبين رئيس الحكومة والقوى السياسية والأجهزة الأمنية كلما وقعت أزمة. كانت ثقتي بعزالدين وبإخلاصه للمصلحة العامة مطلقة، وما زلت مؤمنا بعد كل ما جرى أن هدفه

كان نبيلا. ولا ينبني رأيي هذا على شهور من أدائه المتميز فحسب، بـل علـى عمر كامل من الصحبـة والأخوّة التي جمعتنا ونشـأنا فيها معـا. صحيح أننـا ابتعدنـا واقتربنا في أوقـات، ووقعت بيننا أشـياء ووُلدت توترات، لكن هكذا حال كل الأصدقاء القدامى والإخوة.

وحتـى مـن دون هـذه الصداقة والأخـوّة، لو وضعـت أي عاقل مكانـي لوثـق بعزالديـن وسـانده. كنـت فـي وسـط نظـام سياسـي لا يعمـل؛ مجلس رئاسـي ليس لأعضائـه سـلطات، ومكـوّن من شخصيات ضعيفة تسعى لتفادي ممارسة الاختصاصات المحدودة الممنوحـة لهـا، ورئيـس حكومة فـي حالـة اكتئاب نفسـي وهزيمة سياسـية ولا يغـادر منزلـه إلا لمامـا، وقـوى سياسـية مشـاركة فـي الحكومـة كأنهـا في مباراة جماعية للتنس كل همهـا أن تُلقِي بالكرة نحـو الفريق الآخر لتتفادى اللوم والمسئولية، وأجهزة أمنية متبرمة وفاشـلة في آن واحد وإحداها تسـعى عمدا لتخريب الاستقرار كي تحمي نفسـها. وفي وسـط كل هذا تجد رجلا لا مصلحة شـخصية له، لم يأخذ في حياته جنيها من المال العامّ، بلا مطامع بل ولا حتى أولاد، وهدفه الوحيد هو «أن يُحسِـن عملا»، فمن سـتختار؟ وحين يصطـدم هذا الرجل بهـؤلاء الناس، وباللوائـح والقوانين والقواعد العرجـاء التـي وضعوها فـي أثناء صراعاتهـم، فهل سـتقف معه أم مع القواعد؟

لكني أسـبق الأحداث ثانية. سـآتي إلى هذا الأمر بعد قليل. في أواخـر يوليـة أخبرتني صفيـة أن خديجـة حزمت أمرهـا وحقائبها،

وستأتي إلى مصر في منتصف أغسطس للاستقرار بها. وطلبت مني إعداد المنزل بالرحاب ليستقروا به مؤقتا حتى يجدوا مكانا. كانت صفية قلقة، وغير مرتاحة للأمر، وحاولت طمأنتَها قدر الإمكان، لكن لا أظن أني نجحت كثيرا. فالمصري المقيم بالخارج يظنّ أن البلد تشتعل بالحرائق لأنه لا يسمع إلا عن الحرائق في وسائل الإعلام. نفس مشكلة الست والدتك. المهمّ، طلعت خديجة الفلسطينية أصيلة أكثر من المصريات ـ لا تقل لأمك إني قلت هذا ـ وجاءت بالفعل في منتصف أغسطس. في تلك الأثناء كنت قد أرسلت عبده ليستطلع أحوال بيتنا القديم في منشية الطيران، فوجد عائلة الطفل نصف العاري ما زالت مقيمة به. كان بوسعي الآن إخراجهم من الشقة بسهولة، فلا سند قانونيا يسمح لهم بالعيش فيها، لكني ما كنت لألقي بعائلة فقيرة بثلاثة أبناء في الشارع تحت أي ظرف. تفاهمت معهم عن طريق عبده، ووجدنا لهم شقة أخرى وافقوا على الانتقال إليها، ودفعت ثمنها وساعدهم عبده على نقل حاجاتهم إليها. وبحلول نهاية الأسبوع الأول من أغسطس كانت الشقة جاهزة لاستقبال خديجة وأبنائها، وشعرت بسعادة حقيقية حين استقبلنا خديجة وأبناءها في المطار، وأخذناهم ـ عبده وأنا ـ إلى البيت. لاحظت اهتمام عبده بخديجة منذ وقعت عيناه عليها، وابتسمت لنفسي. أحبت خديجة وأبناؤها بيتنا الفسيح، وشعرت برضا عميق أن عائلة أخي الراحل تستقرّ في بيتنا.

لم تكن خديجة الوحيدة التي قررت المجيء إلى مصر، بل سار في ركبها عشرات الآلاف من السياح. ارتفعت حجوزات الفنادق

والجولات السياحية للشتاء بدرجة ملحوظة، وهذا مؤشر واقعي تماما يعكس لك حجم الثقة التي استُعيدت خلال هذين الشهرين. ومع تحسُّن الأمن بدأنا نفكر في المشكلات الأعمق: كيف نبني شرطة جديدة محترفة تقوم بمهامّ مكافحة الجريمة الأكثر تعقيدا؟ وكيف نجمع السلاح المنتشر في طول البلاد وعرضها؟ وماذا نفعل مع عشرات الآلاف من البلطجية؟ وماذا نفعل مع حالات احتلال الطريق العام والميادين والكباري والحالات العديدة لوضع اليد على أملاك الدولة والأفراد الغائبين وفوضى المرور؟ وفوق ذلك كله وقبله، ماذا نفعل في السادة ضباط أمن الدولة وشبكات المتعاونين معهم في سائر مؤسسات الدولة؟

أجابت خطة إعادة بناء الشرطة القديمة عن هذه الأسئلة، وقدمتها اللجنة لعزالدين في آخر يولية كما طلب. لكن قيادات الداخلية أدخلت الجميع في مماحكات بيروقراطية وقانونية بشأنها فور الإعلان عنها. لم يعارضوها صراحة، لكنهم طالبوا بوقت لدراستها من جوانبها كافة، وأثاروا بشأنها ملاحظات مبدئية أوضحت نيّتهم. لم يكن وقت عزالدين يسمح لنا بالحديث مطوَّلا خلال هذه الفترة، واقتصر الاتصال بيننا على مكالمات سريعة من جانبه يطلب فيها أشياء محددة، أو دقائق معدودة نتبادل فيها الحديث على هامش اجتماع لمجلس الوزراء أو ما شابه. أحيانا أسأله عما سيفعله مع هذه القيادات فيُبدِي القلق. لكن، مثلما اتضح فيما بعد، كان عنده الجواب من البداية، وأعد العدة لكل خطوة قبل أن يخطوها، ورتَّب أسلحته كي يقوّي موقفه قبل الدخول في

المعارك، واختار معاركه وتوقيتها بنفسـه. لكني لم أكن أعرف ذلك وقتها، وقضيت أوقاتا طويلة أفكّر وأدرس وأتشاور، وثبت فيما بعد عبث كل هذه الدراسـات والمشـاورات، كما كانت نـور تردّد على مسامعي في تلك الفترة.

توتـرت علاقتي بنور. كانت تُعِدّ لعرض مسرحيتها الجديدة في أول سـبتمبر، وعنـى ذلك غرقها فـي تمرينات طول اليـوم كل يوم، بمـا لـم يترك لنا وقتا كـي نلتقي، خصوصا أنني أيضا اسـتُغرقت في مشـاوراتي ودراسـاتي لمسـاعدة عزالدين الذي لم يكن يحتاج إلى مسـاعدتي. قالـت لي ذلك، في كل فرصة سـنحت لهـا، لكن الأمر كان يتعدى مجرد ضيق الوقت، فقد فتحت مناقشـتنا السـابقة الباب أمام موضوع لن نغلقه تماما بعد ذلك أبدا، واستمر خلافنا فيه قائما لسـنوات، ولـم نحسـمه حتى حسمتُه أنا منذ أسـابيع قليلة. وبعد أن قالـت لي إن سـلبيتي تهدّد بتدمير الجانب الإنسـاني فـيّ، وإنها لن تسـتطيع مشاهدتي وأنا أفعل هذا بي وبها، زادت صراحتها وضوحا وسـألتني عـن رأيي الحقيقـي في جدوى عملي. وحيـن لجأت إلى الصمـت أجابت هي بـأن هذا العمل مضيعة للحيـاة؛ لا هو يمكّنني من التأثير على سـير الأمور ودفعها باتجاه طيب، ولا هو يسـمح لي بعمل شـيء طيـب أو مفيد أو جميـل، تماما كالعشـب الضارّ الذي يحتلّ التربة. وسـألتني مباشرة، وعيناها الرائعتان في عينَيّ، لِمَ أبقى فـي هـذا العمل؟ لـم لا أترك هذا العبث وأفعل شـيئا مفيـدا بحياتي أو شـيئا جميلا يملأ روحي بدل هذا الاسـتنزاف الدائم للنفس؟ لم يكن عندي إجابـة، فصمتّ. ناداها المخرج لتعـود للتمرين، فقلت

لهـا إني غير مرتاح لالتصـاق المخرج بها طوال الوقـت وعينه التي لا تفارقهـا. ضحكَـت ومالت عليّ فملأ شـعرها وعيناها وشـفتاها وابتسـامتها حواسّي وهمسـت أن المهمّ ليس من ينظر إليها، بل مَن تنظر هي إليه! سـارت خطوتين نحو المسرح ثم استدارت إليّ ثانيةً وأضافت محذّرة أن الأهم أن لا أضيّع أنا نظرتها.

- ٤ -

... لكني ضيّعت نظرتها إليّ.

وبغضّ النظر عن السـبب المباشـر لذلك، فإن انفصالي عن نور عكـس خلافـات عميقة بيننا وأسـئلة هامَّـة لم أكن قد حسـمتها مع نفسي آنذاك. وهذه هي الأشياء التي أكتب رسالتي هذه كي أشرحها لـك. وكمـا سـترى بعد قليـل، كل هـذه الأشـياء مترابطة، فليسـت تطـورات قصتـي هي الأهم، لا الثورة ولا حكم العسـكر ولا الثورة الثانيـة ولا الفوضـى ولا حرب الطماطـم أو دكتاتورية الرعب التي تلتهـا. كل هـذه الأحـداث مضت وانتهـت، ويمكنك القـراءة عنها في كتب تشـرحها أفضل مني. ما يعنيني منها، ويعنيك، هو الأسـئلة والإجابات التي فجرتها هذه الأحداث، والتي ستشرح لك ما فعلته وما أنا بصدد فعله في الساعات القليلة القادمة.

لـم يكن أحد يتصور أن تبـدأ دكتاتورية الرعب بحمولة طماطم، لكن هذا ما حدث. في نهاية أغسطس، وبعد أن اتضح أن مماحكات

قيادات الداخلية ستستمر حتى تقضي على خطة الإصلاح الأمني، أعد عزالدين مشروعا بقانون جديد للشرطة بناء على هذه الخطة وتقدمت به الحكومة فعليا للمجلس الرئاسي القائم بمهام التشريع. كان مشروع القانون ممتازا، وبعد مشاورات مبدئية أجريتها لمست اتجاه أعضاء الائتلاف الحكومي لإقراره، إلا أن قيادات الداخلية أبلغت المجلس الرئاسي ـ من خلالي ـ برفضها للمشروع على أساس أنه لا يلائم طبيعة جهاز الشرطة ويتعارض مع اللوائح القائمة وغير ذلك. أبلغت عزالدين قبل إبلاغ المجلس الرئاسي، وعلى الفور عقد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه تفاصيل مشروع القانون وطلب من الشعب دعمه، مذكرا الجميع أن الأمن الحقيقي لا يمكن أن يستمر بشرطة محلية وقوة انتشار سريع فقط.

في نفس الوقت، كانت حملة التوعية التي بدأتها هيئة المرور لإخلاء الطرق والميادين من الإشغالات وإعادة تنظيمها قد وصلت إلى نهايتها، وبدأت مرحلة تطبيق القانون. مرت عملية إخلاء الشوارع الكبرى والميادين العامة بسلاسة نسبيا، وساعدت الشرطة المحلية كثيرا في إقناع الباعة الجائلين بالرحيل إلى أماكن أخرى خصصتها الحكومة لهم أو على الأقل بالبقاء فوق الأرصفة وإخلاء الطريق. أصحاب الكراسي البلاستيك ومقدمو الشاي على الكباري كانوا أقل تعاونا، ونشبت عدة مشادات مع رجال المرور بل ومع الشرطة المحلية. واستُدعيت قوات «الانتشار» للمساعدة في إخلاء كوبري عباس، وكاد الأمر يتطور إلى تبادل لإطلاق النار حين ألقى أحد باعة الشاي بزجاجة مولوتوف على القوة، إلا أن

الجاز المستخدَم كان مخلوطا بالماء فلم تشتعل العبوة، وانفجر الضابط في الضحك عندما اكتشف أن الجاز مغشوش، وتحول الأمر كله إلى فكاهة وتمت تسويته وديا. وهكذا، خلال الأسبوع الأول من سبتمبر تم إحراز تقدم كبير في تنظيم الشوارع داخل المدن، وإن كانت قضية الباعة الجائلين ظلت بحاجة إلى إجراء أكثر جذرية لتوفير منافذ شرعية لهم للاتجار، وهو ما وعدهم به عزالدين خلال لقاءاته الميدانية مع العديد منهم.

المشكلة الحقيقية بدأت على طريق مصر الإسكندرية الصحراوي. فلسبب غامض كان سائقو مركبات النقل قد استقروا على قيادة مركباتهم في الحارة اليسرى المخصصة للسيارات الأسرع. ولم تفلح حملات التوعية، ولا التحذيرات التي سلّمها رجال المرور للسائقين، ولا الحديث مع أصحاب شركات النقل، في زحزحة السائقين إلى الحارة اليمنى. وكان ذلك مبعث ضجر بل وغضب حقيقي لدى قائدي السيارات الخاصة الذين عانوا طوال شهرَي يولية وأغسطس من اضطراب المرور على الطريق من وإلى الإسكندرية والساحل الشمالي. معظم هؤلاء من الطبقة المتوسطة التي تستطيع السفر إلى الإسكندرية في الصيف في ظروف كهذه، والذين لم تحتمل أعصابهم قضاء ساعات طويلة على الطريق، بسرعة ستين كيلومترا في الساعة، خلف مركبات النقل التي تحمل الطماطم، أو تعريض حياتهم للخطر بين سيارات النقل الثقيل ذات المقطورات وهي يناور بعضها بعضا بحمولاتها الضخمة من الحاويات والأخشاب وأسياخ الحديد. وهي طبقة حرص عزالدين

علـى إبقائها راضية عنه. ومع بداية سـبتمبر قـررت هيئة المرور بدء تطبيق القانون وسحب رخص المخالفين، وفي خلال أسبوع كانت آلاف الرخص قد سُحبت، وبدأ الصراع مع سائقي النقل.

اتهـم عزالديـن ضباط أمـن الدولة وعملاءهم بإشـعال ما عُرف إعلاميـا بـ«حرب الطماطم»، وذلك في محاولة منهم لإسـقاطه هو وخطة الإصلاح الأمني. وقد صدّقتُه وقتها، وصدّقه الشـعب معي، لكني حين أفكر في الأمر الآن وبعد هذه السنوات أشك أنه هو الذي نصـب لهم فخـا مثلما زعم العميـد لطفي. ربما بدأ الصراع بشـكل تلقائـي، بسـبب غضب حقيقـي من سـائقي النقـل والمرتبطين بهم من التجار والمزارعين والذين مسّـتهم محـاولات عزالدين لتطبيق القانون عليهم بشـكل شـديد الصرامة ودون مراعاة لظروفهم، لكن مـن الممكن أن يكـون عزالدين قد اسـتغل هذا الصراع واسـتدرج أعـداءه من قيادات الداخلية للتورط فيه كي يتمكن من حشـد القوة الكافيـة للقضـاء عليهم. لا أعـرف الحقيقة بالكامـل، ولا أعتقد أن أحدا يعرفها.

لكن الأحداث واضحة؛ في ظهيرة يوم الثامن من سبتمبر ٢٠١٥ أوقف ضابطُ مرور قائدَ مركبة تنقل حمولة من الطماطم، وتسير في الحارة اليسـرى للطريق بسرعة ستين كيلومترا في الساعة، وتتساقط منهـا حبات الطماطم واحدة تلو الأخرى فترتطم بزجاج السـيارات الآتيـة من خلفها، مما تسـبب فـي اضطراب وتعطيل لحركة السـير علـى الطريق. طلـب الضابط رخصة القيـادة من السـائق فتبين أنها

سُـحبت في اليوم السابق لنفس السبب، فقرر الضابط تطبيق العقوبة التالية، وهي سحب المركبة وتسليمها لهيئة المرور. وهنا أخرج تابع السـائق سيفا وشجّ رأس ضابط المرور ولاذ بالفرار بالمركبة. فارق الضابط الحياة وهو راقد على الأسفلت قبل أن تصل إليه النجدة.

عندمـا علـم عزالدين بالخبر توجـه من فوره إلـى عائلة الضابط وقدم لهم العزاء ووعدهم بالقصاص من الجناة، وأطلق كل ما لديه مـن أدوات للبحث عنهم. وقامت قوات الانتشـار السـريع بحصار المنطقة وتوقيف وفحص السـيارات المطابقة لمواصفات السـيارة الهاربـة. وتـم تشـديد الرقابة فـي اليوميـن التاليين علـى كل الطرق السـريعة، فوقعـت احتكاكات إضافيـة، لكن هيئة المـرور واصلت تطبيـق القانـون وسـحب مزيـد مـن الرخـص والسـيارات. كانـت تعليمـات وزير الداخلية تقضي بتطبيـق القانون وتفادي الأذى دون ملاحقة أحد. وفي اليوم الثالـث أطلقت سيارة نقل عيارات نارية على كمين، ثم تَعرّض كمين آخر لإطلاق نار، ثم وقع تراشق على طريق أسـيوط وقُتل ضابط آخر وجنديان وتسـعة سـائقين، وتلا ذلك قيام سـائقي النقل الثقيل بإضراب عامّ تبعهم فيه سـائقو النقل الخفيف، وقبل أن يمر أسبوع قام السائقون المضربون بقطع الطرق كلها.

اتهـم عزالديـن صراحـةً قيـادات الداخليـة وضباط أمـن الدولة بالتآمـر، واصفـا إياهـم لأول مـرة بقـوى الثـورة المضـادة وبأنهـم ينظمـون حملـة للانقلاب على الثـورة. لكنه رفض اسـتخدام القوة لإعادة فتح الطرق، قائلا إن ذلك سـيؤدي إلى نزيف دم لن يتوقف،

وإن هـذا فخ يريد أعـداء الثورة اسـتدراجه إليه لخلخلـة الأمن مرة أخـرى. وفي نفـس الوقت رفض التفـاوض مع سـائقي النقل قائلا إن الخضـوع للابتزاز سـيهدر هيبـة القانون. وبدلا مـن هذا أو ذاك، وفّـر حماية إضافية لضبـاط المرور على مداخل ومخـارج المراكز السـكانية لتقليل الخسـائر بينهم، وأصدر تعليماته لهم بالاسـتمرار فـي تطبيـق القانون دون أي تسـاهل لكـن دون محاولـة فتح طريق مغلق أو مطاردة هارب. وهكذا، ظل الأمن جيدا داخل المدن، لكن الطـرق تقطعت ومعها مصالـح الناس والتجـارة. وجلس عزالدين ينتظـر، تاركا الضغط الشـعبي يتزايـد. في خلال خمسـة أيام بدأت السلع تشح في المتاجر والأسواق، وعزالدين لا يتفاوض ولا يغامر باسـتخدام القوة، وضغط الناس يزيد. سـألته ما خطته فابتسم وقال أن لا خطة لديه، لكنه لو تراجع فخير له أن يجمع حاجاته ويعود إلى بيتـه، وخير لنا جميعا أن نسـلم البلد لقيـادات الداخلية، وإن هاجم سيخسر، ومن ثم سينتظر، وهز كتفيه ومضى.

ولأول مرة، ربما في تاريخ مصر، تحتشد مظاهرة مليونية في ميدان التحرير دعما لوزير داخلية. وعند الظهيرة أدركت القوى السياسـية خطـورة نموّ شـعبيته إلى هذه الدرجـة وبدأت تُعِدّ للانسـحاب من الحكومة كي تُسقِطه وتتخلص منه، وبعضهم فعل ذلك بالتنسيق مع قيادات الداخلية. رئيس حزب الوفد وقتها هو أول من أطلعني على نيته الانسـحاب من الحكومة، تلاه محمود بشير، فأخبرت عزالدين على الفور. وعند العصر توجـه عزالدين إلى ميدان التحرير ونقلت كاميرات التلفزيون صورته وهو يعتلي المنصة الرئيسـية في الميدان

(قال لي العميد لطفي إن أنصار عزالدين من «اتحاد الشباب الديمقراطي» رتّبوا الأمر كله من البداية ونصبوا هذه المنصة من الصباح أمام سلم المترو بحيث يخرج من المحطة خلف المنصة دون احتكاك بالجموع). وحين ظهر عزالدين على المنصة، دون حراس أو مرافقين سوى شباب الاتحاد، أشعل حماسة الميدان كله، وظلت الناس تهتف لمدة خمس دقائق متتالية بسقوط أمن الدولة بشكل جماعي مهيب. قال عزالدين إن المعركة الجارية هي المواجهة النهائية مع الثورة المضادة، وحذر القوى السياسية، من الإخوان حتى اليسار، من الانحياز إلى صف الثورة المضادة أو حتى الوقوف على الحياد، قائلا إن الحياد جريمة. وحين لوّح عزالدين للجماهير المحتشدة بعلامة النصر وهتف بحياة الشعب وردد الميدان كله الهتاف بصوت رجل واحد، بات واضحا أن ساعة فلول الداخلية قد أزفت.

في صباح اليوم التالي انعقد اجتماع مجلس الوزراء بحضور قادة الجيش، وصدر القرار الشهير بالتحفظ على قيادات الداخلية والعاملين بجهاز أمن الدولة إلى حين التحقيق معهم. واجتاحت الناس فرحة غامرة وخرجوا إلى الشوارع في مشاهد أعادت إلى الأذهان ذكرى الحادي عشر من فبراير ٢٠١١. لم يكن أحد يعرف بالضبط كيف سيتمّ اعتقال آلاف الضباط، ووفقا لأي قانون، وإلى متى. لكن الناس لم تهتم بهذه التفاصيل وخرجت تحتفل. ومع بدء الاحتفالات الشعبية، وبالتوازي مع قيام فرق من القوات الخاصة بمداهمة واعتقال قيادات الداخلية الأكثر أهمية فالأقل، والتحفظ

على مقارّ أمن الدولة وتشميعها، أخرج عزالدين سلاحه السري، فتوجهت مجموعات خاصة من روابط الألتراس القديمة وشبكة الشباب الديمقراطي التي أنشأها، مدعومة بوحدات من فرق الانتشار السريع، وداهمت المعتصمين قاطعي الطرق الرئيسية واشتبكت معهم. هذه هي نواة الحرس الحديدي للثورة الذي ذاع صيته فيما بعد. بدأت في تلك الليلة المواجهات الدامية مع السائقين التي استمرت ستة أسابيع، وقع خلالها قتلى لا يعرف أحد عددهم على وجه الدقة. قال عزالدين إن القتلى بلطجية ورجال أمن الدولة، لكن أحدا لم يتحقق من هذا. كانت قوات الحرس الحديدي تفتح الطرق عَنوة، وتبادر بإطلاق النار الكثيف بلاهوادة أو تردد عند أول علامة على المقاومة. وبحلول الأول من ديسمبر كانت كل الطرق قد فُتحت من أعماق الدلتا وحتى أقاصي الصعيد، وتم إيداع سبعة عشر ألفا من قيادات الداخلية والعاملين بأمن الدولة في السجن بانتظار التحقيق معهم.

- ٥ -

بعد إخراج جهاز أمن الدولة وقيادات الداخلية القديمة من الصورة، بدأ عزالدين عملية متسارعة لإعادة هيكلة الشرطة. وتعاون الجميع معه، خصوصا القوى السياسية الإسلامية التي تبين امتلاكها بيانات تفصيلية عن الضباط المتورطين في التعذيب والقتل وبقية المخالفات الجسيمة. كما استعان الوزير بعدد من الضباط

القدامى ممن أبعدتهم القيادات القديمة، وكثير ممن عملوا في هيئات المرور والأحوال المدنية. استبعد عزالدين كل المشكوك في ولائهم، بدليل أو دون دليل. وكان مدركا للظلم الذي لحق ببعض المستبعدين، لكن بين هذا القدر من الظلم وفتح الباب لعودة قوى الثورة المضادة، اختار عزالدين ـ وكلنا معه ـ بعض الظلم. وأسهم طلبة السنتين الثالثة والرابعة بكلية الشرطة في العمل متدربين على أن يتخرجوا رسميا باجتيازهم اختبارات لاحقة وبناء على أدائهم خلال سنتَي التدريب العملي، وتمّت تسوية أوضاع أمناء الشرطة، وبدأت عملية إعادة النظر في هيكل الأجور وظروف العمل، وغير ذلك من تفاصيل عملية الإصلاح الأمني التي استمرت لسنوات حتى بعد رحيل عزالدين من الوزارة. وربما كان أهمّ تغيير حدث نتيجة كل ذلك هو تحول جهاز الشرطة إلى شرطة جنائية محترفة، تركز على مكافحة الجريمة والقضايا الأمنية الكبرى، تاركة مهامّ حفظ الأمن في الأحياء والمخالفات الصغيرة للشرطة المحلية.

أصبحت قضية رجال أمن الدولة المتحفَّظ عليهم تتطلب اتخاذ إجراء ما، خصوصا أن رموز النظام القديم كانوا لا يزالون رهن الاعتقال دون محاكمات بعد فشل الموجة الأولى من المحاكمات. وكما شرحت لك في بدايات الخطاب، كان موقف عزالدين من هذه القضية من قبل دخوله الحكومة هو ضرورة الحسم واستنان قانون ينشئ محكمة للثورة يحاسب هؤلاء، لكن بقية القوى السياسية أحجمت خوفا وظلت كل حكومة تُلقِي بالأمر على تلك التي تليها. والآن وقد قفز عدد المتحفَّظ عليهم من ألف ـ هم رموز

النظـام القديم الموجودون منذ الثورة الثانية ـ إلى ثمانية عشـر ألفا، لم يعد من الممكن استمرار حبسـهم دون محاكمة. لكن هذا الأمر كان فـي يد رئيس الـوزراء لا وزير الداخليـة. وكان اكتئاب محمود بشـير وهزيمتـه السياسـية وفقدانه شـعبيته قـد زادوه تـرددا وجبنا. وتفجـر الخـلاف بينـه وبيـن عزالديـن فكري فـي اجتمـاع مجلس الوزراء الأسـبوعي الذي أعقب التحفظ علـى العاملين بأمن الدولة وقيـادات الداخليـة. وكمَخـرج مـن الأزمة شـكّل المجلـس لجنة لدراسـة الأمـر. وهكذا ظلّ الأمر يـراوح مكانه حتـى منتصف يناير عندما فرَّ سـتة من قيادات الداخلية من السجن وظهروا خارج البلاد بعدها بيومين، وقفز موضوع محاكمة أقطاب النظام القديم إلى بؤرة اهتمام الرأي العام.

صمـت عزالديـن تمامـا باعتبـار القضية تخـصّ رئيـس الوزراء والنائـب العـامّ ووزارة العدل، وظـل هؤلاء يتفوهـون بترهات تثير حنق الناس أكثر، وبعد أسبوع من التظاهرات والاحتجاجات ـ التي تَبيّن أن «اتحاد الشـباب الديمقراطي» يقف وراءها ـ أعلن عزالدين فكـري تأييـده لإنشـاء محكمة للثـورة بقانون خـاصّ لمحاكمة كل أعـداء الثورة، ابتداء ممن أطلقوا النار علـى المتظاهرين في ٢٠١١ حتـى متآمـري حـرب الطماطم. وبـدأ التحالف الحكومـي يتفكك وصعـد اتحاد الشـباب من حركـة الاحتجاج وانضمـت إليه القوى الإسـلامية، ووجد محمود بشـير وفصيله أنفسـهم معزولين، وبعد يومين أعلن عن رغبته في الاستقالة.

كنت أرقب كل هذا، وأشارك في بعضه وأنا غير متأكد تماما من فهمي لما يجري. قلبي كان مع عزالدين وضرورة الحسم، لكنني كنت متخوفا من تسارع الأحداث والطابع الجذري الذي بدأت الأمور تأخذه. نور، الغارقة في مسرحيتها، أعلنت رفضها المبدئي لإراقة الدماء منذ عملية تصفية قاطعي الطرق التي وصفتها بالبربرية، وتناقشنا عشرين مرة في هذا الأمر بلا فائدة. شرحتُ منطق الضرورة، ومنطق الضرر الأخف: هل تقتل مئة قاطع طريق كي تعيد الأمن لبلد أم تحفظ حياتهم وتهدّد حياة الملايين؟ قالت إنهم لم يكونوا مئة بل خمسة آلاف، وتهنا في مناقشة الأرقام التي لا يعلم أي منا عنها كثيرا، وفي النهاية اختلفَت مع المبدأ، رافضة ولو قتل شخص واحد دون سند ودليل ومحاكمة أيا كانت الأسباب، ورفضتُ رفضها، ووصفتها بأنها تتصرف كأنها «مواطنة سويدية» وتتجاهل حالة الفوضى السائدة. كنا نتناقش هذه المناقشة كل مرة نلتقي تقريبا، ثم تعود هي إلى المسرح حيث الحقّ والخير والجمال، وأعود أنا إلى مكتب الرئاسة حيث ضباط أمن الدولة المحبوسون وقطاع الطرق المقتولون ومحمود بشير المكتئب والقوى السياسية المتناحرة. وأحيانا أقول لنور إن هذا ليس عدلا، فتقول لي إنه لا أحد يجبرني على هذا العمل، ومن ثم ننتقل لمناقشتنا الأولى حول الإنسانية والسلبية.

لم يكن ما يجري بيني وبين نور أمرا جيدا، لكنني لم ألاحظ، أو لعلّي لاحظت وتظاهرت بأن المشكلة غير موجودة، أو صغيرة، وكنت مخطئا في هذا أيضا. كنت مخطئا في كثير من الأمور،

ولا تندهش من هذا يا يحيى، فهناك كثير من الإشاعات حول الحياة والرجال، من بينها أن الرجل لا يخطئ إلا نادرا، والحقيقة هي العكس بالضبط. نحن نخطئ طوال الوقت، طوال الوقت، ولا يمكن إلا أن نخطئ، لأننا نتاج ما تَعرّضنا له، وهو بالضرورة قاصر، ولأننا نقرر في ضوء ما نعرفه، وهو بالضرورة قاصر، ولأننا نتأثر بأهوائنا وضعفنا ومخاوفنا. حاول قدرما تريد، لكنك ستخطئ، طوال الوقت. الرجل الحقيقي ليس من لا يخطئ، بل من لديه من القوة والشجاعة ما يكفي لأن يسائل نفسه، أو يستمع إلى من يسائله. وإن وفقه الله فقد يتمكن من اكتشاف خطئه، أو فهمه. ولو أحبه الله فعلا لتعلّم من هذا الخطأ. لكن كل ذلك يستغرق وقتا. ويكاد يكون من المستحيل أن يحدث لك كل هذا وأنت في خضمّ الحدث الذي تخطئ بشأنه. ووقتها كنت في خضمّ الأحداث التي أخطأت بشأنها. وهكذا سرت في تأييد عزالدين ومعاونته حتى النهاية، أو قبلها بقليل، وسرت في طريق فقدان نور حتى النهاية، أو قبلها بقليل.

أعرب محمود بشير عن عزمه الاستقالة، ورفضت القوى السياسية الأخرى ذلك مخافة تحملها وحدها مسئولية القرارات الصعبة المطلوبة، أو اضطرارها هي الأخرى إلى الانسحاب من التحالف الحكومي مما يعيد البلاد إلى حالة عدم الاستقرار ومسلسل الحكومات الضعيفة قصيرة الأجل وعديمة الفائدة التي تلت الثورة الثانية. وناشده عزالدين البقاء في الائتلاف، ولاحظ الجميع أنه لم يطلب منه البقاء رئيسا للوزراء. لكن محمود صمم على الاستقالة،

وبدأ الوزراء يتساءلون إن كان أحد من معسكره يمكنه الحلول محله، لكن محمود كان الشخص التوافقي الوحيد داخل المعسكر اليساري المنقسم على ذاته، وخروجه يعني فتح باب الصراع بين فِرق هذا المعسكر، وهو صراع لن يُحسَم فورا ومن ثم سيؤدِّي إلى انسحاب التكتل اليساري من الحكومة كلية، وعودة الحكومة إلى حالة الضعف إياها، أو إلى تولي أحد قادة الأجنحة المتصارعة القيادة فتعارضه الأجنحة الأخرى بما يقضي على استقرار الحكومة أيضا. الحل الثالث كان نقل رئاسة الحكومة لتكتُّل آخر: رفضت القوى الإسلامية تولي هذه المهمة، وتوجهت الأنظار إلى التكتل الديمقراطي المدني. لم يكن عزالدين فكري من قادة هذا التيار أصلا، بل جاء محمولا على أكتاف الشباب والأُلتراس والفوضى الأمنية كما أسلفت لك. المهم، دارت المناقشات لفترة، ثم اتفق الوزراء على عقد جلسة موسعة في صباح اليوم التالي، بحضور أعضاء المجلس الرئاسي وممثلي الجيش والمخابرات.

في نفس اليوم أدلى عزالدين بتصريح قال فيه إن الانقسام الحكومي يهدد عملية الإصلاح الأمني، وإنه ما لم تكن هناك حكومة قوية تتمتع بتأييد ومشاركة القوى السياسية الرئيسية الثلاث فإن الاستقرار سينهار وستعود البلاد للفوضى التي تنشرها قوى الثورة المضادة، وعاد إلى بيته. كانت هذه الكلمات كافية، إضافة إلى الترتيبات التي اتفق عليها مع أنصاره، لإشعال الموقف. وحين التأم الاجتماع الموسَّع في صباح اليوم التالي بالمجلس الرئاسي، كانت صيحات الجماهير التي حاصرت المقر تصل إلى أسماعنا

بالداخـل. دارت مناقشـات سـريعة أعـاد فيهـا محمود بشـير تأكيد موقفه، وإن كان قد لوّح بإمكانية اسـتمراره إن مكّنته قوى الائتلاف مـن الحكـم فعليـا، لكن الـكل تجاهـل هـذه الملاحظـة وواصلوا النقـاش من حيث انتهوا في اليوم الماضي. وحيـن جاء الدور على ممثلـي التيار الديمقراطي المدني، بـدأ عزالدين الحديث بأن أعلن استعداده لترؤُّس الحكومة، شريطة بقاء كل القوى في الائتلاف. لم يتوقع أحد أن يتحرك عزالدين بهذه السرعة، وبهذه الجرأة، فصمت بقيـة ممثلي التكتـل الديمقراطـي، وانفضّ الاجتماع للتشـاور. في أثناء ذلك تَسرَّب الخبر، وقاد اتحاد الشباب المطالبة بتولِّي عزالدين فكري رئاسـة الوزراء داخل التكتل الديمقراطي وفي الشـارع. وتم تأجيل الاجتماع إلى اليوم التالي.

فـي تلـك الأثناء أسـرّ إلـيّ العميـد حامـد بتفضيـل المخابرات والجيش تولِّي عزالدين رئاسة الوزراء، على أساس أن يكمل ما بدأه لأن التراجع الآن سيؤدِّي إلى كارثة. ففي رأيهم قام عزالدين بتدمير الداخليـة القديمـة، وأصبـح حفـظ الأمـن والاسـتقرار يعتمد على اسـتمرار الشبكة التي أقامها وتأييد الشباب الذي يجعل هذه الشبكة تعمل، وهو أمر يكرهه كل مَن في الجيش والمخابرات، لكنه واقع، وهـو كل ما تبقى مـن أدوات لحفظ الأمن إلى حين إعـادة بناء هيئة الشـرطة. انسـحاب عزالدين الآن سـيؤدِّي إلى انهيـار الجهد الذي بدأه ويتـرك الجميع معلقا في الهواء، ومن ثم سـيدعمونه. تحدثت مع عزالدين ووجدتـه هادئا كعادته، وقال إنه ليس حريصا على هذا المنصـب، لكنـه طُلب منـه أداء مهمـة، ولأدائها كما يجـب طريقة،

وأدوات، وسيستخدم هذه الأدوات، ما لم يقرر الناس تكليف شخص آخر بهذه المهمة. لم أشعر بأي تغيير في حديثه أو طريقته أو منطقه عما عرفته فيه. لكني كنت أتساءل عما إذا كان كل ذلك يحدث صدفة. عزالدين الذي يخطِّط كل خطوة يخطوها، حتى اختيار تسلسل الأطباق التي يأكل منها ونحن على مائدة الطعام، هل يُعقل أنه ترك كل هذه التطورات للصدفة؟ سألته عن تأييد الجيش والمخابرات له فهز كتفيه وقال إن ذلك شيء متوقَّع لأنهم «ناس عاقلين».

استأنف الاجتماع الموسع في اليوم التالي، وكان واضحا منذ بدايته أن الأمر قد حُسم لصالح تولِّي عزالدين رئاسة الوزراء. وقرر عزالدين الاحتفاظ بوزارة الداخلية إضافة إلى منصبه الجديد، كما صمّم على ضمّ محمود بشير إلى المجلس الرئاسي بدل عضو اليسار الموجود وقتها ـ نسيت اسمه ـ وبقاء بقية الوزراء كلّ في موقعه. وحصل من المجلس على تفويض باتخاذ اللازم لإنشاء محكمة للثورة بقانون خاصّ، على أن يقوم بعرض المشروع على المجلس لإقراره قبل رفعه إلى المجلس الرئاسي لإصدار مرسوم به. وتم إعلان ذلك في مؤتمر صحفي حضره ممثلو الائتلاف، وأصر عزالدين على مشاركة مديري المخابرات العامة والعسكرية في المؤتمر، وحين أعلن محمود بشير القرارات التي تم الاتفاق عليها ضجّت القاعة بالتصفيق المتواصل، لكن هتافات التأييد خارج المقرّ طغَت على صوت التصفيق داخل القاعة.

- ٦ -

سألتُ عزالدين إن كان يريد مني الانتقال للعمل معه بمجلس الوزراء لمساعدته بدلا من عملي في المجلس الرئاسي الفارغ، فابتسم وقال لي إنه يحتاج إليّ أكثر في موقعي هذا. لم أفهم وقتها، وظننت أنه يريد مساندتي لضمان تحرك المجلس حين يتطلب الأمر. لم أفهم إلا بعدها بسنة كاملة. تحرك عزالدين بأسرع مما تَوقّع الجميع، بمن فيهم أنا. تولى عزالدين رئاسة الوزراء في الخامس من يناير، وبعدها بعشرة أيام قدّم لمجلس الوزراء مشروع قانون محكمة الثورة الذي تَضمَّن محاسبة كل من شارك في، أو حرَّض على، أو سهّل، ثلاث جرائم أساسية: الفساد المالي، وإهدار الحقوق الأساسية للمواطنين، وتزوير إرادتهم. وشملت هذه القوانين تعريفا لهذه الجرائم الثلاث بما يحترم القواعد الدستورية المتعارَف عليها وحدّدت العقوبات المتعلقة بها، ابتداء من العزل السياسي حتى الإعدام. وانتشر مشروع القانون بين الناس كالنار في الهشيم، ومثل كل شيء فعله عزالدين في هذه الفترة، بدا أنه أعد له تأييدا على الأرض ووسط الناس قبل طرحه، وأنه يلمس وترا فيهم يدفعهم فورا إلى الاصطفاف خلفه، ولم يستطع مجلس الوزراء ولا القوى السياسية تعطيل القانون أو تحديه، وقمت بإعداده في شكل مرسوم رئاسي، وصدر بعدها بأسبوع.

بدا كأن القدر نفسه يساند عزالدين ضد النظام القديم، فقد تَولّى وزارة الداخلية قبل شهور معدودة من الذكرى الخامسة على

انـدلاع الثورة، وحين شـارفنا على هـذه الذكـرى كان يعتلي موجة ثورية عارمة لا يعرف أحد كيف انتظمت بهذا الشـكل. وهكذا، في الخامس والعشـرين من يناير ٢٠١٦، وقف رئيـس الوزراء الجديد علـى منصـة ضخمة فـي ميـدان التحريـر، وأعلن عن قيـام محكمة الثـورة، واعدًا الجماهير بمحاكمات عادلـة وناجزة، وإصلاح أمني يعيـد الطمأنينة إلـى المواطن العادي، والدعوة إلـى انتخابات عامة جديـدة لجمعية تأسيسـية تضع دسـتورا دائمـا، كل ذلك خلال عام واحد، بحيث نحتفل في يناير التالي بالدعوة إلى انتخابات تشـريعية ورئاسـية تنهي الحالـة المؤقتة للمؤسسـات القائمـة وضعفها. كما أعلـن عن تشـكيل لجنة ثلاثية مـن أرباب العمل وممثلـي النقابات والحكومة لإعـادة النظر في هيكل الأجور وقوانين العمل السـارية بمـا فيها قواعد تنظيـم الإضرابات، ولجنة أخـرى تضمّ ممثلين عن القوى السياسية والنقابات والاتحادات والأجهزة الأمنية والحكومة تتفـق علـى قواعـد للتظاهـر والاحتجـاج السياسـي، وعلـى بـدء مجموعة من الإصلاحات في مجالات التعليم والصحة والإسكان والمواصـلات، لكنـه أوضح في نفس الوقـت أن هذه الإصلاحات ستسـتغرق وقتا حتى تأتي بنتائج ملموسـة، واختتـم كلمته بالدعوة لتنظيم الانتخابات المحلية في أول إبريل.

كتـب المحللون كثيـرا عن هذا الرجل وفتـرة حكمه، وعن الدم الذي سـال والرعب الذي نشـره نظامـه، لكن كل ذلـك يُغفِل جانبا هامًّـا، هـو التأييد السـحري الـذي ناله فـي كل مافعـل. صحيح أن عزالدين اسـتند إلى تنظيم سياسي وأمني يكاد يكون حديديا، لكني

لا أظن أنه كان بوسعه فعل أي مما فعله دون التأييد العارم الذي أسبغه عليه الناس. أذكر جيدا أني وقفت في مكتبي بمقر الرئاسة أرقبه وهو يتحدث إلى الجماهير على المنصة: أرى المشهد من بعيد من النافذة الخلفية للمكتب وأرى تعبيرات وجهه مكبَّرة على شاشة التلفزيون المجاورة لمقعدي، وأفكر؛ متى تَحوَّل أستاذ العلوم السياسية هذا إلى خطيب مفوَّه يُلهِب حماسة الجماهير. والحقيقة أنه لم يتحول إلى خطيب حماسي، بل كان يتحدث بنفس المنطق البارد المنظم الذي أعرفه فيه، لكن حجته كانت قاضية، وناصعة الوضوح، وكان الناس قد اشتاقوا إلى الوضوح وإلى المنطق دون لفّ ودوران، ودون كذب، ودون مصلحة شخصية. ولبَّى عزالدين كل ذلك، وأكثر. كان كأنه يأخذ الفكرة من رأسك ويبلورها ويعيدها إليك فلا تملك حين تسمعها إلا أن تهزّ رأسك موافقا وتقول: «نعم، هذا بالضبط ما أريده». أعتقد أن سحره الطاغي أتى من هنا. وأعتقد أيضا أن إغفاله للفارق الكبير بين ما يريده الناس وما يمكنهم احتماله هو الذي قضى عليه، بعد أن قضى على ضحاياه.

أدَّى حسم حرب الطماطم لصالحه، ثم وعود يناير، وتشكيل المحكمة والاصطفاف الشعبي خلف برنامج واضح وخريطة طريق لها معالم ومصداقية، إلى تدعيم الأجواء الإيجابية التي بدأت مع توليه لوزارة الداخلية. وبدأت السياحة في العودة بشكل ملحوظ، وتوافد المسئولون الأجانب الذين عادوا للاهتمام بمصر ودَورها وفرص الاستثمار فيها، ماليا وسياسيا. بل وبدأ عديد من المصريين الذين سافروا خلال الأعوام الخمسة الماضية في العودة، حتى

صفية أختي أبلغتني أن إبراهيم زوجها يتناقش مع شركائه الإيطاليين حول مشروعات ووكالات للسياحة يكون مركزها مصر. كانت المنطقة العربية كلها في حالة بين التوتر والاشتعال، ومن ثم جاءت بدايات الاستقرار في مصر لتمتصّ كل المشروعات التي تحتاج إلى استقرار. وتوالت العروض على حكومة عزالدين فكري بإنشاء مراكز إقليمية في مصر، من الخدمات المصرفية وموانئ تسييل الغاز حتى محطات الإمداد والتموين للسفن العسكرية. كأن رئةً فُتحت في جسد كله مسدود، فتَوجَّه لها الأكسيجين الفائض، وبدأت هذه الرئة تمتص كل ما تستطيعه من أكسيجين، وكلما امتصت بعضا منه تحسنت حالتها أكثر وزادت قدرتها أكثر.

قضيت الأشهر الثلاثة الفاصلة بين خطبة يناير والانتخابات المحلية في شئوني الخاصة، فلم يكن هناك كثير عمل في الرئاسة، وعرضت أكثر من مرة المساعدة على عزالدين لكنني فهمت أنه لا يحتاج إلى مساعدتي. محمود بشير استسلم لاكتئابه خلال هذه الأشهر، وبدا أكبر بكثير من سنه: جالسا على قمة تكتل سياسي يتفكك تحت وطأة صراعاته الداخلية وانقساماته، وهو فاقد الحيوية والرغبة اللازمتين لإبقائه موحَّدا. ما أدهشني حقّا هو استئنافه علاقته بسالي القصبجي. كدت ألكمه عندما عرفت: متى يتوقف؟! متى يتوقف الإنسان عن ارتكاب نفس الخطأ؟! متى يرجع عن الطريق الذي يؤذيه؟! قال لي عزالدين أن أتركه في حاله، وظننت وقتها أنه لا يريد إزعاجه بسبب حالة الاكتئاب العميق التي دخلها محمود، ولم أفهم ما وراء الأمور إلا بعد فوات الأوان.

لم تعد صفية خلال هذه الأشهر الثلاثة مثلما قالت، لكن خديجة التي جاءت في منتصف أغسطس حلّت محلها في حياتي، هي وأبناؤها لارا وتمارا وزياد. والحقيقة أني كنت في كل مرة أراهم أفتقدكَ، وأشعر بالظلم والفشل معا. الظلم لأنك لا تعيش معي، أنا أبيك، والفشل لأني أغدق هذه الأبوة على أبناء أخي دونك. كأني أصلِّي السُّنَن وأترك الفروض. كتبت لأمك مرتين؛ لم أجد في نفسي القدرة على الحديث معها، ولم تردّ. هذه هي الفترة التي كنا نتحدث فيها مرة كل شهر، أنا وأنت، إن كنت تذكر هذه المحادثات الثقيلة التي يضيع نصفها في الصمت والسؤال عن الأحوال دون جواب. كنت أحاول حملك على الكلام ومشاركتي أخبارك، وحين أفشل ألجأ إلى الصمت أنا أيضا علك تأخذ المبادرة وتتحدث، وفشلت في الحالتين. كانت محادثات مؤلمة. ولطالما سألت نفسي عما كنتَ تشعر به آنذاك، لكن لعلك نسيت كل هذا؛ سقطت في بئر التهاويم التي نحسبها ذكريات.

لارا وتمارا وزياد لم يكونوا يتحدثون العربية إلا لماما، لكنهم تَحسَّنوا بسرعة. عبده تولّاهم بالرعاية في البداية، وأخذهم في جولات عديدة لتعريفهم بالقاهرة وأحيائها وكيفية التصرف في المواقف المختلفة دون أن يبدوا سياحا أجانب. وانضممت إلى جولات عبده هذه أيام الجمعة التي كانت نور مشغولة فيها. فكرت في تعريف خديجة إلى نور لكني تراجعت؛ كانت علاقتي بنور متوترة وتبدو مرشحة للانقطاع، فقررت أن أنتظر قليلًا حتى تتضح الأمور. اهتمام عبده بخديجة وأبنائها تخطى نداء الواجب،

لكن سلوكه ظل مثاليا فلم أعلّق بشيء. الأهم من عبده كان زملاء لارا وتمارا وزياد في المدرسة، الذين أدخلوهم في شبكة علاقات الأولاد والبنات في مصر الجديدة بسرعة البرق. لا شيء يقف أمام الأطفال والمراهقين. وتبددت مخاوف خديجة من ألا يندمج أبناؤها بسرعة في المجتمع المصري، فصاروا نجوما في المدرسة والحي بسبب إتقانهم الإيطالية وبقية المعارف التي أتوا بها من هناك. وبدأت خديجة تبحث عن عمل، وساعدها عبده في البحث حتى وجدت في فبراير عملا في المركز الثقافي الإيطالي.

في أثناء هذه الأشهر الثلاثة تقلصت علاقتي بعزالدين فكري الذي ابتلعته مهامُّه بالكامل. وبحلول نهاية مارس كان قد بدأ بسط سلطته داخل وزارة الداخلية الجديدة، حيث فهم الجميع أن لا رجعة عن التغيير، ومن ثم سعى من بقي لمواءمة أوضاعه مع الطريقة الجديدة، وحاول من تم استبعاده ولم يكن قد اقترف جرما جسيما العودة واللحاق بالقطار قبل أن يرحل. وفتح عزالدين ومساعدوه ومستشاروه الباب لكل هؤلاء. عيّن عزالدين العميد لطفي مستشارا له، رغم كونه ممثل الداخلية السابق لدى الرئاسة، وهو اختيار ذكي؛ فلطفي يريد أن يعيش، وما دامت الأمور تسير في اتجاه واضح ودون تردد أو انتكاسات فسيسير في نفس الاتجاه. وكانت معرفته العميقة والوطيدة بناس الداخلية، حتى هؤلاء القابعين رهن الاعتقال، كنزا أحسن عزالدين استخدامه. حيث تحول لطفي - إضافة إلى وظائفه الأصلية - إلى وسيط موثوق به مع هذه القيادات حينَ جاء حينُ التفاوض على تسويات وصفقات.

كما بدأ التعاون بين الجهات الشرطية الثلاث: الشرطة المحلية، وفرق الانتشار، وما أصبح يُعرَف بالشرطة الجنائية في الانتظام. تعارف الناس، وبدءوا يبنون أسلوبا للعمل معا. استقرار الوضع الأمني، وبدء عودة الشرطة الجنائية، دعَم الأجواء الإيجابية الناشئة أكثر وبدا أن قوى النظام القديم في طريقها إلى السقوط النهائي، لكن ظلت للقلق مصادر: محاكمة الثمانية عشر ألفا، والتعامل مع أصدقائهم وأعوانهم داخل مؤسسات الحكومة والهيئات العامة، وكيفية استرداد الأموال الضخمة التي نُهِبَت وتحويلها إلى الخارج خلال السنوات الأربع الأولى من الثورة.

- ٧ -

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حكم عزالدين، فشلت جهوده للتوصل إلى صفقة معقولة مع أقطاب النظام السابق ممن يسيطرون على الأموال التي تم تهريبها أو يعرفون كيفية تقصِّي مساراتها واستردادها. وفي أثناء حملة الانتخابات المحلية ذكَّره المرشحون من «اشد» (اتحاد الشباب الديمقراطي) بوعده بإنجاز المحاكمات خلال هذا العام. وفي حديث بيننا قال لي إن عليه ضغوطا لعمل «شيء ما» قبل الانتخابات المحلية كي يشد أزر هؤلاء الشباب أمام الناخبين، وإلا ضعف موقفهم أمام مرشحي الإخوان والسلفيين؛ خصمهم الرئيسي في المحليات. وبالفعل، في منتصف مارس

صدرت الموجة الأولى من أحكام محكمة الثورة بمصادرة أموال خمسمئة وعشرين من رموز النظام السابق في قضايا تتعلق بالفساد.

فاجأت قسوة الأحكام الجميع، واقترح عزالدين إصدار قانون مكمّل لمحكمة الثورة يسمح لمن يتعاون مع المحكمة وجهات التحقيق ويبادر بالاعتراف بجرائمه بأن يتلقى عقوبة مخفّفة. ولاقى اقتراحه هذا تأييدا من عدد من القوى السياسية والدوائر المرتبطة بمؤسسات الدولة، إلا أن الرأي العام وبالذات «اشد» عارضه. كما أن رجال الأعمال المحكوم عليهم بدوا واثقين بأنفسهم ولم يتجاوبوا مع محاولاته بالتصالح.

كان عزالدين يؤيد فكرة الاعتراف مقابل الحصول على أحكام مخففة في كل الجرائم المتعلقة بالثورة لا جرائم الفساد فقط، أسوة بلجان المصالحة الوطنية التي نجحت في بلدان أخرى، ما دام الشخص المُدان مُدانا وحُرم من مباشرة الحقوق السياسية. لكن القواعد الثورية كلها، سواء تلك التي كانت تؤيده أصلا أم التي كانت تؤيد آخرين من اليسار والقوى الإسلامية، رفضت هذا الموقف، وتبلورت كتلة ثورية متماسكة تضمّ تيارات متعددة تسعى للقصاص الكامل، وهذه الكتلة في رأيي مسئولة عن اتخاذ عزالدين مواقف أكثر تطرفا من تلك التي كان يود اتخاذها. لعلّي ألتمس العذر لصديقي القديم. على أي حال، صدرت الموجة الثانية من أحكام محكمة الثورة في قضايا قتل المتظاهرين والتعذيب. وجاءت هذه أشد قسوة بكثير من الأحكام السابقة،

وفي ٢٩ مـارس ٢٠١٦ حكمت المحكمة بإعدام ثلاثمئة وخمسـة من أقطاب النظام السـابق بتهم القتل العمـد للمتظاهرين والتعذيب الوحشي لعدد من المواطنين.

كان عزالديـن فكري قد اختار قضاة عتـاة وغلاظ القلوب، لكنه فوجـئ بالمدى الذي ذهبـوا إليه. ران صمت عميـق على البلاد في انتظـار مـا سـيحدث. كان يـوم ثلاثـاء، والانتخابـات المحلية يوم الخميـس. اسـتدعاني عزالديـن ووجدته في حالة مـن الاضطراب لـم أرَه عليهـا مـن قبل. سـألني عمـا أنصحه بـه، فهـو إن وقّع على الأحكام سـيوقّع عليها المجلس الرئاسـي وتصبح نافذة، وسيسـدد بذلـك ضربة قاصمة إلى قوى الثـورة المضادة وينعش أنصار الثورة ويُحـدِث قطيعـة واضحة مع الماضي. لكنهـا أرواح ناس. في نفس الوقـت إذا رفض التوقيع لـن تنفَّذ الأحكام، وسيسـدد بذلك ضربة قاصمة إلى نفسـه، وإلى محكمة الثورة، وإلـى عملية التطهير كلها، غير الانتخابات والروح المعنوية للشـباب التي سـتضيع، وسـتعود البلاد كلها إلى حالة الفوضى التي ظلت أسـيرة لها لأربع سـنوات. لـم يكن لـديّ ما أقوله لـه. فهذا بالضبـط هو نوع الأسـئلة الذي لم يكـن لديّ إجابـة عنه، فلكل جانب حجته: سـيقول السياسـيون إن هـذا شـر صغير يدرءون به شـرا أكبر هو الفوضـى، وإن عدد القتلى والمصابيـن والضحايا الذين وقعوا نتيجـة الفوضى يتخطى الثمانية عشـر ألفا كلهم. سيقول السياسـيون إن هذا ضروري لإقرار الأمن، والانتقال إلى نظام جديد، وكل هذه الأشياء التي يقولها السياسيون والعسـكريون لتبريـر العنف والقتـل. وما الحرب ذاتهـا إن لم تكن

شرا صغيرا تدرأ به شرا أكبر؟ لكن بقية البشر تعاف أنفسهم القتل، سواء كان بحكم محكمة أم في الحرب أم بدم بارد في غرفة مغلقة. وقفت صامتا، ثم سألته إن لم يكن هذا بالضبط هو ما حال بين الحكومات السابقة وإنشاء محكمة للثورة، أومأ برأسه إيجابا. وصمتنا نحن الاثنين. وفي مساء ذلك اليوم صدّق عزالدين على أحكام المحكمة.

قضت أول موجة من أحكام الإعدام على علاقتي بنور.

فلم تصدّق نور تفهُّمي لأحكام الإعدام التي صدرت، رغم عدم تفضيلي لها. وظلت تسخر من استخدامي كلمة «تفضيلي» لأيام، وربما حتى الآن. قالت إن السلبية في هذه الحالة تبلغ مقام المشاركة، فقلت إن هذا كلام غير المضطر إلى اتخاذ قرار. قالت ولا أنا مضطر إلى اتخاذ قرار، ولا عزالدين مضطر، ولا القضاة الأشاوس الذين يحلون أنفسهم محلّ عزرائيل ـ قبض الله أرواحهم، لا أحد مضطر. كلنا نختار؛ نختار هذا الدور، هذه المشاركة، هذا القرار. قلت إن كلامها نظريا سليم، وواقعيا محض هراء، لأنها إذ تختار أن لا تختار تترك الأمر لغيرها، تفوّضه، وبذلك تترك حل المشكلة لغيرها كي تستطيع لومه براحتها. سألتها ماذا ستفعل إن وجدت نفسها أمام رجل يصوّب مسدسه إلى رأس ضحية أعزل وعلى وشك الضغط على الزناد، إذا كانت تحمل سلاحا هي الأخرى، هل تقف على الحياد وتترك المهاجم يقتل الضحية ويذهب إلى حال سبيله، أم تطلق النار عليه لتمنعه. هذا هو دور السلطات العامة، هذا هو السبب

في تزويد رجال الشرطة والجيش بالسلاح وتخويل حق القتل إليهم فـي إطار من القانون. قالـت إنها لا تحتاج إلى سـماع درس العلوم السياسية هذا، وإن المشكلة ليست في النظرية بل دائما في التطبيق. مَن الذي يحمل السلاح الآن؟ من الذي سيعلق المشانق؟ وهل هذا هـو الحـل الوحيد؟ أم أن للمسـألة علاقـة بالانتخابـات والائتلاف الحكومي والتأييد الشـعبي وكل هذه الأمور؟ قلت طبعا لها علاقة، لكـن هكـذا السياسـة معقـدة، فلـو لـم تمـضِ هـذه الأحـكام قدما لسـقطت الحكومة، ولعدنا إلى فوضى جديدة بأضرار أكبر وأشـد. سألتني متهكمة إن كنا سنُزهق ثلاثمئة وخمسة من أرواح البشر كيلا تسـقط الحكومة. صمتُّ غاضبا، فأردفت أنهـا تعرف أن الأمر أكثر تعقيدا، لكن بسبب هذه التعقيدات تعتقد أن عليّ الابتعاد عن مقاعد الحكم والجالسين عليها، لأنهم دائما سيتخذون قرارات كهذه، في ظروف كهذه، ولا شـيء يدعوني إلى المشـاركة في هذا، خصوصا أني لا أملك تغيير ما يفعلون. كنا نكرر ما قلناه من قبل، ونقول أشياء جديدة ثم نكررها، وشـعرنا نحن الاثنين بالتعب. وصمتنا تدريجيا، ثـم صمتنا تماما. ثم قلت إني لا أسـتطيع التخلي عن عملي في هذا الوقت الصعب، وإن مصير البلد على المحكّ ولن أسامح نفسي إن انسـحبت. صمتـت ثم قالت إنها لن تسـتطيع أن تنظـر إليّ ولا ترى الدم على يدَيّ. قلت أشـياء وقالت أشـياء أخرى، ثـم افترقنا ونحن نعلم أننا لن نلتقي بعدها.

لم تكن نـور الوحيدة التي عارضت أحكام الإعدام، بل سـبقتها أسـماء زوجـة عزالدين. فاجأتنـي بزيارتي فـي المكتب فــي اليوم

التالـي لتصديق عزالدين علـى الأحكام، وأبدت قلقها الشـديد من نتائـج هـذا الأمر، لا على الواقع السياسـي أو أي من هـذا، بل على عزالدين نفسـه. قالـت إن معظم الناس يظنون أن عزالدين شـخص بارد وبلا قلب، ولا يعرفون إلى أي مدى هو حساس ورقيق. أفلتت مني ضحكة فهزّت رأسـها لائمـة، وقالت إنه حسـاس وأنا بالذات أعـرف هـذا، لأنـي الوحيد الـذي عرفته وهـو صبي في المدرسـة، وأعرف أنه يخفي حساسـيته هذه خلف جدار من البرود والقسـوة، ويلجأ إلى فرض مسـافة بينه وبين الناس كي تسـتطيع نفسه التعامل مع هول مشـكلاتهم. ابتسـمت وقلت إن كان قد تبقى لديه مشـاعر فعلا من أيام المدرسـة فهـو يخفيها في جب عميـق، ولا أتذكر أني رأيـت لها أثرا خلال العشـرين عاما الماضيـة. لكنها رأت، وموقنة، والآن يتعلـق الأمـر بقتل ناس، بحكـم يحمل توقيعه هو. سـألتني: أليـس مـن المفتـرض أن يكـون المجلـس الرئاسـي هـو صاحـب التصديـق. قلـت بلى، لكن المجلـس لا يملك أن يصـدق أو يمتنع إلا وفقـا لتصديق رئيس الـوزراء؛ هذه هي القاعدة الدسـتورية التي نسير عليها منذ الثورة الثانية. نظرت إليّ ووجهها يقطر قلقا، وقالت إن عزالديـن لـم يقتل فـي حياته شـيئا أكبر من فأر، ولـم يفعل ذلك إلا مرتين ظلّ بعد كل منها ممتعضا لأسبوع، فماذا سيحدث له حين تنفَّذ هذه الأحكام! لم يكن لديّ إجابة.

محمـود بشير كان لديـه إجابة، هـي أن عزالدين رجـل نظري، ويتعامـل مع البشـر باعتبارهـم أرقاما وموضوعـات نظرية، ومن ثَم فموضوع الإعدامات لا يمثل مشـكلة له؛ الفكـرة هي التي تزعجه.

وسيعتادها بعد قليل، وهذا بالضبط النوع الذي تحتاج إليه البلاد في هذا الوقت؛ النوع الذي يتكدر حين يصدّق على أحكام الإعدام، لكنه لا يدع كدره يوقفه. سألت عبده عن رأيه ونحن في طريقنا إلى البيت فقال إنه لا يفهم كل هذه الضجة حول أحكام الإعدام، متسائلا كم آدميا غرق في عبارة السلام، وكم احترقوا في القطار أو في مسرح بني سويف، وكم أصيبوا بفيروس سي وبالفشل الكلوي وبالتخلف العقلي... ثم أضاف أن الأمر لو كان بيده لقتل الثمانية عشر ألفا وخلّص نفسه والبلد منهم. سألته عن رأيه في كلام محمود فقلّل من أهميته، مفسرا إياه بغيرته من عزالدين الذي يحقّق ما عجز عنه محمود طول حياته. لم يكن عبده هو الوحيد الذي نظر إلى أحكام الإعدام بهذه الخفة، بل هلّل كثيرون لها باعتبارها أول علامات النصر النهائي للثورة على النظام القديم.

وعندما بدأت جثث أقطاب النظام السابق تتراص في القبور، قل التهليل، وأعرب البعض عن أسفه لإعدامهم، وصدرت إدانات من منظمات حقوق الإنسان ونداءات بتخفيف العقوبة من بعض الدول. لكن مع مضي الأسابيع وتواتر أحكام الإعدام وتناقص عدد أقطاب النظام الباقين في السجن تقلصت ردود الفعل السلبية هذه، وشعر كثير من الناس بالارتياح للتخلص من أشباح النظام القديم وإن لم يعلنوا ذلك صراحة. ومع تنفيذ أحكام الإعدام تَقدّم رجال الأعمال المحبوسون بطلبات للمصالحة، انتهت باستعادة مئات الملايين من الأموال المهربة مقابل إطلاق سراحهم وغض الطرف عن مغادرتهم البلاد دون صدور عفو رسمي، بحيث يمكن

تعقُّبهم إذا ظهرت لهم أموال أخرى أو باشروا نشاطا مضادا للثورة، كما فعل ذلك بعض ضباط أمن الدولة. وبحلول نهاية العام كانت المحاكمات قد انتهت كما وعد عزالدين فكري مؤيديه، وصدر الحكم بالإعدام على سبعة آلاف وخمسمئة وأربعة وثلاثين، نُفذ فيهم جميعًا خلال نفس العام، في حين صدرت أحكام بالسجن على أكثر من عشرة آلاف تراوحت بين المؤبَّد وأربع سنوات مع التجريد من الحقوق السياسية، واحتُسبت فترة الاعتقال جزءا من العقوبة. وصدرت أحكام بالبراءة في تسع حالات. وهكذا، بنهاية العام كانت محكمة الثورة قد أنهت قضية المعتقَلين، وبدأت تلتفت لتعقُّب ومحاسبة كل من تسوِّل له نفسه القيام بنشاط مُعادٍ للثورة.

- ٨ -

وهكذا، حين جاء يناير ٢٠١٧ كان أقطاب النظام القديم قد قضي عليهم.

وهكذا، حين جاء يناير ٢٠١٧ كنت قد صرت وحيدا، وفقدت المرأة الوحيدة التي أحببتها فعلا منذ داومينج.

راحت نور. لم تعُد تنظر إليّ. راحت العينان العميقتان اللتان تُشِعَّان حنانا وفهما. راحت النظرة التي كانت تلفّني فتغمرني بالدفء وتشبع فراغا في رُوحي. راحت المرأة التي كانت تفوح أنوثة حيث حلّت وتترك ملمسها على مسامّي حتى تلقاني مجددا.

راحت اليدان اللتان توصلان براحتيهما ما في نفس صاحبتهما حين تلمسان يدي وسط جمهورها بالمسرح. راحت، لأني ضيّعتها. صحيح أنها هي التي تركتني، لكن الحقيقة أني أنا الذي ضيّعتها، مثلما ضيّعت داومينج خمسة وعشرين عاما قبلها، لأني لم أقوَ على مواجهة نفسي.

أسوأ شيء أن تكون جبانا وتتظاهر بالرجولة؛ إن علمت في نفسك الجبن، فعل الأقل لا تتظاهر بغير ذلك فتجرح من حولك بلا داعٍ.

الشيء الوحيد الجيّد في قصتي مع نور أنها رفضت لعب دور المرأة البلهاء؛ رأت سلبيتي وفهمتها سريعًا، فلم تنتظر حتى أحطّمها مثلما حطمت مَن قبلها. والشيء الوحيد الذي لم أفهمه حتى هذه اللحظة هو كيف استطاعت تلك المرأة أن تحبني رغم ما رأت فيّ!

تركت نور ترحل وعدت إلى الحياة المملة الضيقة التي اعتدت حبس نفسي فيها، من مقر الرئاسة ومناوراتها، إلى الأوقات القصيرة التي أقضيها مع خديجة وأبنائها، أو محادثاتي الطويلة مع صفية ومحادثاتنا الطويلة أنت وأنا التي نضيّع معظمها في الصمت. تسلمت خديجة عملها بالمركز الثقافي الإيطالي، وهو عمل يُدِرّ عليها دخلا محدودا لكنه مفيد لها إذ يخرجها من البيت ويفتح لها قنوات لتتعرف إلى الناس وتندمج في الحياة بمصر. تكفلتُ ببقية مصاريفها هي ولارا وتمارا وزياد الذين انطلقوا في القاهرة. وتكفل عبده بمساعدتهم كلما احتاجوا إلى شيء. لم أقوَ على

الذهاب لرؤية ميرفت أو حسـن، لكن عبـده واظب على الاطمئنان عليهما. وهكذا، تقلصت حياتي الشخصية والاجتماعية إلى أقصى حد، وألقيت بنفسـي في العمل كي أشـغلها عـن التفكير فيما يقضّ مضجعها. وكانت هذه هي الفترة التي اقتربت فيها من عزالدين أكثر مـن أي وقـت مضى، حتى أشـركني في خططـه وتفاصيلها، قبل أن نتباعد ويحدث ما حدث بعد ذلك.

أحيانـا أفكّـر أنـي تركـت نـور ترحـل لأنـي أردت ذلـك، لأني أردت تجربة الانغماس في السياسـة حتى أقصى حد. كان مشـروع عزالديـن ملهما، ورأيت فيه إمكانية تكاد تُلمَس باليد لتحقيق أحلام طالمـا راودتني وإن لم أفصـح عنها. هذه هي الفرصة، إن كان هناك فرصـة، لتحقيق العدل بيـن الناس ولنهضة المجتمـع والدولة. ماذا تريد أفضل من هذا، إن كنت قد حلمت يوما مثل كل الشـباب بعالم سـعيد، لا يُطحـن فيه الفقير أو الضعيف، بل يجد له نصيرا يسـاعده كي يقف على قدميه ويأخذ حقه؟ ماذا تريد أفضل من حاكم قلبه مع الضعفـاء لكنه ليس ضعيفا، حاكم يسـخّر المكر والقسـوة وأدوات القـوة لخدمـة الحريـة والكرامـة الإنسـانية والعدالـة الاجتماعية؟ وفـوق كل هـذا، حاكم لا يفعل ذلك لمجد شـخصي أو سـلطة، بل يبنـي قوتـه على مشـاركة أجيـال متعددة من الشـباب تتأهـل لتولّي القيـادة؟ بـدا الأمر كأنه تحقيـق لأحلام الصبا والشـباب، وكان من المسـتحيل على شـخص مثلي قضـى عمره كله في كواليس سـلطة غاشمة أو غبية أو الاثنتين معا أن ينسحب في نفس اللحظة التي بدأ فيهـا هذا الحلم يتحقق. ولـم أرَ فـي قتلَى حرب الطماطم غير أعداء

هذا الحلم الذين يحاولون إجهاضه. وحين بدأ تنفيذ أحكام الإعدام في أقطاب النظام السابق شعرت بالأسى لمصيرهم، لكنه أسى على ما لا يمكن تجنُّبه. بل إني شعرت بظلم لعزالدين ولأنصار الثورة، كأن أقطاب النظام القديم لم يكفِهم تدمير الدولة والمجتمع عبر ستة عقود من التخلف، بل يسعون لتلويث أيدينا بدمائهم حين يذهبون، لأنهم يأبَون التنحّي في هدوء. هم الذين قاتلوا الثورة، ولم ينقضَّ عليهم أنصار الثورة إلا بعد خمس سنوات كاملة من التردد ومحاولة البحث عن طرق أخرى. هم الذين كتبوا علينا هذا المصير، نحن السلميون، وهم الدمويون، حتى إن كانت رؤوسهم هي التي تتدلى على المشانق.

هكذا قلت لنفسي، وهكذا قلنا جميعا لأنفسنا. وبعدها ارتاح ضميرنا، ولم يعُد عدد الرءوس يقلقنا كثيرا. وكلما زاد الضحايا زاد تمسُّكنا بإنجاز مشروعنا وبعدالة موقفنا، وأصبح التراجع مستحيلا أكثر. وهكذا، خطوة خطوة، دخلنا بأقدامنا في نهر الدم ثم سبحنا فيه.

أسفرت الانتخابات المحلية عن فوز الديمقراطيين بنحو أربعين في المئة من المقاعد، وحاز الإخوان والسلفيون معا على خمسين في المئة، وتوزعت العشرة في المئة المتبقية على مستقلين محليين. لم تفُز أحزاب اليسار بمقعد واحد في أي مجلس محلي، ولم يفاجئ هذا الأمر أحدا من العالِمين ببواطن الأمور، فلم يكن للأحزاب اليسارية ـ على كثرتها ـ وجود على الأرض أو كوادر

تعمـل على مواجهة مشـكلات الناس في القـرى والأحياء، ومن ثم حيـن جاءت الانتخابات صوّت الناس لمـن يعرفونهم. لكن «صفر المحليـات» هذا شـكّل فضيحة لمحمود بشـير والقوي التي تدعمه وظـل يلاحقهـم وسـهّل عمليـة القضاء عليهـم حين حانـت لحظة المواجهة الأخيرة.

كتـب كثيـرون عن نظـام الرعـب الذي قـاده عزالدين، مسـتعينا بالحـرس الحديـدي وبمحكمـة الثورة سـيئة السـمعة، والدم الذي سـال من آلاف الضحايـا الذين دفعـوا حياتهم ثمنا لهـذه المرحلة. ولن أكرر عليك تفاصيل هذه المرحلة، لكني سأشـرح لك ما أعتقد أن المحلليـن قـد أغفلـوه، وهـو الأسـباب والظـروف التـي قادت عزالديـن فكري إلى فعل كل ذلك. ليس هـذا دفاعا عنه، ولكن كي تفهم القيود التي تأتي مع العمل بالسياسة ومع البشر، وتختار، حين تختـار حياتك، طريقك علـى بيّنة. أقص عليك قصـة العذاب هذه، لا لكـي أسـدّ الأبـواب في وجهـك، بل علـى العكس، لكـي أريك طريق الخروج. فلا تستسـلم لليأس، أو تضيع في التفاصيل الدامية، بـل خذ خطوة إلى الخلـف، وانظر إلى ما خلـف التفاصيل، واصبر قليلا حتى أنهي رسالتي.

بعـد ظهـور نتائـج الانتخابـات المحليـة، وبالتزامـن مـع تنفيذ أحـكام الإعدام، بـدأ الإعداد لانتخـاب الجمعية التأسيسـية. نجح عزالديـن الـذي تحالـف مع الإخوان فـي فرض نظـام انتخابي يتبع الخريطة السكانية، فانتخبت كل محافظة عددا من النساء والرجال،

المسلمين والأقباط، من مختلف المهن، بنسب مقاربة لتمثيل هؤلاء بالمحافظة. ولم يختلف الانتماء السياسي للفائزين كثيرا عن نتائج الانتخابات المحلية. ومن ثم قام اليساريون ـ بدعم غير معلن من محمود بشير ـ بالتظاهر والاحتجاج مطالبين بتمثيل أفضل لهم. إلا أن الجميع تجاهلهم حتى خفتت حدة احتجاجاتهم واقتصرت على وسائل الإعلام. المشكلة الحقيقية بدأت داخل اللجنة التأسيسية نفسها مع طرح القضايا الدستورية حيث تَبَنَّى السلفيون مواقف تتنافى تماما ومبادئ الدولة الحديثة. واحتدم الخلاف بينهم وبين بقية الكتل السياسية، وبدا أن مصير هذه اللجنة لن يختلف عن سابقاتها.

جلست ذات مساء في نهاية صيف ٢٠١٦ مع عزالدين نتداول في الأمر. ووجدته مترددا، قال إن ثمن تحقيق أهداف الثورة يتزايد، وقد قبِل ضميره تحمُّل هذا الثمن في حياته وبعد مماته. لكنه أصبح يخشى من ضياع كل ذلك هباء بسبب قِصَر نظر ومصالح السلفيين واليساريين والعسكريين وموظفي الدولة. ضحكت وقلت له إن هذه أغلبية، فنظر إليّ مطولا وردّ بجدية تامة بأن هذه هي المشكلة، وأنه يستحيل عليه مواجهة الأربعة معا. لم يرَ فرقا بين السلفيين و«الطالبان»؛ كلاهما ضحية لتعليم فاسد ومضلَّل وغائب، لكن السلفية لا تتطور بالحوار ولا بالتعليم، لأنها تضخمت وتحولت إلى سلطة فكرية مغلقة لا تراجع نفسها ولا تستمع إلى نقد من خارجها. ومن ثم فإنه إن آجلا أو عاجلا سيقاتل السلفيون الباقين إن لم يستجيبوا لرؤيتهم الرجعية للمجتمع. أما اليساريون فكان

يقول عنهم إنهم «سلفيُّو الحداثة»؛ لا يختلفون عن السلفيين إلا في استبدالهم الاشتراكية بالدين. وبالنسبة إلى العسكريين، لم يكن لدى عزالدين أي رغبة في السيطرة على شئون الجيش كما زعم اللواء القطان فيما بعد. كل ما كان يسعى إليه هو تقليص سيطرة العسكريين على الأمور المدنية، من الإعلام إلى القضاء إلى الحياة الاقتصادية. وهي نفس المشكلة التي كان يواجهها مع بيروقراطية الدولة المتحصنة خلف ترسانة من اللوائح والإجراءات غير المفهومة لأحد سواها، والتي استغلها كبار العاملين بالدولة لوقف برامج الإصلاح وإعادة الهيكلة التي بدأ رئيس الوزراء يطرحها.

في هذه الليلة وجدت عزالدين أكثر صلابة وحدّة من أي وقت رأيته فيه. وحين حاولت التسرية عنه ببعض السخرية من الموقف نظر إليّ بصرامة فتوقفت عن المحاولة. سألته ليلتها كيف سيواجه ذلك فكرّر أنه لا أحد يستطيع مواجهة الأربعة معا، وفي نفس الوقت لا بد من مواجهتهم إن قُدّر للثورة تحقيق أهدافها أو لمصر أن تنهض. كان غاضبا في هذه الليلة، وقال لي إن كل ما حققه حتى الآن لا يتجاوز العودة إلى الأحوال التي سادت قبل الثورة. هل هذا هو ما مات الناس من أجله؟ هل هذا ما أضاع الناس سنوات عمرهم لتحقيقه؟ أين النهضة التي أردناها لأنفسنا وبلدنا؟ أين الحريات التي قُتل الناس من أجلها؟ وأين العدالة الاجتماعية بعد ست سنوات من الثورة وعدم الاستقرار؟ سألني عزالدين، وهو ينظر إليّ بتركيز شديد حتى خِلت أن مقلتيه توجّهان سهاما لا نظرات؛

هـل قتلنا هذه الآلاف كي نسـتقرّ على كرسـي الحكـم بدلا منهم أم كي ننهض بالناس ونُقِيم العدل بينهم؟

كان متأكـدا أن المهادنـة أو المنهـج المتـدرج طويـل المدى لن يؤدِّيا إلى شـيء. فالمحـاولات التدريجية للإصلاح لـن تأتي بثمار تكفـي الجميع، وستتفاقم المشـكلات الأصلية وتبتلـع كل تقدم. مصـر، كما وصفها لـي عزالدين في تلك الليلـة، مثل مركب يحمل صناديـق يفـوق وزنهـا حمولتـه القصوى، ويحـاول الإبحـار ببطء علـى أمل تفادي الغرق، كأن المياه لن تنتبه لحمولته الزائدة بسـبب بطئـه. لا يمكـن لهذا المركـب النجاة مـن الغـرق، أو الوصول إلى الميناء المنشـود، إلا بالتخلص من حمولته الزائدة. المشـكلة، كما قـال عزالديـن، أن كلا من السـلفيين وموظفـي الدولة واليسـاريين والعسـكريين يجلس فوق جزء من هذه الصناديق، وهو لا يسـتطيع التخلص من الأربعة في نفس الوقت، فبمن يبدأ؟

- ٩ -

لـم يكن قـرار عزالدين فكري مهادنـة العسـكريين اعتباطيا، بل نتيجة منطقية لحسـابات الواقع من حولـه ولأولوياته. فعلى الرغم من اسـتقرار الأمن وانتعاش الأحوال الاقتصادية إلى حد كبير، فإن هذا التحسـن كان هشـا. فلا يمكن للأمن أن يستقر إلا إذا استند إلى اسـتقرار سياسـي، أي إلى قواعد تلتزم بها القوى السياسية والأفراد

كافةً، وهو ما يتطلب إقرار دستور دائم وعودة المؤسسات المعطلة وتطهير المؤسسات القديمة كالإعلام والقضاء، وأهمّ من كل ذلك خلق توافق بين القوى السياسية حول قواعد اللعبة. أما الانتعاش الاقتصادي فيعود معظمه إلى السياحة، وفيض الأموال العربية التي دخلت مصر بسبب الاضطرابات التي يشهدها الخليج وسوريا ولبنان، وتدفّق المعونات الأجنبية على مصر مع عودة الاستقرار وإلغاء وزارة التعاون الدولي. كل هذا جميل ولكنه مؤقت، فالنمو الاقتصادي الحقيقي، كما ظل عزالدين يردد طوال العام، يحتاج إلى إصلاح الزراعة والتجارة والأطر القانونية التي تنظّم الاستثمار والسوق، بل وإصلاح التعليم والصحة، وهي كلها أمور تتطلب تغيُّرات أعمق في أجهزة الدولة، تتطلب إلقاء الحمولة الزائدة من المركب.

في تلك الأمسية التي فتح فيها عزالدين قلبه وحدّثني عن نيَّته، أسرّ إليّ بأن الخطر الآنيّ والفوريّ على تحقيق أهداف الثورة لا يأتي من العسكر، بل من السلفيين وموظفي الدولة واليساريين. فالسلفيون يَحُولون دون التوصل إلى اتفاق على قواعد مستقرة للنظام السياسي، في حين يُجهِض موظفو الدولة، بمساندة اليساريين، أي محاولة جادة للإصلاح الاقتصادي. ومن ثم قرر عزالدين تركيز كل قوته على مواجهة السلفيين أولا، ثم موظفي الدولة وحلفائهم بعدها، والاكتفاء بدفع العسكريين إلى الوراء قليلا حتى لا يعترضوا طريقه. كان مقتنعا أن هذه المواجهات ضرورية لبدء الإصلاح وتحقيق أهداف الثورة، وأعتقد أنه كان محقا. تماما

مثلما كانت مواجهات الشهور السابقة ضرورية لبدء الإصلاح الأمني. سألته ماذا سيفعل فتَجهّم وقال إن كل الخيارات مؤلمة: ستؤدي هذه المواجهات إلى سقوط ضحايا كثيرين، لكنه إن أحجم فستفشل الثورة ونعود تدريجيا إلى ظلم يشبه ما كان قائما، وتضيع كل الدماء التي سالت.

في البداية حاول عزالدين التفاهم مع قيادات السلفيين على أساس كفالة الدستور حقَّهم في العبادة والدعوة بالشكل الذي يريدونه، لكنهم أرادوا فوق هذا تقييد حقوق الآخرين وتغيير طابع الدولة بحيث تتحول لأداة للدعوة. طلب من الإخوان مساعدته فاعتذروا، فهم لا يقدرون عليهم، بل ويعانون من مزايدة السلفيين عليهم. حاول تجاهلهم فلم يفلح، وبات واضحا له ما كان يخشاه من البداية وهو أنهم لن يقبلوا إلا بفرض رؤيتهم الطالبانية. حذّرهم من المواجهة فسخروا علنًا من تحذيره ومن «الشباب الرقيع» الذي يستند إليه. وبدا أن المواجهة قادمة، مسألة وقت ليس إلا.

لكن الظروف تدخلت في تحديد مجريات الأحداث، ففي أول فبراير ٢٠١٧ طبعت دار نشر في لندن مذكّرات عدد من ضباط أمن الدولة الذين غادروا البلاد. من غير الواضح ما إذا كانوا أرادوا الانتقام من زملائهم العسكريين أم زعزعة الوضع الأمني في البلاد أم فعلوا ذلك بغرض الشهرة والمال. أيا كان السبب، فقد تضمنت هذه المذكرات اعترافات تفصيلية عن التعاون بين أمن الدولة وعدد من العسكريين ـ ذكروهم بالاسم ـ خلال موقعة الجمل وأحداث

البالون وماسبيرو ومحمد محمود وشارع مجلس الوزراء والعباسية والعتبة وشبرامنت وأرض اللواء وغيرها. وقامت الدنيا ولم تقعد في مصر فور نشر هذه المذكرات، ولم يكن من الممكن لرئيس الوزراء تجاهلها. بدأت سلسلة من الاحتجاجات شارك فيها كل ألوان الطيف السياسي، وكلها تطالب بالقصاص من العسكريين وفتح تحقيقات في كل الأمور التي جرت. كانت هذه واحدة من اللحظات الفارقة، وساندت أغلبية الوزراء فتح هذا التحقيق فورا والقصاص من القادة العسكريين. إلا أن عزالدين عارض ذلك، وفض الاجتماع لإجراء مشاورات جانبية.

أخذت هذه المشاورات يومين، ولا أظن أن كثيرين يعرفون بما جرى فيها. استغلّ عزالدين الضغط الشعبي والسياسي الهائل للحصول على مكاسب من العسكريين، معظمها لم يُعلَن، لكنه في نفس الوقت وقف بجانب العسكريين وساعدهم على إلجام الضغط الشعبي. وقد فعل ذلك حفاظا على وحدة الجيش واستقلاله، وفي نفس الوقت من أجل الحصول على دعم الجيش له في معاركه المستقبلية. وافق العسكريون على تقديم الأسماء التي وردت في اعترافات ضباط أمن الدولة للتحقيق ثم للمحاكمة، وفي المقابل وافق عزالدين على أن يضطلع القضاء العسكري بالموضوع، لكنه انتزع علنيَّة جلسات المحاكمة كلها. في نفس الوقت حصل على موافقة قادة الأسلحة على تغيير وزير الدفاع، وهكذا أصبح العميد سعيد ـ الذي صار لواء، والذي كان ضابط اتصال الدفاع بالرئاسة ـ أصغر وزير للدفاع وأقربهم إلى فهم السياسيين. كذلك وافق القادة

علـى تعيين اللواء توفيق، قائد قوة «الانتشـار السـريع» المقرب من عزالدين، مديرا جديدا للمخابرات العسـكرية. واتفق الجانبان على عـزل مدير المخابرات العامة القديـم وتعيين اللواء حامد ـ صديقي والمقرب أيضا من عزالدين ـ محله. كما وعد القادة بدعم عزالدين فـي معركته الوشـيكة مـع السـلفيين. فـي المقابـل وافـق عزالدين علـى عـودة اللواء القطان للحياة في مصر شـريطة عـدم مزاولته أي نشاط عامّ.

تمـت هـذه الصفقـة المركَّبـة خـلال يوميـن، وحضـرت معظم مشـاوراتها، فيما عدا الجزء الخـاص بعودة اللواء القطان والذي لم يخبرنـي بـه عزالدين إلا بعد الاتفـاق عليه. ولاحظـت أن عزالدين لم يتشـاور مـع أحد من الوزراء فيهـا، ولكنه كان دائـم الرجوع إلى مجموعة قيادات اتحاد الشباب التي تعمل بمكتبه منذ تَولِّيه منصبه. وبعـد التوصل إلى هذا الاتفاق قام عزالدين بإطْلاع مجلس الوزراء على الأجـزاء الخاصة بالمحاكمات العسـكرية العلنيـة للمتهمين، وبتغيير وزير الدفاع ومدير المخابرات العامة. هدَّأت هذه القرارات الناس، وأشعرتهم أن زمن الإفلات من العقاب قد ولَّى، وأكد ذلك الإعلانُ السريع عن بدء المحاكمات، ثم ما تلاه من أحكام قاسية.

لـم أعـرف كيف أسـتقبِلُ خبر عـودة القطان، لا على المسـتوى الشـخصي ولا علـى المسـتوى العـامّ. أول مـا فكـرت فيـه أمـك، وعودتهـا، وانقبـض قلبـي من هـذه الفكـرة. لا أدري لِـمَ بالضبط،

ففـي كل مكالماتنا كنت أحاول إقناعها أن تعود. لكني ربما اعتدت غيابها، وارتحت لرحيلها بعد أن استسلمت له. كان ما بيننا العِشْرة، ولمـا رحلَت وأمعنت في الغيـاب ورفضَت محاولاتـي كلها ذهب مـا بيننـا. ذهب دون قـرار منِّي، بـل دون أن أدري أنـه راح. أدركت ذلك حين فهمت أنها ستعود، وشـعرت أني سـأدخل فـي مواجهة معهـا، ومع أبيها الذي لا أحبه وأخشـى خشـونته. فكّرت فيك أنت وارتبكت؛ كيف ستلقاني وكيف ستنظر إليّ وفيمَ ستفكر، ماذا قالت لـك أمك عني طوال هذه السـنوات، لا بد أنها قد أسـاءت الحديث عنّـي كـي تبرر لـك انقطاعنا. فكـرت طبعا أني سـأراك، لكن مجرد الرؤية لا يحلّ المشـكلة. سألَتني صفية أكثر من مرة لِمَ لا أسافر كي أراك، وفكّرت فعلا أكثر من مرة في ذلك. لكن الأبوة ليسـت رؤية. ليسـت لقاء في مطعم أو متنزَّه وتمشـية بجوار نهر أو زيارة للسينما. بل صحبة، وتعلُّم، وارتباط، وقدوة، ونظرات تسـأل وتجيب وتنقل ما في القلب. كيف نسـتعيد كل هذا بعد كل هذا؟ وهل نسـتعيده أم نصبح غريبَين يجلسان متجاورَين؟

أكثـر ما لـم أفهمـه هو عودة القطـان. لـم أفهـم أولا أهمية عودته للعسكريين بحيث يدرجونها في هذه الصفقة. كان وزيرا للدفاع أيام حكم العسكر، ثم رحل. لا يكاد أحد يذكره، وحتى أيام فترة الحكم العسـكري لم يكن في صدارة المشهد، ويقيني أنك لو سألت عشرة أشـخاص في الشـارع عمن يكـون لما تَعـرّف عليه أكثـر من ثلاثة. فلـم لا يعود بهدوء إذا أراد؟ حتى اسـمه لـم يكن مُدرَجا على قوائم

المنـع. ولِمَ يحـرص قادة الأسـلحة على عودته إلى هـذه الدرجة؟ سـألت عزالدين الـذي ضحك هازئـا وقال إني سـكرتير معلومات بـلا معلومـات. ثم شـرح لي الـدور الذي لعبـه القطان فـي الجيش أيـام كان وزير الدفاع، وقاعدة النفوذ الواسـعة التي بناها بفضل هذا الدور، والتي حوّلته لأهم شخص في القوات المسلحة وأكثر قادتها شعبية. سألت عزالدين لِمَ يحتاج القطان إلى موافقته كي يعود، ولِمَ وافق هو، فأجاب بأن عودته دون اتفاق قد تفسَّـر كتحرك عدائي من قِبَـل الجيش، وهـم يعلمون ذلك وأرادوا طمأنتـه. أما هو فقد وافق لأنـه يفضل التعامل المباشـر مـع أصحاب النفوذ علـى التعامل مع وكلائهـم، كما أن القطـان أفضل مَن يوحد صفـوف الجيش ويمنع ظهور منافسـين متعددين، وتلك كارثـة إذا حدثت. احتاط عزالدين للأمـر مع ذلك بتعييـن اللواء توفيـق مديرا للمخابرات العسـكرية، وهو قائد قوات الانتشـار الـذي عمل تحت إمرته منذ إنشـاء القوة. لكنه ابتسـم وراهنني أن توفيق هذا سيكون أول ضحايا القطان. وقد كسب هذا الرهان.

أدت المحاكمات العسكرية للقادة المتورطين في قتل المتظاهرين والتنكيـل بهم، وأحكام الإعـدام رميا بالرصـاص التي صدرت في حـق بعضهم، لانكماش الجيش وقادته وانسـحابهم أكثر من الحياة العامـة. تفـادى الجميـع بذلك شـرا أكبر، وسـاد ارتياح الأوسـاط السياسـية والشـعبية. لكن أسـماء لـم تكن مرتاحـة، على الإطلاق. طلبـت لقائـي خارج المكتـب وقالت إنهـا تريد الحديـث براحتها،

فذهبتُ للقائها في النادي الذي ترتاده في القاهرة الجديدة، وسرنا نتحدث في الممشى الرياضي. وجدتها متوترة وعصبية، وقالت إن حدّة الأحداث وكثافتها، وهموم المنصب الضخمة، والاختيارات شديدة الصعوبة التي عليه القيام بها تؤثر على عزالدين، وإنها باتت شديدة القلق عليه. دمعت عيناها وتوقفت في الممشى، ثم بدأت ترتجف وتبكي بصوت مسموع. أخذتها إلى مقعد قريب وأجلستها وربت عليها حتى هدأت، ووعدتها بالمساعدة دون أن يكون لديّ أدنى فكرة كيف. ظللت بجوارها حتى تمالكت نفسها، وربتت على يدي بمودّة، وابتسمت معتذرة، وطلبت أن أظل على اتصال عسى أن نستطيع كلانا حمايته. ابتسمتُ وأومأتُ موافقا.

قضى عزالدين شهر فبراير في البحث عن مدخل لمواجهة السلفيين. لم يكن يستطيع فعل ذلك على خلفية عملية كتابة الدستور، لأن مواقفهم قريبة من مواقف الإخوان ـ على الأقل في العلن ـ ومن ثم سيُضطرّ هؤلاء للوقوف معهم وإن لم يرغبوا في ذلك. نفس الشيء ينطبق على قضايا الحريات العامة والسلوك الاجتماعي. لجأ إلى اللواء حامد، وبذلت المخابرات العامة جهدا كبيرا كي تجد لهم خطًّا يمكن محاسبتهم عليه، وبالفعل وجدوا كثيرا من قضايا التمويل الأجنبي وتهريب السلاح، لكن كل ذلك كان يمكنهم إنكاره، ولن يخلق التعاطف الشعبي المطلوب. وجدت المخابرات عددا من المسائل الأخلاقية التي تُدين بعض الرموز السلفية، لكن هذه المسائل أيضا ستبدو غير ذات مصداقية. وفجأة، وجد عزالدين المدخل الذي يبحث عنه: شبه جزيرة سيناء.

- ١٠ -

بـدأت المواجهـات مع السـلفيين في شـهر مارس، واسـتمرت حتى شـهر يونيـة، وخلفت بقسـوتها ودمويتها جرحا فـي كل بيت. كان منطـق عزالديـن واضحـا وحـادا، كالسـيف: وضـع السـلفيون أنفسـهم في مواجهة مع بقية فئات الشـعب برفضهم القاطع لمبادئ الدولـة الحديثة. ومـن ثم أصبحنا أمـام خيارات ثلاثـة: مواجهتهم وإخضاعهـم بالقـوة، أو الاستسـلام لهـم وتحويل مصر إلـى دولة طالبانية، أو التسويف واستمرار حالة الفوضـى وعدم الاستقرار التي عاشتها مصر لست سنوات بعد الثورة. وحين استقر رأيه وأتباعه في الكتلة المدنية الديمقراطية على المواجهة، قرروا اللجوء إلى أقصى درجات الحسـم الجراحي، بحيث ينهون عذاب المواجهة في ثلاثة أشهر بدلا من عشر سنوات مثلما حدث في الجزائر وغيرها.

لـم تبـدأ المواجهات بعربـة طماطم هـذه المرة، بـل بحزمة من الأليـاف الضوئيـة. وهـذه المـرة كنت أعلـم أن عزالديـن قد خطّط للأمر كله. اختار سـيناء ميدانا لبدء المواجهة لحساسـيتها للشـعب والمجتمع الدولي، واخترع قصـة الألياف الضوئية اختراعا كي تتم المواجهة على أساس مشروع للتنمية لا أمر يتعلق بالأمن أو الدستور. كان الوضع في سـيناء أكثر هشاشـة من بقية المناطق، وكان يسودها هدوء حذر، فمنـذ تولـى عزالدين وزارة الداخلية اسـتعادت قوات الشرطة المحلية والجنائية بعض السيطرة الأمنية، وذلك إلى جانب قوات الجيش، وإلى جانب القبائل وعصابات التهريب والجهاديين

الإسلاميين، دون أن يكون لأحد اليد العليا. استمر التهريب قائما لأنه أصبح عبر السنوات مصدر الرزق الرئيسي للقبائل، لكنهم توقفوا عن تهريب السلاح تفاديا لجرِّ الجيش إلى مواجهات معهم أو مع حكام غزة المتشددين أو مع إسرائيل. وفي نفس الوقت انكفأ الجهاديون على معسكراتهم في المناطق المعزولة دون أن يقفوا في طريق أحد أو يعترضهم أحد من قوات الأمن. راقبت القوة المتعددة الجنسيات الوضع بدقة، وحفظ هذا التوازن درجة من الاستقرار سمحت بعودة السياحة إلى جنوب سيناء بعد المواجهات العنيفة التي حدثت إبان الثورة الثانية.

بدأ عزالدين بهز ذلك التوازن بالإعلان عن مشروع قومي لتحويل شمال ووسط سيناء إلى قاعدة كبرى لتكنولوجيا المعلومات، وإنشاء مدن جديدة في نخل والقسيمة والحسنة والشيخ زُوَيِّد يستوعب كل منها مليون نسمة. ويقوم هذا المشروع على إقامة بنية تحتية متقدمة من الاتصالات، ومراكز بحثية ومراكز تدريب وجامعة تقنية، إضافة إلى تقديم إعفاءات ضريبية وقروض للمشروعات الصغيرة والمتوسطة وذلك لتشجيع الاستثمار في مجالات تكنولوجيا المعلومات. وأفرد هذا المشروع جانبا هامًّا لحل مشكلات أهل سيناء، سواء بتمليكهم الأراضي أو بتخصيص عديد من المشروعات المصاحبة له لدعم وتطوير الحياة المحلية، ومن ذلك مشروع لدعم الصناعات والمشغولات البدوية وتدريب أصحابها على تسويقها باستخدام تقنيات أحدث وأرخص، وإعطائهم الأولوية في التدريب والتوظيف بالمشروعات المقامة،

وغير هذا من الإجراءات. وعلى الفور تحركت الجرّافات لشقّ وتحسين وتطوير شبكة الطرق، ومعها مشروع مد شبكة من الألياف الضوئية في ربوع شمال ووسط سيناء كلها.

ثم وقع المحتوم؛ تَعرّضَت مجموعة من العمال تقوم بحفر وتركيب كابلات الألياف الضوئية في بقعة نائية وسط سيناء للمنع، وحين أصرّت على القيام بمهمتها واستدعت قوة من الشرطة لمساعدتها تعرضت القوة لإطلاق نار. لم يُصَب أحد، لكن القائمين على المشروع عاودوا الكَرَّة في اليوم التالي بعد استدعاء قوة أكبر من الشرطة، وحينها اشتبك مجهولون مع القوة ووقع قتيل من جانب الشرطة. فاستدعت الشرطة قوات الانتشار، وبدأت أولى المواجهات مع الجهاديين المتمترسين في منطقة جبلية وسط سيناء. تطورت المواجهات بسرعة، وفي خلال أسبوع كانت قوات الأمن والجيش قد دخلت في قتال حقيقي وشامل مع الجهاديين بوسط وشمال سيناء.

أعلن عزالدين فكري حالة الطوارئ، وطلب دعم القوى السياسية في مواجهة هذا الهجوم على نظام الثورة ومشروعها لتنمية سيناء. تَلقَّى دعما من الجميع عدا السلفيين الذين انتقدوا سياسته الصدامية مع الجهاديين. وأدَّى هذا الانتقاد إلى امتعاض شعبي واسع، فلم يكن لهؤلاء الجهاديين أو لسيطرتهم على بقع من سيناء أي شرعية، بل كان معظم الناس يجهل وجود هؤلاء الجهاديين بسيناء أصلا.

وبينما استعر القتال في شبه الجزيرة، تَقدَّم عزالدين بمشروع قانون لتجريم حمل السلاح من قِبَل أي فصيل سياسي، وتجريم الحض على المساس بالمساواة بين المواطنين أو تغيير الطابع الجمهوري للدولة، وإحالة مرتكبي أي من هذه الجرائم إلى محكمة الثورة. أيد الديمقراطيون واليساريون مشروع القانون، وامتنع الإخوان، وعارضه السلفيون ونزلوا للشوارع محتجين عليه. وهكذا اعتمد المجلس الرئاسي مشروع القانون بأغلبية اثنين وامتناع الثالث، وأصبح قانونا نافذا من اليوم التالي لنشره، أي في ١٤ مارس. وفي نفس اليوم أطلق عزالدين يد حرسه الحديدي من الشرطة المحلية والجنائية وقوات الانتشار ضد السلفيين المعتصمين في الشوارع، وضد مقارِّ الجمعيات المرتبطة بهم، والصحف، والقنوات التلفزيونية، ومواقعهم على الإنترنت، والمساجد، والمؤسسات الاقتصادية، وحساباتهم بالبنوك، كل شيء.

لم تكن هذه مجرد مواجهة، بل حربا شاملة. مَن حمل السلاح ضد قوات الأمن قُتل، ومن لم يحمل سلاحا قُبض عليه وأحيل إلى محكمة الثورة التي حكمت بإعدامه، ونُفِّذت الأحكام خلال أسبوع من صدورها. في سيناء استخدمت قوات الأمن كل ما لديها، ابتداء من قنابل الغاز «المسموح بها دوليًّا» والمشكوك بها محليا، إلى الطائرات الصينية، إلى أقمار صناعية أمدَّتها بصور حية عن أهدافها. وغضَّت الأطراف الخارجية الطرْف عن نشر أعداد هائلة من القوات

قامت بعملية تمشيط دقيقة لوسط وشمال سيناء، ولاحظ الجميع أنه لم ينتج عن هذه الحرب أي أسرى أو سجناء.

لكن وحشية القتال في سيناء لا تقارَن بالمجازر التي وقعت في بقية مدن مصر وريفها. لم يكن لدى أجهزة الأمن الجديدة معلومات دقيقة عن الأعضاء النشطين بالجماعات السلفية، أو حتى عن نوعية نشاط الجماعات السلفية المختلفة. قيل إن بعض ضباط أمن الدولة القدامى ساعدوا، وبعض من شاركوا في «الحرب على الإرهاب» بالصعيد في التسعينيات. لكني لم أشهد أي دليل على هذا. ما أعلمه أن حملات المداهمة كانت تتحرك عند تلقِّي بلاغ بوجود سلفيين مطلوبين لمحكمة الثورة، دون التحقق من مصدر البلاغ ولا شخصية الهدف المطلوب القبض عليه. وحين تصل قوة المداهمة تبدأ بإطلاق النيران بشكل احترازي لحماية نفسها، فإذا تعرضت لنيران مضادة أغرقت الهدف كله بالنيران حتى تقضي عليه، وإذا لم تتعرض لإطلاق نار واصلت التقدم، مع إطلاق نار من وقت إلى آخر تفاديا لأي خطأ. كانت تعليمات هذه القوات عدم المخاطرة بسلامة أفرادها، بغضِّ النظر عن عدد الضحايا. وكان قادة هذه القوات ممن قادوا حرب الطماطم قبلها بعام، ومعظمهم تبلدت مشاعرهم وماتت قلوبهم من قسوة ما شهدوه وما فعلوه وقتها. وهناك اعتقاد أنهم قرروا فيما بينهم أن لا يأخذوا أسرى أو سجناء.

ومثل ما حدث في حرب الطماطم، أسفرت المواجهات عن تصفية السلفيين في البلاد، وقيل إن عدد القتلى تجاوز مئة ألف، لكن لا يوجد تعداد رسمي للضحايا، ولا نعرف حتى من منهم

كان سلفيا ومن قادته الصدفة أو ضغينة جاره إلى حتفه. لا أعرف كيف أصف لك ما حدث في هذه الأشهر الثلاثة، لكنه كان أشبه بعملية اقتلاع جزء من الجهاز العصبي لمريض دون تخديره ودون رؤية واضحة لجهازه العصبي. مصر كلها كانت تئنّ وتتوجع من هذا الاقتلاع، لكن عزالدين لم يتراجع ولو قيد أنملة، وظل مطبقا على رقبة الجميع بيد لا تهتز، مستخدما حرسه الحديدي والأجهزة الأمنية ضد أعدائه حتى نهايتهم، دون رحمة أو شفقة، وممسكا ببقية القوى السياسية من تلابيبها كيلا تنقلب ضده. لم تفلح الانتقادات في وقفه، ولم تلبث تلك أن خمدت أو أخمدتها آلة القتل العمياء، وساد رعب حقيقي غذَّته محكمة الثورة بأحكامها القاطعة ضد كل من «يهدِّد المال العامّ، أو حقوق المواطنين، أو يسعى لتزييف إرادة الجماهير، أو يحرِّض ضدَّ النظام الجمهوري، أو المساواة بين المواطنين».

ستسألني أين كنتُ من كل هذا. لا أعرف كيف أشرح لك دوري. من السهل عليّ الحديث عن معارضتي لما حدث، وعن أحاديثي مع عزالدين التي ذكَّرته فيها بتعارض أفعاله مع المبادئ التي وقفنا من أجلها طوال حياتنا. لكن الحقيقة أن معارضتي هذه لم تتجاوز الكلام، بل إني لم أصمد كثيرا في الكلام حين كان يسألني عن البديل الذي أقترحه للتعامل مع السلفيين العازمين على تحويل الجمهورية إلى سلفيستان. كلما سألني تذكرت حديث نور عن سلبيتي، وتهت. اتصلت بي نور في خضمِّ هذه المذابح، حاولت سؤالها إن كان لديها بديل لما يفعله عزالدين، لكنها رفضت

الحديث في الموضوع، وقالت بصوتها الرخيم إنها تريد الاطمئنان عليّ لا غير. عنيدة تلك المرأة، ولا يخلو حنانها الطاغي من قسوة. كنا كلنا تائهين: أنا ومعاونو عزالدين ومستشاروه والوزراء ومحمود بشير المندفع بلا فائدة، حتى أسماء الحزينة على فقدان زوجها لما كان قد بقي عنده من مشاعر.

ما زلت أذكر هذه الأمسيات المتأخرة، حين أذهب إلى مكتب عزالدين في نهاية يوم العمل الطويل. تُدخِلني السكرتارية فور وصولي لأجده يتابع ردود الفعل على مواجهات اليوم في التلفزيون. يأكل سندوتش جبن رومي وزيتون ويشرب شايا، وقد حل رباط عنقه. نتحدث قليلا، وقلبي يعتمل بأكثر مما أقول. يسألني عن رأيي في آخر الحوادث: السلفيون هاجموا نقطة حصينة للجيش عند بلدة كذا فقتلوا كل من فيها؛ «ماذا نفعل؟»، أنظر إليه وأفكر في آلاف القتلى الذين سقطوا حتى تلك اللحظة، وأسأله إن كان أحد قد حاول التواصل مع قياداتهم أو البحث عن حل. فيسألني في ضجر عن أي قيادات أتحدث، وأين هم؛ إما أعدمتهم المحكمة وإما اختبئوا وحملوا السلاح، ثم نتناقش حول حكمة قضاة محكمة الثورة ويقول لي إلى أي درجة هم حمقى وبلا رؤية سياسية، لكن من يستطيع وقفهم؟ وماذا نفعل نحن في هذا الاعتداء؟ هل نسكت؟ هل ننسحب ونسلّمهم البلد؟ وما من جواب غير إرسال التعزيزات، ومزيد من سفك الدماء. أجلس أمام مكتبه وهو يحدثني، بين السندوتشات والشاي والتلفزيون والتليفون الذي لا يصمت ومعاونيه الذين يدخلون من حين إلى

آخـر. مـاذا تقول لرجل وضع خلاصة عقلـه وروحه في عمله، وهو في وسـط معركة، وخلفه ملايين المؤيدين؟ نعم به عيوب ويخطئ، وأحيانا لا يسـتمع إلى أحد وأحيانـا أخرى تأخذه العزة بالإثم. لكنه في ذلك مثل الجميع، مثل أي شـخص آخر قد يجلس محله، فماذا تقول له، وسط الحرب؟ كيف تطلب منه التوقف دون إعطائه بديلا صلبا يمكن الوقوف عليه؟ أم تطلب منه الاستقالة عند أول مواجهة حقيقية؟ وإن رحل، فهل سيحل ذلك المشكلة؟

كنت أجلس أمام المكتب وأشعر أننا دخلنا في نفق لولبي، ننزلق فيـه ويـدوس بعضنا بعضـا ونقتتل ونحـن نواصل السـقوط داخله، والنفق ضيِّق يخنقنا، ولا أحد منا يعرف بابًا للخروج.

- ١١ -

في ١٤ يونية، أي بعد ثلاثة أشهر بالضبط من بدء الحرب، أعلن عزالديـن فكري إنهـاء حالة الطوارئ، ودعوة المواطنين للاسـتفتاء على الدسـتور الجديد في أول سـبتمبر، بحيث تجـرى الانتخابات الرئاسية والتشريعية الجديدة في الأسبوع الأول من يناير، كي تحتفل مصر بعيد الثورة السابع بتدشين برلمانها الجديد وتنصيب الرئيس. فاجأ الإعلان كثيرين. صحيح أن اللجنة الدسـتورية واصلت عملها خـلال فتـرة المواجهات (مـن دون أعضائها السـلفيين الذين قُبض عليهم وأُحيلوا إلى محكمة الثورة)، لكن كثيرين توقعوا أن يسـتغلّ

عزالدين حالة الحرب ويؤجل العملية الدستورية ويفرض حكمه الفردي. هؤلاء، في رأيي، أساءوا فهمه. فلم يكن عزالدين، في ظني، يسعى لاستمرار حكمه إلى الأبد. كل ما أراده هو قدر كافٍ من السلطان وحرية الحركة لتنفيذ المهمة التي أخذها على عاتقه، وهي مهمة لم يكن مستعدا للتخلِّي عنها مهما كان الثمن. وكلما سال الدم، أصبح التراجع أصعب، وبالتالي زاد استعداده لسفك مزيد منه.

هدف عزالدين من إعلانه هذا طمأنة الناس والسياسيين أنه لا ينوي الخروج عن مسار التحول الديمقراطي الذي من أجله أُريقت كل هذه الدماء، لكن السياسيين شعروا بمزيد من القلق، فنجاح عزالدين ومعسكره «الديمقراطي» في القضاء على النظام القديم ثم على السلفيين، وحكم الرعب الذي يقيمونه، ينذر باكتساحهم الانتخابات. تناول عزالدين هذا القلق في أحاديثه العامة، وبدأ حوارا موسَّعا مع القوى السياسية الأخرى للبحث عن إجراءات تبعث الطمأنينة في قلوبهم ولو بعض الشيء. لكن مرة أخرى، كان كل ذلك سحابة من الدخان هدف منها إلى شغل الناس في قضايا السياسة تمهيدا لدخوله معركته النهائية والحاسمة مع عدوه التالي: موظفي الدولة والقوى اليسارية المتعيشة عليها.

من ناحيتي، شعرت براحة عميقة لإنهاء حالة الطوارئ، وكنت أود لو حل عزالدين محكمة الثورة كي ننهي ميراث هذه الفترة الدموية. لكن عزالدين فضَّل التأجيل، متعللا بأنها وبقية متعلقات

الفترة الانتقالية ستنتهي في كل الأحوال مع إقرار الدستور الجديد خلال ثلاثة أشهر، ومن ثم لا فداعي لإثارة الجدل بشأنها الآن. كنت كمن حبس أنفاسه لمدة ثلاثة أشهر، وكل ما يهمّني الآن توقف القتل، وفرصة العودة للحياة الطبيعية. لكنني كنت مخطئا، فقد كان الجرح الذي أصابنا أعمق من أن يندمل. لقد غيرت هذه المواجهات شيئا فينا، تماما مثلما غيرت ثورة يناير الأولى الناس. لم يكن الجديد في هذه المواجهات حدة العنف ووحشيته فحسب، بل قبول الناس له وتعاونها معه. لم يقتل عزالدين المئة ألف ضحية وحده، بل من خلال آلاف من أنصاره الذين يسمون أنفسهم الديمقراطيين، وبتواطؤ وقبول مئات الآلاف من الشعب، هؤلاء الذين أبلغوا عن جيرانهم، والذين دخلوا بيوتهم وأغلقوا الأبواب والنوافذ حين تصل القوات المداهمة، والذين هزُّوا كتفهم مثلي وقالوا: «ما البديل؟». كلنا كنا شركاء في هذا، وسواء اضطُررنا إلى هذه المواجهات أم اخترناها، فقد دخلنا فيها، وتلوثت أيدينا وقلوبنا بدماء جيران وأقرباء وأصدقاء. لا أدري كيف أصف لك التغير الذي أصابنا بدقة؛ درجة من الاستخفاف بالموت واعتياده، درجة من تبلد المشاعر والقسوة، ودرجة من الشعور العميق بالذنب المدفون تحت طبقة سميكة من المبررات تجعلنا عدائيين لأي تشكيك في صحة موقفنا.

رغم التحفظات والمخاوف، فإن أغلبية الناس قلبت صفحة الماضي بسرعة. أصدرت القوى السياسية بيانات رحبت فيها بانتهاء المواجهات وبالخطوات الدستورية الجديدة، وبدأت

المناقشـات حـول مـواد الدسـتور المقترحـة، وشـرع البعـض في الإعـداد للانتخابات التشـريعية. كما انهالت عروض المسـاعدات على مصر، وقفزت السياحة حتى وصلت إلى المستوى الذي كانت عنده في ٢٠١٠. شعرت بغصة مما بدا كأنه احتفال يتم فوق قبور لم تبرد جثثها بعد. لكنني كنت في معسـكر الأقلية. أراد الجميع نسـيان ما حدث، لا أدري كيف اسـتطاعوا. لكني ربما أظلمهم؛ ربما كنت أنا أيضا سأنسى لو لم تقع حادثة حسن.

عبـده هـو الذي أخبرني بنبـأ القبض على حسـن. لا أدري كيف تحـول هـذا الفتى، العاطل منـذ تخرجه، صاحب الكُلْية المسـروقة والأخرى الفاشـلة، إلى زعيم عصابة. حين أنشـأ عزالدين الشـرطة المحلية انضم حسن إليها وجاء معه بعصابة الموتوسيكلات التافهة التـي كانت تعمل معـه. ولـم يكن ذلـك أمرا غريبا وقتهـا، فالحقيقة أن كثيرين ممن انضموا إلى هذه الشـرطة كانت لهم أنشـطة مخالفة للقانـون قبلها. وكان جمع هؤلاء وإعـادة تأهيلهم وتوجيه طاقاتهم نحـو حفـظ الأمـن أحـد أهـداف إنشـاء الشـرطة المحليـة. وأقـام عزالديـن إدارة تحريات داخليـة تولت تَقَصِّي ومراقبة سـلوك أفراد الشـرطة المحلية للتأكد من حسـن استخدامهم سـلطاتهم. ويبدو أن حسـن ظل حسن السـلوك طوال العام الأول. لكنه تعاون خلال الأشـهر الثلاثة الأخيرة مع بعض العناصر السـلفية في منطقة أرض اللـواء. بدأ الأمر فيما يبدو ـ ووفقا لاعترافاته ـ بإيواء وتسـهيل فرار بعـض المطلوبين أو المبلغ عنهم، ثم تطور إلى إمدادهم بالسـلاح. لم يكن واضحا إن كان قد تَلَقَّى أموالا مقابل ذلك أم تَطَوَّع به إيمانا بعدالة قضيتهم. لكنه حين انكشف أمره اعترف بكل شيء.

أخبرني عبده بالأمر فور القبض عليه، وفاجأني الخبر ولم أعرف ماذا أفعل. وقبل أن أجد الإجابة كانت التحريات الداخلية قد أحالته إلى محكمة الثورة. طلبت من عبده الاتصال بميرفت فأجاب بأسى أنها رفضت التدخل في الموضوع. أدهشني رد فعلها. وحين حدثت عزالدين في الأمر كانت محكمة الثورة قد حكمت على حسن بالإعدام شنقا. هز عزالدين رأسه وقال إنه لم يعد بوسعه شيء. لجأت إلى محمود بشير لكنه رفض التدخل هو الآخر قائلا إن حسن ليس طفلا، وأي شخص يساعد السلفيين بالسلاح في وسط مواجهة من هذا النوع يعرف جيدا ما يفعله. لم أعرف بمَ أرد عليه، كما لم أعرف بمَ أردّ على عزالدين، ثم انشغلت بأمور أخرى، وحين عدت إلى الموضوع بعدها بأسبوع كان حكم المحكمة في حسن قد تم تنفيذه.

لم أسامح نفسي. كيف «نسيت» الموضوع لمدة أسبوع بعد صدور الحكم وأنا أعرف جيدا سرعة هذه المحكمة في تنفيذ أحكامها؟ أعرف أني لم أكن أستطيع تغيير الحكم، لكن ربما استطعت الضغط على عزالدين كيلا يصدّق عليه، أو اللجوء إلى أسماء، أو فعل شيء ما، لكني تركت الموضوع، تجاهلته، تركته يمر من تحت أنفي حتى شنقوا حسن. تملكني شعور طاغ بالذنب، لكن أيضا بعدم الفهم لرد فعل كل من عزالدين ومحمود حين طلبت منهما التدخل في البداية، وكذلك في استقبالهما الفاتر لخبر إعدامه، ولغياب ميرفت عن المشهد كله. سألت عبده إن كان يعرف شيئا فنفى، لكني شعرت أنه يعرف ولا يقول. وكحلٍّ أخير أرسلت

في طلب نسخة من محاضر التحقيقات وجلسة المحاكمة، فقالوا لي إن المحاضر فُقدت! عند هذه النقطة استسلمت. لكني عندما عرفت تفاصيل «جريمة» حسن فيما بعد فهمت كل ذلك، وزاد شعوري بالذنب أكثر، وظل معي حتى اليوم.

كانت السنة كلها أوجاع، وكل ما أردته هو بعض الراحة، وقت ألتقط فيه أنفاسي. لكن حتى حين حدث ذلك أوجعت الراحة قلبي. فقد غطَّى صخب الأحداث وجنونها على كل شيء آخر، واستغرق كل ذرة من تفكيري خلال الأشهر الثلاثة الماضية، فلم أفكر في نور ولا في نفسي دونها. وظننت أني تجاوزت فراقنا؛ ظننت أني صرت بلا قلب مثل صديقي صاحب القبضة الحديدية. لكن حين توقف القتل وخرجنا من العاصفة التي ابتلعتنا، عادت مشاعري لا أدري من أين. وشعرت فجأة بهذا الفراغ الموجِع داخلي، هذا النقصان الذي يئن حتى تملؤه هي. هي، ولا أحد غيرها. لا أدري كيف ستقرأ هذا؛ لا أحسبك فكرت أن رومانسية كتلك التي تصيبك يمكن أن تصيب أباك أيضا. أو لعلك تظنني فقدت عقلي، وانتابتني مراهقة متأخرة. وقد ساورتني شكوك مماثلة لفترة، مع شكوك أخرى، كلها لم أعترف بها لنفسي، بل ظلت هناك قابعة تحت السطح، تدفع بأفكار ومشاعر وتمنع أخرى. هذه هي الأفكار التي عليك الحذر منها أكثر من أي شيء آخر تقوله لنفسك. هذه هي الأفكار التي تقولها لنفسك دون أن تسمعها، وغالبا ما يكون لها اليد العليا فيما تفعله.

لم ينفع شيء في إخماد افتقادي نور؛ لا صورها على الإنترنت، ولا تتبُّعي لتصريحاتها ومقابلاتها، ولا إعادة مشاهدة مسرحياتها، ولا حتى قراءة التعليقات التي تضعها على «فيسبوك». لم يكن كل هذا كافيا على وفرته، لم يسدّ الفقد، لم يملأ النقصان. لا شيء يفعل هذا. لا شيء يمكنه إزاحة الصخرة القابعة على صدري سواها هي؛ حين تُهِلُّ عليّ، وحين تنظر إليّ، وحين تلمسني يدها. أين ذهب كل هذا؟ أين ذهبت كلها؟ ليتني حتى أملك حق توجيه هذا السؤال. «كيف أضعت كل هذا؟» هو سؤالي الحقيقي. كيف تركتها تذهب بعد أن كانت هنا، بين يدَيّ؟ أسأل نفسي وأعرف الجواب: تركتها ترحل لأني خشيت عواقب استبقائها، وما زلت أخشاها، ولذا لم أحاول الاتصال بها؛ قلت يكفي وجع قلبي أنا، لا داعي لجرحها هي الأخرى، مرة أخرى.

ثم جئت أنت بوجع آخر.

في آخر يونية وصل اللواء القطان إلى مصر، ومعه ابنته ندا، وأنت. كان عمرك سبعة عشر عاما وستة أسابيع حين رأيتك. وكان عمرك ثلاثة عشر عاما حين اختطفَتك أمك وأبوها. هل رأيت صورك؟ هل ترى الفارق بين الشخصين؟ الفتى الذي سافر لم يعد، ظل هناك، في الغياب. وعاد أخوه الأكبر، الذي لم أرَه من قبل، ولا أعلم من أين أتى وكيف نما ومن هو وماذا يدور داخل روحه. ذهب ابني يحيى، وجاء شاب يشبهه ويحمل اسمه لكنه ليس هو. وحين رأيتك أول مرة أوجعني قلبي على ابني الذي مضى، وأوجعني بنفس الدرجة

أن عينيك تَحوَّلَتا عني كأنهما لا تريدان رؤيتي. ابتسمنا، وعانقتَني حين عانقتك، لكني شعرت بك تتراجع إلى الوراء قليلا، وظللتَ متماسكا في نفسك ونحن متعانقان، وكلما ضممتك ازداد تمسُّكك بانفصالك. أطلت العناق علَّك تنفتح، علَّك تضمُّني وأشعر بهذه اللحظة التي يندمج فيها المتعانقان معا، لكنك ظللت حيث أنت، ثم أنهيت أنت العناق الذي طال بلا فائدة. نظرتُ إليك ووجهك في وجهي فابتسمتَ وأشحتَ بعينيك مرة أخرى، بحرج من لا يعرف ماذا يقول للآخر الذي ينظر إليه، بحرج من لا يعرف كيف ينظر إلى الآخر أصلا. وأدركت ساعتها حجم الهُوَّة التي يتعين عليّ عبورها كي أصل إليك مرة أخرى.

- ١٢ -

حين رأيتُ ندا أدركتُ إلى أي حد تباعدنا. وكلما تكلمنا أدركت أننا افترقنا وانتهى الأمر بيننا. لا دراما، مجرد شعور مستقرّ بأن ما ضاع لن يعود، وربما لم يكن موجودا وتخيلته أنا أو تمنيته. في أول لقاء ظننتها جفوة البعاد والغضب والمناقشات الثقيلة عبر الإنترنت، لكن لقاءاتنا التالية لم تترك مجالا للشك في أن الأمر أكبر من ذلك وأعمق. لا أعرف كيف شعرت هي، لم تقُل لي، ربما أخبرَتك. لكن من المؤكد أنها هي الأخرى شعرت بالإحباط وبالفشل. ففي أول الأمر وآخره، تلك هي حياتنا التي كانت تفلت من بين أصابعنا، سنوات قضيناها معا، بكل تفاصيل الزوج والزوجة، بكل حنانهما

حين يحتوي أحدهما الآخر، بكل الأسرار التي أفضى بها بعضنا إلى بعض، بكل الضعف الذي كشفه كل منا للآخر. لا أحد يعرف أحدا آخر، ويجهله في نفس الوقت، مثل الزوجين. حين تقول لك زوجتك إنها تعرفك أكثر مما تعرف نفسك صدِّقها، فهي تراك من حيث لا ترى أنت نفسك. وحين تشعر أن زوجتك لا تعرف عنك شيئا صدِّق نفسك أيضا، ففيك جوانب لا تراها هي أو تفهمها. والحل؟ لا أعرف، ليتني أعرف، ليت أحدا يعرف، لَسَهَّل علينا كلنا حياتنا.

عادة ما يصل الأزواج إلى نقطة لا يحبون فيها حياتهم دون أن تشكل بالضرورة جحيما لا يطيقونه؛ بعضهم يتجاهل الأمر ويستمر، وقد ينتهي بهم الأمر إلى أن يعتادوا هذه الحالة التي لا هي باردة ولا ساخنة، لا سعيدة ولا تعيسة. وبعضهم ينتهي به الأمر إلى أن يحبوا حياتهم بشكل جديد. لكني أنا وأمك تجاوزنا هذه النقطة، وصار بيننا، إضافة إلى هذا الفتور، حالة من عدم الثقة ومن العداء والغضب المتبادل. لكن لا أنا ولا هي تحدثنا عن الطلاق؛ قد نقول إننا تفاديناه من أجلك لكني لا أظن ذلك صحيحا. أظن أننا فقط لم نرد ذلك الإعلان المدوِّي بالفشل، لا أمام الناس ولا أمام أنفسنا. وفي نفس الوقت لم نحاول العودة للعيش معا. استقر اللواء القطان في بيته ومعه ندا وأنت، وكان ذلك طبيعيا في البداية بحكم مجيئكم من السفر معا، لكن لا هي سألت عن بيتنا ولا أنا اقترحت عليها الانتقال. بل ظللت على سطح بيت أختي، مع رفيق سكني عبده، وظلّت زوجة عمك وأبناؤهما في بيتنا القديم، وهي مع أبيها،

وأعفانـا ذلك من عناء البحث عن مبرر للانفصال. لكني كنت أتردد كثيرا عليكما، كي نلتقي أنا وأنت.

ولعلك تذكر هذه الشهور الصعبة، ولقاءاتنا المرتبكة، الصامتة، ومحاولاتك المستمرة للتهرب من لقائي. صدقني أني لم أغضب منك، وحين عرفت أنك قلت لابنة عمك لارا إنك لاتحبني، إنك ترى فيَّ أبًا فحسب لكنك لا تكنّ لي حبا، غضبت من نفسي لا منك، وعلمت أني قصرت في حقنا. أنا المخطئ، فلا تلُم نفسك على عدم محبتك لي، أو حتى على الضغينة التي قد تحملها إزائي، فكلنا نحمل ضغينة على والدَيْنا وإن كبتناها. فأخرج ضغينتك في الهواء ولا تكتمها داخلك؛ فكر في أسبابها، وتَذكّر أني مثلك تماما لكني سبقتك بسنوات ليس إلا، حاولت قدر استطاعتي، وإن كنت قد جرحتك أو أهملتك فليس هذا لأني لم أحبك بل لأني فقط لم أنتبه بما يكفي، أو لم أفهم بما يكفي. وإن لم تسامح غفلتي فاعلم أني أسامحك، وأني أحبك بنفس القدر.

لكني لا أحب جدك القطان. وحين رأيته لأول مرة بعد عودته ساءني أن أجده كما هو؛ رقبته الغليظة لم تنحف، سحنته الصفراء كما هي، وخداه اللذان يحمرّان حين يتحدث لم تؤثر فيهما السنين. ظلت نظرته الثاقبة الساخرة التي توترني كما هي، وظل له هذه السطوة التي للناس الواثقين من صوابهم. تبادلنا التحية بمجاملة يعلم كلانا أنها زائفة، وتحدثنا عن الأحوال العامة، وأبدى سعادته بـ«المركز الذي وصلت إليه»، مضيفا أن لي سمعة طيبة لدى

«الجماعة» يجب المحافظة عليها، وفهمت من نظرته أنه يعني الجيش أو الأمن. واستمعت في صبر إلى رأيه فيما يحدث وما حدث منذ رحيله، وهي كلها آراء فلولية عن الفوضى التي تسببت فيها الثورة، وغباء الإطاحة بأمن الدولة الذي حرم الدولة من أعيُنها وتسبب في قتل آلاف الأبرياء دون داعٍ، وأن أمن الدولة في أشرس أيامه لم يقتل سوى عشرة آلاف من الإسلاميين المسلحين لا مئة ألف، لأنهم كانوا يعرفون شغلهم، وكيف أن فوضى الثورة هي التي أدّت إلى كل هذه الدماء، ثم إشادة بشجاعة عزالدين الذي يتحمل أخطاء هذه الفوضى، وأهمية العودة إلى النظام والانضباط لتفادي مزيد من الدماء، وهكذا. انتابتني الرغبة في الرحيل من أمامه فورا، فلم يكن بي طاقة لهذه الآراء. أدرك عبثها وعبث الرد عليها، ومن ثم أقول أقلّ عدد من الكلمات على أمل إنهاء الحديث بسرعة، ثم أتحجج بضرورة الحديث إلى ندا أو اصطحابك إلى مكان ما، وأنصرف من حضرته.

خلال أشهر الاستراحة التي منحنا إياها عزالدين بين يونية وسبتمبر تم الانتهاء من إعداد الدستور الذي عُرف بـ«دستور ١٧»، وبغض النظر عما حدث فيما بعد فإن وثيقة حقوق المواطن التي تَضمَّنها ظلت إنجازا رئيسيا لا أعتقد أن أي نظام قادم سيمكنه تجاهل مبادئها أو سَنّ تشريع يناقضها. ورغم الرعب الذي كان سيف محكمة الثورة يبثّه في قلوب الناس، ورغم جرح حرب السلفيين الغائر، فإن اللجنة الدستورية نجحت في إجراء سلسلة من المناقشات بطول البلاد وعرضها: في القرى والمدن الصغيرة،

في الوادي والصحراء، شمالا وجنوبا. استمعت اللجنة إلى آلاف الآراء، وأخذت هذه المناقشات في الاعتبار وهي تعد المسوَّدة الأخيرة للدستور، مما جعل قبوله في الاستفتاء مسألة مضمونة.

وقد كان. أعلنت القوى السياسية تأييدها لمشروع الدستور الدائم، وتم الاستفتاء عليه في ١ سبتمبر. وفور الإعلان الرسمي لنتيجة الاستفتاء، أعلن عزالدين في مؤتمر جماهيري بميدان التحرير وبحضور ممثلي الائتلاف الحكومي وأعضاء المجلس الرئاسي إقرار الدستور الدائم لمصر، ووقّعه أعضاء المجلس الرئاسي في هذا الاحتفال المهيب، ثم أعلن المجلس الرئاسي توجيه الدعوة لإجراء الانتخابات الرئاسية والتشريعية في ٣ يناير وسط تصفيق حادّ ومتواصل من الجماهير التي احتشدت بالميدان. وكانت هذه هي آخر مرة يشاهَد فيها أعضاء المجلس الرئاسي وممثلو الائتلاف معا.

في اليوم التالي طرح عزالدين مشروع قانون إصلاح الوظيفة العامة، وفهمت فورا أن الإجازة انتهت وعدنا لاستكمال برنامجه لتصفية أعداء النهضة الذي حدثني عنه منذ شهور. تضمنت الإصلاحات منح العاطلين عن العمل معاشا قدره سبعمئة جنيه شهريا. في المقابل، نص مشروع القانون على تخفيض عدد الوظائف في الجهاز الحكومي إلى النصف خلال العام الأول، ثم الربع خلال العام التالي. قال محمود بشير إن هذا جنون، فمن أين سيعيش هؤلاء الملايين الأربعة وأسرهم؟ وردّ عزالدين بأن البديل

هو غرق الاقتصاد وأجهزة الدولة، وأن المشروعات التدريجية للإصلاح الإداري مضيعة للوقت والجهد والمال ولا يمكن أن تنجح. سيكون الأمر مؤلما لهؤلاء الملايين الأربعة، لكنه سينقذ مصر كلها. أضاف عزالدين أن معظم موظفي الدولة لديهم مصادر أخرى للدخل، وكل من يفقد وظيفته سيجد معاشا أو إعانة بطالة لا تقل كثيرا عن راتبه، ويمكنه البحث عن عمل في القطاع الخاص أو بدء مشروعه الخاص دون أن يعيق عمل أجهزة الدولة ببطالته المقنَّعة.

لم يقنع هذا الكلام أحدا غير مؤيدي الإصلاح الجذري الذين يمثلهم عزالدين، وكان واضحا أن هذا «الإصلاح» لن يمرّ دون معارضة شرسة من نقابات العاملين بجهاز الدولة وحلفائهم اليساريين، وهم أعضاء في الائتلاف الحكومي. وهو ما يعني جولة أخرى شرسة من المواجهات. وبدأت أشعر بالتعب؛ البلد كلها تعبت من حربين متعاقبتين في عام واحد، ودماء غزيرة سالت. ما كان يمكن لأحد تصديق حدوث كل هذا، فما بالك بحدوثه في أقل من عام؟ وأيا كان الهدف من وراء هذه المواجهات، وأيا كانت سلامة المنطق الكامن خلفها، فإن الناس قد تعبت، وأنا معهم. ذهبت تلك الليلة إلى عزالدين وانتظرت ساعات حتى استطعت مقابلته وقلت له هذا، فنظر إليّ بهدوء بارد وهزّ كتفه في لا مبالاة ولم يردّ. لم أحتَجْ إلى أكثر من هذا كي أفهم.

قال محمود بشير إن هذا المشروع جنوني، وحين رأى إصرار عزالدين عليه قال لي إن هذا إعلان للحرب، واستقال من المجلس

الرئاسي. انسحبت المجموعات اليسارية معه من الائتلاف الحكومي رغم محاولات عزالدين المستميتة لاستبقائهم، ولم يعد في التحالف غير الديمقراطيين والإخوان. كانت تلك مقامرة كبرى: فحتى إن نجح عزالدين في هزيمة النقابات واليسار فستؤدِّي الصعوبات المعيشية الناتجة عن مشروع الإصلاح إلى خسارته للانتخابات. من ناحية أخرى، فإن القضاء على اليسار سيترك الديمقراطيين وحدهم أمام الإخوان والعسكريين. قلت هذا الكلام لعزالدين، وحذرته من أنه قد يقع ضحية نجاحه وينتهي الأمر باتفاق العسكر والإخوان ضده، فلم ينكر الخطر. دخلنا في مناقشات مطولة حول أفضلية هذا السيناريو على الحلول الأخرى، وكان رأيه هو ومعاونيه من الشباب الديمقراطي أن كل السيناريوهات متشابهة الخطر والفائدة، لكن الإصلاح واجب وطني، وأولوية.

وقّع المجلس الرئاسي مشروع القانون في منتصف سبتمبر وسط احتجاجات عارمة نظّمتها النقابات والأحزاب اليسارية التي أطلقت يد أنصارها في معارضة عزالدين وحكومته. قال لي عزالدين إن الأمر يبدو كأنه انتقام شخصي من محمود، الذي شعر بأنه كان أسيرا لديه طوال الفترة السابقة. كان في هذا الوصف جانب من الصدق، لكن كانت هناك أيضا الانتخابات الوشيكة، ومن المنطقي أن تحاول كل كتلة توسيع وتقوية قاعدة تأييدها في الشارع تمهيدا للانتخابات. أما لماذا لم ينتظر عزالدين حتى نهاية الانتخابات فأمر آخر؛ كان يعمل كأنه ليس لديه يوم آخر، ولست متأكدا مما إذا كان هذا بسبب الزخْم الثوري الذي يدفعه وأنصاره

أم فقط نتيجة افتقاره إلى الصبر. كلما سألته ردّ عليّ بأنه لا يملك الوقت ليضيعه في الانتظار، حتى كففت عن سؤاله.

لم يُلقِ عزالدين بالا لتحذيراتي ولا للاحتجاجات الواسعة. وبدأ الإصلاح بإنهاء عقود العمالة المؤقتة بالكامل، بما فيها المعينون بعقود منذ سنوات. وحين اعتصم الموظفون وأغلقوا مداخل ومخارج الأجهزة الحكومية ألقت قوات الشرطة القبض عليهم لمخالفتهم قانون الاحتجاجات الذي تم إقراره من قبل والذي يقضي بعدم جواز قيام المضربين عن العمل باعتراض طريق غير المضربين. كما أن المعتصمين كانوا دائما ما يخرقون القانون بشكل أو بآخر، بالاعتداء على أحد كبار الموظفين أو بتحطيم باب أو جدار، فتنقضّ عليهم الشرطة وأحيانا قوات الانتشار وتشحنهم جميعا إلى السجن.

- ١٣ -

ألقى عزالدين بآلاف المضربين في السجون. لم يتعرض أحد منهم لسوء معاملة، بل ظلوا جالسين في الحبس الاحتياطي في انتظار التحقيق معهم في التهم المنسوبة إليهم. لكنه أوقف مرتباتهم بسبب إضرابهم عن العمل أو تسريحهم، فقطع بذلك أرزاقهم تماما وأنهك قدرتهم على المقاومة. وكلما صعّدت النقابات الإضرابات ألقت الشرطة القبض على مزيد، وإذا قاوم المعتصمون الشرطة

تدخلت قوات الانتشار. وبنهاية نوفمبر خمدت الإضرابات والاعتصامات التي نظمتها النقابات داخل المصالح الحكومية، لكن الغليان الشعبي استمر، وغذّاه وقاده أحزاب اليسار. وهنا وجّه عزالدين ضربته القاصمة إلى صديقه وحليفه القديم والكتلة التي يقودها.

في أول ديسمبر ألقت الشرطة القبض على محمود بشير بتهمة الفساد وتسهيل الاستيلاء على المال العام من خلال شركة الإنتاج التي تملكها شريكته السابقة سالي القصبجي. لم أعلم بالخبر إلا من وسائل الإعلام، وصُدمت. حاولت الاتصال بعزالدين لمدة يومين ولم أفلح، فاتصلت بأسماء ووجدتها منقبضة وعازفة عن الحديث. كانت جرائم الفساد من اختصاص محكمة الثورة اللعينة، ولم أصدق أن ذلك تم بمعرفة عزالدين؛ لا يمكن أن ينحدر إلى هذا المستوى، لا بد أن هذا مِن فعل الشباب الذين ملأ بهم مكتبه. ولم يجدوا غير سالي القصبجي مرة أخرى؟! ألم يُسعِفهم خيالهم بطريقة أفضل لمحاربة محمود؟! وقبل أن أستطيع الحديث إلى عزالدين كانت بكرة الفضيحة قد بدأت تكر: عادت إلى السطح قضية تنظيم الدعارة الذي تورطت فيه سالي، ثم ورد اسم ميرفت باعتبارها الفتاة التي خصّصتها سالي للترفيه عن محمود مقابل توسطه لتسهيل حصولها على تسهيلات ائتمانية. ثم تم القبض على ميرفت وسالي باعتبارهما شريطتين في جرائم ضد الثورة. وهنا تسربت أنباء أخرى عن علاقة عزالدين نفسه بميرفت، وظهرت على الإنترنت تسجيلات صوتية تتحدث فيها ميرفت مع سالي

عن اكتشاف زوجة عزالدين لعلاقته بها وطردها من خدمتهما، ثم تناثرت إشاعات أخرى عن إعدام حسن أخو ميرفت، وتم ربط ذلك بعلاقات أخته المريبة، وامتلأت الإنترنت بقصص وإشاعات لا حصر لها في نفس هذا الاتجاه.

كان ما يحدث كارثة، لكنها أيضًا تنبئ بأن كارثة أكبر على وشك الوقوع، وحين رأيت عزالدين وجدته صامتا، وفي عينيه إصرار بارد ومخيف. لم يبتسم، بل افترّ ثغره عن حركة تشبه الابتسام كأنها تقلص في عضلات الوجه، وربت على كتفي وهو يردّد أني أزعج نفسي بما لا داعيَ له. سألته عما سيفعل فقال إن محمود قد أسقط الحواجز وأصبحت الحرب الآن مفتوحة، لكنه سيحاول قدر الإمكان احتواء الموقف، فهو لا يرغب في التصعيد ويجد كل هذا صبيانيا. رجوته أن لا يترك الأمر لمحكمة الثورة، ولا يطلق العنان لغضبه، فربت ثانية على كتفي وطمأنني أن محكمة الثورة لن تفعل شيئا لمحمود، ولكنها ستضمن احتجاز كل هؤلاء اليساريين أطول فترة ممكنة إلى حين تجاوز مرحلة الإضرابات التي تهدد بشلّ اقتصاد البلد كلها والعودة إلى سيناريو الفوضى. أبديت تفهُّما لصعوبة الظرف، لكني رجوته أن يقاوم ميله للذهاب حتى نهاية الطريق. أومأ إليّ مطمْئِنا، وقبّلني على وجنتي وودّعني. خفت أكثر، فلم يقبّلني عزالدين على وجنتي منذ عشرين عاما على الأقل.

مع القبض على محمود بشير ارتفعت حدة المظاهرات التي تنظمها أحزاب وجماعات اليسار، وانضمّ إليها بعض الشباب

الديمقراطي الذي بدأ ينزعج من القبضة الحديدية لعزالدين وحرسه الحديدي. وردّ عزالدين بتوسيع المواجهة، فقامت قوات الأمن بحملة من الاعتقالات ضد كل مجموعات اليسار شملت الاشتراكيين الثوريين والثوريين الاشتراكيين والتروتسكيين ونقابيين وآخرين، كلهم بتهمة التحريض ضد الطابع الجمهوري للدولة. كانت تلك عملية تصفية كاملة تشبه تصفية السلفيين لكن دون قتال: تأتي بلاغات مجهولة وغير دقيقة للشرطة عن نشاط يستهدف الطابع الجمهوري للدولة، يعقبها اعتقالات. يكفي أن تكون قد حضرت اجتماعا لإحدى هذه المجموعات أو أسهمت في تنظيم مظاهرة أو فاعلية كي ينتهي بك الأمر في السجن وبملفك على منصة قاضٍ من قضاة محكمة الثورة. لم يترك عزالدين أحدا ممن يستطيع تنظيم إضراب او اعتصام إلا اعتقله. استمرّت بعض المظاهرات، لكن الأعداد قلّت كثيرا.

رأى عزالدين وأنصاره في ذلك بداية الانتصار، لكنهم كانوا مخطئين. فقد انتشر عدم الرضا، لا بسبب القبضة الحديدية وممارسات القمع التي تشبه أيام ما قبل الثورة فحسب، بل أساسا بسبب تدهور الظروف المعيشية، وبحدة، لقطاع كبير من الشباب الذي كان يعمل في الحكومة بعقود مؤقتة. وانضمّ إلى موجة السخط هذه قطاع أوسع، من الموظفين الذين يعرفون أن الدور آتٍ عليهم خلال شهور. وأيا كان المنطق الاقتصادي أو الإداري الذي يتحدث عنه عزالدين ووزراؤه، فإن الحقيقة الماثلة أمام أعيُن هؤلاء هي

قرب فقدانهم لوظائفهم التي ظنوها آمنة، وللعالم الذي يعرفونه. وسريعا، تَعمَّق هذا السخط وامتد ليشمل بقية قرارات عزالدين. وتذكر الناس فجأة أحكام الإعدام التي نُفّذت في حق أناس من النظام السابق لم يكونوا كلهم مذنبين، والسائقين المعتصمين الذين سقطوا على الأسفلت برصاص الحرس الحديدي، والسلفيين الذين لحقوا بهم، وبدأ السخط يتحول إلى غليان.

رأيت كثيرا من التقارير الأمنية التي تشير إلى تنامي هذه الحالة، وأعلم أن عزالدين رآها وقلّل من أهميتها. اتصل بي اللواء حامد وحادثني في الموضوع، وذهبت لزيارته واستمعت إلى شرح منه ومن بعض مساعديه، ورجوني شرح الموقف لرئيس الوزراء ومحاولة إقناعه بالتهدئة أو تأجيل «إصلاحاته» الإدارية، أو على الأقل إعلان تأجيل الجزء الثاني منها والاكتفاء بفصل العمالة المؤقتة. وقد حاولت كل ذلك وفشلت. قال عزالدين إن جهاز المخابرات العامة يبالغ، وإنهم لا يريدون نجاحه في هذه العملية لأنها ستزيل من أمامه آخر العوائق وهم يريدون إبقاء كل شيء كما هو ليستمروا في السيطرة على الأمور. لم يبدُ قلِقا، على الإطلاق، وحين رجوته التهدئة على الأقل حتى تمر الانتخابات الرئاسية والتشريعية قال إن الشعب سيختار في هذه الانتخابات ما إذا كان يريد الإصلاح الحقيقي أم لا، وإن كان الشعب يريد التهدئة فلينتخب شخصا غيره.

لكن الشعب لم ينتظر الانتخابات، وانفجر الغليان في منتصف ديسمبر. لم تكن المظاهرات التي اندلعت منظمة من قِبل قوى اليسار، فهذه كلها كانت تقبع في السجن في ذلك الوقت. بل كانت في معظمها عفوية، ربما ساعد اليساريون والإخوان في تأجيجها، لكنها كانت في معظمها عفوية. وسرعان ما تحولت المظاهرات إلى عاصفة كبرى من الاحتجاج. وبدا كأننا عدنا سنوات إلى الوراء؛ إلى يناير ٢٠١١. واصل اللواء حامد نصح عزالدين بتقديم تنازلات، لكنه رفض. وبعد التشاور المطول مع الشباب الديمقراطي قرر الصمود والمواجهة. لم يقتنع عزالدين وأنصاره أن هذه المظاهرات تعكس غليانًا شعبيًا واسع النطاق، بل ألقوا باللائمة على اليسار والإخوان. وفي الخامس عشر من ديسمبر بدأت القوات الخاصة عمليات القبض على قادة المتظاهرين بحجة انتهاكهم قانون الاحتجاجات، ووقعت مصادمات عديدة بين قوات الأمن والمتظاهرين راح ضحيتها تسعة قتلى. ثم انضم العديد من الشباب الديمقراطي أنصار عزالدين للمواجهات، وتدهور الموقف أكثر. وكردّ فعل أعلن الإخوان انسحابهم من الائتلاف الحكومي، فاشتعلت المظاهرات أكثر. وبدا واضحا أن حكومة عزالدين في طريقها إلى السقوط...

لكنها لم تسقط. قال عزالدين إن هذه المظاهرات التي تتمّ قبل الانتخابات الرئاسية والتشريعية بأقل من شهر ستؤدّي إلى إجهاض الانتقال الديمقراطي، وهو ما لن يسمح بحدوثه، وإن

القـوى المسـتفيدة من مثل هذا الإجهاض هي قوى الاسـتبداد التي تتأهـب للانقضاض على الثورة، ولن يستسـلم لهـم. ومن ثم أعلن حالـة الطـوارئ لمـدة ثلاثـة أشـهر وتأجيـل الانتخابات إلـى حين عـودة الهدوء أو نهاية فترة الأشـهُر الثلاثة أيهمـا أقرب. لكن الناس استقبلت خطابه هذا بالسخرية، وسمّوه «خطبة الإجهاض»، وبدأت المظاهرات تطالبه بالاستقالة وتشكيل حكومة وحدة وطنية. شكّلنا غرفة طوارئ شـاركت فيهـا الأجهزة المعنية بالدولـة وممثلون عن الكتلـة الديمقراطيـة التـي لـم يبقَ سـواها فـي الحكومـة، وفي كل اجتماعاتنا قال عزالدين إنه لن يسـمح تحـت أي ظرف بالعودة إلى حالـة عدم الاسـتقرار الحكومي التي سـادت مصر لأربع سـنوات، وإنه مسـتعد للخروج فـور إجراء الانتخابات، لكنـه لن يتراجع عن أي من إصلاحاته قبلها. واستمرت قوات الأمن في حملات القبض على من تعتقد أنهم قادة المظاهرات، وبعضهم من جماعة الإخوان، لكـن تعليمات عزالدين بتجنـب الصدام مع الإخـوان ظلت قائمة. وجدت اللواء حامد قلقا أكثر من المعتاد، وأسرّ إليّ بأن الأمور على وشك أن تفلت من السيطرة، وكنت أعرف مدى حرص هذا الرجل ودقتـه في اختيار ألفاظه فانتقل قلقه إليّ. لكني لم أفلح في نقله إلى عزالدين.

وفـي العشـرين من ديسـمبر أصـدرت محكمـة الثـورة أحكاما بالإعدام على سـبعة من قادة «محاولة إجهاض الجمهورية»، وعلى رأسهم محمود بشير.

في البداية لم أصدِّق الخبر. وحين أراني عبده إياه ظللت لوهلة أحدق في الورقة التي مد يده بها دون أن أرى الجملة التي تنصّ على إعدام محمود بشير. ثم رأيتها، ثم قرأت نص الحكم بأكمله، ووجدت أن سالي القصبجي من ضمن المحكوم عليهم بالإعدام، كما حكمت المحكمة على ميرفت بالسجن لمدة عام. بقيّة المحكوم عليهم كانوا مجرد أسماء بالنسبة إليّ ولم أقابل أحدا منهم في حياتي، لكن لا يساورني شك في أنهم بمثل درجة «ذنب» محمود وسالي. كان هذا جنونا محضا. نظرت إلى الورقة، وكل ما استطعت التفكير فيه أن عزالدين قد فقد عقله.

لم أنبس بكلمة، بل توجهت مباشرة إلى مكتب رئيس الوزراء، وبالطبع لم أجده، وظللت أطارده من مكان إلى آخر حتى عثرت عليه في بيته. قال الحرس إنه بالداخل، وقابلتني أسماء ودعتني للجلوس معها حتى ينتهي من مكالمات يُجرِيها بغرفة المكتب. سألتها إن كانت قد سمعت بالخبر فأومأت إيجابا وجلست صامتة. سألتها عن معنى مايحدث، فدمعت عيناها ثم أشاحت بوجهها وجففتهما، وعادت تنظر إليّ وهمّت بالحديث. ثم صمتت. بلعَت ريقها، وحين تكلمت جاء صوتها غريبا ومتقطعا. قالت إنها لم تعُد تعرف ماذا يمكنها فعله، فمنذ شهور وعزالدين لايستمع لها، منذ ماقبل حرب السلفيين. تتكلم ويتهدج صوتها ثم تصمت، وتعاود الكلام. قالت إن الجزء القاسي فيه قد استولى على بقيته، ولم يعد

عزالديـن القديـم يظهر إلا فـي لحظات قليلـة: وهو يفتتح مدرسـة ويتحدث مع طفلة، أو يدشـن مشـروعا للسكن لمحدودي الدخل، تلك الأشـياء التـي يفعل ما يفعله مـن أجل تحقيقهـا، أو ما يظن أنه يفعـل مايفعلـه من أجـل تحقيقها. سـألتها إن كانت لـم تعُد تصدقه فبكت، وقالت إنها لم تعد تعرف، لم تعد تعرف الصواب من الخطأ ولا الحقيقـي مـن المزيف ولا تعتقـد أنه هو نفسـه يعرف. ضاعت الحقيقة، قالت، أو ربما لم تضع لكنها لم تعد مهمة؛ المهم هو هذا، وأشـارت إلـى حكم المحكمة، وهـؤلاء القتلى، وكل هـذه الدماء. انهـارت باكيـة، ووقفـتُ عاجزا لا أعـرف ماذا أفعل وأنـا في بيتهما وهو بالداخل وهي ترتجف وتشهق من البكاء. مرّت خادمة في آخر الصالة ثم قامت أسماء ودخلت، وجلستُ وحدي أنتظر.

جـاء عزالدين بعد قليل مرتديـا روبا بيتيا أزرق اللون ويبدو عليه هدوء وسـكينة الرجل الجالس في بيته بعد الظهر يسـتريح. نظر إليّ فـي ترحاب ممـزوج باللـوم والترقب لمعرفـة ما أتى بـي هكذا بلا موعـد ولا اتصـال. جلـس أمامي ونظر مستفسـرا فـي ودّ لكن دون ابتسـام. أشـرت إلى حكـم المحكمة فهـز كتفيه وسـألني عما أريد منـه فعلـه. وبعد حـوار قصير بدأ عزالدين يشـرح ما جـرى في نفاد صبر وغضب، كيف تآمر محمود عليه منذ شـهور، وحاول إسـقاطه وحكومته ومشـروعه لإعادة بنـاء مصر من أجل حسـابات انتخابية ضيقة. وكيف حاول هو احتواءه طوال هذه الفترة، وفضّل اسـتبقاءه في الرئاسـة علما بأنه كان يسـتطيع التخلص منه في أي وقت، لكن

محمود لم يكن يرى سوى نفسه ومجده الشخصي... قاطعتُه سائلا إن كان أي من هذا يوجب إعدامه، فرد عزالدين بأن هذا حكم محكمة الثورة، وهو شخصيا كان يفضل الاكتفاء بسجنه لفترة طويلة... فقاطعته مرة أخرى مستنكرا كل هذا: ألا يكفي إخراجه من المجلس الرئاسي؟ فضحك عزالدين ساخرا، وربت على ركبتي عدة مرات وهو يقول إنه يحسدني على احتفاظي ببراءتي هذه رغم السنوات ورغم ما مررنا به.

استُغرق في رواية تفاصيل المؤامرات التي حاكها محمود: مع العسكر، ومع الإخوان، ومع النقابات، وكلها مؤامرات دنيئة تهدف إلى تحطيم مابناه هو وأنصار الثورة خلال سنوات، لا لشيء إلا ليعود محمود زعيما. ثم دخل في تفاصيل موضوع سالي، وميرفت، وادّعى أن محمود لطّخ سمعته، هو البريء، وأوشك على تدمير علاقته بأسماء وهدم بيته بقصص مختلَقة عن علاقته بميرفت، وهكذا. كنت أعلم أنه غير محق على الأقل في هذه النقطة، لكن ماذا أقول له. ظللت أحاول إيجاد مخرج لمحمود، ثم استعطفته، لكنه لم يَلِنْ. قال إن ما يجري الآن معركة حياة أو موت؛ إما تنجو الديمقراطية وتنتقل مصر إلى مصافِّ الدول والمجتمعات الطبيعية، وإما تسقط مرة أخرى في البئر التي يحاول إخراجها منها. وفي سبيل إنقاذ مصر، لن يتوقف أمام حياة سكير منحلّ لا هم له إلا ذاته المتضخمة. قال ذلك، وهمّ واقفا، متحججا بموعد لديه. قام ومضى نحو الطابق الأعلى حيث غرفته ليغير ملابسه. وراقبته

وهو يسير نحو السلم وقلبي يوجعني من الألم، وكانت هذه آخر مرة رأيته.

قضيت المساء أحاول زيارة محمود في سجنه، لكن مدير مصلحة السجون رفض التصريح لي قائلا إن الأمر يتطلب إذنا من محكمة الثورة نفسها، وبالطبع كان ذلك يقتضي موافقة عزالدين. حاولت من خلال مكتبه، ومن خلال أسماء، وظلوا يقولون لي إنهم يحاولون الحصول على الإذن، لكن الوقت مرّ دون أن يصدر. اتصلت باللواء حامد وطلبت مساعدته، ولو بصفة شخصية، في التصريح لي برؤية محمود، لكنه لم يستجِب، بل دعاني إلى التخلي عن الفكرة قائلا إنها ستكون قاسية أكثر من اللازم عليَّ وعلى محمود، خصوصا أن عزالدين قد اعتمد الحكم وسيجري تنفيذه في الصباح. صُدمت مرة أخرى: بهذه السرعة؟ قال اللواء حامد إنه في مثل هذه الأحوال يُستحبّ عدم إضاعة الوقت كيلا يتحول الموضوع إلى مادة للإثارة السياسية. كدت أنهار وأنا أحدثه، ولم أعد أجد الكلمات لوصف غضبي واشمئزازي من هذه القسوة غير المبررة، فغلبني الصمت من حنقي، واللواء حامد على الجانب الآخر من الخط يدعوني إلى قَبول الأمر الواقع، فهذه سياسة، ومحمود هو الذي صعّد الموقف إلى هذه النقطة، وعزالدين لا يستطيع التراجع بعد كل الدم الذي سال، ولاتحمّل نفسك فوق طاقتها، وعُد إلى بيتك واسترِح ونَم قليلا. قال هذا فعلا، قال لي أن أعود إلى بيتي وأنام ريثما يشنقون صديقنا المشترَك.

لم أعد أعرف ماذا يمكنني فعله، وظللت أنا وعبده نجوب الشوارع ليلا دون وجهة محددة، صامتين، ثم عدنا إلى البيت. وبالطبع لم أنم. ظللت بين فراشي وبين المكتب والوقوف في برد السطح والتطلع إلى السماء. أوجعني قلبي حتى شعرت بألم حقيقي في صدري، والعبرات تخنقني لكنها لا تأتي وتريحني. لا شيء يزيح مثل هذا الهمّى عن الصدر. لكني في وسط الحزن والعجز والرثاء لنفسي ولأصدقائي ولكل ما حدث شعرت أني أرى شيئا لم أرَه من قبل. فجأة أحسست بجدية ما يجري؛ ليس هذا لعبة نلهو بها ثلاثتنا، ليس حلما أو مشروعا نجرّبه وننجح فيه أو نفشل. فجأة شعرت أن هذا قتل حقيقي، وصراعات جديا ، ودماء بشر تسيل. ستسألني إن لم أكن قد فهمت هذا من قبل، حين سقطت الآلاف قتلى، وأعترف لك أني لم أفهم إلا ساعتها، حين كان صديقي في طريقه لحبل المشنقة. كان الباقون بالنسبة إليَّ أرقاما، أما هذا فلا. ساعتها شعرت أن عزالدين قاتل، لا صديق حالم يحاول تحقيق حلمه بوطن أجمل ويواجه أشرارا يحاربونه ويحاربهم. تبا له ولحلمه، ولأصدقائه وأتباعه وكل من أسهم في عمله الدموي. ساعتها فقط أحسست بحقيقية كل هذا القتل، ولا أدري ما الذي أخّرني إلى هذا الحد. ساعتها شعرت بغضب عميق إزاء عزالدين، ونمت من الإعياء وهذا الغضب يتراءى لي أحلاما مزعجة.

عندما استيقظت كانت الساعة التاسعة والنصف، وعلمت من عبده أن الحكم تمّ تنفيذه في الثامنة. وران صمت عميق على

مصر كلها. حتى المظاهرات توقفت ولزم الناس بيوتهم، كأنهم لم يصدقوا أن عضو المجلس الرئاسي ورئيس الوزراء السابق وزعيم التيار اليساري قد أُعدِمَ. هل هذا هو الأثر الذي أراد عزالدين إحداثه؟ ربما، فقد انتشرت الشرطة في كل الميادين وأماكن التجمع الفارغة واحتلتها، وأقامت الحواجز للحيلولة دون عودة المتظاهرين إليها. وظلت الأمور هادئة صامتة لعدة أيام، حتى رأس السنة الميلادية مر دون احتفال. شخصيا لم أغادر بيتي، ولم أذهب أو أتصل بالمكتب. لم أكن أستطيع رؤية عزالدين أو الحديث إليه؛ ستفضحني عيناي. لكن الصمت لم يدُم سوى أسبوع. وفي ٣ يناير، موعد الانتخابات الأصلي، عادت المظاهرات من جديد. ولم تسعف ساعتها تحصينات الشرطة في شيء، وظلت المظاهرات تكبر دون توقُّف، واشتبكت مع قوات الشرطة، وسرعان ما فقد المتظاهرون سلميتهم...

استمرت المواجهات العنيفة ستة أيام، في اليوم الرابع كفّت الشرطة المحلية ـ معقل نفوذ عزالدين وأنصاره ـ عن محاولة منع المظاهرات أو تفريقها مكتفية بحماية الأحياء والمنشآت العامة من التخريب. وفي اليوم الخامس توقفت قوات الانتشار عن التدخل، ولم يعد هناك من يواجه المتظاهرين سوى الشرطة الجنائية، وهي غير مؤهلة لفض التجمهر أو التعامل مع المتظاهرين مما رفع عدد القتلى من الجانبين. وبعد يوم واحد من انسحاب قوات الانتشار أعلن عضو المجلس الرئاسي الوحيد المتبقي عن إحالة عزالدين

فكري إلى محكمة الثورة بتهمة تهديد الطابع الجمهوري للدولة.

كتب كثيرون في تحليل هذه الأيام وتفسير خلفية هذا القرار الانقلابي. ولا أعرف شخصيا التفاصيل من قُرب، حيث كنت معتكفا في منزلي طوال هذه الأيام. قيل إن العسكر اتفقوا مع الإخوان ضده، وهذا مؤكد. لكن من المستحيل في رأيي نجاح اتفاقهما دون موافقة ولو ضمنية من جانب الديمقراطيين أنفسهم. لا أعتقد أن أحدا كان يمكنه الإطاحة بعزالدين لو دافع عنه أنصاره الديمقراطيون، خصوصا الحرس الحديدي وقضاة محكمة الثورة الذين شكّلوا قوته الضاربة. ومما يؤكد لي ذلك أن قلة من القيادات الشبابية الديمقراطية ـ أنصار عزالدين ـ أُطيحَ بها معه. فباستثناء عدد محدود من المقربين له والعاملين بمكتبه، لم يتعرض أحد لأنصاره، بل وتراهم اليوم في صدارة المشهد السياسي. هل تعبوا هم أنفسُهم من عزالدين وقبضته الحديدية فسلّموه لخصومه؟ هل استخدموه من البداية في أداء المهامّ الصعبة نيابة عنهم بحيث يتخلصون منه عند إتمامها ويتولون القيادة دون تحمُّل ذنب الماضي؟ أم أنهم اضطُروا تحت ضغط تحالف الإخوان والعسكر وقرروا المهادنة لإنقاذ معسكرهم السياسي من مواجهة قد تكلفهم شعبيتهم؟

لست متأكدا، لكن دعني أكمل قصتي وسأعود إلى هذا لاحقا إن تبقي لدى وقت. أحيل عزالدين إلى محكمة الثورة التي نظرت قضيته في جلسة عاجلة ومغلقة، وحكمت عليه بالإعدام شنقا، ونُفذ فيه الحكم بعدها بثلاثة أيام، ودُفن في مقبرة متواضعة بطريق الفيوم.

- ١٥ -

هَرِمت.

شعرتُ أن حياتي شارفت على نهايتها. في أقل من شهر، قُتل أقرب صديقين لي، في ظروف بالغة الظلم والبشاعة، وكلاهما بيَد الآخَر، تقريبا. وقُتلت وسُجنت امرأتان قريبتان منهما ومني، في نفس الظروف. وانهار معهما عالمي كله؛ لم يكن لي حياة شخصية منذ ماتت علاقتي بأمك وقتلتُ أنا علاقتي بنور. لم أكن مهتما بجاه أو مال، واستعضت عن الحياة الشخصية بدوري في قلب الدولة الذي كبر حتى صار جزءا من مشروع كبير لإعادة بناء وطن ومجتمع، ثم صغر حتى صار مجرى من الدم الملوث بالفساد والمؤامرات. هرمتُ، في قلبي وفي نظرتي، بل وأظن أن الانحناءة التي أصابت ظهري حدثت لي في هذه الأيام. هل توجد كلمة تصف الشعور بالاختناق، والحزن العميق، والفقد، والضياع معا؟ ربما الفجيعة هي الأقرب، ومعها إحساس أني خُدعت، في كل شيء صدّقته وعملت من أجله. ومعها شعور أن العالم مليء بالشر والقُبح وعديمي الإنسانية، وأن الباقي سُدى.

ولأن رحمة الله واسعة فقد عادت صفية إلى مصر في هذه الأيام، فاحتضنتني. وانتبهت ونحن متعانقان أني لم يحضنِّي أحد منذ وقت طويل جدا. وتذكرت نور وغالبت دموعي، وضحكَت صفية وهي تدمع هي الأخرى وقالت ساخرة إننا صرنا رومانسيِّين. كنت أبكي حالي، وأفكر في نور، ففيمَ يا تُرى كانت تفكر هي؟ وانشغلت معها

في ترتيب أحوالها وأحوال أبنائها. ظل إبراهيم زوجها بإيطاليا ليدير عمله من هناك، وقررت هي العودة مع الأولاد، على أن يأتي لزيارتهم من وقت إلى آخَر. لم أسألها إن كان بينهما أمر ما، مكتفيا بالسعادة التي يسبغها على وجودها هي وأبنائها. طلبَت مني البقاء بالمنزل، وقررت الاحتفاظ بعبدُه، ووافقتُ لكن عبده لم يشعر بالراحة وأصرَّ على الرحيل. حاولت قدر الإمكان ثنيه عن ذلك لكنه تَمسَّك برغبته. ظننت أنه غاضب مني بسبب ما حدث لميرفت ومن قبلها حسن، لكن اتضح أن هناك أمرا آخر، أكثر بهجة من ذلك. غادر عبده، متخذا لنفسه سكنا مستقلا في شقة صغيرة في إسكان الشباب بالتجمع الأول بحيث يكون على مقربة مني وأيضا على مقربة من خديجة وأبنائها، وحيث إني استمررت في التغيب عن المكتب فقد انتهز هذه الفرصة لقضاء أوقات أطول مع عائلة خديجة وفي مساعدة أختي وأبنائها، وسرعان ما أحبوه مثلما أحبَّته خديجة وبناتها، وصار كأنه واحد من العائلة.

فكرت كثيرا في أسماء، لكني لم أجرؤ على زيارتها أو الاتصال بها. تَكفَّل عبده بذلك، وقال لي إنها بخير؛ خصصوا لها حراسة لائقة وتركوها في حالها. لم يكن لها عائلة بمصر، ولا أصدقاء فيمن أعرف. وكان الواجب يدعوني إلى الاتصال بها والسؤال عنها لكني لم أقوَ على ذلك. طلبت من عبده، مبعوثي للشئون الإنسانية الصعبة، الاطمئنان عليها من حين إلى آخر، وابتلعت شعوري بالذنب وسكتّ.

كنت أعلم أنه يتوجب عليّ العودة للعمل، أو الاستقالة، أو على الأقل طلب إجازة، لكني ظللت أؤجل الأمر. أريد بعض الراحة، أريد أن أطفئ النور وأنام، لسنة أو سنتين، دون أن يزعجني أحد. زهدت في كل شيء: الحكومة والدولة والديمقراطية والحرية وكل هذا. كل هذا هراء وعبث وموت. ولم أعد أريد منه شيئا. كل ما أبغيه هو بعض الراحة. لكن أين أجدها هذه الراحة؟ أريد الفرار من السياسة وأهلها وتوابعها، لكن إلى أين؟ تذكرت نور طبعا، ورأيها في انعدام جدوى العمل بالسياسة. لكن إلى أين نذهب إن نبذنا السياسة؟ أين نختبئ؟ هل تنجو هي من السياسة، هي ومسرحها المتنقل بين القرى والنجوع، أم تتظاهر فقط بأنها لا ترى السياسة وتوابعها على حياتها كل يوم؟ وحين ترتطم بها، أين تذهب؟ للتمثيل؟ هل هذا هو الحلّ: أن نعيش كلنا في عالم متخيَّل، بين قوسين، بين ستارَي الافتتاح والنهاية؟ لن أنجو من السياسة وتوابعها ولو أغلقت عليّ بابي؛ ستجيء إليّ وإن لم أذهب إليها. لا يوجد مكان محايد، لا يوجد ملاذ.

كنت حزينا ومصدوما حتى النخاع. فكل من محمود وعزالدين كان أخا لي، وأكثر. كان عزالدين قريني كما يقول الفراعنة، كأنه أنا آخر، اختلفنا في شخصياتنا لكننا تشاركنا في كل شيء آخر تقريبا: كبرنا معا وأحببنا نفس الأشياء وحلمنا بنفس الأشياء واعتنقنا نفس القيم والأفكار. وحين حدث ما حدث انهارت ثقتي في كل هذا الذي تشاركناه، في أحلامنا وقيمنا وأفكارنا. انهار البناء الذي أستند إليه، وظللت عالقا هكذا وحدي في فراغ.

لُـذت بالصمـت، فلم يعُد عنـدي ما أقوله، لم يعُـد عندي أجوبة علـى أي من الأسـئلة التـي يواجهها المـرء في يومه. هـل هذا جيد أم سـيئ؟ هـل يجـب تأييد هـذا أم ذاك؟ هل تـختار هـذا أم ذاك؟ لم أعُـد أدري كيف أختار. ما أدراني ما سـوف يقود إليه هذا الاختيار؟ لعـل القطـان علـى صواب، لعـل خبرتـه بالنـاس والنفس البشـرية أصـدق، ولعل كل ما آمنت به مجرَّد نظريات لا تتفق وطبائع البشـر فـي الحيـاة الحقيقية. كلام كتب عن الحرية وعن المسـاواة، أما في الواقع فينتهي الأمر بالناس وهي تتقاتل على النفوذ والسـيطرة. لعل الإخوان على حق، ولا يمكن ترك كل شيء للإنسان كي يقرره. من قال إن المسـاواة بين البشر ممكنة؟ من قال إن العدالة ممكنة؟ ومن قـال إن الإصلاح الاجتماعـي ممكن؟ إن رضي النـاس بالفوضى، أو بالظلم، أو بالتمييز فيما بينهم، أو بالتدهور في أحوالهم، فلِمَ يأتي أحـد ويحـاول تغييرهـم رغما عنهم؟ لعل هذه هي طبيعة البشـر كما يقـول هذا المعسـكر وذاك، ومَن أنا كي أعارضهـم، أنا الذي انتهت معتقداتـه وأفكاره إلى اقتتال الإخـوة حتى آخر نفس فيهم؟ صحيح أن النـاس يطالبون بالحرية والمسـاواة والإصلاح، لكن ربما كانت هـذه المطالب - كما يقول اللواء القطـان ـ مجرد كلام يقوله الناس للتسـرية عن أنفسـهم دون أن يكونوا على اسـتعداد لدفع ثمنها. قد يكون هذا هو الأمر: ليس الناس على استعداد لدفع ثمن ما يطلبونه، وسـواء كانوا يعلمون بذلك أو لا فالواجب يقتضي عدم الاسـتجابة لمطالبهـم، حمايـة لهـم، والتظاهـر بالعمـل علـى الاسـتجابة لهم

كيلا يشعروا بالإحباط. هي لعبة من التظاهر المتبادَل بين الحاكم والمحكوم، كما يقول القطان، مثل الوفاء والخيانة الزوجية، مطلب لا بد منه غير قابل للتحقيق، وشر لا بد منه، ومن إنكاره.

لم أجد ملاذا، لكنني اخترت الاختباء داخل فقاعتي الخاصة ولو مؤقتا. قضيت الشهر الذي تلا مقتل عزالدين ومحمود في العناية بك، وبصفية أختي، وبيتها، وخديجة، وأبنائهما. هذا هو الشهر الذي كنت آتي فيه كل صباح لاصطحابك لقضاء اليوم مع العائلتين المجتمعتين. ولا أدري إن كنتُ أتخيل أم أنهم بحكم إقامتهم الطويلة في إيطاليا صاروا يشبهون في تجمعهم مشهدا من الأفلام الإيطالية، بالمائدة الخشبية الطويلة الممتدة في حديقة منزل صفية، عامرة بشتى أنواع المأكولات والمشروبات التي أعدّتها المرأتان الصديقتان المتنافستان، والعائلتان من حولهما يأكلون ويتحدثون ويتشاجرون ويتصالحون وتتصالح، والأبناء من كل الأعمار يقومون ويجْرون ويرجعون، وكل أم ترمق أبناءها وسلوكهم وأكلهم وملابسهم والطعام وتقارنهم بأبناء الأخرى، والكل يتحدث ويضحك ويتشاجر في نفس الوقت، وعبده ينضمّ أحيانا إلى هذا المولد ويختلس نظرات إلى خديجة التي تتظاهر بأنها لا تلاحظه وصفية تُخفِي تعبيرات وجهها تماما كأنها لا ترى أيا منهما، وأنا جالس في نهاية المائدة صامتا وشارد الذهن، أنظر إليهم كأني جالس أرقبهم من فوق السطح لا بينهم. أحيانا أتساءل: مَن منهم سيَقتل مَن حين يكبر؟ وأحيانا أفكِّر أنهم يعيشون هنا في

فقاعة من الجمال والبراءة ورغد العيش سرعان ما سيغادرونها، وأحيانا أفكر أن الحياة تجد طريقها رغم كل هذا الموت.

وجدت الحياة طريقها المعتاد خارج الفقاعة أيضا، فعلى عكس صدمتي فيما حدث شعر عموم الناس بالارتياح لاختفاء عزالدين ونظامه الحديدي المرعب. وبدأت ملامح الارتياح هذه في الظهور سريعا وفي أبسط الأشياء، كعودة الباعة الجائلين، والركن صفا ثانيا، واللحى والجلابيب السلفية في المصالح الحكومية، كأن الناس تتنفس الصعداء بطريقتها؛ تمد أرجلها، وتأخذ راحتها، وتستيقظ متأخرة، تسترخي بعد نهاية كابوس النظام الصارم الذي أطبق على رقابها أكثر من عامين.

قادت البلادَ حكومة تسيير أعمال ائتلافية رأسها العضو المتبقي بالمجلس الرئاسي. وأعلن في أول بيان له إنهاء حالة الطوارئ ونهاية «عصر الرعب والإرهاب» كما سمَّاه. كما أعلن عن حلّ «محكمة الثورة» وتعليق العمل بقانونها إلى حين انتخاب مجلس تشريعي يراجع هذا القانون. وفي الخامس والعشرين من يناير (عيد الثورة) دعت الحكومة لإجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية بالتوازي كما ينص الدستور الجديد، وحددت الحادي عشر من فبراير موعدًا لها. وعنى ذلك أن الفترة المتاحة للدعاية الانتخابية لن تتجاوز أسبوعين، لكن الناس كانت منهكة، ولا أحد يريد دعاية انتخابية أو حديثا في السياسة برمتها. كل ما أراده الناس هو تجاوز هذه المرحلة ونسيانها بأسرع وقت ممكن، ومن ثم قوبل

إعـلان حكومة التسـيير بارتياح عـامّ. احتفظ وزير الدفـاع بمنصبه، لكنه أقال مدير المخابرات العسـكرية الذي عيّنه عزالدين في اتفاقه مع العسـكريين. ولم ينضـمّ أي من الوزراء الموالـين لعزالدين إلى هـذه الحكومـة، كما أُقيـلَ مديرو الشـرطة الشـعبية والجنائية وقائد قوات الانتشـار وعُيِّـن نوابهم محلَّهم بصورة مؤقتـة إلى حين إتمام الانتخابـات وتشـكيل حكومة جديـدة، ولكن اللـواء حامد احتفظ بموقعه مديرا للمخابرات العامة.

جـرت الانتخابـات فـي جو مـن الهـدوء يـكاد يصل إلـى عدم الاهتمام، واكتسـحها الإخوان المسـلمون الذين حصلوا على أكثر مـن نصـف المقاعد بقليـل، يليهم المسـتقلون الذيـن حصلوا على الثلث، وتراجع الديمقراطيـون الموصومون بالإرهاب الثوري فلم يفوزوا إلا بخُمس المقاعد، في حين فشـل المرشـحون اليسـاريون الخمسـة في الحصول على أي مقعد. وفي نفس الوقت، فاز مرشح الإخوان سـعيد بيومي بمنصب الرئاسـة، ليصبح بذلـك أول رئيس منتخب في اقتراع حر ومباشر منذ ثورة ٢٠١١.

الفصل الخامس

- ١ -

سافرت أسماء إلى الولايات المتحدة، وكان ذلك أفضل حل لها وللجميع. فلم تكن تستطيع مواصلة حياتها في مصر بشكل طبيعي. حتى أنا، أقرب الناس إنسانيا إلى زوجها، لم أستطع حمل نفسي على زيارتها أو حتى الاتصال بها تليفونيا. لن يراها أحد دون التفكير في جرائم زوجها الذي صار يُعرف بـ«السفاح». كلنا تبرأنا مما حدث، ابتداء من قادة الحرس الحديدي الذين نفذوا عمليات القتل، وانتهاء بالناس الذين قدّموا البلاغات ضد جيرانهم، وألقينا بالمسئولية كلها على عزالدين، السفاح، الدكتاتور، الدموي. أزلناه من تفكيرنا ودفنّاه في خلفية الذاكرة كسفّاح أسطوري مر من بيننا، لا علاقة لنا به، نحن ضحايا جنونه. لكن بقاء أسماء بيننا يحول دون إتمام هذا الدفن، فلن ينظر إليها أحد دون التفكير في أن هذه المرأة كانت تعيش معه، تأكل معه، تنام في حضنه، تراه وهو يحلق ذقنه في

الصباح، وهو بملابسه الداخلية، بالبيجاما. بقاء أسماء يذكّرنا بأن هذا السفاح واحد منا، وأننا جميعا كنا معه. ومن ثم رحّب الجميع بقرارها السفر، بمن فيهم أنا. قلت لنفسي إنها تربت وتعلمت هناك، ولا بد أن لها أصدقاء ومعارف، وحتى لو لم يكن لها أحد فأمريكا بلد الغرباء ولن تجد صعوبة في الاستقرار هناك والعيش بحرية، بل والبدء من جديد إن أرادت. لكنني لم أملك نفسي من الشعور بأننا ندفنها هي الأخرى.

قتلت عقلي تفكيرا في كل ما حدث، خصوصا فيما فعله عزالدين وكيف انتهى الحال بما انتهى به. لكنني لم أصل إلى نتيجة مُقنِعة. ليس لديَّ شك حتى اليوم في نياته. كان عنيدا بعض الشيء، ومعتزا بنفسه أكثر من اللازم، لكن ليس بدرجة غير عادية. كل المعارك التي خاضها فُرضت عليه فرضا. هل كان ينبغي عليه أن يقاتل بشراسة أقل؟ أكان من الأفضل أن ينجح أقل؟ وماذا لو فشل؟ ألم يكن ذلك ليعيدنا إلى ما كنا نشكو منه؟ هل شكوانا هي المشكلة إذن، وكان علينا القبول بالحلول الوسط؟ أعرف أن إراقة الدماء حين تبدأ لا تتوقف، لكن أليست ضرورية حين لا يكون هناك حل آخر؟ هل كان ما فعله إذن ضروريا، بما في ذلك نهايته هو؟ أليس هذا ما حدث في كل الثورات الأخرى؛ مرحلة من العنف تجتث النظام القديم وعوالقه ثم تنتهي بعنف مشابه ليبدأ الجميع من جديد؟ قال البعض هذا، وأحيانا كان يبدو لي أن عزالدين نفسه تعامل على هذا الأساس. لا يمكن تفسير إصراره على المضي قدما في مواجهاته الأخيرة إلا بهذا: كان يعلم بقرب نهايته، ويقبل بها ثمنا للتغيير،

ويحاول إنجاز أكبر قدر من هذا التغيير قبل أن يقضوا عليه. لكن من المستفيد إن كان عليك قتل الناس جميعا كي تصلح أحوالهم؟ لم أقتنع بأي مما قيل في هذا الأمر، وظللت أتساءل بيني وبين نفسي، ولم أجد الإجابة إلا متأخرا جدا، لكن ليس بعد فوات الأوان.

كان لا بد لي من حسم موقفي في الرئاسة، خصوصا وقد أصبح هناك رئيس حقيقي لا مجلس رئاسي مهلهَل من أشخاص بلا سلطة أو نفوذ. لم أرغب في العودة إلى عملي القديم سكرتيرا للمعلومات، فلم يعد بي طاقة لذلك العمل ومتطلباته، كما أن «الريس بيومي»، كما صار الشعب يسميه، سيأتي ولا ريب بأناس يثق بهم كي يتولوا مثل هذه المناصب. ومن ثم آثرت المبادرة وطلبت من رئيس الديوان الجديد، الدكتور سيد قناوي، إعفائي من هذه المهمة. لم يتمسك بي كثيرا، لكنه طلب مني البقاء في الرئاسة كي يمكنهم الاستعانة بي عند الضرورة خصوصا أني الوحيد الذي شهد العهود السابقة كلها دون التورط في أي منها بالكامل. صحيح أني كنت صديقا شخصيا لعزالدين، السفاح، والكل يعلم هذا، لكنهم أيضا يعلمون أني لم أكن من معاونيه السياسيين. اقترح قناوي أن أختار الوظيفة التي تناسبني فوافقت، وهكذا عدت إلى وظيفتي القديمة مترجما خاصا للرئيس، تاركا لرئيس الديوان تحديد مدى الاستعانة بي وفقا لما يراه مناسبا.

وكما أخبرتك، شعرت أن العمر تَقدَّم بي كثيرا في هذه الأيام، وبأن حياتي تُشرِف على النهاية. لم يكن عمري قد تجاوز الثامنة

والأربعين، لكن قلبي هرم، ولم أعد أنتظر شيئا من الدنيا أو أتوق إلى شيء فيها. ومن ثم جاء التغيير في إيقاع عملي متناسبا مع هذه الحالة: أذهب إلى مقر الرئاسة في الصباح، إلى مكتب آخر، أصغر بكثير ولا يطل على النيل، وأظل به عدة ساعات. أتأكد من خلوّ جدولي من مقابلات أو مهامَّ تتعلق بالرئيس، ثم أعود إلى البيت وأقضي بقية اليوم هناك. أحيانا أذهب لرؤية خديجة وأبنائها وأحيانا تكون هي عند صفية فنلتقي جميعا هناك. هذه هي الفترة التي حاولت فيها إقناع أمك بالعودة للعيش معي في بيت واحد. لم يكن قد جدّ شيء بيننا، لكني أردت لمّ شملنا معا ولو في حياة خالية من العواطف ومن الثقة. ربما استطعنا استعادة بعض الودّ، بعض الودّ قد يكفي لإبقائنا تحت سقف واحد: هي وأنت وأنا. لكنها رفضت. فاستعَضْت عن ذلك بقضاء أكبر وقت ممكن معك. لم يكن ذلك يروق لك؛ قضاء الوقت معي، لكنك كنت تحب قضاء الوقت مع لارا ابنة عمك. هل تظن أني لم ألاحظ ذلك؟ كلنا لاحظنا، خديجة وصفية وأنا، ولارا طبعا. وابتسمنا وصمتنا مثلما يتعين على الأهل في هذه الأحوال.

تحدثت كثيرا مع جدك اللواء القطان في هذه الأيام. لم يقلّ الجفاء بيننا، لكنه لم يمنعنا من الحديث، خصوصا أنه اتفق معي في محاولة إقناع ندا بالعودة للعيش معي. بدا عليه أيضا كأنه ينظر إليّ بنوع ما من الاحترام. أعلم أنه لم يحترمني فعلا في يوم من الأيام، لكنه فيما يبدو بدأ يقتنع أني لست عديم القيمة تماما، وأظن

أن صداقتي باللواء حامد مدير المخابرات، واستبقاء الريس بيومي لي بالرئاسة، أسهما في ذلك. فجدك كان دائما ـ دون مؤاخذة ـ رجلا انتهازيا محبا للمناصب ومكبرا لأهلها. وهكذا بدأ شيئا فشيئا يتخلى عن نغمة السخرية والاحتقار حين يحدِّثني، وبلغ به الأمر ـ مرة أو مرتين ـ أن فتح لي قلبه وناقشني في رؤيته للمستقبل. كنت قد فهمت من مجريات الأمور أن نفوذه في الجيش لا يزال كبيرا، ولم يقلّل منه طول غيابه. فكل هؤلاء الذين يحتلون مناصب قيادية هم من الضباط الذين عيّنهم هو ورقّاهم في الفترة التي تَولّى فيها وزارة الدفاع. وترك الريس بيومي أمر القوات المسلحة لقادتها في مقابل بقائهم بعيدا عن مجريات السياسة. كانت هذه هي المعادلة السائدة منذ الثورة الثانية، كما أن الجيش ساند الإخوان ضد عزالدين السفاح في عملية انتقال السلطة، ومن ثم سعى الطرفان لإبقاء التوازن بينهما كما هو. وأعتقد أن جزءا من رغبة الريس بيومي ورئيس ديوانه سيد قناوي في الإبقاء عليّ بالرئاسة كان إكراما لصهري، كأن كل طرف ظنّ أني مقرَّب إلى الطرف الآخر.

هدأت الدنيا كثيرا بتولي الريس بيومي مقاليد السلطة، وسعى هو ومن خلفه جماعة الإخوان إلى طمأنة الناس وتهدئة الخواطر وتفادي أي أمر من شأنه إثارة صراع سياسي أو حتى إطلاق مظاهرة أو وقفة احتجاجية. فهموا أن البلد كلها مُنهَكة، وعملوا على إراحتها. ومن ثم لم يقوموا في الشهور الأولى من حكمهم بأي أمر قد يستفز الناس أو يثير احتجاجهم. أدخلوا بعض التغييرات

في المناصب العامة، خصوصا قيادات القضاء ووسائل الإعلام والهيئات العامة بحيث يزيحون الوجوه المعروفة بقربها من السفاح أو التورط في أي من «جرائمه»، وشمل ذلك بعض القضاة ومسئولي الأمن. لكنهم فعلوا ذلك دون عنف أو إيذاء حتى لمن أزاحوهم. وأحلُّوا آخرين محلهم دون أن يكونوا بالضرورة من الإخوان أو الموالين لهم بحيث لا يتهمهم أحد بالسعي للاستيلاء على أجهزة الدولة. حتى التشكيل الحكومي جاء معتمدا بدرجة كبيرة على الخبراء المستقلين، ولم يقُم البرلمان بإدخال تعديلات تُذكَر على التشريعات السارية.

القرار الوحيد الهامّ الذي اتخذه الريس بيومي وحكومته خلال الأشهر الستة الأولى كان رفض القرض المقدم من صندوق النقد والبنك الدوليَّين، والذي كان مصحوبا بشروط صعبة تتعلق بإلغاء الدعم على الوقود والطاقة وبعض المواد الأساسية، والاستمرار في «إصلاحات» الوظيفة العامة التي بدأها السفاح. اتفق الاقتصاديون المصريون مع خبراء الصندوق والنقد على أهمية الالتزام بهذه الشروط لاستعادة الاقتصاد عافيتَه. لكن مَن الذي كان يستطيع تنفيذها؟ من الذي كان يستطيع المضي قدما في إنهاء خدمة مليونين من الموظفين، أو رفع الدعم عن الطاقة ومضاعفة سعر الوقود أو الخبز أربع أو خمس مرات؟ لا أحد سوى السفاح نفسه. حاولت الحكومة شرح الأمر للمؤسسات المالية الدولية، وأبدى القائمون عليها تفهُّمهم للظروف السياسية والاجتماعية الصعبة،

لكنهم قالوا إنه يستحيل عليهم منح هذه القروض لمصر دون التزامها بتلك الشروط.

من ثَمَّ، وبعد مشاورات سريعة، قرر الريس بيومي رفض العرض الدولي بالمساعدات الدولية، وسعى بدلا من ذلك لإقناع دول الخليج بتقديم مساعدات مالية وضمانات مصرفية دون هذه الشروط. في نفس الوقت اعتمد الريس بيومي على موارد الإخوان الخارجية لتقليل أثر الانكماش الاقتصادي، فتوسع الإخوان في شبكة المساعدات الاجتماعية وتقديم الإعانات والخدمات المجانية للفقراء، ودفع المهنيين كالأطباء والمدرسين والمهندسين للتبرع بجزء من وقتهم لتقديم الخدمات المجانية في المراكز الملحقة بالمساجد. بل نشأت مراكز جديدة مُلحَقة بالمساجد تقدِّم خدمات أكثر تنوُّعا وبالمجان أو مقابل أجور زهيدة، كإصلاح الكهرباء والسباكة والنجارة وغير ذلك من الحرف. وأصدرت دار الإفتاء فتوى تشجع الناس على إخراج الزكاة في اللجان العامة للزكاة دون غيرها، وأباحت استخدامها من قِبَل سلطات الدولة لتمويل الخدمات الاجتماعية. وقد قامت هذه الشبكة الواسعة بدور هام في منع انهيار مستوى معيشة الفقراء، لكنها لم تحُلْ دون زيادة نسبة البطالة أو ارتفاع مستوى التضخُّم وأسعار السلع الأساسية، وبدأت وزارة المالية تحذِّر من عدم قدرتها على دفع مرتَّبات الموظفين في نوفمبر إن استمرت حالة الانكماش الاقتصادي في الربع الثالث من العام.

- ٢ -

في أول يولية قرَّر الريس بيومي فتح معبر غزة للأفراد والبضائع بشكل رسمي ومستقر، رغم التحفظات التي أبداها اللواء حامد. وتم الاحتفال بتدشين المعبر الجديد الذي يسمح بمرور السيارات والبضائع مباشرة بين غزة ومصر لأول مرة منذ عام ١٩٦٧ باعتباره إنهاء للوضع الشاذّ الذي جعل مصر تبدو شريكة لإسرائيل في حصار غزة. ونقل التلفزيون صورا للمواطنين المبتسمين وهم يختمون جوازات السفر الجديدة التي أصدرتها حكومة غزة ويعبرون إلى رفح، وصورا لأرتال من السيارات المكتظة بعائلات وأطفال على وجوههم علامات الترقُّب وآباؤهم يلوِّحون بعلامة النصر ونساء متشحات بأغطية رأس ملونة يزغردن إيذانا بنهاية حصار غزة، وسيارات النقل الثقيل الفارغة تتأهب في طابور منفصل لدخول شمال سيناء والعودة ببضائع مصرية دون تهريب ودون موت في الأنفاق. بدت السعادة على الجميع، رغم التعب وساعات الانتظار الطويلة والزحام، وتساءل الجميع فيمَ كان الانتظار طوال هذه السنوات، ولماذا لم تفتح مصر المعبر من قبل؟! اللواء حامد أعرب لي عن قلقه ونحن نشاهد الحفل على شاشة التلفزيون، وقال ساخرا إن هذه الابتسامات ستتلاشى حين تبدأ المتاعب.

لكن لم يكن هذا وقت المتاعب، بل على العكس، بدا أن مصر قد وجدت حكومة عاقلة وشعبية في الوقت ذاته. الوضع الاقتصادي هو الذي أقلق الجميع، فقد اضطرت الحكومة إلى إعادة الموظفين

الذيـن فصلهم السـفاح إلـى أعمالهـم بالحكومـة، بـل وتثبيت من كان منهـم مؤقتًا. بلـغ عدد هؤلاء مليونًا، وقال خبـراء الاقتصاد من الإخـوان إن إضافة مليون على الملايين الثمانية العاملين بالحكومة لن يضير كثيرا، لكن رفض تثبيتهم له عواقب سياسية غير محمودة. هـذا، بالإضافـة إلى توسيع نطـاق الخدمات الاجتماعيـة، وجهود رفـع مسـتوى المستشـفيات العامـة، وزيـادة موازنة التعليـم، أثقل كاهـل ميزانيـة مختلَّة من الأصـل. لكن وجهة نظـر الحكومة كانت وجيهـة؛ فمـا دامت الميزانيـة مختلَّة، وتحتاج فـي كل الأحوال إلى دعـم خارجي، فمن الأولى زيـادة الإنفاق الاجتماعـي الضروري، والبحـث عن مصادر لسـد العجـز كله. لكن لم يسـتطع أحد العثور على مصـدر خارجي، وبعد رفض القروض الدولية المشـروطة لم تفلـح الزيـارات المتعددة لـدول الخليـج والأحضان التـي أغدقها الريـس بيومـي علـى شـيوخه فـي حملهـم على مـدّ يد المسـاعدة للميزانية غير الموزونة.

وهنـا ظهـرت إيـران. الريس بيومي الـذي أكد ضرورة اسـتعادة العلاقـات الدبلوماسـية الكاملـة مع إيران فـي أثناء انتخابـه تراجع حيـن مالت عليه دول الخليـج مطالِبة بتأجيل ذلك، وأيَّدهم في هذا اللـواء حامـد وجهاز المخابـرات الذي اعترض بسـبب عدم تعاون الجانـب الإيراني في عـدد من الملفات العالقة سـواء ما يتعلق منها بمصـر أم بالعراق أم سـوريا أم حتى الخليج. وكانـت إيران جريحة منـذ القصـف الجوي العنيـف لمنشـآتها النووية واحتـلال المنطقة

الساحلية من قِبَل القوات الأمريكية في ٢٠١٣. صحيح أن هذه القوات انسحبت بعد عدة شهور، ووجهت المقاومة الإيرانية إليها ضربات موجعة أسهمت في مسارعتها بالانسحاب، إلا أن الأضرار الجسيمة التي لحقت بها هزَّت صورتها وأضعفت مكانتها في المنطقة إلى حد كبير. كما أن الوجود العسكري الأمريكي المكثَّف على الشواطئ الشرقية للخليج، والقواعد الجديدة التي أقاموها بطول هذا الساحل، قد قضيا تقريبا على نفوذ إيران العسكري هناك. وأكملت الحرب الأهلية السورية، والضربات التي وجهتها إسرائيل إلى حزب الله في جنوب لبنان على هذا النفوذ. لم تقضِ هذه الضربات على النفوذ الإيراني بالكامل، لكنها حجَّمَته، تماما كالعقوبات الاقتصادية المفروضة عليها. وفي وسط كل هذا، وبسبب كل هذا، فإن استئناف العلاقات مع مصر وتحسينها كان مهما لإيران، وكان استعدادها لدفع ثمنه كبيرا. وهكذا تلاقت المصلحتان، وأسهم التسويف الخليجي في تقديم المساعدات لمصر، والتأييد الشعبي لاستئناف العلاقات مع إيران، في التوصل إلى الاتفاق الذي تم في آخر يولية والذي بموجبه أُعيدَت العلاقات بين الدولتين إلى مستواها الطبيعي بعد نحو أربعين عاما من الانقطاع.

وفي حين حلت الأموال الإيرانية مشكلة عجز الميزانية، فإنها أتت بمشكلات أخرى، فالأمريكيون الذين أخذوا يرقبون كل هذا بدءوا في القلق لتسارُع معدل التقارب. فتح الحدود مع غزة كان في حد ذاته مقلقا لهم ولحلفائهم الإسرائيليين، فمن يضمن عدم

عبور السلاح مع البضائع؟ لكن الحكومة طمأنتهم أنها لن تسمح بهذا. واستئناف العلاقات مع إيران، عدوتهم الرئيسية في المنطقة، كان أيضا مبعث قلق. لكن الحكومة طمأنتهم أن الموضوع لا يعدو تصحيحا لوضع شاذّ، فمصر هي الدولة العربية الوحيدة التي لا تحتفظ بعلاقات مع إيران. أما حين تَطوَّر الموضوع إلى تدفق مساعدات مالية إيرانية على مصر، واتفاقات تعاون اقتصادي وتجاري ونفطي، وظهور متزايد لرجال أعمال وأكاديميين إيرانيين في مصر، فإن التطمينات الحكومية المصرية لم تعُد تجد آذانا صاغية في واشنطن.

كنت أرقب كل هذا من موقع المتفرج، واستقيت معظم أخباري من اللواء حامد مدير المخابرات الذي كنت ألتقيه كثيرا على هامش اجتماعات الرئيس. فهذه الاجتماعات عادة ما تأتي بكبار رجال الدولة إلى مقر الرئاسة دون أن يتمكنوا من حضور كل الاجتماعات، فينتهي بهم الأمر منتظرين لساعات طويلة في قاعات المقر، وهي فرصة ذهبية لتقَصّي الأخبار منهم. الجزء الذي حضرته بنفسي هو اللقاءات الصينية، التي تكثَّفَت مع الوقت، إذ بدأ الريس بيومي وحكومته يهتمُّون بالصين، ربما استجابةٌ للقناعة السائدة في أوساط الرأي العامّ بأن الصين هي القوة العالمية القادمة وضرورة توثيق العلاقات معها من أجل إحداث توازن مع النفوذ الأمريكي. ولم يكن هناك غيري يعرف اللغة الصينية، فصرت أحضر كل المقابلات التي تتمّ مع مسئولين صينيين، سواء في مقر

الرئاسة أم في مكاتب الوزراء. وانتابت الوزراءَ حالة أشبه بالولع بالصينيين، لأنهم كانوا يسهلون الأمور بدرجة غير معهودة: إن طلبت منهم أي شيء سألوك عن المواصفات التي تريدها، وموعد التسليم، والكمية، ووافقوا. كل الصفقات تمت من خلال مِنَح وقروض، وتَوسَّع الوزراء في استخدامها: هكذا بنى الصينيون كل المستشفيات والمدارس والمساكن التي تراها اليوم في الريف والتي يشبه بعضها بعضا، وهكذا بنوا معامل تكرير البترول ووفّروا البنزين والسولار والغاز المنزلي ومدُّوا خطوط الأنابيب التي تصل إلى السودان وإلى ميناء مطروح، وهم أيضا مَن بنى ميناء مطروح بالكامل. تم الاتفاق على كل هذه المشروعات في العام الأول للريس بيومي، قبل أن تظهر مشكلة المديونية الصينية.

لاقت هذه الإجراءات استحسانا شعبيا واسعا، ولم يُلقِ أحد بالا إلى القلق والتوتر مع الولايات المتحدة أو حلفائها في المنطقة، فلم يكن أحد ينتظر منهم خيرا في كل الأحوال. لكن المخابرات العامة كانت قلقة، ليس من هذه الإجراءات في حد ذاتها، ولكن من التبعات التي يمكن أن تقود إليها. وشاطرهم العسكريون القلق، ولكنهم لم يُبدوا معارضة. وبدأت الحكومة تتحسس خطواتها نحو ما أسمته تحديث الأمن والقضاء، وهو اسم حركي للتطهير. لكن الحق أنها فعلت ذلك بأقصى درجات الحرص. فقد طلبت إلى القيادات الأمنية والعسكرية فتح باب القبول بالكليات العسكرية والشرطية لكل الناس دون تمييز بسبب الانتماء السياسي، مع

استبعاد أي شخص يُشتبه في استخدامه العنف أو حتى اقتناعه بشرعية رفع السلاح على الحاكم. سألتُ القطان ذات يوم عن رأيه في كل هذا فهز كتفيه وقال إن من حق النظام الجديد أن يثبِّت أقدامه، وليس أمامهم طريق آخر، والمهمّ أن لا يسرفوا.

تفجرت أولى مشكلات حكومة الريس بيومي بسبب مسرحية، بطلتها نور. والحقيقة أن تلك المشكلة فاجأتني، وأعتقد أنها فاجأت الريس بيومي نفسه، وأنه اضطُرّ إليها اضطرارا تحت ضغط بعض الغلاة من الإخوان. فبرغم تَوقع الجميع وقوع مواجهة بين الحكومة الإخوانية وأهل الفن، خصوصا السينما إلا أن شيئا لم يحدث خلال العام الأول، بل استمرت دور العرض كما هي واستمر إنتاج الأفلام والمسلسلات دون تدخُّل من جانب الحكومة. صحيح أن المنتجين أنفسهم بذلوا مجهودا في تحشيم الممثلات وتفادي المشكلات، وظهر عدد من الأعمال الدينية يفوق المعتاد، إلا أن عددا من الأفلام «العاديَّة» ظهر في دور العرض دون مشكلات. أن تحدث هذه المواجهة بسبب مسرحية كان مفاجأة، خصوصا أن موضوع المواجهة لم يكن مشهدا عاريا أو فجا، بل كان حول مضمون المسرحية الذي ادَّعى البعض أنه يشكِّك في الثواب والعقاب واليوم الآخِر.

لن أعيد عليك تفاصيل هذه القضية السقيمة التي اشتهرت وقتها، لكن المهمّ بالنسبة إليّ أن قرار وقف عرض المسرحية وما تبعه من إجراءات قاد إلى تجميد عمل فرقة نور المتجولة، مسرح الجرن

الذي بدأت به علاقتنا. اتصلت بها وسط الأزمة، والتقيتها عددا من المرات. لم يكُن لديَّ شك في أني ما زلت أحبها، ولكني فوجئت بحجم هذا الحب. فحين رأيتها مجددا شعرت بأني كنت جافا وعاد الماء يجري في عروقي مرة أخرى. لكن ليس هذا ما أقصّ عليك القصة كي أشرحه - وإن كنت لا أستطيع ذكرها دون توضيح كم أحبها - بل لأقول لك إنها حين صدر القرار بوقف عرض مسرحيتها وإنهاء مشروع مسرح الجرن بكامله فاجأتني هي برد فعلها. سقطت في بحر من الاكتئاب لم أشهدها فيه من قبل. سألتها عما تنوي فعله فلم أجد لديها جوابا. سألتها إن كانت ستنضم إلى الوقفات الاحتجاجية التي نظّمها البعض فرفضت قائلة أن لا فائدة من هذه الوقفات. هل سترفع قضية على الحكومة؟ لا، لن تفعل. ماذا ستفعلين إذن؟ لا شيء. وتتهمني أنا بالسلبية! قلت لها هذا فابتسمت هازئة وقالت إنها لن تتعامل مع السياسة وأهلها، هذا مبدأ. فالسياسة لا فائدة منها، وهي تحب الفن لأنه جمال ولأنه عكس السياسة، ومن ثم لن ينتهي بها الأمر بالخوض فيما تكرهه باسم ما تحبه. حتى إن أغلقوا عالم الفن أمامك؟ سألتها، فقالت إن عالم الفن لا يمكن إغلاقه، ستفعل شيئا آخر، قد تجد فرصة أخرى في المستقبل، في فرقة أخرى، أو حتى ترسم، «أما السياسة فقد تركتُها لك». قالت هذا، وابتسمت هازئة مرة أخرى، وأزاحتني جانبا ومضت.

- ٣ -

قضيتُ أياما كثيرة بالقرب من نور في هذه الفترة، وأريد أن أقول لك إني مَدين للريس بيومي وغُلاة الإخوان برُوحي. هم الذين أنقذوها وهم لا يعلمون. كنت أظن أني أعرف نور، لكني لم أعرفها تمام المعرفة إلا حين أغلقوا مسرحها. ساعتها رأيت الجانب الذي لم أرَه من قبل. رأيت نور السلبية، الضعيفة، المستسلمة لليأس. تفعل هذا بطريقتها الأبيَّة، فتُحِيل اليأس إلى سخرية من الأمل، وانسدادَ الأفق إلى استهزاء بالمعنى، وضياع البهجة إلى استمراء للألم. لكن هذه العدمية لم تَخَل عليّ، بل رأيتها كما هي، ضعفا واستسلاما لواقع شرس. فهمت، ساعتها، حدَّتها في اتهامي بالسلبية. جاءتني نور وهي تتوسم فيّ القوة التي يظنّها الناس بالقريبين من صُنَّاع القرار، حتى إن لم يدركوا ذلك. جذبها ناحيتي ماظنَّت في أعماقها أني أكمل به نقائصها، ما أحميها به من عالم لا تقوى هي على مواجهته. افترضَت في هذه القوة التي تسدّ ضعفها، وبعد أن أحبَّتني وانتهى أمرها راعها أن تجدني شاهدا صامتا لا أحرّك ساكنا أو أسكّن متحركا. تَحوَّل شعورها بالضعف إلى فزع، وجاء انتقادها لي في حدة شعورها بخيبة الأمل.

لم أفهمها، عندئذ. في غرامي بها لم أرَها كما هي بل كما أحببتها، شمسا مشرقة، لمسة تهدئ روحي، نورا كاملا يدفئ الوجود من حولي. كل هذه المشاعر كانت عني أنا، لا عنها. كل هذه المشاعر كانت عن احتياجاتي أنا، لا احتياجاتها. لم أرَها هي، لم أرَ نواقصها.

رأيت ما أردت. وأقول لك الآن إنك لا تحب امرأة حقا حتى ترى نواقصها واحتياجاتها ولا يفزعك منها شيء. وبفضل الريس بيومي ورابطة كارهي الفن التي أتت به إلى الرئاسة، رأيت نواقص نور، ولم أشعر برغبة في إخفائها أو تجاهلها أو الفرار منها، بل أحسست برغبة عارمة في احتضانها وحملها وحمايتها مما تخاف. كل هذا الحديث عن السلبية والسياسة كان خوفا ورجاء؛ لماذا لم تقولي هذا صراحة يا بنت الناس؟!

ظللت بجوارها هذه الفترة. لم يكن لديّ حلّ عملي لمشكلتها، فلا أستطيع إعادة المسرح ولا يمكنني حملها على النضال من أجل إعادته ولا كان النضال طريقي أصلا. لم أحاول إقناعها بفعل شيء، لكني بقيتُ بجوارها. ظلّت غارقة في الاكتئاب أسابيع طويلة؛ لا حاولَت التمثيل في فرقة أخرى، ولا حتى رسمت مثلما علّقت ذات يوم في سخريتها اللاذعة. وكلما اقترح عليها أحد شيئا أشاحت بيدها أو بوجهها أو هزّت كتفها مستبعدة إياه، كأنها لا تريد حتى الإسهام بكلمة «لا». كففتُ عن الاقتراحات العملية، واكتفيت منها بقربها، وخروجنا معا لشاي أو عشاء، واحتضنتها كثيرا، وأعتقد أني سرَّيت عنها بوجودي حتى حينما جلست صامتا. كنت موقنا أنها ستخرج من هذه القوقعة التي حبست فيها نفسها، وظللت جالسا على الباب حتى تمدّ يدها يوما وتقوم خارجة، حين تكون مستعدة لذلك. كل ما أردت فعله هو طمأنتها أني سأظل معها، وسأنتظر هنا. وإن كنت لا أستطيع إعادة المسرح الذي أغلقه الريس بيومي

فإنه لا يستطيع إزاحتي عن بابها، لا هو ولا جماعة الإخوان كلها.

وعلى كل حال لم يكن لدى الريس بيومي وجماعته وقت يضيعونه عليّ، فشهر العسل مع الجمهور شارف على الانتهاء، وكرم الإيرانيين قارب حدوده العليا وبدأ محصِّلوهم يدقون الباب ويقدِّمون الفواتير، وقلق الأمريكيين يعلو صوته كل يوم عن اليوم الذي سبقه. شبكة الخدمات الاجتماعية التي أقامها الإخوان في الأحياء والقرى أدَّت دورا كبيرا في تحسين أحوال الناس، لكنها بعد عام صارت تئنّ تحت ضغط الطلبات المتزايدة من قِبل الجمهور ومحدودية الموارد واستنزاف قدرتها على استنهاض العمل التطوعي. في نهاية الأمر، لم يكن ممكنا لتطوع الأطباء أن يحلّ محلّ المستشفيات والعيادات والخدمات الصحية الغائبة، ولا كان من الممكن للمدرسين المتطوعين التعويض عن انهيار المدارس، وهكذا. اتضح أن هذه الإجراءات كلها تصلح لسدّ عجز مؤقت، لكنها لا تحلّ محلّ الدولة وخدماتها المنهارة. بل على العكس، فتحت هذه الخدمات شهية الناس للمطالبة، ومادمت قد أعطيت خدمة لواحد فكيف تنكرها على الألف الباقين؟

والحق يقال، إن الإخوان سعوا لمواجهة هذه الصعوبات بإخلاص وتفانٍ، لكن أحدا لم يساعدهم. أجهزة الدولة لم تستجب لمحاولات إعادة الهيكلة التي قام بها مديروها الجدد، وبعد شهور طويلة من المناقشات والمماحكات وتغيير اللافتات وإلحاق الأقسام بأقسام أخرى بدل تلك التي كانت تابعة لها عاد كل شيء

كما كان ولكن بأسماء ولافتات جديدة. لم يكن ذلك عن عمد، لكن لأن العاملين بهذه الأجهزة لا يعرفون طريقة أخرى للعمل، ومهما قلت، ومهما سميت طريقة العمل، فإنهم سيقومون بما يعرفونه. أما إذا أصررت، ووقفتهم عن عمل ما يعرفونه، فسينتهي الأمر بتوقفهم تماما. وقد حدث هذا كثيرا، فقد توقف معظم مديريات الري عن العمل نحو شهر بسبب عدم قدرة الموظفين على تنفيذ الإجراءات الجديدة، واستعانت الوزارة بفرق من المتطوعين لمواجهة أزمة المصارف في الدلتا التي نشأت نتيجة توقف فرق مديريات الزراعة عن العمل، حتى عادت المديريات للعمل بطريقتها القديمة ولكن بعد استيفاء متطلبات الإجراءات الجديدة من الناحية الشكلية.

لم يكن تقاعس أجهزة الدولة الخدمية مقصودا، بل نتيجة طبيعية لترهلها وعدم قدرتها على التطور أو الاستجابة للتطوير. أما اتحاد الشباب الديمقراطي «اشد» فقد بذل جهدا مقصودا ومنظما يهدف إلى إفشال شبكة الخدمات الاجتماعية التي اعتمدت عليها حكومة الريس بيومي. فقد بنى هذا الشباب قواعده في المحليات كما قلت لك، وتوسع دوره كثيرا في عهد صديقي السفاح، ثم انكمش، لكنه لم يندثر. وحين جاء بيومي خشي هؤلاء الشباب على موقعهم، فقرروا النشاط من جديد مع الابتعاد عن ذكرى عزالدين وأي شيء يقرنهم به. كان أمامهم طريقان: إما التنافس مع شبكة الإخوان، وإما محاولة إضعافها، وقد قرروا اللجوء إلى الحل الثاني. وهكذا، بدلا

مـن محاولة اجتـذاب الناس إليهم، قـرروا إغراق الشـبكة الخدمية للإخوان بالمطالب بحيث لا تقوى على الاسـتجابة لها. وساعدهم التوسـع المبالَـغ فيـه لهذه الشـبكة بهدف سـد عجز أجهـزة الدولة التـي صارت الآن مسئولية الإخـوان وحكومتهـم. فتحولت فروع «اشـد» إلى مراكز لتجميع المحتاجين للخدمات وتوجيههم لمراكز الإخـوان الملحقة بالمسـاجد، ومتابعـة أداء هذه المراكـز لدورها، وجمع الشـكاوى ممن لـم يتلقَّ خدمة مناسـبة ورفعها إلى وسـائل الإعـلام، ومراقبة العامليـن بهذه المراكز ومـدى التزامهم بالقواعد المهنيـة وبحسـن معاملـة الجمهور، وهكـذا، تحولوا إلـى كابوس متكامل وحِمل لا يطاق على هذه الشبكة.

أُرهِقَت شبكة الخدمات الاجتماعية للإخوان، وساءت سمعتها. حتى أختي صفية التي عادت إلى نشـاطها بالمسـجد المجاور لبيتها أعربت عن خيبة أملها وقالت إن السُّلطة أفسدت الإخوان. وقصَّت عليّ قصصا تشبه تلك التي كانت تحكيها عن السلفيين قبل سفرها. قالـت إن السـلفيين فسـدوا في تفكيرهـم والإخوان فـي ضميرهم، والآن تَسلَّف كثير من الإخوان وجمعوا المفسدتين. انزعجتُ بشدة من حكمها هذا، وكانت هي أشـد انزعاجا، وقالت إن أملها الوحيد في الشـباب الـذي لم يتلوث إيمانـه ولا تفكيـره ولا ضميره، لكنها تخشى على هذا الشباب من الكبار. كان إحباطها شديدا، فقد عادت وهي تظن أن الثورة قد قضت على هذه المفاسـد، فوجدَتها هي هي ولكـن في أثـواب جديدة. قالت صفيـة إن الوضع إذا اسـتمر هكذا

فستعود إلى إيطاليا، وهذه المرة دون رجعة. لم يعجبني كلامها، وقرَّعتها بشدة. قلت لها أن تكفّ عن المنّ علينا بإقامتها بيننا، وإن هذه بلدنا وإن لم تكن هي بعلمها وتديُّنها قادرة على الوقوف في وجه المفسدين باسم الدين فمن يستطيع؟ وما فائدة تديُّنها هذا إذن؟ لا أدري لِمَ انفعلت عليها ذلك اليوم، ربما لأني كرهت فكرة مغادرتها مرة أخرى، هي كلُّ مَن بقي لي من عائلة وأصدقاء. دمعت عيناها وصمتت.

لم يكن التذمر في الداخل فحسب، فقد بدأ محصلو الفواتير الإيرانية يطالبون بمقابل للمساعدات المالية التي يقدمونها. وتساءل بعضهم في استغراب كيف تسمح حكومة بيومي للسفن الأمريكية بعبور قناة السويس وهي في حالة حرب مع حليفتها الإيرانية، وكيف تستمر في علاقاتها الرسمية بإسرائيل التي قصفتها، وكيف لا تعطيها ميزات تجارية كتلك التي تعطيها للصينيين، وكيف تضطهد الشيعة المصريين البسطاء الذين لا يريدون سوى حرية العبادة. وربما اتفق معهم الريس بيومي في استغرابهم، لكنه لم يكن يستطيع الاقتراب من أي من هذه الموضوعات دون إثارة عداء فصيل مهمّ لا يملك ترف مواجهته.

اللواء القطان بدا عليه القلق. التقيت عنده ذات مساء اللواء المنيسي الذي صار مديرا للمخابرات العسكرية، وكان عائدا لتوِّه من واشنطن. ذكرت لك في بداية خطابي أني عملت معه لفترة أيام الثورة الأولى والحكم العسكري المقنَّع، أليس كذلك؟

المهمّ، قال المنيسي إن الأمريكيين قلقون بسبب التوجه العامّ الذي تأخذه الأمور. حتى الآن يتفهمون ظروف الحكومة، لكن الانتقادات في الكونجرس تتزايد، وسيتزايد الضغط على الإدارة لمراجعة مساعداتها لمصر ما لم تقُم الحكومة بإجراء يهدِّئ أعضاء الكونجرس. ضحك القطان هازئا، وقال إن أعضاء الكونجرس سيهدأون حين يقول لهم أسيادهم في إسرائيل أن يهدأوا، وهؤلاء من مصلحتهم إبقاء الضغط على مصر مستمرا. هز المنيسي رأسه وقال إن هذه عاقبة تعدُّد الزوجات؛ صحيح أنه حلال، لكن يستحيل إرضاؤهن جميعا في نفس الوقت. مصمص القطان شفتيه معترضا، ورشف من شايه ثم قال كمن يُلقِي حكمة معروفة: إن الغبي هو من يحاول إرضاءهن جميعا، أما الرجل الصحّ فعليه أن يعرف كيف يضحك عليهن جميعا في آن واحد.

- ٤ -

طلبت من نور أن تتزوجني، لكنها رفضت، وسخرَت من الفكرة قبل أن ترفضها. شملت السخرية فكرة الزواج نفسها، وكونها مقبرة للحب، والتساؤل عن الفارق بين زواجي بأمك وهذا الزواج المقترَح، وتوقيته وما إذا كان نوعا من العلاج النفسي لها من اكتئابها أم تسرية وقضاء للوقت باعتبارنا نحن الاثنين بلا عمل حقيقي وتعيسين، أم لأن الإخوان تولوا الحكم ولم يعُد من الممكن مواصلة علاقتنا إلا في إطار شرعي، وهكذا. وحين

حاولت مناقشتها لم أحظَ إلا بمزيد من السخرية، وقالت إن موقفها إزائي لم يتغير منذ ترك كلانا الآخَر، وإن موقفي أنا إزاء نفسي لم يتغير؛ ساعتها لم تُرِدْ مشاهدتي أدمِّر نفسي بالتدريج بالانغماس في السياسة وأثبتت الأيام أنها محقة حين تَحوَّلَت السياسة إلى عمليات قتل بدم بارد وجلست أنا في وسطها كأن الأمر لا يعنيني. والآن لا تريد مشاهدتي أدمِّر حبي لها بتحويله إلى زيجة ميتة مثل كل الزيجات. ضايقني ردُّ فعلها هذا، ولكني فهمت مصدره. وقلت أنتظر حتى تخرج من حالة اليأس تلك.

في بداية العام الثاني من حكم الريس بيومي، وبالتحديد في ٥ فبراير ٢٠١٩، وقعت حادثة غزة الأولى التي لم يُعلَن عنها، ثم تلتها حوادث عديدة أُعلِنَ عن بعضها وتم الاتفاق على إبقاء بعضها طي الكتمان في محاولة لتلافي الإحراج. لكن الإحراج وقع، وتزايد، وتحول إلى أزمة مستحكمة. الحادثة الأولى كانت عملية تهريب لصواريخ أرض جو من الجيل الثالث، دخلت عبر سيناء إلى قطاع غزة في شحنة بضائع، ولكن علم بها الجيش الإسرائيلي من مصادره بغزة وقصف الشحنة قبل وصولها إلى المقاتلين الذين كانوا ينوون استخدامها لقصف أهداف في العمق الإسرائيلي. احتجَّت إسرائيل لدى مصر باعتبار هذا خرقا لتعهد الحكومة بعدم السماح بدخول السلاح لغزة. وردَّت الحكومة ردا مرتبكا، بين إنكار وجود الشحنة ثم إنكار دخولها من سيناء ثم تبرير ذلك - حين قدمت السلطات الإسرائيلية الدليل على دخول الشحنة من رفح - بأن مصر لا يمكنها تعقُّب كل صندوق يدخل في كل شاحنة.

سكت الإسرائيليون، لكن الأمريكيين تحدثوا بالنيابة عنهم. سألت اللواء حامد فقال لي إن هذه هي بالضبط التداعيات التي حذر منها، فالهدف الأصلي من عدم السماح بعبور البضائع من رفح والإصرار على دخولها من المعبر الإسرائيلي الفلسطيني المشترك كان تفادي مثل هذه المواقف التي لا بد ستحدث. فلا يمكن منع الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال من السعي للحصول على السلاح، ولا تستطيع حكومة مصرية أن تمنعهم بالقوة، ولكن في نفس الوقت لا يجب أن يتحول ذلك إلى مواجهة بيننا وبين إسرائيل. وجدت حكومة بيومي نفسها في مأزق؛ إما أن تمنع دخول الأسلحة فتتهمها المقاومة الفلسطينية - وجمهورها نفسه - بالتقاعس ومساعدة العدو، وإما أن تسمح بمرورها وتصطدم بالأمريكيين والإسرائيليين.

قرر الريس بيومي تفادي هذا الاختيار الصعب وتجاهل الموضوع. لكن الموضوع لم يتجاهله، وفي المرة التالية التي وقع فيها تهريب مماثل تسرب الخبر إلى الصحافة الإسرائيلية، ثم دخل الكونجرس على الخط بانتقادات حادة للحكومة المصرية وتهديدات بقطع المعونات العسكرية ووقف إمداد الجيش بقطع الغيار. وتوترت قيادة الجيش، واجتاح الغضب الرأي العام إزاء الصفاقة الإسرائيلية الأمريكية؛ كيف يطلبان من الحكومة المصرية الدفاع عن الاحتلال الإسرائيلي والعمل على إدامته؟ وإن لم تقم مصر بالسعي لتحرير فلسطين، أليس من واجبها على الأقل ترك الفلسطينيين يدافعون عن أنفسهم؟ كان هذا هو السؤال الذي يردده

الجميع، ولم تستطع الحكومة؛ حكومة الثورة، حكومة الأغلبية الإسلامية المنتخَبة، أن تفعل غير ذلك. لكنها في نفس الوقت لم تستطع أن تفعل ذلك، فالجيش يعتمد في تسليحه على الأمريكيين، وحتى لو كان يعتمد على الصينيين أو الروس أو التايلانديين، فهو ليس في حال يسمح له بالقتال، وحتى لو كان في حال يسمح له بالقتال فهو لا يريد القتال في هذه الظروف، وبهذه الكلفة، ومن أجل هذا الهدف. والحكومة، الثورية، الإسلامية، المنتخبة، تعلم ذلك جيدا، لكنها لا تستطيع أن تقوله صراحة لجمهورها وإلا اتُّهمت بالتخاذل والخنوع والفشل. وأذكى الإيرانيون وأصدقاؤهم وأصدقاء الحكومة الجدد غضب الرأي العامّ. هذا هو ما حدث يابني، واللهُ على ما أقول شهيد. هكذا، بهذه الطريقة، وبسبب هذا الجبن، انتهى بنا الأمر في حرب، وفقدنا من فقدنا، لأن الرجال، في اللحظة الحاسمة، لم يكونوا رجالا.

وقفت أنا أشاهد هذا يحدث من حولي، ولم يكن بوسعي عمل شيء. لم يكن الأمر سرا؛ الجميع كان يعلم ـ مجلس الوزراء، والريس بيومي، والمخابرات والجيش والسياسيون. كل من كان يفهم عرف خطورة الأزمة. بل إن بعضهم قارنها بالأزمة التي سبقت حرب ٦٧، لكن لم يفعل أحد شيئا كي يوقف انزلاقَنا نحو نفس الهاوية، بل أسهم البعض في دفعنا نحوها، من أجل مكاسب شخصية، كما سيتضح. قال الريس بيومي وإخوانه إنهم سيتفاهمون مع الفصائل الفلسطينية كي يوقفوا عمليات «استيراد السلاح» من

جانبهم بحيث لا تُضطرُّ الحكومة إلى مواجهة معهم. لكنهم بالطبع لـم يستطيعوا «إقناع» الكل بذلك، ولا أحد يـدري ما إذا كانت هذه القيـادات مخترَقـة أم لا من جانب الجيش الإسـرائيلي. لكن اللواء القطـان كان يؤكد إن الإسـرائيليين هـم الذين خطَّطـوا لهذه الأزمة كلها، وهم الذين دفعوا عملاءهم في «المقاومة الفلسطينية» لاستيراد هذه الكمية من الأسـلحة كي يختلقوا أزمة تقود مصر وإسرائيل إلى الحـرب. اللـواء حامد لم ينـفِ ولم يؤكد، وقال إن الأمرين سـيان. المهم أن الحكومة المصرية وقفت تتفرج، وسـلمت السـيطرة على الأمـر لعدد مـن «قيـادات» الفصائل الفلسـطينية، وهؤلاء، بحسـن نيتهم أو بسوئها، جرُّوا مصر إلى الحرب رغما عنها.

لم يكن قصف مطار بن جوريون في سبتمبر مفاجئا لمن يعرفون بمـا يجـري منذ فبرايـر، فمحاولات تهريـب الصواريخ لـم تنقطع، وبـات واضحا أن المسـألة مسـألة وقـت قبل أن تنجـح إحدى هذه المحـاولات. لكـن حجـم القصـف ودقته كانـا مفاجئيـن. وادَّعى الإسـرائيليون والأمريـكان أن هـذا القصـف لا يمكـن للمقاتليـن الفلسطينيين القيام به، وأنهم قد اعتمدوا على خبراء إيرانيين، دخلوا من مصر. وقدموا ما أسموه معلومات وأدلة استخباراتية تثبت ذلك. اشـتعل الرأي العامّ العربـي فرحا بهذا القصـف، وقامت مظاهرات في مصر والدول العربية والإسـلامية تؤيـد الريس بيومي وحكومته لنصرتهم القضية الفلسطينية ولوقوفهم في وجه الصلف الإسرائيلي والأمريكـي. وفـي نفس الوقت، تقدمت إسـرائيل باحتجاج شـديد

وطلبت إغلاق المعبر فورا وتسليم عدد من الفلسطينيين والإيرانيين الموجودين على الأراضي المصرية، والعودة لاستخدام المعبر القديم الذي كانت تشرف عليه، وتنظيم دوريات مشتركة على الحدود لمنع تكرار ذلك في المستقبل، وطبعا رفضت الحكومة المصرية كل هذه الطلبات، فذهبت بها إسرائيل إلى مجلس الأمن، وساندتها الدول الكبرى كلها، عدا الصين التي امتنعت عن التصويت. وفعلا أصدر مجلس الأمن القرار (٢٢٦٦) الشهير، الذي يطالب مصر بتنفيذ هذه الإجراءات، وبنشر بعثة مراقبة للأمم المتحدة على الحدود تشرف على مراقبة التزامها بتنفيذ تعهداتها.

قامت قيامة الرأي العامّ ضدَّ قرار مجلس الأمن الظالم، وضد المعايير المزدوجة للدول التي صوَّتَت لصالحه، وتجاهلته الحكومة على أمل نسيانه. لكن الحادثة كانت ضخمة، زلزلت إسرائيل كلها، وارتفعت الأصوات في تل أبيب تطالب بشنٍّ ضربات فورية ضد غزة وسيناء. وساندت هذه الحملةَ أصواتٌ كثيرة في واشنطن. وبالفعل بدأت إسرائيل حملة قصف عنيفة ضد قطاع غزة، ووجهت كل الضغط الذي استطاعت حشده في واشنطن ضد مصر لإرغامها على إغلاق المعبر والاستجابة للطلبات الأخرى. لكن رد الفعل المصري والعربي على الحادثة، والتأييد الواسع الذي حظيت به حكومة بيومي بسبب موقفها جعلا من الصعب عليها التراجع. وجاء القصف الإسرائيلي العنيف لغزة ليثير موجة أكبر من الضغط الشعبي على حكومة بيومي لمد يد العون إلى أشقائها الفلسطينيين

الضحايا، الذين كانوا يتوافدون على مصر من البوابة الوحيدة المفتوحة أمامهم في رفح، ومن ثَم رفض بيومي قرار مجلس الأمن، واحتشد الشعب خلفه يسانده.

كنت أعلم يقينا أن بيومي يريد الاستجابة للقرار، وعرض من خلال اللواء حامد على الجانبين الأمريكي والإسرائيلي وضع ضوابط على عملية العبور من وإلى غزة، والاستعانة بتقنيات أمريكية لمراقبة الحدود والكشف عن الأسلحة، ولكن بعد أن تهدأ الأزمة. لكن هذه الاستجابة لم تعُد كافية بعد أن وصلت الأمور إلى حدد قصف المطار الرئيسي لإسرائيل بالصواريخ وتدمير عدد من الطائرات الواقفة به بمن فيها. وفي أول أكتوبر، أي في اليوم التالي لردِّ بيومي من خلال اللواء حامد، أعلنت الولايات المتحدة نشر أسطولها حول شبه جزيرة سيناء، في البحرين الأحمر والمتوسط وعلى مداخل ومخارج القناة، وتفتيش أي سفينة تشتبه في حملها السلاح، تنفيذا لقرار مجلس الأمن.

حبسنا أنفاسنا، واجتاحت الرأي العامَّ روح قتالية وتصميم على مقاومة الظلم الدولي حتى آخر الطريق. اجتمع مجلس الأمن القومي الذي نص عليه الدستور الجديد لأول مرة لدراسة كيفية التعامل مع هذه الأزمة. وسألت نفسي حين علمت بانعقاده إن كان قد خطر ببال عزالدين فكري حين اقترح إنشاء هذا المجلس أن يكون ذلك أول اجتماعاته. لم أحضر بالطبع، فلم يعد ذلك من مهامِّي، لكني علمت من اللواء حامد ثم من اللواء المنيسي

والقطان بما دار. دُهشت قليلا من معرفة اللواء القطان بما دار في الاجتماع السري، ثم ضحكتُ من نفسي ومن دهشتي. اتصل بي حامد وطلب مني المرور على مكتبه في الرئاسة، ووجدته شديد القلق. قال إن هذه الأزمة تتجه نحو الأسوأ، وإنه لم يكن يصدِّق أن يتصرف الريس بيومي ومساعدوه ووزراؤه بهذه الحماقة، لكن من الواضح أنه أخطأ التقدير.

سألني عن رأيي، فطلبتُ منه الإيضاح فأخبرني أنهم قرروا رفض التحرُّك البحري الأمريكي باعتباره عدوانا لم ينصّ عليه قرار مجلس الأمن، وهو لا يعرف كيف يمكن الخروج من هذه الأزمة دون التفاهم مع الأمريكيين. صمت ثم أضاف أنهم ينوون مهاجمة البارجة الأمريكية الرابضة عند مدخل القناة الجنوبي،كي يكسروا شوكة الأمريكيين ويجبروهم على الانسحاب أو على الأقل يحرزوا انتصارا كبيرا يمكّنهم من التفاوض مع الأمريكيين من موقع قوة فلا يلومهم الشعب. سألته وأنا لا أكاد أصدق إن كانوا قد قرروا فعلا إعلان الحرب على الولايات المتحدة فضحك بمرارة وقال: ليس بالضبط، فالذي سيوجه الضربة إلى البارجة الأمريكية وحدة من العمليات الخاصة، ستطلق صواريخها في الليل من ناحية العين السخنة وتختفي في حين تعلن مجموعة جهادية مسئوليتها عن العملية. كان يعلم أن هذه فكرة صبيانية وستؤدِّي إلى كارثة، وأكد لي أنه عارض هذه العملية لكن الباقين وافقوا عليها. الغريب، كما قال، أن اللواء المنيسي قد دعم هذه الفكرة الخرقاء.

- ٥ -

لـم تكن البارجـة الأمريكية هـي الضحية الوحيدة لهـذه العملية الجنونية، بل عشـرات من المصريين الذين لقوا حتفهم في القصف المتبادَل. من بينهم صفية أختي وزوجها إبراهيم وأبناؤهما الثلاثة.

كانـوا نائمين في الشـاليه الخـاص بهم في العين السـخنة حيث جـاء إبراهيـم لزيارة زوجته وأبنائـه منتهزا فرصة إجازة رأس السـنة في إيطاليـا. وحين أخطأ صاروخان هدفهمـا وأصابه الثالث، ردّت البارجـة فـورا على مصدر النيـران دون تردد أو تفكيـر في المدنيين الذين قد يدفعون حياتهم ثمنا. دمّرت النيران الكثيفة عددا كبيرا من الشـاليهات على الشـاطئ، ولكنها لـم تفلح فـي القضاء على مصدر القصـف. فنجحت الخليـة في إطلاق موجـة ثانية مـن الصواريخ، أصـاب اثنـان منهـا البارجـة فأعطباها، ثم فـرت الخليـة وواصلت البارجـة قصـف المنطقة بعد ذلك لمدة عشـرين دقيقـة على الأقل. قُدر عدد الضحايا بتسـعة وسبعين قتيلا من الجانب المصري ونحو مئتَي جريح. حدث ذلك في الثاني من يناير الماضي، كما تعلم.

لـن أحدثـك عـن حزنـي، فلا بـد أنـك تذكر كيـف كنا فـي هذه الأيـام. مـا لديّ لم يكـن حزنا بالضبط بـل ذهولا، ذهـولا يبلغ حدّ عـدم التصديـق. حين أخبرني حامـد بالعملية لم أسـتوعب ما قاله، وصمـتّ. وحين بلغتني الأنباء فـي الصباح التالي وأنا في مكتبي لم أستوعب ما قيل لي: بارجة، وقصف، وضحايا مدنيون، والبقية في حياتك، خبر سـيئ، أختك، الشـاليهات. اسـتمعت إلى كل هذا، ثم

بإنصات أكبر إلى خبر مقتل صفية وأولادها وزوجها، وعشرات آخرين، دون أن تدخل هذه الأخبار في عقلي. كأنها مزحة ماسخة. وظللت هكذا في أثناء التعرف على الجثث، والدفن، والعزاء، صامتا ساهما، غير فاهم أو مستوعب لما يحدث حولي. ربت الجميع عليّ واحترموا صمتي واعتبروه حزنا وحدادا، لكنه في حقيقة الأمر كان غيابا عما يدور من حولي. لم أستوعبه، لم يتسلل إلى عقلي، إلا بعد ذلك بأسابيع، بعد أن وضعَت الحرب أوزارها واستولى الجيش على السلطة.

جاءت نور هذه المرة وحدها، دون أن يتصل بها أحد. طلبتُ من عبده أن يظلّ مع خديجة وأبنائها أطول وقت ممكن، فقد أصابتهم الصدمة بعنف ولم أكن في حالة تسمح لي بمواساتهم. جاءت نور وظلت بجواري. كانت صامتة، لم تخرج من اكتئابها، بل وضعته بجوار ذهولي وصرنا نحن الاثنين كشبحين، صامتين، ننظر إلى ما يحدث حولنا كأننا لا نراه.

تلاحقَت الأحداث بسرعة لم تدع لأحد فرصة كبيرة للتفكير أو التمعن. وساعد التهاب المشاعر على تسريع وتيرة الأحداث وتمرير أشياء ربما لم يكن من الممكن أن تمر في الظروف العادية. فبينما غرقت أنا في ذهولي هبّ الشعب ألما وحزنا على الشهداء الأبرياء وصبّ جامّ غضبه على المعتدين الظالمين الذين لا يريدون لنا خيرا، المتربصين بنا من قديم الأزل. وتساءل بيومي وهو يدقّ المنصة أمام الميكروفونات: لِمَ الآن؟ لِمَ تركَتنا أمريكا وإسرائيل

فـي حالنا حين كنـا نتخبط في طريقنا وحين كنـا يقتل بعضنا بعضا؟ ولمـاذا ينتبهـون إلينا الآن حيـن صار لدينا دسـتور وحكومة منتخَبة تمثِّل الشعب؟ وردّت الجماهير مع رئيسها بيومي: لأنهم لا يريدون لنا الخير، لأنهم يريدون إبقاءنا حيث نحن، ضعفاء ومنقسمين. لكن هيهـات، قال الجميع ذلك، وشـعر الناس مرة أخـرى بأن مصيرهم علـى المحكّ فاتحـدت صفوفهم. وجاء قصـف البارجة الأمريكية وصورها وهي تُسـحَب من أمام الشـواطئ المصرية غير قادرة على الإبحار وحدها ليُلهِب شعور الناس بالنصر.

ركز الإعلام العربـي على قيام البارجة بقصف منطقة مدنية دون تمييـز، واعتبـره جريمة حـرب أخرى تضـاف إلى قائمـة طويلة من جرائـم الحرب الأمريكية. وصوّر قصـف البارجة باعتباره عقابًا لها على عدوانها. أما في بقية العالم فقد صُورت القصة بترتيب مختلف، كانـت البارجة فيه هـي المعتدى عليها. وصُوّر ذلك التصوير نفسـه فـي مصر باعتباره جـزءا من الحملـة الغربية علينا، نحن وشـهدائنا الأبرار. كنت من بين القلائل الذين يعلمون أن هؤلاء الأبرار ضحايا لمعتدين آخرين، يجلسون في مجلس الأمن القومي ويتخذون القرار باسـم الشـهداء. لكن هـؤلاء القتلة لـم يعترفوا بجرمهـم، ولا حتى بفشـلهم. اللواء المنيسـي، بعد أن قـدم واجب العزاء فـي الضحايا «الذيـن سـقطوا بنيران الغـدر والخيانة»، أشـاد بالعمليـة «النوعية» التـي أصابت واحدة من أكثـر البوارج الأمريكيـة تقدُّما، وأدت إلى انسحاب السفن الحربية الأمريكية من البحر الأحمر. لم يسأله أحد

عن دم الضحايا. كانوا سعداء «بانسحاب» السفن الأمريكية، ولم يهتموا كثيرا باستمرارها أداء مهمتها من مكانها الجديد عند مدخل البحر الأحمر وعند الحدود مع السودان. ركز الإعلام العربي كله على ابتعاد السفن عن الشواطئ المصرية، غير مبالٍ باستمرارهم في فرض الحصار البحري وتفتيش السفن الداخلة والخارجة إلى قناة السويس ومنها ، واحتفل الجميع، حكومة وشعبا، بالنصر المُبِين على الأمريكيين الأشرار.

لكن الاحتفال لم يدُم، مثلما هو الحال دوما حين يغلق الناس أعينهم عن الواقع. وبعد عدة أسابيع إضافية من الحصار، والضغط، والمماطلة، والمناوشات والمساعي والوساطات الفاشلة، وقعت عملية قصف «ديمونة» الشهيرة في أول مارس، وشن الجيش الإسرائيلي هجوما على سيناء في اليوم التالي. لم تدُم العمليات العسكرية طويلا، فقد تقدمت القوات الإسرائيلية واحتلّت شرم الشيخ وشرق سيناء تحت قصف جوي عنيف، وأحكمت سيطرتها على المناطق التي احتلتها خلال ثلاثة أيام. استمرّت المناوشات بعد ذلك نحو عشرة أيام بين قصف مصري وعمليات إنزال وقصف إسرائيلي مضادّ. وأصبح واضحا بعد الأيام الأولى أن الهدف الإسرائيلي هو احتلال المنطقة الشرقية من سيناء والتمركز فيها ومنع القوات المصرية من إعادة تحريرها. اجتمع مجلس الأمن الدولي وطلب من الطرفين وقف إطلاق النار فورا، داعيا إسرائيل إلى سحب قواتها للحدود الدولية، ومصر إلى تنفيذ القرار

(٢٢٦٦)، وهو ما رفضته إسرائيل ومصر. وأعلن رئيسها محمد بيومي أنه لن يقف القتال حتى تسحب إسرائيل آخر جندي لها في سيناء دون قيد أو شرط.

رغم الحرب الدائرة في سيناء فإن الوضع في القاهرة وبقية المدن ظل طبيعيا إلى حد كبير، فلم تحدث ضربات أو مواجهات في العمق وبدا أن الطرفين راغبان في حصر المواجهة العسكرية بينهما في سيناء. لكن الغضب الشعبي، والصدمة والرغبة في الانتقام كان عميقا وقويا، وتكاد تلمسه باليد. ناشدَت الحكومة المواطنين الالتزام بالهدوء والبعد عن التظاهر أو الإتيان بأي عمل من شأنه زيادة الأعباء الأمنية عليها، والتزم الناس بذلك، وتَطوّع آلاف للمساعدة في المستشفيات والمجهود الحربي والقتال. لكن الحقيقة أن القتال كان قد توقف، عدا بعض المناوشات بالمدفعية على الحدود الخارجية لمناطق انتشار الجانبين. ستجد تفاصيل كل ذلك على الإنترنت، لكن الذي لن تجده هو ما حدث في مقر الرئاسة، تحت سمعي وبصري، والذي أحكيه لك كي تفهم إلى أي مدى يمكن للخسة والطمع وعمى القلب أن تقود أصحابها.

كنا في العشرين من مارس، ومجلس الأمن القومي في حالة انعقاد دائم. وأنا في البيت، جالسا على السطح بجوار نور الصامتة. فجأة أرسل اللواء المنيسي يستدعيني، وطلب مني حضور اجتماعات المجلس من الآن فصاعدًا وتولي كتابة محاضرها وتسليمها له. لم أفهم ساعتها السبب. تركت نور وذهبت إلى المقر

الرئاسي ودخلت الاجتماع وجلست في جانب قصيّ من الطاولة البيضاوية. كان الريس بيومي جالسا ومن حوله وزراء الدفاع والخارجية والداخلية والمالية، وقادة الأسلحة الرئيسية ومديرا المخابرات العسكرية والمخابرات العامة. لم أرَ حامد في هذه الهيئة من قبل؛ وجهه صغر، ودكن لونه وازداد نحافة، وتجهمت نظرته حتى لم أعُد أعرفه.

طلب الريس بيومي من المشاركين عرض تقييم جهاتهم للوضع في سيناء وما توصي به من تحرك؛ دبلوماسي أو عسكري. بدأ وزير الدفاع بعرض الموقف، طالبا من قادة الأسلحة بيانا بموقف أسلحتهم وتقييمهم لموقف العدو. وكانت خلاصة ما قالوه إن الوضع الحالي لا يمكن تغييره بالوسائل العسكرية، فقد دفع العدو بتعزيزات لمواقعه، وأعاد تنظيم قواته بحيث أصبح خط العريش-رأس محمد هو محور دفاعاته، وكل ما يمكن عمله عسكريا في الوقت الحالي هو شَغله بمناوشات في المنطقة الواقعة غرب هذا الخط، وإن كان استمرار ذلك يهدد بنقل المعركة إلى بقية سيناء وتهديد منطقة القناة بكثافتها السكانية العالية. وجَمَ السياسيون عند سماع هذا، وسأله الريس بيومي في ضيق إن كان معنى كلامه هذا هو أن نستسلم لاحتلال شرق سيناء، فردّ الوزير بأن هذا قرار سياسي، وهو يعرض الموضوع من الناحية العسكرية. فكرر الرئيس سؤاله، بنبرة لا تخلو من سخرية، فردّ وزير الدفاع هذه المرة بلفت نظره إلى أن قرارات سيادته هي التي أوصلت البلاد إلى ما هي فيه. احتدم

النقاش سريعا، وتبودلت الاتهامات والنعوت. ثم طلب الريس بيومي إعداد خطة هجوم كبير على أماكن تمركز القوات الإسرائيلية لدفعها إلى الانسحاب، واحتجّ قادة الأسلحة بأن مثل هذا الهجوم لم يعد ممكنا، وعاد النقاش مرة أخرى، وفي النهاية أصرّ الرئيس بيومي على طلبه، وحين واصل القادة اعتراضهم نبّههم لكونه هو القائد الأعلى للجيش. وانفضّ المجلس على أن يعاود الاجتماع في الثامنة مساء.

قال لي حامد بين الاجتماعين إن ما يحدث هو مزيج من القتل العمد والانتحار. بعد حديث طويل مع حامد بدأت أفيق شيئا فشيئا من الذهول المستولي عليّ وأفهم ما يدور حولي. عدنا للاجتماع المسائي الذي عرض فيه قادة الأسلحة الخطة التي طلبها الريس بيومي، وأعادوا تذكرته بمخاطر مشروعه، فهم سيستخدمون الاحتياطي الاستراتيجي للقوات، بما في ذلك الفرق المخصصة لحماية المراكز السكانية في الدلتا والعاصمة، وهي ليست جاهزة لقتال عدو متمترس في مواقعه ومدرب وفي حالة استعداد قتالي أعلى. لكن بيومي لم يتزحزح: لا بديل عن القتال، قال، وتم تحديد فجر الثاني والعشرين من مارس، أي بعد الاجتماع بأقل من ثمانٍ وأربعين ساعة، موعدا لبدء العملية.

لم يعلم أحد بهذه العملية، لأنها لم تتمّ. فالقوات التي تحركت مع أول ضوء يوم ٢٢ مارس قامت بحصار المنشآت الحيوية في القاهرة والمدن الكبرى، بما في ذلك مقر الرئاسة والبرلمان

ومجلس الوزراء وبقية المؤسسات، وأعلنت الإذاعة في الثامنة صباحا قيام الجيش بإنهاء عصر الفوضى، وإزاحة الطغمة التي جثمت على صدر البلاد وأهدرت أمنها وسلامة ترابها الوطني، والتي تهدد اليوم بتدمير ما بقي لها من قوة في سبيل تحقيق أهداف شخصية ومغامرات غير محسوبة العواقب.

- ٦ -

أدهش الرفض الشعبي للانقلاب كثيرين، وأنا من بينهم. فقد اعتقدنا أن الشعب قد أُنهِكَ من حالة الفوضى؛ من تقلب الحكومات، من دموية السفاح وفشل السياسيين الآخرين وانقساماتهم، ومن أزمات الاقتصاد وتعثر الخدمات، ثم من الهزيمة المروِّعة واحتلال شرق سيناء. وتوقعت أن تستقبل الجماهير؛ الأغلبية الشهيرة بصمتها، العسكريين بالورود والأحضان والزغاريد. كما توقع البعض رد فعل عنيفا من جانب قواعد الإخوان المسلمين وأنصارهم ردا على الإطاحة بالريس بيومي ووزرائه. لكن لم يحدث هذا ولا ذاك. لا استقبل الناس العسكريين بالورود، ولا بالطوب. لكنهم وقفوا في وجوههم وقالوا لهم أن يعودوا من حيث أتوا.

كانت المشاهد الآتية من المدن والقرى مذهلة بحق، فرغم الحرب، والتعبئة، والغضب، واليأس، والفوضى، والعداء القديم، والدم الذي أُريقَ، تعاون اتحاد الشباب الديمقراطي مع شباب

الإخـوان فـي أنحـاء مصر كلهـا، وأقاموا كتلا بشـرية علـى مداخل المـدن والقـرى والطرق لمنع قـوات الجيش من التقـدم. وأحاطوا بالمبانـي العامة للهيئات والوزارات والمصالح الحكومية لحمايتها من اسـتيلاء العسـكريين عليها. حـدث كل هذا بتلقائية فور انتشـار أخبار الانقلاب، وفي الأماكن التي سبقت إليها قوات الجيش أحاط بهـم النـاس في أطواق بشـرية لمنعهم من الحركـة. وفي خلال أيام قليلة، أعلنت جماعات وائتلافات ومبادرات الشـباب الديمقراطي والإسـلامي عن قيـام الجبهة الموحدة لاسـتعادة الحكـم المدني. رفضت هذه القيادة الدعوة التي أطلقها البعض لـ«العصيان المدني» وقرروا بدلا منها دعوة المواطنين كافة لـ«الطاعة المدنية»، أي دعوة المواطنين لتسـيير أمورهم والاسـتمرار في أعمالهـم كما هم، ومن خـلال القيادات المدنية الشـرعية دون غيرها، وعـدم الالتفات إلى أي تعليمـات تصدر من جهات عسـكرية. وكانت الاسـتجابة لهذه الدعوة شبه تامة، فاسـتمرت كل المصالح في عملها دون الالتفات إلـى العسـكريين وتعليماتهـم، ولـم يتمكـن قائـد عسـكري واحد مـن دخول مصلحة أو هيئـة عامة، وبعد أيام مـن الاضطراب وعدة محاولات فاشـلة لاقتحام المؤسسـات العامة قـررت القيادة العامة للانقلاب التماشي مع هذه الدعوة إلى حين.

اجتمـع قادة الانقـلاب بعد عدة أيام وأعلنـوا قبول وقف إطلاق النـار بشـكل مؤقـت، وتشـكيل مجلـس لإنقـاذ مصر، وطلبـوا من اللـواء القطان رئاسـته. وافـق اللواء القطان بشـرط انضمـام ممثلي

القوى السياسية إلى المجلس، وهو ما رفضه كل من الإخوان والديمقراطيين، لكن حزبي الوفد والتجمع اللذين نجحا في البقاء كل هذه السنوات رغم اختفاء عضويتهما بشكل شبه تام، وافقا على الانضمام، ومعهما بعض المسنين من السياسيين السابقين. إلا أن الأطواق المدنية التي أحاطت بمقر الرئاسة منعتهم والعسكريين من الدخول. وبعد عدة أيام من الانتظار، تم نقل هؤلاء المسنين إلى مبنى تابع لوزارة الدفاع، ووقف اللواء القطان في وسطهم وأمام الكاميرا الوحيدة التي سمحوا لها بالتصوير، وأعلن موافقته على رئاسة مجلس الإنقاذ وقيادة البلاد لمرحلة انتقالية حتى يتم تحرير سيناء وتقنين العلاقة بين المدنيين والعسكريين بشكل يحمي الأمن القومي المصري ومنع تكرار الأخطاء والمآسي التي وقعت. وأعلن الرئيس القطان، كما صار يُدعى، تعهُّده بعدم إراقة نقطة دم واحدة، وإدارة شئون البلاد بالتشاور مع الجميع، وعدم المساس بالطابع المدني لأجهزة الدولة، مشيدا بالدعوة التي أطلقها الشباب لـ«الطاعة المدنية». وخلال أيام قليلة تم الإفراج عن معظم الوزراء، في حين استمر الريس بيومي وبعض المقربين منه رهن الإقامة الجبرية في منازلهم، وظلت المؤسسات العامة محاصَرة من الجيش، دون أن يتمكن من دخولها.

وكما ترى، انقلبت حياتنا رأسا على عقب في أشهر معدودة؛ فقدت أختي وأبناءها، ودخلنا حربا وخسرناها، ووقع انقلاب عسكري، كل ذلك في ستة أشهر. كنت كراكبٍ في قطار الملاهي،

غير أني لم أركبه باختياري، ولم يكن في الأمر ملهاة. أُفاجأ بكارثة، وقبل حتى أن تمر أجد نفسي في كارثة أخرى، وهكذا. ظللت أترنح في قطار المآسي هذا ستة أشهر، حتى توقف القطار ووجدت نفسي مُلقًى على الأرض والدنيا تدور بي ولست أعرف لا أين أنا ولا ما حلّ بي بالضبط. لم أكن قد استوعبت مقتل صفية وأبنائها بعد، ولا استوعبت الطريقة التي ماتت بها، وعلمي بالعملية التي أودت بحياتها. ولم يُتَح لي الوقت كي أفكر في حقيقة دوري أنا في مقتلها. ظللت ذاهلا، وصامتا، وممتنعا حتى عن التفكير في الأمر، كأني أغلق عقلي أمامه، ثم توالت الكوارث وكنت شاهدا عليها كلها، فصار الأمر كأنه عبث أنا المقصود به، كأن الأقدار تصفعني كي توقظني من ذهولي. هكذا كنت أفكر أحيانا، حين أستيقظ في الليل وأمنّي نفسي بأن كل هذه كوابيس، وأني سأقوم الآن من فراشي فأجد عبده قد أعد القهوة وجلس ينتظرني على السطح، ثم نذهب إلى المكتب، وأتحدث إلى صفية على «سكايب» وتحكي لي عن أبنائها وزوجها والحياة في إيطاليا. لكني ألتفت فأجد نور بجواري، مستيقظة، وصامتة، وشاحبة، فأدرك أن ما أهرب منه لم يكن حلما؛ أن هذه الكوابيس كلها حقائق: صفية قُتلت، بصواريخ بارجة أمريكية قرر المجانين الذين أعمل معهم قصفها، وسيناء احتُلّت، وأعداد لا أعرفها على وجه الدقة ماتت، قُتلت في معركة لم يكن لها ضرورة، وهناك انقلاب عسكري كأن كل السنوات التي مرت راحت سُدًى. كأن كل شيء كان سُدًى. لم يبقَ لي أحد في

هذه الدنيا. كل من أعرفهم قُتلوا، والقلة الباقية شـاحبة صامتة تنتظر دورهـا. أحاول النوم ثانية لكنـي لا أفلح. أعلم أني لن أفلح، فأطرد هذه الأفكار كلها وأقوم.

لكن إلى أين أطرد هذه الأفكار؟ أخرج من غرفة النوم إلى الصالة فأجـد نور تحـدق إليّ والأفـكار ماثلة في ذهني. أخـرج من الصالة فأرى السطح وأتذكر كيف جئت هنا من منشية الطيران وشقتنا التي استولت عليها عائلة الطفل نصف العـاري، والثورة الثانية، وركلي بالأقدام، والأمل والإحباط، ومحمود وعزالدين، وعفاف وميرفت وحسـن، والمشـانق والسـجون والقتل. وآخرتها الرئيـس القطان، وحفنـة دبابات، ومفاوضات انسـحاب؟ أطرد الأفـكار وأخرج إلى الحديقـة، تلـك التي زرعـت صفية نباتاتهـا، واحدا واحـدا، بيدها، وكانت تختار لي منها زهورا للمائدة! أخرج إلى الشارع، لا أريد أن أري الشارع، لكن إلى أين أذهب؟ أأعود إلى البيت؟ ولِمَ؟

لا أحب هذا الشـعور السـقيم بالرثـاء لما آل إليـه حالي وحالنا. أكره هذا الشعور. الذهول كان مريحا لأنه يحول بيني وبين استيعاب ما حدث. لكنه بدأ ينقشـع حين توالت الكوارث وثقلت فوقه فانهار تدريجيا. ووجدت نفسـي ملء نفسـي، أواجههـا، وأواجه ما جرى ومـا يجـرى، ومـاذا عسـاي أن أفعل؟ تلك هـي الأسـئلة. تلك هي الأسـئلة التي تفاديتها أعواما طويلة، ثم لم يعُد من الممكن تفاديها. لم يعد ثمة مكان أختبئ فيه أو أخفيها فيه. ليس هناك، حرفيا، مكان يمكنني الذهاب إليه دون أن أواجه هذه الأسئلة، لا البيت ولا العمل

ولا الشارع، لا مع نور ولا معك، ولا مع عبده وخديجة وأبنائها، ولا مع أمك أو أبيها الرئيس وتابعه المنيسي. لا مخبأ.

لا مفر من مواجهة الأسئلة: أين كنت أنا حين وقع كل هذا؟ هل كنت شاهدا مترجما بين مقعدين، فحسب؟ هل، كما زعمت نور منذ سنوات، لم يكن بيدي فعل شيء ومن ثَم كان عليّ الانسحاب حماية لروحي؟ أم هي مخطئة، وكان عليّ فعل أشياء لا الانسحاب؟ هل كان يجب عليّ الهمس بالنصيحة في أذن الرئيس مثلما طالبني عزالدين فكري قبل الثورة الأولى؟ وهل كان يجب عليّ الهمس أو الصراخ في وجه الرئيس عزالدين حين أعملَ سيفه في الرقاب؟ هل كان من واجبي منع هؤلاء الحمقى من مهاجمة بارجة حربية وسط مساكن المدنيين؟ هل كنت أستطيع أيا من هذا أم أني كنت مجرد شاهد، مترجم، كاتب لمحضر الجلسة؟

لكن ما الفارق؟ ما الفارق بين محاولتي التدخل وعدم التدخل؟ ألم يحاول عزالدين، بكل تصميمه وتخطيطه واحتياطاته ودراسته وعقله وحذره، ففشل فشلا ذريعا وانتهى به الأمر سفّاحا؟ ألم يحاول محمود بكل جنونه واندفاعه ومشاعره وإخلاصه ففشل أيضا وانتهى به الأمر على نفس حبل المشنقة كصاحبه؟ كيف كان يمكن لي أنا، أنا المترجم الهادئ الساكت الذي لا يعرف كيف يصوغ مشاعره وأفكاره في حُجَج مقنعة، كيف يمكن لي، أنا، غير المتأكد دائما، أن أتدخل وأن يكون فعلي أنجع من أفعال هؤلاء؟ وبمَ كنت سأنصح لو اخترت التدخل؟ كنت سأنصح الريس بيومي والمنيسي

بأن لا يهاجموا سفينة حربية من شاطئ مليء بالسكان. وساعتها، لو افترضنا أنهم استمعوا لي، ألن يهاجموها من مكان آخر، فيقتلوا ويقتلوا ونجد أنفسنا بعد قليل في نفس النقطة التي نجد أنفسنا فيها الآن؟ وإن كان عزالدين قد استمع لتمتمتي المترددة الناصحة بالتخلي عن فكرته الناصعة الوضوح باستئصال شأفة السلفيين، هل كان شيء سيتغير أم كان السلفيون سيستأصلون شأفته هو وأتباعه وينتهي بنا الأمر عند نفس هذه النقطة أو أسوأ منها؟

طوفان الأسئلة هذا لم يأتِ دفعة واحدة، بل قطرة قطرة. جاءت القطرة الأولى وأنا أفكر بيني وبين نفسي فيما قالته نور عن السلبية والفن والبعد عن السياسة عندما أغلقوا لها مسرحها، ثم تزايدت القطرات بعد الانقلاب العسكري. وكلما سألت نفسي ولم أجد الجواب زادت الأسئلة، حتى صارت لا تنقطع. وفي وسط ضجيج الأسئلة هذه طلب مني المنيسي المرور عليه في مقر المخابرات العسكرية بشارع الطيران في المساء. أظن أن هذا المبنى كان مقر المواجهة بين اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر في مارس ١٩٥٤ . هل يُعقَل هذا؟ ستة وستون عاما وما زلنا في نفس الموضوع! ذهبت للقاء المنيسي فوجدت الرئيس القطان في انتظاري، وقال لي إنه يعمل هنا في المساء ليتفادى الإزعاج في مقر الرئاسة المؤقت بوزارة الدفاع. طلب مني العودة لعملي القديم سكرتيرا للمعلومات، ولم يترك فرصة لترددي مؤكدا أني الشخص الوحيد الذي يعرف أين توجد الملفات وماذا حدث في الموضوعات الرئيسية خلال سنوات الفوضى السابقة، كما سماها،

ومـن ثَمَّ فمن واجبي المسـاعدة ولو إلى حين. ثـم أضاف أننا أهل، ولن يجد أحدا يثق به أكثر مني. اللواء المنيسـي حضر هذه المناقشة كلهـا وظل يومئ موافقا ومشـجِّعا. وفي طريقـي للخروج مال عليّ وقـال إنه سـيطلب منهم تجهيـز مكتب لي هنا للعمل به مسـاء حين يأتـي الرئيـس هنـا، في حيـن يمكننـي الاسـتمرار في العمـل بمقر الرئاسـة صباحا. وطلب مني إبقاء الملفات والأرشـيف وكل شيء في مكانه بمقر الرئاسة، مؤكدا أن الرئيس القطان سينتقل إليه قريبا.

- ٧ -

حين قلت لنور إني سـأعمل مع الرئيس القطان نظرَت إليّ نظرة أعرفها، ولـم تعلِّق. كان لا بد من كسر هذا الصمت، واستعادة الحوار بيننـا، دون أن يفضـي إلى شـجار أو فراق. أمسـكت بها وأجلسـتها أمامـي وقلـت لها إنـي أحبها، ولا أريـد جرحهـا، ولا فراقها، وإني أسـمعها، وأظن أني أفهمهـا، وكل ما أطلبه منها هـو بعض الوقت. اعترفـت لها بأني أراجع نفسـي وأسـائلها، ربما بأكثر مما تسـائلني هـي، لكني لـم أجد الإجابة بعـد، فالذي يجري من حولي يسـبقني ويفوق قدرتي على الاسـتيعاب والفهـم. كل ماطلبته منها هو البقاء بجواري، ومنحي بعض الوقت.

لـم أكذب عليها ولا على نفسـي هذه المرة. كنـت قد فهمت أن فرارها مني حب، وغضبها عليَّ رغبة، وسـخريتها اللاذعة مني ومن

الحياة أمل ممعن في التنكر. هذه المرأة ليست يائسة، بل تدَّعي اليأس على أمل أن أُرِيَها طريقا آخر. وحتى الآن لم أفعل ذلك. كان باستطاعتي أن أعِدَها بالحماية وبالأمل وبالسعادة، وراودتني نفسي، لكنني منعتها. تعلمت الدرس. قلت لك إن أسوأ شيء أن يكون المرء جبانا ويدَّعي الرجولة. كن جبانا إن لم يكن هناك بد، لكن لا تضلِّل من تحب فتجرحه مرتين. ارتكبت هذا الخطأ من قبل، في حق داومينج البريئة، وفي حق عفاف، وفي حق نور نفسها، وربما حتى في حق أمك. ولكني كبرت، وعزمت على أن لا أكرره. قلت لنور الحقيقة دون وعود: إني أسائل نفسي ولا أفهم كثيرا مما يجري لي، وأحتاج إلى وقت كي أتعامل مع طوفان أسئلتي هذا، ثم أعود إليها وأخبرها بما قررت فعله. أومأَت موافقة، وأحسب أنها فهمتني. ولم يأخذ الأمر مني سوى بضعة أشهُر حتى عدت بالإجابات.

لم يأخذ الأمر وقتا طويلا لفهم ما يفعله القطان، وسبب إعادتي إلى العمل. لم يتغير الرئيس القطان في شيء عن اللواء القطان أو عن العميد القطان. الرجل الذي رأيته في صالون أبي منذ ثلاثين عاما هو هو الذي عمل في حراسة الرئيس والذي تولى العلاقات العامة بمكتبه بعد ذلك، وهو هو الذي «طهَّر» الجيش بعد الثورة الأولى. الفارق الوحيد أنه كبر ثلاثين عاما وصار أكثر «حكمة»، فتصلبت أعصابه أكثر، وضاق خلقه بالناس أكثر، وقلّ استعداده للاستماع إلى الآراء الأخرى. تَولَّى القطان الرئاسة ومصر وسط

تحديات عصيبة داخليا وخارجيا، وكان لا يملّ من تكرار ذلك. تابِعه الملتصق به، اللواء المنيسي، هو ولا شك صاحب فكرة إعادتي. وقد أعادني خِصِّيصا يوم اجتماع مجلس الأمن القومي كي أشهد، أنا «المحايد»، على جنون الريس بيومي الذي كان سيدمر بقية الجيش في مغامرة عسكرية فاشلة لو لم يتدخل القادة وينقذوا الموقف. وأظن أن بقائي كان مفيدا أيضا لإضفاء الطابع المدني على الرئاسة، وربما للتواصل مع القوى السياسية التي تأتمنني بحكم العشرة وجسور الثقة التي بنيتها معهم خلال السنوات الماضية. وأعتقد أيضا أن الرئيس القطان، الذي لم يحترمني في يوم من الأيام، ولم يرَ فيّ غير شخص حالمٍ يغلب عليه العَبَط وضعيفٍ، قد أرادني في هذا المنصب الحساس لهذه الصفات تحديدا. وكوني زوج ابنته وأبا حفيده، حتى لو كانت علاقتي بالابنة متوقفة، أعطاه طمأنينة ناحيتي؛ هكذا هو القطان في نهاية الأمر، لا يثق إلا بالضعفاء ومن يسيطر عليهم وأهله الأقربين، وقد ظن أني الثلاثة معًا. كان يثق بالمنيسي، وبي، لكني متأكد أنه كان يشكّ فينا نحن الاثنين في نفس الوقت، ويحتاج إلى وجود كل منا كي يطمئنّ أن الآخر لن يبيعه. لهذا أرسلَنا نحن الاثنين في هذه المهمة القاتلة.

سألني الرئيس القطان عندما تسلمت عملي عن رأيي في التحدي الأكثر استعجالا الذي ينبغي له مواجهته، وعندما أجبت «الاحتلال الإسرائيلي لشرق سيناء» ضحك حتى دمعت عيناه. هز رأسه وهو يمسح عينيه من دمع الضحك وسألني عن عاقبة احتلال

إسرائيل لسيناء لأكثر من عشرين عاما، أو عما فعلناه نحن بسيناء حينما «حررناها» لمدة عشرين عاما! ووسط صمتي المرتبك قال إن الأولوية الأولى والقصوى هي إعادة الاستقرار، وهيبة الدولة، وسلطة الحكومة، أما بقية الأمور فيمكن أن تنتظر. لفتُّ نظره إلى أنه لن يستطيع فعل أي من هذا دون رد العدوان الإسرائيلي، فردّ مصحّحا أن المهم هو إحساس الناس أننا نفعل ذلك، لكن فعل ذلك وحده لن يعيد الاستقرار، على العكس. ثم أضاف حكمة أخرى، أنه من غير المهم حل أي مشكلة، فمعظم هذه المشكلات غير قابل للحل، ومن الغباء استهداف حلها بشكل جادّ لأنك ستزعج الناس كلهم وتؤلمهم وتنكد عليهم عيشتهم ثم تفشل في نهاية الأمر، هذا إن لم ينقلبوا عليك في الطريق ويزيحوك. ذلك كان، في رأيه، خطأ صديقي السفاح. ومن ناحية أخرى، فإن بقاء هذه المشكلات يساعد في تحقيق أهداف أخرى. هذه كانت حكمة وطريقة القطان، بسيطة وواضحة ومباشرة. ولم أسمعه في يوم من الأيام يبوح بها بهذا الوضوح لأحد غيري. ربما لرأيه المتواضع في شخصي، وربما يكون الآخرون قد فهموا هذه القاعدة وحدهم، مثل المنيسي الذي كان يتصرف على أساس هذه الحكمة دون قولها صراحة. كذلك كانت كل المناقشات التي حضرتها في عصر القطان تدور في فلك هذه القاعدة، لكن دون الإقرار الصريح بها. ربما احتاج القطان أن يفسر لي قاعدة يعرفونها جميعا، في دوائر القائمين على الانقلاب؛ ربما يعلمونهم هذه القاعدة في أكاديمية الانقلابات العسكرية.

أيـا كان الأمـر، فقد طبّـق القطان وأعوانـه هذه القاعدة بنشـاط وإخلاص وعزيمة يُحسَـدون عليها. رفض تسـمية ما حدث انقلابا أو حتـى ثـورة، وقـال إنهـا مجـرد «عمليـة إنقـاذ»، مؤكـدا طابعهـا المؤقَّت. وبدلا من الصورة العسـكرية المنضبطة القوية قرّر القطان تَبنِّي الصورة المعاكسـة بالضبط: صورة الجد الحنون الذي يسـعى لإرضـاء الجميع ولا يعـرف كيف يواجه طلبات أبنائـه المتعارضة. كنـت تـراه في كل مـكان، في الشـمس يتصبب عرقـا ووجهه يزداد حمرة ولغده يكاد يسقط من فرط شعوره بالإجهاد، وفي الليل يزور مواقع للجيش لا أحد يعرف أين هي ويبدو سـاهدا مُتعَبا، وبين هذا وذاك يلتقي مع الأطراف السياسـية والوفود الشـعبية ويفتتح أشـياء ويـزور مقرات، وهـو دائما يلهث، دائما مكـروب. وفي تعبه وكربه هذا يبتسـم ابتسامة حنونا وقلقة على مسـتقبل الناس، ويؤكد وحدة هذا الشـعب أمام المصائب والتحديات، وعزمه إعادة ترتيب البيت مـن الداخل بحيث نبني مصر حديثة وديمقراطية على أسـس متينة، ونحرِّر قبل كل هذا ترابنا الوطني من دنس الاحتلال.

ولـم يكـن الأمـر كلـه كلامـا وصـورا، بـل كان هنـاك كثيـر من الأفعال، خصوصا تجاه القوى السياسية. أول مهمة واجهها القطان كانت حالة «الطاعة المدنية» التي أعلنها اتحاد الشباب الديمقراطي والإخوان الذي صار يعرف باسـم حركة «معا». سـار في خطى قادة الانقلاب الذين لم يحاولوا كسـر هذه الدعـوة، ثم مضى أبعد منهم بخطـوة، فدعـا ممثلـي حركة «معـا» إلى لقائـه، ولما رفضـوا أعلن

قبولـه الرسـمي للمطالب التي اسـتندت إليها هذه الدعـوة، وإعادة تعيين كل رؤسـاء الهيئات والوزارات المدنييـن، بمن فيهم الوزراء السـابقون، في مناصبهم. ودعا القوى السياسية للاتفاق على رئيس وزراء مدنـي، ولما رفـض الإخوان والديمقراطيـون حاول الاتفاق مع حزبَي الوفد والتجمع، لكن قيادات الحزبين كانت كلها تشارف على التسعين وتنام في الاجتماعات إن طالت عن ساعة، ولـم يكن بينها مَن يصلح حتى لوظيفة رئيس وزراء شكليّ. من ثَمَّ ظل القطان رئيسـا للبـلاد والحكومة معـا. أطلق القطـان أيضا مبـادرات لكتابة دسـتور جديد دائم، وعقْد حوار وطني لرسـم معالم مرحلة انتقالية جديـدة بما في ذلك تحديد موعد للانتخابات البرلمانية والرئاسـية الجديـدة، وغيرها. وأهمّ من ذلك كله، أطلق سـراح الريس بيومي، وأفرج عن بقية قادة الإخوان المعتقلين.

فعـل القطـان كل ذلك وهو ممسـك بقبضة الأمـن الداخلي بيد مـن حديـد، وكانـت تعليماتـه هي السـماح لمـن شـاء بالتعبير عما شـاء، وعـدم التدخل إلا في حالة تهديد حيـاة الناس أو قطع الطرق السـريعة. أمـا إن أراد الشـباب التظاهـر وسـد طريق فـي القاهرة أو ميـدان في الإسـكندرية فليتظاهـروا. وإن أرادوا حصـار مبنى ومنع الموظفيـن مـن الدخول، إن شـالله عنهم مـا دخلوه. دعهـم يفعلوا ما يشـاءون، ولا تتدخـل إلا لحمايـة الأرواح والطـرق السـريعة. وحين احتجّ بعض القادة الأمنيين من أصحاب اليد الثقيلة أسكتهم، وقـال لهـم سـاخرا أن يلتزمـوا بمهمـة الشـرطة والأمن فـي الدول

الديمقراطية، وهي «التنفيث» كما ادَّعى. ولما سألوه ماذا يعني بهذا أجاب أن الحرية التي يتحدث عنها الغرب وهْم، فالناس هنا مثل الناس هنا؛ يعيشون في قبضة نظام حديدي. لكن الفرق أنهم هناك يتركون الناس تنفث عن غضبها وإحباطها، وهذا هو ما يسعى إلى تحقيقه: السيطرة مع «التنفيث». وحين اعترض البعض بأن التنفيث هذا قد يقود إلى فقدان السيطرة، ردّ بأن البلد لم يعد بها سوى قوتين: الإخوان، وهم سيقدّرون مساحة الحرية التي يعطيها لهم، خصوصا وقد رأوا عواقب تصدُّرهم لتحمل مسئولية مشكلات البلد بأسرها، والديمقراطيون وهم على كراهيته لهم سينقسمون كلما أعطاهم فرصة للاختيار، «وهكذا نكسب وقتا». سألته فيما بيننا عما سيحدث بعد كسب الوقت، فابتسم وقال إنه في الرابعة والسبعين، وغاية ما يتمناه المرء في هذه السن هو كسب الوقت.

وفي هذا الإطار، وبنفس المنهج، بدأ القطان المفاوضات مع الإسرائيليين. ونظرا إلى حساسية هذا الموضوع فقد أعلن عن تشكيل «اللجنة الوطنية لتحرير سيناء»، ودعا كل القوى السياسية للمشاركة فيها، ولم يستطع أحد مقاطعة هذه اللجنة بالطبع، حتى شباب حركة «معا». وقد حضرت اجتماعات هذه اللجنة كلها، وأشهد أنها كانت غاية في الديمقراطية، فلم يتخذ القطان قرارا واحدا فيها إلا بأغلبية الأصوات. ولكن كل هذه القرارات كانت فارغة من المضمون، وكان يعلم هذا جيدا، ويضحك منه بعد انتهاء الاجتماعات.

- ٨ -

رفضت أغلبية القوى السياسية التفاوض مع الإسرائيليين قبل انسحابها من كل شبر احتلته في الحرب الأخيرة، فقبِل اللواء القطان بموقفهم وأبلغه لوسيط الأمم المتحدة المكلَّف بمتابعة تنفيذ القرار« ٢٢٦٦ »، «كارل فون كالتنبورج». استغرب الوسيط هذا الموقف، وحاجَّ القطان؛ كيف سينسحبون قبل التفاوض؟ وإذا انسحبوا، فما الحاجة إلى التفاوض؟! سوَّفه القطان، فقد كان مقتنعا بما يقوله الوسيط، لكنه لا يريد اتخاذ موقف تلومه عليه إحدى القوى السياسية، لأن هذه هي الأولوية كما قال، أما سيناء فيمكنها الانتظار. وهكذا، ظل كالتنبورج يذهب ويجيء، وفي كل مرة نقول له كلاما ويقول لنا كلاما، ونكتب أوراقا ونعطيه إياها، ويعطينا أوراقا. وتنعقد اجتماعات في نيويورك، وغيرها، وتنفضّ. ثم أتى الأمريكيون، والأوربيون، والصينيون، والروس، حتى رئيس سنغافورة أتى للتوسط، وفي كل مرة نقوم بعرض موقفنا؛ الانسحاب ثم التفاوض، ونضيف إليه كلاما كثيرا أعفيك وإياي من إضاعة الوقت فيه.

وبحلول أغسطس كانت سياسة القطان «الحكيمة» قد آتت أُكُلَها؛ هدّأت القوى السياسية واستقرّ الوضع الداخلي إلا من بعض الاحتجاجات والمظاهرات من وقت إلى آخر، وتاه السياسيون والرأي العامّ في المناقشات المتعلقة برسم معالم المرحلة الانتقالية ودستور الوضع الدائم. واستمر خطاب القطان اللّيِّن

داخليا والقويّ الحماسي فيما يتعلق بالاحتلال الإسرائيلي والقوى الدولية الظالمة، التي حملها أيضا مسئولية التدهور الاقتصادي وارتفاع الأسعار وشح السلح وتأخُّر المرتبات، التي قُدِّمت للناس باعتبارها نتيجة «الحرب الاقتصادية» التي يشنها المجتمع الدولي علينا لتركيعنا.

لكننا ـ والقطان أولنا ـ كنا نعلم أن هذا الهدوء لا يمكن أن يستمرّ، فمهما كسب من الوقت فستعود المطالب وتعود المشكلات وتطرق بابه. ولاحظت أنا بصفة خاصة أن حركة «معا» أخذت تنحو منحى مختلفا كليا عن القوى السياسية، بما فيها القوى التي «تتبعها» نظريا. فقد بدأت الحركة تنسِّق عملها في الأحياء والقرى والمدن الصغيرة، كما فعل الشباب الديمقراطي الذي بدأ السفاح مشواره معه. هذه المرة كان الأمر مختلفا وجديدا، فلم يعُد هذا النشاط قاصرا على الديمقراطيين، ولم يكن يستهدف الانتخابات المحلية. هذه المرة شمل التحرك شباب الديمقراطيين والإسلاميين معا، من داخل وخارج الإخوان، وانصبّ على بناء توافقات حول القضايا الأساسية التي تطرحها المرحلة الانتقالية. علمتُ ذلك ـ أول ما علمتُه ـ من تقارير الأمن القومي التي رصدت هذه التحركات وأعربَت للقطان عن قلقها منها. حاول الأمن إعاقتهم ثم وقفهم، لكن الشباب احتجّ بكون هذا النشاط جزءا من «الحوار الوطني» الذي يقوده القطان، والتقطت وسائل الإعلام العامة بدء هذه المواجهات المحلية فقرر القطان التساهل وأصدر تعليماته للأمن القومي بالاكتفاء بمواصلة

الرصد وتفادي المواجهة مع الشباب، والعمل بدلا من ذلك على الاتفاق مع قيادات الكتلة الديمقراطية والإخوان من أجل تحجيم هذه الجهود التي ستضرّ بقيادتهم لتكتلاتهم كما ستضرّ بالنظام. وقال القطان لرئيس هيئة الأمن القومي في اجتماع حضرتُه إن مواجهة الشباب ستزيد من أهميتهم ومن شعورهم بهذه الأهمية، ومن الأفضل تصغير الموضوع لا تكبيره.

وسواء كان القطان مصيبا أم مخطئا في هذا التقدير، فإن تحرك الشباب لم يكن سوى مؤشر واحد لعدم إمكانية استمرار الحال على ما هو عليه، خصوصا في ضوء الوضع الاقتصادي المتدهور. وهذا ما ركز القطان على مواجهته، فالوضع الاقتصادي في نظره يمكن التعامل معه بشكل أفضل من القضايا الأخرى. لكن كعادته، وبنفس طريقته، لم يكن هدفه هو تطوير الاقتصاد، فهذا في نظره أمر يحتاج إلى معجزات. بل سعي لضخّ بعض الأكسيجين كي تدور العجلة أفضل قليلا: بعض القروض لتمويل استيراد كميات أكبر من السلع الرئيسية ومواجهة عجز الموازنة، وربما رفع المرتبات قليلا، والعمل على اجتذاب مزيد من السياح، وبعض الاستثمارات الجديدة... هذا النوع من الإجراءات. لكن لتحقيق أي من هذا لم يكن أمامه سوى التصالح مع الأمريكيين، قلت. فردّ عليّ بأن هذا هو أسهل شيء.

وقد كان، وسلك في ذلك نفس الطريق الذي اتبعه سابقوه من «الحكماء».

فمن ناحية، استمر القطان في رفض استئناف المفاوضات مع الإسرائيليين، وأبلغ مبعوث الأمم المتحدة كالتنبورج باستيائه الشديد من عودته إلى المنطقة خاوي الوفاض وطلب منه أن لا يعود إلى القاهرة دون إقرار رسمي من الإسرائيليين بقبولهم الانسحاب من الأراضي المصرية المحتلة في ٢٠ مارس دون قيد أو شرط، وإعادة جميع الأسرى والمحتجزين، وإعادة بناء فنادق شرم الشيخ المدمرة، وتعويض مصر عن الأضرار التي لحقت بها جراء العدوان الإسرائيلي الغاشم، وهي الصيغة التي أقرَّتها اللجنة الوطنية لتحرير سيناء. ومن ناحية أخرى، أبلغ الجانب الأمريكي استعداده للتفاهم معهم هم على كل الأمور المطلوب التفاهم عليها كي تنسحب إسرائيل من هذه الأراضي، ما دام هذا التفاهم مع أمريكيين فقط ودون أي لقاء مباشر مع الإسرائيليين. وقال لهم، في الاجتماع الذي حضرتُه، إنه لا يهمه ما يفعله الجانب الأمريكي مع الإسرائيليين كي نصل إلى هذا التفاهم، شريطة أن لا نسميه مفاوضات، لا مباشرة ولا غير مباشرة. وشدَّد القطان على محورية هذه النقطة، وضرورة بدء المبعوث الأمريكي مهمته بالإعلان في مؤتمر صحفي أن ما يفعله ليس مفاوضات غير مباشرة، بل حديث ثنائي بين واشنطن وعواصم المنطقة.

قد تظنّ أني أمزح، أو أبالغ بسبب كراهيتي واحتقاري للقطان. وأنا قطعا أكرهه وأحتقره، لكني لا أبالغ، للأسف. كان هذا بالضبط ما حدث، وليس هذا تفسيرا مني بل وصف. وحين كنا نتداول في

الأمر، القطان والمنيسي وأنا، أو أنا وحامد، فإننا كنا نتداول في الأمر من هـذا المنطلق، وبهـذه المعايير؛ كان المطلـوب حفظ المظاهر، لا أكثـر. والحقيقـة أن هذا الأمـر ليس جديدا؛ فهكـذا كانت الأمور تُدار منذ بدأتُ العمل في الرئاسة، منذ كنت أترجم مقالات للرئيس بينما تدكّ أمريكا مدن العراق وقراه. ولما جاءت «حكومات الثورة» أدارت الأمر بشـكل أسـوأ. لم يكُن أي من هذا بجديد، الجديد هو شعوري أنا به. ففي حين صدمتني هذه الطريقة وأنا شاب في سنك، فإنـي تقبلتهـا سـاعتها باعتبار أن هـذه هي حقائق الحيـاة وما عداها أحلام الصِّبا. تَعوَّدت عليها وقبِلتُها مثلما يقبَل الأطفال حقائق الحياة إذ يكبرون: أن السِّنَّة التي تسقط ليست للجاموسة ولا التي تأتي من العروسـة، وأن أنـف الكـذاب لا يفضحه، بل غالبا مـا ينجو بكذبته ويدفـع الصادقون الثمن، وأن كونك على حق لا يضمن نجاتك من العقاب، وأن بابا نويل غير موجود أصلا، فضلا عن متابعته سلوكك طـول العام وإتيانك بالهدايا إن أحسـنت. مثلمـا نتقبل خيبات آمال الطفولة والصبا، تعلمت تقبُّل حقائق حياة الكبار التي وخزت عينيّ وضميري وقلبي أول مرة رأيتها في مكتب الرئيس.

لكـن ثورة قامـت منذ ذلك الوقت، وصدَّقت مـع من صدَّقوا أن «الحقائـق» القديمة لم تكـن إلا أكاذيب راسـخة، وأن هناك حقائق أخرى ممكنة: مثل أن نصبح كالناس الآخرين الناجحين، وأن نعمل بصدق لحماية حياتنا ومصلحتنا وأولادنا، وأن نحسـم خلافاتنا معا كي نسـير كلنا إلـى الأمام، وأن يوسـع بعضنا لبعض ونفسـح مكانا

للآخريـن، وأن الآخريـن إخوة وأخـوات لنا، وأن الحق يسـطع في النهاية، والخير يربح، والجمال يشـرق، وأن العدل ممكن. صدقت هـذا، وما زلت أصدقه، رغم حكم العسـكر، والثـورة الثانية بعماها وغبائها، ومحمود بشـير ومهاتراته التي حطمتنا، والسـفاح مهندس القتل المنظم، والريس بيومي وبلاهته، رغم كل ذلك، ما زلت أؤمن بالحيـاة الأخرى التي خلنا جميعا أنها صارت بين أيدينا. وحين عاد القطـان ورجاله، أعاد الأمور إلى نِصابها الذي يعرفه، نِصاب الكبار العاقلين، بعيدا عن الهبل ولعب العيال. لكني لم أسـتطع الانغماس في تلك الحياة القديمة كأن شـيئا لـم يكن. أول مرة لـم أكن أعلم أن هناك حياة أخرى ممكنة، أما الآن فما حجتي؟

هكذا تضاعف طوفان الأسئلة، وبدأتُ أطرح على نفسي إجابات وأفكر في مدى صوابها. قد تسـأل نفسـك، وتلومني، لماذا لـم أترك هـذا العبث المأسـاوي وأستقِلْ مـن فوري، إمـا لأفضـح أفعالهم الشـنعاء وإما على الأقل كـي أفكر في أسـئلتي وإجاباتها. وأجيبك بأن الفضيحة أمر تفعله لمرة واحدة، وهو لا يغير الكثير. أما التفكير فهـو أمـر لا أفعله بمعزل عن الحياة؛ لسـت من النـوع الذي يجلس عند شـاطئ البحر كـي «يفكر». وحين أفعل ذلك لا أفكر في شـيء ذي قيمة. أفكاري تأتيني من حواري مع نفسي، وأنا في العمل، وأنا وسط الناس، وأنا أحيا. وهذه هي الحياة التي أعرفها، وكنت أحتاج إلـى البقـاء فيها وأنـا أفكر. أحتـاج لرؤية القطان والمنيسـي وحامد وغيرهم وهم يعملون كي أستطيع حسم أمري والإجابة عن أسئلتى.

سألت اللواء حامد عن رأيه فيما يجري، فقال لي: «كل سنة وانت طيب». وحينما استوضحت منه ما يعنيه قال لي إن ما حدث حدث وانقضى، وللأسف يذهب البلد في الاتجاه الخاطئ. سألته عن رأيه في «المفاوضات» فهز كتفيه وسألني: لم ستنسحب إسرائيل؟ ما الذي يدفعها؟ وماذا سنفعل إن لم تنسحب؟ سألته إن لم تكن الحرب ممكنة، بعد شهور أو سنة أو حتى أكثر، فنظر إليّ مطوّلا وابتسم، وسألني من الذي سيحاربها. ولَمَّا لم أُجِبه، مال عليّ أكثر وسألني مباشرة إن كان من أعرفهم لهم مصلحة في محاربتها أو في احتلالها لشرق سيناء. تمتمت بعبارات غير واضحة، فطلب مني استعادة تسلسل الأحداث منذ بدايتها، منذ حادثة غزة الأولى، وسؤال نفسي عدة أسئلة بسيطة: من الذي يسيطر على الحدود وترك الصواريخ تعبر من الحدود مرات عديدة؟ ومن صاحب القرارات الغبية التي قادت إلى ضياع شرق سيناء؟ قلت له بيومي والإخوان، فسألني: هل كان بيومي والإخوان هم من بدأ عمليات التهريب أم دخلوا على الخط بعد تحولها لأزمة؟ وهل كانوا على علم بعواقب مواقفهم الخشنة أم اندفعوا تحت تأثير الحماس والغوغائية؟ قلت: الأغلب أنهم اندفعوا. فسألني: ومن الذي كان يعلم بالعواقب؟ من الذي كان معرفة العواقب من صميم عمله؟ ومَن الذي شجَّع بيومي وإخوانه على هذه السياسة؟ من الذي شجَّعه على ضرب البارجة؟

صُعقت، ونظرت إليه سائلا إياه بعيني إن كان يعني ما فهمت فأومأ. سألته منذ متى وصل إلى هذه القناعة فقال منذ بدأت الأزمة،

ونبَّهني أنه ألمح إلى ذلك من قبل عدة مرات. سألته عن دوره هو في هذا، فقال إنه يرأس مؤسسة تعمل لصالح صانع القرار، ولا يمكنها تَخطِّيه أو الالتفاف عليه. سكتَ، وسكتُّ. ثم قال إنه قرر ترك منصبه، واتفق مع الرئيس القطان على ندبه للعمل سفيرا في فنزويلا، ونصحني أنا الآخر بالبحث عن باب للخروج من هذا المركب السائر إلى المجهول.

- ٩ -

كان اللواء حامد محقا في نقطة واحدة على الأقل، وهو أن الإسرائيليين رفضوا الانسحاب من شرق سيناء. في البداية قالوا إنهم سينسحبون، لكنهم طلبوا تأكيدات وضمانات بشأن منع تهريب الأسلحة والأفراد «الخطِرين» إلى غزة، وإحكام السيطرة على الحدود بين مصر وإسرائيل بحيث لا يستغلها أحد لتوجيه ضربات ضد المراكز السكانية والحيوية جنوبيّ إسرائيل. أبدى المنيسي - الذي تولى «المفاوضات» مع الجانب الأمريكي - استعداده لمناقشة الضمانات المطلوبة، ثم اكتشف أن تعريف الإسرائيليين لكلمة «الضمانات» يختلف عن تعريف القواميس لها، فهم لم يكتفوا بالتعهدات، شفوية كانت أو كتابية، وإنما أرادوا إدارة الحدود بأنفسهم. في البداية اقترح الجانب الأمريكي الاتفاق على الإجراءات التي يتم تطبيقها على الحدود ثلاثيا؛ أي بين مصر وأمريكا وإسرائيل، ثم تلتزم بها مصر. قال المنيسي إن ذلك سيكون

صعبا قبوله، لكني كنت أعلم أنه سيقبله إذا قبِله الإسرائيليون. إلا أن الإسرائيليين لم يقبلوه، فمن يضمن التزام مصر بتنفيذ ما يُتفق عليه؟ وأشاروا إلى اتفاق سابق بشأن غزة تم بالطريقة التي يقترحها الأمريكيون ثم لم تلتزم به مصر ولم يستطع الإسرائيليون فعل شيء أمام ذلك، وانتهى الأمر بمطارهم مضروبا بالصواريخ.

من ثَمَّ اقترح الإسرائيليون بالإضافة لذلك مراقبة تنفيذ الجانب المصري لالتزاماته من خلال غرفة عمليات ثلاثية، مصرية-أمريكية-إسرائيلية، تراقب من خلال كاميرات ومجسّات وصور القمر الصناعي مدى تنفيذ الاتفاق على الأرض فعليا. كان هذا يعني وضع حدود مصر مع غزة وإسرائيل تحت رقابة إسرائيلية وأمريكية مباشرة. صُدم القطان لما سمع بهذا، ثم استخفّ به باعتباره مناورة تفاوضية إسرائيلية. لكن المبعوث الأمريكي عاد بعد أيام ليضيف تفصيلا «نَسِيَه»، هو أن الإسرائيليين يشترطون إعطاء غرفة العمليات المشتركة السلطة لتوجيه التعليمات إلى حرس الحدود والشرطة المصريين في حالة اكتشافهم خرقا لالتزامات مصر أو تهديدا ما للحدود. لم تكن تلك تفصيلة، بل تغييرا للعرض، فهذا يعني أن غرفة المراقبة لن تكتفي بمراقبة حرس وشرطة الحدود، بل ستتحكم في أدائهم. كان هذا احتلالا من بُعد لا انسحابا بضمانات.

جُنّ جنون القطان. وبعد أن اتصل بوزير الخارجية الأمريكي ولم يصل معه إلى شيء دعا رئيس هيئة الأركان المشتركة لزيارة القاهرة لبحث المسألة. لكن هذا أوفد قائد المنطقة الوسطى، المسئول عن

العمليات الأمريكية في الشرق الأوسط أولا «لاستطلاع الموقف»، ولم يكن لديه جديد. وتأخرت زيارة رئيس هيئة الأركان أسبوعا إضافيا، مما جعل القطان يتوتر ويستشعر الغدر كما قال. ثم شرَّفه رئيس هيئة الأركان بالزيارة أخيرا، وتم الاجتماع على جزءين، حضرت الأول منهما مع المنيسي وعدد آخر من قادة الجيش، وكان اجتماعا روتينيا شرح فيه الطرفان مواقفهما وتبادلا الأمنيات الطيبة. ثم كان هناك الجزء الثاني. الذي اقتصر على الزائر والقطان، ولا أعلم إلى اليوم ما دار فيه، لكنني حين رأيت القطان في نهاية الاجتماع شعرت أنه شخص آخر، دون مبالغة. كأنه انطفأ. راح البريق من عينيه، وتهدلت كتفاه، وهبط مستوى نظرته، فصار ينظر إلى أقدام الناس لا وجوههم. اغتصب ابتسامة وسلّم على الوفد الزائر وأعضاء الوفد المصري وعاد إلى غرفته، ولم أرَه بقية اليوم.

قضيت المساء مع بعض أعضاء الوفد الزائر. ذهبوا بعد الاجتماع لزيارة الأهرام والمتحف وشراء بعض التذكارات لأصدقائهم، ثم التقينا على عشاء نظمه رئيس الأركان المصري على شرف نظيره الزائر. كانت المناسبة مراسمية بحتة، نوعا من المجاملة المتعارَف عليها بدلا من ترك الزوار يحدقون إلى سقف غرفهم بينما يتمّ تجهيز طائرتهم للرحيل في الرابعة صباحا. قضينا العشاء في كلمات باهتة ودعابات مكررة من الطرفين، ثم انتقلنا إلى الصالون لتناول بعض المشروبات. هناك تَقدّم مني شاب في منتصف الثلاثينيات وقدّم لي نفسه: «توم رايلي»، الضابط المسئول عن ملف مصر والشرق

الأوسط في مكتب رئيس الأركان. سلّمت عليه بأدب لكن دون اهتمام، ولما لاحظ عدم اهتمامي مال عليّ وقال إن بيننا صديقة مشتركة. نظرت إليه متسائلًا فمال عليّ وهمس: «سارة رمسدل».

توم رايلي! لم أملك نفسي من الابتسام وأعدت السلام عليه بحرارة. هذا هو الشخص الذي اتصلت به سارة، تلميذة عزالدين فكري بالجامعة، والذي دبّر لي الاتصال بكَ وبأمك وجدِّك اللعين أثناء اختفائه من مصر عقب الثورة الأولى. كنت سعيدا بمقابلة الرجل، وشاكرا له، وعبّرت له عن امتناني العميق وشعرت كأن تلك الأيام عادت. من كان يصدّق أن أتذكر تلك الأيام باعتبارها أياما جميلة تبعث ذكراها على الابتسام والفرحة! وكان توم سعيدا بنفسه بشكل صبياني. مثل فتى أصلح درّاجة صديقه التي استعصت على الفنيين. ظلّ يهز رأسه ويبتسم لفترة حتى انتهى مخزون الابتسام والشكر، فعَلِقنا لحظة في صمت لا نعرف ما نقول عنده. ثم سألته عن سارة، وما إذا كانت لا تزال في الخليج العربي كما ذكَرَت عند رحيلها، فهز رأسه نافيا ومال عليّ وقال بصوت خفيض إنها نُقلت إلى اليابان. سألته مستغربا: لم؟ ألم يكن يتمّ إعدادها للخدمة في الشرق الأوسط؟ هز رأسه وقال إن ذلك كان المفترَض، لكن ظهرت عليها علامات مقلقة ففضّل قادتها نقلها بعيدا عن المنطقة. سألته باستغراب أي علامات يقصد، فقال إنها بدأت «تتوحد مع السكان الأصليين»، فلما شاهد تعبير وجهي غير الفاهم قال إن المفترَض في الضباط فهم ثقافة المنطقة التي يعملون فيها وظروفها وخلفياتها

كـي يمكنهـم التعامل مع أهلها والتنبؤ بسـلوكهم، وطبعـا مع الفهم يأتـي قدر من التعاطف. لكن البعض يغلب تعاطفه مع المنطقة التي يخدم بها علـى كفة تعاطفه مع الاعتبارات الاسـتراتيجية للولايات المتحـدة، وهنـا يعبر الخط الفاصـل بين «الرجـل الأبيض» الغازي و«السـكان الأصليين». لم يحدث هذا تماما لسـارة، ليس بالضبط، لكن انتقاداتها لـ«عملهم في الخليج» زادت على المستوى المعتاد، وبدأت تتحول إلى مصدر قلق لرؤسائها المباشرين الذين لم يتمتعوا فيما يبدو بكثير من حس الفكاهة أو الروح النقدية. ولذا قررت قيادة البحريـة نقلهـا حماية لها من الصـدام مع هؤلاء، وتـم بالفعل نقلها إلى قاعدة «يوكوسـوكا» البحرية المسـئولة عـن التعامل مع الصين وكوريـا الشـمالية. اسـتغربت أن يكـون كل ذلك قد حدث لسـارة، فقد كان الكل هنا يظنّها جاسوسة. ضحك توم عندما قلت له ذلك، وعلق بأن الجواسيس لا يقدّمون أنفسهم عادة باعتبارهم ضباطا في البحرية الأمريكية؛ الجواسيس الحقيقيون لا تعرف مَن هم، وأحيانا لا تعـرف حتـى أنهـم أمريكيـون. انتبهـت لجملته ولاحـظ انتباهي فضحـك وسـألني إن كان لديّ أسـرار أريد إفشـاءها له، وضحكتُ بدوري وغيّرنا الموضوع.

في تلك الأثناء لم يحدث أي تقدُّم في «المفاوضات»، واسـتمرّ القطـان مكتئبا والمنيسـي مترددا حائرا. حاولت كسـر القوقعة التي يختبئـان فيهـا ومعرفة ما يجري أو ما يدبّران، ولـم أفلح. كل ما قاله لي القطان عندما سألته عن المفاوضات أن الإسرائيليين لن ينسحبوا

طواعية، ثم سبّ الأمريكيين والإسرائيليين معا بأقذع الألفاظ، وهو أمر ليس من عاداته. سألته عما ينوي فعله فاحتدّ عليّ طالبا مني بسخريةٍ القيامَ بواجبات وظيفتي ولو مرة واحدة وتقديم الحلول بدلا من الأسئلة المزعجة.

انعقدَت بعد ذلك «اللجنة الوطنية لتحرير سيناء» وحضرها المنيسي ممثلا للرئيس القطان، وقدّم تقريرا عن المفاوضات لم يأتِ فيه على ذِكْر ما دار، بل قال إن المناقشات مع الأمريكيين مستمرة، وهم بدورهم يتناقشون مع الإسرائيليين، ونأمل أن تصل تلك المناقشات إلى حل. احتدّ بعض ممثلي القوى السياسية، وقال ممثل الإخوان إن علينا أيضا إعداد أنفسنا لوضع تفشل فيه المفاوضات ونُضطرّ إلى العودة للقتال، فأمّن المنيسي على كلامه، وطلب من المشاركين بدء التفكير في كيفية إعداد البلاد والشعب لظروف نُضطرّ فيها إلى الحرب.

سألت المنيسي عما يعني بكل ذلك، وعن سبب عدم مصارحتهم بما دار في المفاوضات، فقال إن هذه هي تعليمات القطان، وجمع أوراقه وأضاف بنبرة ساخرة أنه لم يكذب في كلمة واحدة. سألته عن الإعداد للحرب، فقال إن ذلك أفضل لهم من مطاردتنا نحن بالمطالب، كما أن أنباء الإعداد النفسي للحرب ستتسرب إلى إسرائيل وقد تدفعهم إلى تليين مواقفهم. «أو إلى التشدُّد أكثر»، قلتُ، فنظر إليّ وقال إن الأمرين سيَّان، وفي كل الأحوال ليس من

هـذا مخرج إلا بمواصلة التفاوض، حتى لو لم يؤدِّ إلى شـيء، لكن في هذه الأثناء يجب شَـغل الناس في شيء مفيد. غنيّ عن البيان أن كل هذا العبث لم يعجبني. وبدأت أشـعر أن القطان يدبِّر شـيئا، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام الفارغ هو كل اسـتراتيجيته. لكن سـؤاله لـم يعُد مُجدِيا، واللـواء حامد لا يبدو أنه يعرف شـيئا. لا أحد يبدو أنه يعرف شيئا سوى المنيسي والقطان نفسه. وقررتُ الانتظار قليلا حتى تَبِينَ الأمور.

لـم يكـن الأمريكان عديمي الفائـدة تماما، فقد سـاعدوا بالفعل فـي الحصول على بعض المسـاعدات الاقتصادية، كما أوعزوا إلى أصدقائهم في أوربا والمؤسسات المالية الدولية فأبدوا تساهلا معنا في تقديم التسهيلات المصرفية والائتمانية. ونجحت حملة الترويج السـياحي في روسيا وأوربا الشرقية والصين في رفع عدد السائحين بشـكل ملحوظ مما أحدث بدوره رواجا اقتصاديا، وهكذا تحسنت أحوال الناس قليلا، وقدم القطان ذلك التحسُّن باعتباره أول الغيث، بداية مسـيرة الإصلاح الاقتصادي التي ستجعل مصر تلحق بالنمور الإفريقية التي حقّقت معدلات نمو غير مسـبوقة في السنوات العشر الماضيـة. لكنـي كنت أعلم أن كل هذا مؤقّـت، كل هذا تظاهُر، كل هذا فُقّاعة، تُعطِي القطان ونظامه بعض الوقت، لكنها حتما ستنفجر.

لـم تنفجر الفقاعة هذه المرة في شـكل ثـورة، ولا احتجاجات، ولا عنف، ولا حتى مطالبات بتغيير الحكومة، بل جاءت في شـكل موجـة هادئـة، متدرجة، غمـرت الأرض ببطء، ثم عَلَـت وانقلبت، فغمـرت الدرجـة التـي تعلوها، ثـم الدرجة الأعلـى، وهكذا، حتى باتت تهدِّد القطان نفسه ومَن معه بالغرق. أو هكذا ظن الجميع.

ابتسـمتُ حين أخبرَتني نور بما يفعله الشـباب. ذكرَت الأمر في إشـارة عابـرة، دون تحمُّـس أو سـخرية. قالت إنهـا حضرت معهم بعض الجلسات و«لم تكن سيئة». سألتها كيف انتهى بها الأمر هناك فقالـت إن صديقة لها من الفرقة مرت عليها وأخذتها. هذه أول مرة تحدثنـي نـور عن التقائها أحدا من الفرقة منذ إغلاق المسـرح. وقد أسـعدني ذلك؛ فهي بلا عائلة في القاهرة، ومن بقي من عائلتها بعد وفـاة أبويها أقـارب بعيدون في طنطـا انقطعت صلتهم بهـا منذ أيام الجامعـة. أعضاء الفرقة وأصدقاؤها في المسـرح هـم كل عائلتها، وأسـعدني أن تعـاود الاتصال بهم وتخرج قليلا مـن قوقعتها. لكني وجـدت مـا قالته مشـجعا لسـبب آخر أيضـا، فأنا، مثـل كل الناس، تعبـت مـن الفوضـى وأردت أن أرى أخيرا ثمارا للثـورة التي بدأت منذ تسـع سـنوات. وحين علمت بما يفعله هذا الشباب فهمت فورا أن هذه الموجة سـتنجح، أن هذه المرة هي المرة الصحيحة. وجزء آخر، خفي، كان سـعادة شـخصية بأن يأتي الخلاص على يد هؤلاء الشـباب الذين درَّبهم وراهـن عليهم صديقي وأخي؛ نصفي الآخر،

قبـل أن يتحول إلى قاتل منظَّم. وابتسـمتُ أيضا، كصبيّ مشـاكس، لأن القطـان علـى ادعائه الـذكاء وقع في خطـأ قديم قِـدَم الفراعنة، وجاءته الضربة القاتلة على يد الطفل الوحيد الذي لم يُغرِقه.

مـا فعلـه الشـباب كان بسيطا فـي ظاهـره، ويمكـن لأي عارف بمصر أن يفكر فيه، لكن تنفيذه يتطلب سـنوات من العمل. الخطوة الأولى اللافتة للنظر كانت تحوُّلهم من التنافس مع شـباب الإخوان إلـى التعـاون معهـم، وهـي خطوة لـم تكـن تتطلـب ذكاء فقط، بل تغييـرات في ميزان القـوة كي تصبح ممكنة. فالشـباب الديمقراطي لـم يكن ليتعـاون مع أقرانهم مـن الإخوان إلا بعـد تثبيت قواعدهم المسـتقلة والاطمئنـان للتأييـد الـذي يحظون بـه واكتسـابهم الثقة الكافيـة التـي تمكِّنهم من العمـل مع خصومهم السياسـيين. كذلك لـم يكن من الممكن لشـباب الإخوان التعامل معهـم بندِّية إلا حين يكونون أندادا حقيقيين لهم. ثاني التغييرات هو تحوُّلهم عن السعي لإسـقاط السـلطة السياسـية إلـى التركيز علـى بلـورة تفاهمات مع الجماعـات والقوى الأخرى حول القضايا الرئيسـية، بحيث يمكن لأي منهمـا الحكـم إن وصلوا إلـى مقاعده. فدخلوا في مناقشـات طويلـة ـ بدت عقيمة للجميع خصوصا ضباط الأمن القومي ـ حول كيفيـة التعامل مـع التحديات الاقتصادية والاجتماعية، من مشـكلة الفقر إلـى تمويل التعليم والصحة، والاسـتثمار. وكيفيـة إعادة بناء أجهزة الدولـة المختلفة، من وزارات التعليـم والصحة إلى القضاء والإعـلام، بالتفصيل وبشـكل عملي. كما شـملت تفاهمات حول

شكل الدستور، ونظام الحكم، والعلاقات الخارجية، وهكذا. كانت هذه المناقشات في حد ذاتها مهمة لخلق إحساس بين الجماعات المتفرقة بالجماعة، بأنهم يشكلون جزءا من كل، وكذلك لتركيز أنظار الناس، السياسيين منهم وغير السياسيين، إلى المشكلات الحقيقية والعملية التي تنتظر أي حكومة، ومن ثَمّ كانت تلك المناقشات أشبه بعملية تعليم جماعي، ولم يستطع أحد وقفها لأنها لم تكن مرتبطة بتحرُّك سياسي محدَّد، وحرص الشباب من الجانبين على إبقائها في هذا الإطار التعليمي وعدم تعجُّل القفز إلى السياسة.

لكن المناقشات والتفاهمات تحولت إلى تحرُّك سياسي فيما بعد. شيئا فشيئا، تحولت شبكة الحوارات هذه إلى جذور حركة سياسية قوية، معظمها من الشباب، وبدأت تدفع الطبقات التي فوقها وتضطرها إلى العمل بطريقتها. ومع الوقت اضطُرَّت القيادات القديمة الممتعضة إلى الاستجابة لهذه الجذور الفتيَّة، لأنها في نهاية الأمر لم تكن تستطيع إنجاز شيء دونها. هذه العملية بدأت منذ ما قبل الانقلاب العسكري، وكانت عملية «الطاعة المدنية» أول تجلياتها. ومن خلالها ثبتت صحة وجهة نظر الشباب في أن الشعب سئم الاحتجاجات والمظاهرات، بل سئم الثورة نفسها واسمها ورائحتها وكل ما يذكِّره بها. فهم هؤلاء أخيرا أن الأغلبية الكاسحة من الشعب لا تريد العودة إلى الماضي، لكنها في نفس الوقت لا تريد الثورة. كل ما تريده هو الالتفاف حول قيادة تقودهم

للتغيير، لا تعيدهم إلى الماضي ولا تغرقهم في مزيد من الثورة. وحين دعا ائتلاف الشباب من الناحيتين إلى حركة «الطاعة المدنية» كانت الاستجابة الشعبية كاملة: كأن الناس تصرخ بالسياسيين أنهم يريدون حياة طبيعية، حياة حرة وكريمة لكن طبيعية.

ومن هنا تطورت حركة «معا»، ونقلت الحركة السياسية كلها إلى اتجاه آخر.

حققت مبادرة الطاعة المدنية هدفها، وهو الحفاظ على الإدارة المدنية للدولة من التوقف ومن السقوط في يد العسكريين. صحيح أن القطان استغلها لصالحه، لكن الشباب لم يمانع ما دام في الأمر فائدة أكبر. وكان هذا في حد ذاته جزءا من طريقة التفكير الجديدة التي تَبَنَّوها. استمرت مبادرة الطاعة المدنية شبكةً للتعاون بينهم، ثم طوَّروها إلى شبكة للرقابة على أداء أجهزة الدولة والمحليات، وهي الشبكة القديمة التي أنشئوها في أثناء عملهم مع السفاح. ثم طوَّر الشباب الديمقراطي مراكز الخدمة الجماهيرية التي بدأها حين كان يسعى لإجهاض حكم الإخوان، والتي كانت تجمع طلبات غير القادرين على الحصول على الخدمات وتساعدهم، طوَّرها مع شباب الإخوان إلى مراكز خدمة متكاملة.

وهكذا، صارت حركة «معا» أشبه بحكومة افتراضية؛ لديها فهم دقيق بمشكلات الناس على اختلافها واختلافهم، ولديها معرفة واقعية بما تستطيع أجهزة الدولة القيام به، وما تستطيع الجمعيات الأهلية والمتطوعون القيام به، وحجم المطالب الشعبية غير

المستجاب لها، وأنواعها، وتوزيعها. وصار شبابها على اتصال بالناس ومشكلاتهم في أحيائهم ومدنهم وقراهم. هكذا صارت حركة «معا» جماعة سياسية جماهيرية بالمعنى الدقيق للكلمة: تعبِّر عن مطالب قطاعات من الشعب، تعرف مشكلاته وتعرف ما يمكنه التضحية به وما لا يمكنه احتماله، ويعرفها ويثق بها وبناسها الذي يختلط بهم في حياته اليومية وعاشرهم واختبرهم. حينما تتحرك جماعة كهذه، فإنها لا تتحرك وحدها، بل تجرّ وتدفع قطاعات عريضة من الشعب معها، لذا يصعب الوقوف أمام حركتها.

عندما بلغوا هذه النقطة، بدأ شباب «معا» يوسعون المناقشات والتفاهمات التي شرحتها لك على مستوى المحليات. وبحلول شهر مايو عقدوا العزم على التحرك بشكل أسرع لإنهاء حكم العسكر. ولكنهم قرروا فعل ذلك بشكل سلمي ودون اللجوء حتى إلى احتجاجات أو مظاهرات. بنوا اتفاقا عامًّا حول ضرورة تفادي المواجهات مع القطان والطغمة المحيطة به والعمل على إزاحتهم سلميا من خلال عملية انتقالية تستند إلى الوعود التي قدَّمها القطان نفسه وتبدو سلسة ومرنة لعموم الشعب، أي أنهم بدلا من المواجهة قرروا بناء نفق يدفعون الجميع فيه، بحيث تؤدِّي الحركة نفسها إلى دفع العسكر خارج النفق. ثم بدءوا مناقشات حول ملامح وخطوات المرحلة الانتقالية التي تلي حكم العسكر، ومن هنا، ومع التقدم في تحقيق توافق على العملية الانتقالية، أطلقوا مبادرة المؤتمرات التأسيسية.

لـم تكـن المؤتمرات التأسيسـية إلا امتـدادا طبيعيا للمناقشـات والحـوارات التي دارت عبر الشـهور التي سـبقتها، لذا نجحت، في اعتقادي. نظَّم الشـباب، من الديمقراطييـن والإخوان، معا، مؤتمرا في كل مركز ومدينة في مصر، شارك فيه ممثلون من «معا» وآخرون انتُخِبـوا. الأمن القومي الذي هاج وماج حاول بكل السـبل تخريب هذه العملية، نجح في بعض الأحيان، لكنه لم يستطع وقْف العملية كلها دون الدخول في مواجهة شاملة مع شباب «معا»، وهو ما رفضه القطـان. ومـع انعقاد المؤتمـرات التأسيسـية في المـدن والمراكز، اكتسـبت العمليـة زخمـا أكبـر، وبـدأ الإعـداد لعقد مؤتمـر في كل محافظـة يكون تمهيـدا لمؤتمر قومي عامّ ينتخب جمعية تأسيسـية. سـاعتها أدرك القطان الخطر، وبدأ يبحث عن وسيلة لإجهاض هذه العمليـة. وفـي أول سـبتمبر، بينما كان القطان يتلقـى الصفعات من الأمريكييـن والإسـرائيليين الذيـن رفضـوا كل مقترحاته للتسـوية، كانـت المؤتمرات التأسيسـية تتشـكل فـي المحافظـات، وحددت لنفسـها أول أكتوبـر موعدا للانعقـاد. قضى القطان سـبتمبر يدرس مـع قـادة هيئة الأمن القومي وسـيلة للقضاء على هـذه المؤتمرات، ولكن والحق يقال، فإن هيئة الأمن القومي لم تكن في ذكاء وتغلغل مباحـث أمـن الدولة؛ لا كان عندها شـبكتها القديمـة من المخبرين والمتعاونين، ولا القدرة على مكافأة وعقاب الناس مثل أمن الدولة، ولا حتى الخبرة اللازمة للتعامل مع الناس. ومن حين إلى آخَر كنت أسمع القطان وهو يلعن اليوم الذي اجتثَّ فيه عزالدين السفاح أمن

الدولـة وأعدم معظم قادتها. لكن اللعن لم يُفِده كثيرا، وانتهى الأمر بـأن نجحت القيادات الأمنية في إفشـال المؤتمرات التأسيسـية في المنوفيـة، والبحـر الأحمر ومصر الجديدة (التـي أصرَّت على عقد مؤتمرهـا الخاص)، لكنهـا انعقدت فـي كل المحافظات الأخرى. حددت هذه المؤتمرات ملامح المرحلة الانتقالية ومدتها، واتفقت علـى تبنِّـي «الإعلان المصـري لحقـوق المواطن» وثيقة دسـتورية حاكمة، واختار كل مؤتمر عشـرة ممثلين ليشاركوا في مؤتمر قومي تأسيسـي ينعقد فـي منتصف نوفمبـر، وتكون مهمته بلـورة الاتفاق النهائـي علـى هذه الموضوعـات وانتخـاب جمعية تأسيسـية تضع الدسـتور وتشـكِّل حكومة مؤقتة، والعمل كبرلمان مؤقت إلى حين إجراء انتخابات جديدة.

كان وجـه القطـان محمـرّا طـوال هذا الشـهر، وأصبـح واضحا للعيان أن أيام الحكم العسـكري باتـت معدودة، ولا مخرج أمامهم إلا التسـليم أو اسـتخدام القوة الصريحة لقمع الشعب. وحتى ذلك «الحل» لـم يكن حلا، فالعملية التي بدأها شـباب «معا» تحولت إلى عملية سياسية واسعة شاركت فيها كل القوى السياسية وشارك فيها الناس العاديون، وأصبحت مثل حية موسى التي ابتلعت كل الأفاعي الصغيـرة التي ظل القطان وأمنه يحاولـون إطلاقها. كبرت العملية، واحتلت كل الفضاء السياسي والاجتماعي، وكانت جاذبة للجميع، داخل مصر وخارجها، بهدوئها وشـمولها وتدرجها. وربما أهم من كل هـذا كانت ثابتـة، متجذرة في واقع الناس، اهتزت حين هاجمها الأمن لكنها لم تسقط. دخل الناس في النفق الكبير الذي بناه شباب

«معا»، وصاروا يدفعون العسكر أمامهم ويتطلعون إلى النور الآتي من آخر النفق. ولم يكن أمام القطان وعساكره إلا الاستسلام أو تفجير النفق بمن فيه. وجلست أرقبه وأنتظر ردّ فعله. ولم يتأخر، إذ استدعاني ذات يوم ووجدت عنده المنيسي، وطلب منا الخروج للتمشي في باحة المقر الرئاسي المؤقت بوزارة الدفاع لأن لديه أمرا هامًّا يريد الحديث فيه دون أن تلتقطه أي وسائل تنصُّت.

- ١١ -

في البداية كدت أضحك، لكن أظن ذلك من فرط عدم استيعابي لما قاله القطان. لم أشكّ لحظة أنه يمزح، فأنا أعرفه حين يكون جادّا. وقد كان جادّا جدّا. لكن سماع الفكرة تخرج من شفتيه أضحكني، خصوصا عندما استخدم تعبير «شوية قنابل نووية صغيرة». ماذا ستفعل بشوية القنابل النووية الصغيرة هذه يا سيادة الرئيس؟ سألت وأنا فعلا أقاوم الرغبة في الضحك، فشرح لي فكرته الجنونية ونحن نتمشى في الباحة، والمنيسي يسير بجوارنا يهز رأسه من وقت إلى آخَر دون أن ينبس بكلمة، والجنود الواقفون أمام مداخل المباني المختلفة يؤدون التحية في إخلاص واحترام كلما مررنا بهم. آه لو عرفوا الحقيقة!

ها نحن أولاء، في باحة وزارة الدفاع، وقد وصلنا إلى قمة الجنون. الرئيس القطان فهم أخيرا أن الإسرائيليين لن ينسحبوا من

شرق سيناء، لأن انسحابهم يعرض أمنهم للخطر، فهم لا يمكنهم الوثوق بقدرة السلطات المصرية على حماية الحدود ولا برغبتها في ذلك خصوصا في ظل القوة السياسية المستمرة للإخوان والتي ستضمن لهم تأثيرا. ستظل مصر في رأيهم مصدرا للتهديد، إما بشكل مباشر إن وصل الإخوان إلى الحكم ثانية وإما بشكل غير مباشر بإغماضها العين عن تهريب الفلسطينيين للسلاح والأفراد عبر الحدود. ومن ثَمَّ سيبقون هم في شرق سيناء ليقوموا بالمهمة بأنفسهم. والأمريكان يتفهمون موقفهم، وحتى لو لم يتفهموها فلا أحد في واشنطن يريد الضغط على إسرائيل. نظرت إلى القطان وعيناي تسألان ما الجديد في هذا، لكنه تجاهل النظرة وأكمل «تحليله» للموقف: لن يمكننا مواجهة الإخوان دون تحرير سيناء، فهم يستغلون هذا الوضع لتصوير أنفسهم كأبطال مغاوير يوشكون على تحرير فلسطين لولا منعنا لهم، كأننا نحن عملاء إسرائيل وهم الفدائيون المحررون للأرض. ويساعدهم في هذا البُلْه الديمقراطيون من أتباع السفاح الذين يتلقون التمويل والتدريب من الأمريكيين وبتشجيع من الإسرائيليين، لأن وصولهم إلى الحكم يعني استمرار حجة إسرائيل في احتلال سيناء. الإخوان لا يعنيهم ذلك ما داموا سيعودون للسلطة، وقد رأيت بنفسك كيف قادنا الريس بيومي نفسه إلى الهزيمة وكيف أوشك على تدمير الجيش، لكن لا أحد يفهم، والديمقراطيون غوغائيون ويسيرون في ركابهم. كلٌّ من الإخوان والديمقراطيين يتصرف بشكل غير مسئول وغير وطني.

ظللت أستمع في انتظار دخول القنابل الصغيرة، ومغص حاد يعتصر معدتي: «وحده الجيش، وأجهزة الأمن القومي، هي التي تسهر على مصلحة هذا الوطن بتجرُّد، ومن ثَمَّ عليها مسئولية إنقاذ الوضع»، وفي ضوء هذه المسؤولية، قرَّر القطان اللجوء إلى مواجهة عسكرية مع إسرائيل لإخراجها من سيناء وردعها نهائيا عن مجرَّد التفكير في العودة. في نفس الوقت، سيجرد تحرير سيناء الإخوان من «الكارت» الذي يضحكون به على الناس، ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ويمكن ساعتها تشكيل حكومة مدنية تهتمّ بمشكلات الناس الحقيقية وتحسن التعليم والصحة والاقتصاد المنهار بدلا من الجري وراء شعارات الحرية والكلام الفارغ الذي لم يجرّ على الناس سوى الخراب.

و«القنابل النووية الصغيرة؟» سألت. قال إنه كلّف المنيسي منذ ثلاثة أشهر باستكشاف إمكانية شرائنا قنابل نووية تكتيكية، وذلك لاستخدامها ضد القوات الإسرائيلية في شرق سيناء، بحيث يتم القضاء على هذه القوات في لحظة واحدة دون الدخول في مواجهة عسكرية ممتدة لا نملك مقوماتها في الوقت الحالي. وماذا عن ردّ الفعل الإسرائيلي والأمريكي لهذا؟ ألن ينتقموا باستخدام أسلحة مماثلة؟ وماذا عن السكان المدنيين؟ وماذا عن آثار التفجيرات النووية على بقية مصر وعلى المنطقة المحيطة بشرق سيناء وجنوب إسرائيل؟ وماذا عن القوات والسفن الأمريكية الموجودة في المنطقة؟ أجاب القطان عن كل هذه الأسئلة بالاستخفاف الذي

اعتدته منه، لن يرد الأمريكان ولا الإسرائيليون باستخدام النووي، فسيكون لدينا مخزون يكفي لردعهم عن ذلك، وما دامت الضربة اقتصرت على شرق سيناء فلن يدخلوا في حرب شاملة. سألته عن رد فعله هو لو كان لديه ترسانة نووية وضربت دولة قواته بالقنابل النووية، هل سيردّ على الضربة أم يمتنع؟ فقال: إنهم سيمتنعون طبعا لعلمهم أنهم لو ردُّوا لاستخدمنا مزيدا من القنابل ضدهم وساعتها لن يبقى هناك إسرائيل. «وأمريكا؟» سألت، قال: قد يُصاب بعض القطع البحرية الأمريكية الموجودة في خليج العقبة، لكن هذا أمر يمكن الاعتذار عنه وسيكون من مصلحتهم احتواء هذا الجانب والاهتمام بالمشكلة الأكبر بيننا وبين إسرائيل. سكتُّ فسألني إن كان لدي اعتراضات أخرى، فذكّرته بالضحايا المدنيين، فتنهد وقال: إن سقوط ضحايا مدنيين أمر لا يمكن تجنُّبه تماما، ولكن سنسعي قدر الإمكان لاستخدام هذه القنابل ضد مناطق تركز القوات الإسرائيلية، وبالذات مقرات قيادتها في العريش وشرم الشيخ ونخل، بحيث نقلِّل تعرض المدنيين للأذى، «ولا تنسَ أننا نتحدث عن تحرير مصر من الاحتلال، ولو سألت الناس لتطوعوا بالتضحية بحياتهم من أجل ذلك». أما حكاية الأثر البيئي على المنطقة فقد أضحكَته، وسألني أي بيئة أعني، «هذا شعب يأكل الزلط».

وهكذا، كلما أثرت نقطة ردّ عليها بالاستبعاد أو الاستخفاف أو الوعود البيِّنة الزيف. كان منطقه مُغلَقا ومتكاملا ولا يمكن النفاذ إليه، فما فائدة الحديث معه؟ لم أعد أجد ما أقوله له، فصمتُّ. لديّ

مليون شـيء أقوله ومليون اعتـراض، لكني لـم أعد أجد ما أقوله له، فصمتُّ. أخبرني بتفاصيل العملية: اتفق المنيسـي مع وسيط صيني على شـراء أربع وعشـرين قنبلة نووية «صغيرة» سيحصل عليها من مصادره الخاصة في كوريا الشـمالية. سيتمّ تحميل هذه القنابل يوم ١٤ أكتوبـر في حاويات على سـفينة تجارية تحمل آلاف الحاويات الأخرى، من بينها أربع حاويات تحمل حاسبات آلية متقدمة مسجلة باسـم وزارة الدفـاع ويفتـرض أننـا نصاحبها لحساسـيتها. ستبحر السفينة بشحنتها لمدة ثلاثة أسابيع حتى القاعدة العسكرية في ميناء النصر شـمال مرسى علم. طاقم هذه السـفينة صيني، ولا يعلم شيئا عن الشحنة لكنه سيلتزم بتعليمات دقيقة تتعلق بخط السير وبفترات الصمت اللاسلكي الواجب عليه الالتزام به وذلك بما يجب عليهم فعلـه إن اعترضتهـم أي مـن السـفن الأمريكية الرابضـة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي. وسيرسـلني أنا واللواء المنيسـي لمصاحبة الشـحنة، وليس لنا دور سـوى التصرف وقـت الأزمات، من خلال اتصـال مباشـر بين المنيسـي والقطـان ليس لنـا اسـتخدامه إلا عند الضرورة القصوى. غير ذلك علينا البقاء هادئين على السـفينة حتى تصل إلى الميناء يوم ٥ نوفمبر. عند وصولنا إلى ميناء النصر سـنجد الوسـيط الصيني في اسـتقبالنا ليحضـر عملية تحميـل القنابل على الصواريخ، ثم تنطلق هذه الصواريخ في ساعة الصفر. لا أحد غيرنا نحـن الثلاثة يعـرف بأمر العملية مـن الجانب المصري، والوسـيط الصيني لا يعرف سـوى المنيسـي، وليس بين أي طرف والآخر أي

رابط، ومن ثم إذا قدّر الله وتمّ اكتشاف أمر الشحنة فعلينا إنكار معرفتنا بها تماما والتمسك بأننا نرافق شحنة الآلات الحاسبة الموجودة على متن السفينة.

نظر القطان إلينا ووضع يديه الاثنتين على كتفينا وقال لنا بحماس مبتذَل أن ننتبه لأنفسنا ولشحنتنا لأننا نحمل مستقبل مصر بين أيدينا. لو لم أكن أنا الواقف في باحة المقر الرئاسي المؤقت بوزارة الدفاع، مع الرئيس القطان ومدير مخابراته العسكرية المنيسي، لظننت أن الأمر يتعلق بسيناريو فيلم من نوع الخيال العلمي. تَحوَّل المغص إلى غثيان. وتحاشيت النظر إلى القطان، فمال عليّ وقال إنه سيرسلك أنت وأمك إلى بيته في لندن لعدة شهور ريثما ينتهي الأمر كله. نظرت إليه بدهشة فقال معتذرا إن هذا من باب الاحتياط فقط.

مشينا ثلاثتنا حتى باب مكتب القطان ثم انصرفت مع المنيسي. سرنا معا وهو نصف مبتسم ولم أكن واثقا أسعيد هو بـ«إنجازه» المذهل أم يشاركني الاعتقاد بأن القطان قد فقد رشده تماما. سرنا حتى خرجنا من المبنى وسألته إن كان لديه بعض الوقت فأومأ مجيبا، واستكملنا السير خارج المبنى في الهواء الطلق. سألته عن رأيه في هذا فوجدته متحمسا تماما للفكرة، مشددا على أن هذه العملية ستقلب موازين القوة في المنطقة وتعيد مصر لموقعها الطبيعي وتقضي تماما على أسطورة إسرائيل التي لا تحيا إلا بالقوة، بل ستقضي على الوجود الأمريكي في المنطقة وتعيد صياغتها وصياغة العلاقات العربية المصرية. لا أدري متى أصبح المنيسي

خبيرا في السياسة الخارجية. عاودت سؤاله عن الجوانب التي أشرت إليها مع القطان فجاءت إجاباته مطابقة لإجابات القطان. أخذت أبيِّن له فساد منطقهما: كل هذه العملية قائمة على حسابات وافتراضات هشَّة، وحتى لو كان بعضها معقولا فإنها غير مؤكَّدة، ونحن نتحدث عن حرب نووية، والخطأ فيها لا يمكن إصلاحه. استرسلتُ في بيان الخسائر المتوقعة في الأرواح: نحن نتحدث عن مدينتين، العريش وشرم الشيخ! مال عليّ وقال بصوت خفيض إن هذه ميزة إضافية «للمشروع»، فسينهي ذلك مشكلة الدولة المزمنة مع البدو، ولما أبديت امتعاضي قال إنه يعلم أنها أرواح وكل شيء، لكن هؤلاء البدو شوكة في حلق الدولة المركزية منذ الأزل. قلت له: أيا كان، فلا يمكن التضحية بسكان مدينتين هكذا، والمخاطرة بآثار لا نعرف حتى حجمها أو كيفية مواجهتها؛ لا لدينا العلم ولا التقنيات ولا الأجهزة لمعالجة مثل هذه الآثار. هوَّن اللواء المنيسي، الذي تحول أيضا إلى خبير في الفيزياء النووية، من هذه المخاطر، مستشهدا بدراسات وعلماء لا أعرف عنهم شيئا.

سألته ألم يكن من الأجدى على الأقل التريث، ودراسة الأمر مع مختصين، خصوصا قادة الأسلحة والفرق لمعرفة رأيهم، فهذه حرب ولا يمكن أن يقرر شخص واحد شنها، فقال لي إنه كمدير للمخابرات العسكرية يعرف تفكير ضباط الجيش كلهم تقريبا، وبالذات القادة ومساعدوهم، ويستطيع أن يؤكد أن مثل هذا العمل سيلقي تأييدا واستحسانا من الأغلبية العظمى منهم. صمت وعاد

المغص بقوة؛ لا أعرف أي كارثة أكبر، أن يكون حديثه هذا افتئاتا أم حقيقة! اقترحت مرة أخرى أن نؤجل، على الأقل حتى نُعِدّ أنفسنا ومستشفياتنا ومدننا لمواجهة الاحتمالات السيئة، فوافقني على استحسان التأجيل، لكنه عاد وقال أن لا وقت لدينا، فيجب إتمام العملية وتحرير سيناء قبل منتصف نوفمبر، بحيث نمنع انعقاد المؤتمر القومي التأسيسي ونقضي على كل العملية المرتبطة به، ونعيد صياغة الوضع السياسي «بشكل سليم وعلى أسس موضوعية دون مهاترات ومزايدات».

- ١٢ -

افتقدت حامد كثيرا وسط هذه المهزلة. أعرف المدير الجديد للمخابرات لكن علاقتنا لا تسمح بالحديث الصريح الذي كنت أحتاج إليه الآن وبشدة. اتصلت بحامد في كاراكاس وكنت حريصا جدا، فالمكالمات يسهل تتبُّعها. بعد التحية والسلام والسؤال عن فنزويلا واستقراره بها، سألني عن الأحوال هنا فقلت له إنها أسوأ مما تركها. صمت ثم سألني عن أحوالي أنا، فقلت إني لا أعرف ما أفعل. سألته عن رأيه في الأحوال هنا، فقال إن تقييمه الذي قاله لي قبل سفره، ونصيحته الشخصية لي لم يتغيرا، وهو لا يرى حلا آخر. سألته إن لم يكن هناك مخرج آخر، فقال لو كان قد وجده لما تَردَّد، لكن قلة العقل تمكنت من الناس، ولم يعد هناك حل.

وكرَّر ما قاله بشأن نصيحته الشخصية. أذكرها جيدا تلك النصيحة، قال لي أن أبحث لنفسي عن باب للخروج من هذا المركب السائر نحو المجهول. غريب أمر حامد، فدائما ما يقول أشياء تثبت صحتها فيما بعد، كأنها نبوءات. لا أعرف إن كان يقول هذه الأشياء بالصدفة، أم أنه يعلم دائما أشياء لا أعلمها. ظللت أفكر في هذا وأتساءل إن كان حامد يعرف بأمر مشروع القطان النووي الجنوني. هل يمكن أن لا يعلم به، وهو مدير المخابرات العامة؟ أيكون قد علم به وحاول وقْفه فأبعدوه؟ هل هذا ما قصده بحديثه وهل هذا سبب رحيله المفاجئ، فقد الأمل في القطان ومن معه كلهم؟ هل هذا ما قصده فعلا حين تَحدَّث عن الخيانة: هل كان يعني أن القطان والمنيسي وربما آخرون استدرجوا الريس بيومي إلى فخ الحرب مع إسرائيل؟ وهل يعني هذا اتفاقهم مع الإسرائيليين أم أنهم استدرجوا بيومي إلى سياسة يعلمون أنها ستؤدِّي إلى هذه الحرب؟ في الحالتين، أليست هذه هي بعينها الخيانة، جر البلاد إلى حرب من أجل أغراض سياسية داخلية، والتضحية بجزء من أرض مصر في نفس الأثناء؟

تذكرت الاستخفاف الذي تحدث به القطان عن احتلال سيناء، والثقة التي بدت عليه في البداية من انسحاب إسرائيل عن طريق التفاوض، ثم الغضب والحنق اللذين تَملَّكاه حين تَعنَّتت الإسرائيليون. هل وعدوه ثم خذلوه؟ هل كل هذه الأشياء مرتبطة أم أني وقعت في خيال نظريات المؤامرة؟ ولكن أليس هذا معنى

حديث حامد لي قبل سفره؟ أم أنه كان يقول كلاما عامّا مثل الكلام الـذي يقوله الناس وهم يغـادرون مناصبهم؟ ألم تكـن نصيحته لي أن أغـادر مصـر مثلما فعل؟ فـي محاولة أخيرة للتيقن، سـألته على التليفون إن كانت المشـكلة في شخص أو اثنين أم أنها أكبر. صمت لحظة، وأظنه فهم سـؤالي جيدا وعرف من أقصد، وعرف أن إجابته ستوضح لـي إن كان يعلم بالأمر أم لا، ثم أجاب أن المشـكلة أكبر من الاثنين اللذين أرمي إليهما، أكبر بكثير.

والآن، ما العمل؟

لا أدري لم حضرتني صفية وبقوة في هذه اللحظات. في كل مرة سـألت فيها القطان أو المنيسـي عن الضحايـا المدنيين رأيت صفية وأبناءهـا في ذهني. يوم البارجة دُهشـت من عقم وسـذاجة الخطة، تماما كتلك الخطة النووية. يومها لم أحرّك ساكنا، وظننت أن هؤلاء القـادة الكبـار، العاقليـن، أصحـاب النياشـين والأوسـمة، يعرفون ما يفعلونـه. وانتهى الأمر بأختي وعائلتها وأربعة وسـبعين شـخصا آخـر قتلى. ثم وقعت سـيناء في قبضـة الاحتلال. فهـل يُفترض بي الآن أن أثـق بالقطـان وحكمتـه؟ مـاذا كنت لتفعل أنت يـا يحيى إذا وجدت نفسك في موقف كهذا؟

ماذا كان محمود بشير ليفعل لو كان مكاني، أو عزالدين فكري؟ محمود كان سيصرخ في القطان والمنيسي ومَن معه، ويقول لهم إنهم حمقى وفاشـلون وتافهون ومجرمون عديمو المسـئولية. ثم يخرج من الاجتماع ويعقد مؤتمـرا صحفيا يعلن فيه خطة القطان الحمقاء

ويتهمهم بالخيانة ويدعو الناس إلى التظاهر وإسقاط الحكومة، وقد ينتهي به الأمر في السجن تلك الليلة، هو وسالي القصبجي، وتبدأ الاحتجاجات، ثم ينكر القطان كل شيء. عزالدين كان سيسأل إن كان الإعلان والضجة والاحتجاجات ستمنع القطان من تنفيذ العملية سرا، ويخلص إلى أن ذلك قد يغير تفاصيلها، لكن ما دام القطان في السلطة فلن يثنيه عن هدفه شيء. ربما حاول التحالف مع الإخوان سريعا والإطاحة به، أو حتى اغتياله هو والمنيسي. لكن هذا لن يفيد بشيء أيضا، فأي صفقة مع القطان ستؤجِّل الأمر ولن تنهيه، وأي محاولة للإطاحة به في الوقت الحالي لن تنجح لأن العملية السياسية التي يؤيدها الشعب سائرة في اتجاه آخر وبطريقة أخرى مختلفة تماما عن جو التحالفات والانقلابات القديم، وإن قام أحد بمثل هذه الانقلابات الآن فلن يغير في الأمر شيئا، بل سنعود إلى نفس الدائرة، وينتهي بنا الأمر عند نقطة مشابهة بعد شهر أو سنة، وبمجنون عسكري آخر يبحث عن حل نووي لمشكلاته، حتى دون إعداد. لا الصراخ سيفيد، ولا المؤامرات والعنف.

ظللت أفكر وأنا في الطريق إلى مكتبي في مقر الرئاسة. لكن الأفكار ظلت تتداخل في رأسي حتى عجزت عن التفكير. فجلست في المكتب أتابع بعض الأمور الروتينية وأحاول تصفية ذهني من كل هذه الأفكار. قضيت بقية اليوم أحاول التركيز على الأشياء البسيطة واليومية كي أمنع نفسي من التفكير في «القنابل النووية الصغيرة»، لكن ينتهي بي الأمر وأنا أتخيلها. ما حجم هذه القنابل بالضبط؟

وما شـكلها؟ وهل هـي «صغيرة» فعلا أم أن هـذا مجرد مصطلح له علاقـة بقوتهـا التدميريـة؟ إلى كم حاويـة نحتاج لشـحن ٢٤ منها؟ وكيـف نحافـظ عليها من الانفجار أو التلف فـي الحاوية. لم يخطر ببالـي يوما مـا أن القنابل النوويـة تُحمل في حاويات؛ سـمعت عن قاذفـات نوويـة، غواصات نووية، صواريخ، أمـا حاويات فلا. ومَن هـؤلاء الذين «يبيعـون» قنابل نوويـة؟ من هذا الصينـي المجهول؟ وكيـف يضمنون صدقـه؟ وكم دفعوا لـه؟ تتزاحم هذه الأسـئلة في رأسـي ثم أهزها وأعود للأشـياء الأخرى عساني أنسى الأمر برمته: خطة إجازات العاملين معي بالمكتب، جدول اجتماعات الأسبوع، طلبات المقابلات، دعوات موجهة من السفارات لحضور حفلات اسـتقبال وعروض فنيـة، الأوبرا، وأبتسـم وأنا أتذكر دعـوة الأوبرا الأولـى ونور ـ ألم يحِـن الوقت لعودة نور للتمثيل؟ ـ السـير الذاتية للمرشـحين لوظائـف بالقسـم، طلبـات تخصيـص حاسـبات آلية. حاسـبات آلية، وأتذكر شـحنة الحاسـبات الآلية الآتية للتغطية على الشحنة النووية، وأعود مرة أخرى للتفكير في «القنابل الصغيرة».

وأسـأل نفسي مرة أخرى: ماذا يمكن أن يحدث؟ أسوأ شيء هو حدوث سـيناريو مشـابه لعملية البارحة؛ يطلقـون بعض الصواريخ ويفشـلون فـي بقيتها، فـلا يدمرون عدوهـم بل يجرحونـه ويثيرون جنونـه، فيصـب غضبه الأعمى علـى المدنيين، مع الفـارق طبعا أن الهدف هذه المرة أكبر والصواريخ نووية، ومن ثَمَّ سـيكون الجنون والغضـب وعـدد الضحايـا نوويا. هنـاك سـيناريو آخر، هـو نجاح

المهمة، ومحو القوات الإسرائيلية المحتلة، لكن معها أيضا عدة ملايين من المصريين يسكنون في العريش وشرم الشيخ ونخل وحولها، وإصابة أعداد غير معروفة بأمراض غير معروفة في البحر الأحمر، ومدن القناة، وشمال السعودية وجنوب الأردن وإسرائيل. وربما تلويث مياه البحر الأحمر بإشعاعات نووية لا أحد يعرف إلى أي مدة من الزمن. وغير كل هذا، فإن إسرائيل سترد، بكل تأكيد، وربما باستخدام أسلحة مماثلة أو على الأقل بدرجة من العنف تماثل أثر تلك الأسلحة. فلو لم ترد لفقدت أي قوة ردع لديها، كأنها تدعو أعداءها إلى محوها من الوجود. لن يقبل الجيش الإسرائيلي بترك هذه الضربة دون ردّ، عمره ما ترك ضربة دون رد. على العكس، سيرون في هذا الهجوم النووي دليلا قاطعا على ضرورة مواجهة الخطر المصري بكل السبل، بما فيها احتلال سيناء، حتى لو أدَّى ردُّهم إلى رد نووي آخر من ناحيتنا. ثم ماذا يحدث حين نستهلك الأربع والعشرين قنبلة؟ نقف عُراةً أمام عدو شرس وجريح ومدجَّج بالسلاح؟ هل هذه هي الخطة؟ وماذا عن أمريكا؟ ستقف وتتفرج علينا؟ والنفوذ الإسرائيلي الذي نقول صباح مساء إنه يتحكم في واشنطن، هل سيختفي فجأة؟ أم سيدفع أصدقاء إسرائيل بأمريكا فتنزل علينا كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ؟ لا أصدق أصلا أن رئيس الدولة ووزير دفاعها ومدير مخابراتها يقولان هذا الهراء، بل وينفذانه!

لا، لا أستطيع تحمُّل هذه المصيبة كلها وحدي.

فكرت في اللجوء إلى قيادة حركة «معا»، وربما دفعهم لتسريع وتيرة تحضيراتهم وعقد المؤتمر القومي في منتصف أكتوبر بدلا من نوفمبر. لكن علاقتي بهم لا تسمح، وليس لديّ ما أقنعهم به، وحتى إذا أقنعتهم، أشك في قدرتهم أو قدرة أي شخص على تحريك الماكينة الثقيلة التي أطلقوها بسرعة أكبر من هذا. لم يكن هذا الحل، على وجاهته، عمليا.

اختلط عليّ الأمر بشدة، وكان عليّ إشراك أحد معي فيه؛ هل أحكي لنور؟ وماذا لو عملَت فيها مجنونة وقررت إبلاغ الصحافة وإعلان الأمر؟ أو قالت لأحد أصدقائها من فرقة المسرح؟ لو كانت صفية على قيد الحياة لحكيت لها: عاقلة كانت، رحمها الله، ولديها من صدق الإحساس وصواب القلب ما يهديها إلى الطريق الصحيح. ليتها كانت حية لأحكي لها. ولم يكُن في الأمر من خطر، فهي تعرف كيف تفرّق بين ما تراه صوابا وما أراه أنا صوابا وتحترم اختلافنا، ولن تفشي السر حتى لو رأت أن إفشاءه مطلوب ما دمت طلبت منها ذلك. لكن صفية لم تعد على قيد الحياة، لأن المنيسي والقطان قتلاها بمشروع مشابه لذلك الذي يخططون له الآن، وكنت شريكا لهما بصمتي عندئذ. يومها صمتُّ لأن الصمت من واجباتي؛ كنت أؤدي عملي. لكني في أدائي لعملي تركتُ الصواريخ التي قتلت أختي تمر من بين يدَيّ. فهل أؤدِّي عملي وأصمت هذه المرة أيضا؟ ومن سأقتل هذه المرة بالقنابل التي يُفترض بي مرافقتها في البحر لمدة ثلاثة أسابيع؟

- ١٣ -

إذا صمتُّ ونفَّذت تعليمات الرئيس القطان وتابِعه المنيسي، فسيموت عشرات الآلاف إن لم يكن الملايين، وإن لم أنفِّذ التعليمات - قل إني رفضت واستقلت أو سافرت أو هربت - فسيذهب المنيسي وحده أو مع شخص آخر ويتمّ تنفيذ العملية ويموت نفس العدد من الناس. إذن كيف أكون مسئولا إن شاركت إن كانت هذه المشاركة مثل عدمها؟ لو كنت قد عارضت عملية البارجة بشدة، وظللت أصرخ في الاجتماع أن لا تفعلوها، فهل كان ذلك سيوقفهم؟ هل كنت سأجد صفية وأولادها جالسين في حديقة بيتهم اليوم يعدون العشاء وينتظرون عودتي؟ ستقول نور إن عدم مشاركتي لن يمنع الفعل نفسه، لكنها ستحميني أنا من ذنب المشاركة. أي أن كل ما تحققه استقالتي هو إعفائي من رؤية الجريمة، كأني أغمض عينيّ. وما الفائدة من إغماض العين إن كان انسحابي لن يفيد أيا من الضحايا؟ كل ما سيفعله أنه يسمح لي بادِّعاء البراءة، براءة كاذبة لأني أعلم بالجرم قبل وقوعه، فما الفائدة؟

جاءتني أولى الإجابات وأنا في الطريق من المكتب إلى البيت، وأنا أفكِّر في قنابلي النووية الصغيرة التي سأذهب لأحملها بين يدَيّ حتى هنا وأقتل بها أعدادا لا أعرفها، من بشر لا أعرفهم، لفترة لا أعرفها. مرحى أيها الرئيس. المعارضة والاستقالة ليسا حلا، لا يا نور، ليس هذا هو الحل. لم يكن ليفيدني في شيء لو أني استقلت ليلة البارجة، ثم قُتلت أختي في الفجر. لم يكن ذلك

ليخفف من وقع المصيبة عليّ. المطلوب شيء آخر، المطلوب منع الجريمة نفسها، لا مجرد البعد عنها. معرفتي بالأمر جعلتني شاهدا ومشاركا، ولا فرق بين الفئتين. لم أطلب هذه المعرفة بل فرضها عليّ القطان فرضا. وثق بي، لغبائه أو اعتقاده في ضعفي وسذاجتي وخوفي أو لصلة القربى التي لم تنفصم بيننا، كونه جد ابني الوحيد، أو لأنه لا يثق بأحد آخر أكثر. أيا كانت أسبابه، فقد ورطني في الأمر، ولم يعد يمكنني ادعاء الجهل أو البراءة. الشاهد على التخطيط للقتل مشارك، سواء مد يده بالنصل في عنق الضحية أم نظر في الناحية الأخرى وقت النحر. حين أخبرني القطان بالأمر، جعلني شريكا، ولا رجوع عن هذه الصفة. لا شيء يمكن أن يجعلني محايدا أو حتى ضحية بريئة. العلم بالجريمة كشَف غطاء البراءة، وصار على الاختيار بين المشاركة والمقاومة، لم يعد أمامي اختيار ثالث. فهل أشارك، أم أقاوم؟

لن أستطيع المشاركة. لن أستطيع المساهمة في قتل كل هؤلاء الناس، أيا كانت الدواعي والمبررات. ربما كان يمكن إقناعي بضرورة العملية في الماضي، وأنا شابّ، قبل عزالدين فكري وقتل الناس بالآلاف من أجل تطبيق المشروع الثوري تطبيقا مثاليا. ربما كان يمكن إقناعي بضرورة التضحية بالأبرياء قبل أن أرى المشروعات كلها تتهاوى ولا يبقي بين يدَيّ سوى الدم. ربما كان يمكن إقناعي بضرورة العملية قبل أن أرى كيف تُتَّخذ القرارات، وبأي خفة، ودون أن تحقق أهدافها أبدا. ربما كان يمكن إقناعي

بضـرورة العملية لو لـم أكن أعلم بالظـروف التي تـم فيها الاحتلال، والخيانـة، وبيع الضمير من أجل السيطرة. ربمـا كان يمكن إقناعي بضرورة العملية لو لم أكن أعلم أن هدفها الرئيسـي هو منع الأغلبية المدنيـة من دفع العسـكريين خارج السـلطة التي أدمنوها. لا شـيء يسـتحق قتـل الآلاف والآلاف مـن البشـر في سبيله، لا شـيء. لن أسـتطيع أن أشـارك في خنق هذه الأرواح كلها، لا ضميري يحتمل هذا ولا ما بقي فيَّ من إنسانية.

لكـن لِمَ لا أنجو بنفسـي ومن أحب وأسـكت؟ هـل عيَّنني أحد مسئولا عن العالَـم؟ هـل انتخبني النـاس وأمَّنوني علـى حياتهم؟ أليـس لهم رب يحميهـم ويعاقـب من يحـاول إيذاءهم؟ فما شـأني أنا؟ أنا مسـئول عـن عائلتي، عنـك أنت وعن امرأتـي وزوجة أخي المرتاعـة وأبنائهـا، وربما عن عبده الذي يعيش فـي كَنَفي. هذه هي حـدود مسـئوليتي، ويجب أن تكـون هذه أولويتي، فلِـمَ لا أحميهم وأنقذهـم وأفر بهم جميعا من هذا المركب الذي يسـير إلى الدمار؟ لـم لا آخـذ بنصيحة حامـد؛ اللـواء، المتمـرس، مديـر المخابرات العامـة، الذي يعرف كل شـيء، ويعرف النظـام ودواخله ومخارجه وشخصيات القائمين عليه واحدا واحدا؟ ألم يقُل لي بوضوح شديد إنهـم خونـة، باعوا الوطـن والمصلحـة العامة من أجـل مصلحتهم هـم، وترك منصبه، والبـلاد كلها، وذهب حتى فنزويـلا ليبعد عنهم أقصى ما اسـتطاع؟ لِمَ لا أفعل مثله وأرحل إلى فنزويلا؟ ويسـتطيع القطـان سـاعتها شـراء مـا يريد لـه جنونُه مـن قنابل نوويـة، صغيرة

أو كبيرة، ويفجرها حيثما شاء. له رب يعاقبه، ولهؤلاء الناس مؤسسات وأجهزة ودول تحميهم، فلِمَ أتطوع أنا؟ وإذا كان قادة هذه المؤسسات والأجهزة والدول مجانين، أو خونة ومأجورين، أو حتى أغبياء حسني النية، فما الذي يحشرني أنا وسطهم؟ ولِمَ أتحمَّل عواقب أفعالهم؟ لِمَ لا أفرُّ أنا، ومن أحب، وأترك الناس تفعل ما يحلو لها بعيدا عني؟

ثم ما النتيجة الحقيقية لو تَدخَّلت وحاولت منع هذه العملية؟ لنقُل إني منعت القطان والمنيسي من إتمام هذه الصفقة تحديدا، وضحَّيت بحياتي ثمنا لهذا، هل هناك ما يمنعهما من معاودة الكَرَّة بعد «استشهادي»؟ وحتى إذا نجحت في إقصائهما هما الاثنين من الحكم، وتمت محاكمتهما وحبسهما بالمركز الطبي الدولي أو مستشفى المعادي العسكري أو حتى ظلوا بمستشفى سجن طرة، هل سيمنع ذلك من يأتي بعدهما من تكرار نفس الجريمة، بنفس الشكل أو بشكل مغاير؟ أو، أسوأ من هذا وذاك؟ هل هناك من يمنع مجنونا يشبههما على الجانب الإسرائيلي أن يفعل شيئا مماثلا، وأكون بذلك قد ساهمت من حيث لا أدري في تقديم أهلي وناسي لُقمة سائغة لعدوّ لا يقل جنونا عن القطان؟ ألم تؤدِّ كل المشروعات السياسية التي رأيتها إلى كوارث أكبر من الظلم الذي كانت تحاول إصلاحه؟ هل نجحت ثورة واحدة في التاريخ في تحقيق العدل؟ حتى الرسول اختلف صحابته من بعده وقتل بعضهم بعضا. ألم تؤدِّ ثورة ٢٠١١ إلى قتلَى وإلى ضياع حياة الملايين في فوضى

وصراعات لا لزوم لها دون أن تأتي بالحرية والكرامة والعدالة التي كانت تنشدها؟ ألم يؤدِّ مشروع عزالدين فكري، المنظَّم، المهندَس بحرص، إلى قتل عشرات الآلاف غير الثكالى واليتامى والجرحى؟ فيمَ المحاولة مرة أخرى إذن؟ وما الفائدة، إن كانت كل محاولة لتحقيق حرية أكبر وكرامة أشد وعدالة أكبر تنتهي إلى عكسها؟ أليست الحياة معقَّدة بدرجة أكبر من أن تصلحها مشروعات السياسة وأفكارها؟ ألم أفهم بعد أن لا فائدة من كل هذا؟ أن السياسة عبَث بالأقدار لا يمكن إلا أن يؤذي؟ لم لا أترك العالم لمصيره إذن؟ لم لا أترك التاريخ يأخذ مجراه مثلما تقول الكتب؟ ألم أتعلم هذا الدرس بعد كل ما رأيته؟ فلم إذن لا يزال بداخلي هذا الصوت الرفيع الذي يحثُّني على المقاومة ومنع الأذى عن آلاف الأبرياء ولو اقتضى الأمر التضحية بنفسي؟ لِمَ؟

ثم، ألا يمكن أن يكون القطان على حق، وتكون الناس فعلا لا تحتمل تطبيق ما تنادي به؟ ينادون بالحرية والعدل والمساواة، فهل يحتملونها فعلا، تلك القيم؟ هل يقبلونها لغيرهم أم يريدونها لأنفسهم فقط؟ ثاروا من أجلها منذ تسع سنوات، فأين هي تلك الحرية التي منحوها لخصومهم؟ مَن منهم تَوخَّى العدل حين استطاع الظلم؟ مَن منهم عامل الآخرين بالمساواة التي كان يطلبها؟ لا أحد، لا الإخوان ولا السلفيون ولا اليساريون ولا الديمقراطيون. نادوا بالإصلاح وإعادة بناء الدولة، فمَن منهم تَحمَّل ثمنه حين حاول عزالدين تطبيق إصلاحاته؟ لا أحد، اصطفُّوا في عُرض الطريق،

فقاتَلَهـم، ثم لفُّوا حبل المشـنقة حول رقبتـه وتَخلَّصوا من تصميمه المزعـج علـى تنفيذ ما ينادون بـه. أيكون اللواء القطـان على حقّ؟ ويكون هو، ومن معه، من فهموا نفسية هذا الشعب أكثر منا جميعا؟ هم الآتون من قلب الشـعب والذين يشاركونه ثقافته المتوارَثة جيلا بعـد جيل منـذ فلّاحي الدولـة الفرعونيـة، ونحن الحالمـون الذين نحاول تطبيق الحلم على الواقع قسرا، حتى حين يئنّ الواقع ألما من حلمنا وضيقه. ماذا فعل «الشـعب الحر» صباح اليوم التالي لإعدام السفّاح؟ ركنـوا «صف تانـي»، وكسـروا الإشـارات، وتأخروا في مواعيـد العمل؛ «أخـذوا راحتهم». فلِمَ نضايقهـم نحن، ونحرجهم بالسـعي لتنفيذ كلام يقولونه كي يسـرُّوا به عن أنفسهم؟ لم لا يكون القطان على حق، ويكون هو الذي يتقي الشر الأكبر بهذا الشر الذي نسـمِّيه الاسـتبداد؟ أيكـون اللواء القطان سـيدنا الخضـر وأكون أنا موسى، الغر، المتعجل؟

- ١٤ -

من وسـط هذه الأسئلة التي لا تنقطع، من التمزُّق بين اختيارات كلهـا مخيفـة، ومن قلب الحيـرة أمام نفسـي وما تريد وما تسـتطيع وما يجـب عليهـا، وجدت الإجابات، شـيئا فشـيئا. عرفـت أني لن أشـارك في مشـروع الانتحـار المصحـوب بالقتـل الجماعي الذي يخطِّـط لـه القطـان وأعوانه. وفـي الطريق مـن المكتب إلـى البيت وجـدت الإجابات عن الأسـئلة الأخـرى. كنت ذاهبـا إلى خديجة

التي لم أرَها كثيرا منذ مقتل صفية. رؤيتها صارت تعذبني؛ اقترنت بصفية التي حاولتُ تجاهل ذكراها خلال هذه الشهور. حماني ذهولي من التمعُّن فيما حدث لها وفي دوري فيه، وأكملت على الذهول بتجنُّب رؤية خديجة وأولادها، وأي شيء آخر يذكِّرني بها. حتى البيت صرت أخرج منه في الظلام ولا أعود إليه إلا متأخرا في الليل. لكن الآن، خرجت من غيبوبة الذهول ووجدت نفسي مُلقًى على الأرض أنظر إلى الدمار الذي لحق بحياتي وحياة مَن حولي، ومَن كانوا حولي. ربما ساهم احتلال سيناء والانقلاب العسكري في إفاقتي، لكن الأكيد أن مشاهدتي من قرب للطريقة «الحكيمة» التي يدير بها القطان البلاد دفع عني بقية ذهولي، كخزان ماء بارد أُلقِيَ عليّ. وجاء المشروع النووي كصفعة جعلت أذني تَصْفر لحظات، ثم سكتت الصفارة، واستعدت حواسي.

لن أشارك، قَطْعا لن أشارك.

ولن أنجو بنفسي فقط. جاءت إجابتي الثانية وأنا أعبر النفق الصغير خارجا من ميدان العباسية إلى شارع الخليفة المأمون. نظرت إلى طلبة جامعة عين شمس وهم يعبرون الطريق، وإلى اللافتات المعلقة على أسوار الجامعة تعلن دعم الطلبة لمرشحين للمؤتمر التأسيسي القادم، وخفق قلبي تعاطفا مع هؤلاء الذين لا يزال أمامهم العمر كاملا، وحضرتَ أنتَ في عيني. كل واحد من هؤلاء الشباب مثلك. ولن أتركهم يضيعون، لن أترك القطان يقتلهم أو يقتل عملهم وتخطيطهم ومستقبلهم ومؤتمراتهم بقنابله

الصغيرة. قالت نور إن عليّ النجاة بنفسي من السياسة وآثامها، وكانت مخطئة. ولا يعني كونها جميلة، ورائعة، ومشرقة، وتحيل الأشياء إلى كائنات أجمل حين تلمسها، وتلمّ شتات نفسي بنظرتها ولمستها وحضنها، لا يعني ذلك كله أنها على حق. بل على العكس، حين انقضّ الريس بيومي وأتباعه المخلصون على مسرحها وقضوا على الفقاعة الجميلة التي أنشأتها لنفسها وفرّقتها، غرقت في الاكتئاب. وحتى لو لم تكتئب، حتى لو أنشأَت فقاعة أخرى، فسيأتي الأتباع المخلصون ويقضون عليها. لا مفرَّ يا نور، لا مفر من المواجهة.

فهمت، وأنا في شارع الخليفة المأمون أن خيار الفرار بنفسي ومن أحب وهم. كل فرار مؤقت، حتى يرتطم بك نيزك آخر من الاستبداد وضيق الأفق. وإن واصلتَ الفرار ستعيش في فرار دائم. لا وجود لذلك الحلم الذي باعه لنا عمر الخيام ومن سار في خطاه: لا وجود للحديقة الغَنَّاء التي تستلقي فيها مع حبيبتك على بساط آمن وتأكلان وتشربان وتلهوان وتتحابان وتنامان على وقع الموسيقى وتستيقظان في حبور، دون أن تشغلا بالكما بالعالم وشروره. لا مكان يا يحيى لهذا الحلم إلا في المنام. أما هنا، فلا أمان لك دون الآخرين. لن تجد الأمان وسط الرعب، وإن خُيِّل إليك أنك وجدته فاعلم أنه مؤقَّت، وستأتي عصا غليظة وتنقضّ عليه في أي وقت. يمكنك التظاهر بالأمان. يمكنك مواصلة الحياة على الهامش متخيلا أن شيئا ما سيحميك: منصبك، قريب

أو صديق، حسن سلوكك وبُعدك عن المشكلات، أو قلة أهميتك. لكن لا شيء من هذا يحميك حين تنزل عليك كف السلطان الظالم، على وجهك، أو مسرحك، أو فقاعتك التي صنعتَ لنفسك، أو على رأس مدينتك بكاملها، أو حتى على وجه ذلك الذي يسير بجوارك. عندها، حتى لو لم تُصِبْك الضربة مباشرة فتقتلْك أو تجرحْك أو تقضِ على فقاعتك، فإنها ستصيب جارك، وسترى ذلك بعينيك، وينكمش فيك شيء، ينقبض فيك شيء، ينغلق فيك شيء، تتعظ، وتصير من هذا اليوم وصاعدا، ناقص الحرية، ناقص الإرادة، ناقص الشجاعة، ناقص الرجولة، ناقص الإنسانية.

لا ترضَ لنفسك بهذا المصير، أبدا.

لا مفر، حين يرتطم بك الظلم، من محاولة دفعه بيدك.

أعرف أني أعظ، لكن هذا هو وقت الموعظة. لم يبقَ سوى ساعة وتهبط مروحيات البحرية الأمريكية وتُنهِي هذا الخطاب الطويل. وأريد أن يطمئنّ قلبي أن كلمتي وصلت إليك كاملة إن أصابني مكروه. فتَحمّل هذا القدر من الوعظ، واعلم أني لم أقرأه في كتاب، ولم يلقِّنّي إياه أب، بل تعلمته بالدم وبأرواح من أُحِبّ، ومن واجبي، على الأقل، إيداعه بين يديك، ولتفعل به ما شئت بعد ذلك.

لا مفر أمامك من دفع الظلم حين يأتيك، إن أردتَ البقاء إنسانا. لا أدعوك إلى تكريس حياتك لدفع الظلم، ولا أن تجوب الأرض

بحثا عنه كالعنقاء كي تقتله. لكن عليك أن تكون مستعدا، في كل لحظة، حين تنزل عصا الظلم عليك أو بجوارك، حين يرتطم بك أحد نيازك الظلم السيَّارة، أن تتصدى له، مهما كان الثمن. ليس أمامك خيار آخر. فأنت إن قبِلت الظلم انتهى أمرك. ولا تشغل بالك بنتيجة فِعْلك كثيرا، فلا أحد يعرف نتيجة فعله. لا يمكن لأحد أن يعرف النتيجة النهائية لفعله، لكن دفع الظلم واجب. دفع الظلم هو غاية ما أرى، لا تسعفني عيناي برؤية أبعد من ذلك، وليس هذا ذنبي. هكذا خلقَنا الله، فلِمَ نريد من أنفسنا صوابا يتجاوز قدرتنا؟

قد أكون موسى، الغرّ، المتعجّل، لكن سيدنا الخضر مات، ولا أنبياء بيننا ليخبرونا عن عواقب أفعالنا البعيدة: إن رأيت رجلا يقتل غلاما فامنعه، وإن رأيت أحدا يخرق سفينة فأَوْقِفْه، وإن رأيت ظالما يبني سورا فلا تساعده. لا أحد غير الله يرى النعم المتنكرة في صورة نقمات، فامنع النقمة، ودع البقية للخالق. ربما، إن تركتُ القطان يُلقِي بقنابله على الناس، يرسل الله قوما خيرا منهم، أو أسوأ. قد يثور الناجون فيقضون على بقية الاستبداد نهائيا، وقد يموتون ويستسلمون للظلم. لا أحد منا يعلم. لكن الأكيد أن قتل الناس دون جريرةٍ ذنبٌ، فلن أشارك فيه، وما دامت فُرِضَت عليّ المشاركة أو المقاومة فسأفعل ما بوسعي كي أمنعه، وليحدث ما يحدث بعدها.

وهكذا، حين وصلت إلى بيتنا القديم في شارع الطيران، كنت قد وجدت بقية الإجابات. وملأني حبور واطمئنان لم أشعر بهما

منذ زمن بعيد، وربما لم أشعر بهما قط. ركنت سيارتي في موضعها القديم الذي وجدته شاغرا. وصعدت الدرَج قفزا وأنا أدندن بلحن قديم. زرت خديجة وأبناءها، وشعرت أنها تنظر إليّ كأنها تفهم أني عدت من غيبوبتي، وحكَت لي عن مخاوفها، ورغبتها التي تراودها في السفر بأبنائها إلى إيطاليا والاستقرار نهائيا هناك. قلت لها أن لا تفعل ذلك، وأن تعطي الحياةَ في مصر فرصةً أخرى، ربما عاما آخر، فلديّ إحساس أن الأمور ستتحسن. استغربَت خديجة نغمتي المتفائلة، وابتسمت، وقالت إن هذا ما قاله لها عبده. ابتسمتُ بدوري، وسألتها ضاحكا ما الحكاية بالضبط، فاحمرت وجنتاها وأطرقت كأنها في الثامنة عشرة. ربتُّ على كتفها، وقبَّلتها على وجنتيها، وقلت لها أن تنظر إلى المستقبل ولا تخشى شيئا.

تركتُ خديجة وعدت إلى البيت. وجدت نور مستلقية أمام التلفزيون، ساهمة. أطفأتُ التلفزيون فنظرَت إليّ مستفهمة، فأخذتها من يدها حتى منتصف الحديقة. أجلستُها، وكانت هناك لسعة برد خفيفة فالتصقتُ بها أُدفِئُها. التصقَت بي ولاح شبح ابتسامة على وجهها. جعلتُها تقسم أن لا تردِّد ما سأقوله، تحت أي ظرف كان، دون موافقة صريحة مني. ثم حكيت لها كل شيء: أيام الريس بيومي، وحوادث غزة، وسلوك المنيسي وزملائه المريب، والبارجة، والاحتلال، والانقلاب، والمفاوضات، وشباب «معا»، حتى المشروع النووي. كنت أحكي وملامح وجهها تتغير: تُدهَش أحيانا وتُفجَع أحيانا وتضمُّني كثيرا ودمع من عينيها يسيل من وقت

إلى آخر ثم تمسحه. عندما أنهيت قصتي احتضنتني مطوَّلا وسألتني عما سأفعله، فقلت لها إن هذه الجريمة فُرضت عليّ فرضا، وليس أمامي سوى المشاركة أو الفرار أو المقاومة. ونظرت إليها، فظلّت صامتة وعيناها تسائلانني. قلت إني لن أشارك فيها، ولن أفر منها، بل سأبقى وأدفعها. صمتَت طويلا، ثم قالت إنها تتفهم موقفي، لكنها غير مقتنعة به. ثم كررت عليّ الأسئلة التي كنت أسألها لنفسي. تناقشنا مطوَّلا، وهي تتهكم على حماسي المفاجئ وشعوري بالواجب إزاء ناس لا يدافعون عن أنفسهم، ولا يحاولون إنصاف الآخرين حين يستطيعون. وكرَّرَت على مسامعي موقفها العدمي من السياسة وأهلها، ورأيها في طبيعة البشر. وسألتني: لم لا نرحل ونترك كل هذا الجنون؟ لم لا نذهب إلى فنزويلا نحن أيضا؟

كنت أنتظر رد الفعل هذا، عاقدًا العزم أن لا أتركها في بحر اليأس الذي تسكنه. قلت لها ألا خيار أمامنا إن أردنا ألا نكون مثل من ننتقدهم، وإني سآخذها معي، شاءت أم أبت. ابتسمَت، وسألتني إن كنت سأخطفها فأومأتُ بالإيجاب. قالت ألّا داعيَ لذلك، وإنها ستأتي بإرادتها، لكنها تحذِّرني من عاقبة أفعالي، فسيمزقني الجميع إرْبا: هؤلاء الذين أقف ضدهم، وأولئك الذين أحاول مساعدتهم. سيتهمونني بالخيانة، وبأسوأ النعوت، ولن يقف بجانبي أحد. أجبتها أني أتوقع ذلك، ولا أريد بجانبي أحدا سواها، وسألتها وعيناي في عينيها إن كانت مستعدة لتضييع بضع سنوات من حياتها مع مترجم خائن. ابتسمَت، تلك التي تدَّعي اليأس، وتَوهَّج وجهها

وصحصح جسمها واعتدل قوامها وجلست أمامي، ممتلئة بالحياة. تعانقنا واتفقنا: لن نذهب إلى فنزويلا، بل سنظل هنا ونواجه هذا الجنون النووي معا. قلت لها إننا سنعيد فتح المسرح بعد القضاء على القطان، وإن منعنا بيومي وخلفاؤه فسنقاومهم، فقالت لي متهكمة أن لا أبالغ في أحلامي، وأجتهد فقط في العودة سالما.

سألَتني ماذا سأفعل، وأجبتها أني لا أعرف بعد. لكني لن أفعل شيئا عقيما كمعارضته بالحجة ومحاولة إثبات فساد منطقه سواء له أم لأعوانه، فلا فائدة تُرجَى من هذا. ولن أحاول تأليب خصومه السياسيين عليه، فلن يُفضِي هذا إلى شيء. ولن أفعل شيئا صبيانيا كالتحدُّث إلى الإعلام، فمن السهل على القطان وأعوانه مداراة الأمر وقلب المنضدة عليّ. المطلوب هو شيء ملموس، يوقف هذا المشروع الجنوني، ويفضح القطان ونياته ومن ثَمَّ يفضحه أمام الجميع ويسمح للشباب باستكمال العملية السياسية التي بدؤوها. قالت: «لا تفعل شيئا يعرّض حياتك للخطر»، وقلت إني لن أعرضها للخطر عمدا، فلا نية لي في الانتحار، ولديّ ابنٌ أربّيه وامرأة أحبها وحياة نحياها. لكني لن أستطيع فعل أي من هذا إن جبنت. سأقبل بعض المخاطرة، لكن دون حماقة ودون سعي للاستشهاد. قبَّلَتني موافِقة. وظللنا نقلب الأمر والاحتمالات طوال الليل... ثم فجأة جاءَتني الفكرة: سارة رمسدل!

- ١٥ -

سأُبلِغ الأمريكان بأمر الشحنة النووية.

لماذا، رغم كل ما حكيته لك، تنتابني غُصَّة لمجرَّد التفكير في ذلك؟ لماذا أتردد وأُعِيدُ النظر؟ قلت لن أشارك في القتل الجماعي، فلِمَ أخاف الآن؟ أَلِأَنَّ الموضوع يمسُّ إسرائيل وأمريكا؟ هل أخاف أن تكون فعلتي هذه خيانة؟ أم أني أخاف من اتهام الناس لي بالخيانة؟ هذه الشحنة ليست موجهة حقيقة ضدَّ قوات الاحتلال، بل ضدنا نحن. لن يضرب بها القطان عدونا الذي يحتلُّ شرق سيناء بل سيضرب عدوَّه هو، ذلك الذي يوشك على إزاحته وطغمته الحاكمة من سُدَّة الحكم. وحين يضرب شرق سيناء بشحنته المشئومة، لن يُنهِي الاحتلال بل سيُوقِعُنا في موت أكبر ودمار أشدّ. لماذا اختار ضرب إسرائيل تحديدا، هو الذي كان لهم صديقا وحليفا، إن لم يكن لإخافتنا ومنعنا من المعارضة؟ اختار إسرائيل، حين جرَّها جرًّا إلى شرق سيناء، لأنه يعرف أنها الطرف الذي لا يستطيع أحد معارضة من يواجهه. هي طوق نجاته. هو يعلم ذلك، وسَدَنَته يعلمون ذلك، وحامد يعلم ذلك، والريس بيومي وأعوانه يعلمون ذلك، وكلهم يكذبون، ويتظاهرون، ويتباكون كذبا؛ كلهم يستخدمون الاحتلال الإسرائيلي ليُخرِسُوا من يعارضهم، دون أن يفعلوا شيئا لإنهائه. وهذا الجنون المطبق، هذه القنابل النووية «الصغيرة»، لن تُنهِي الاحتلال بل ستجرُّنا نحو الهاوية وتتوِّج القطان ومستبديه الصغار ملوكا إلى الأبد، وهو الهدف والمراد.

لا.

لست أنا الخائن.

لست أنا من أدخل الإسرائيليين إلى شرق سيناء.

لست أنا من دخل الرئاسة على جثث مواطنيه وأسِنَّة حِرَاب أعدائه.

لست أنا من افتعل حربا وخسرها كي يكسب صراعا مع خصومه السياسيين.

ملوك الطوائف هؤلاء هم الخونة، هم مَن خانوا عهد الأبرياء الذين بايعوهم على الطاعة مقابل الحماية والعدل، فلم يلقوا منهم لا هذا ولا ذاك، وانتهى بهم الأمر بين الموت والذلة.

ولن ألعب لعبتهم هذه بعد اليوم. لن أشارك في مزيد من القتل الجماعي وإن تمّ بدعوى تحرير الوطن، ولن أفرّ تاركا الأبرياء يغرقون خلفي. فما البدائل المتاحة أمامي؟ سأقتل المشروع النووي الجنوني؛ سأوقف الشحنة في عُرض البحر، قبل أن تصل إلى مياهنا، ولا أحد غير الأمريكيين يستطيع فعل ذلك. ليكُن. لست متأكدا من النتائج، لستُ سيدنا الخضر، ولا أعلم الغيب وما خفي، لكني أعرف أن قتل آلاف الأبرياء جريمة وجنون، ولن أشارك فيه أو أتركه يمرّ من بين يديّ.

قررت إبلاغ سارة بالفكرة العامة للموضوع، على أن تتولى هي الحديث مع أصدقائها في قيادة هيئة الأركان المشتركة في واشنطن

وتبلغني بموقفهم. وإن ارتحت إلى ما يقولونه فسنتفق على التفاصيل. سألتني نور إن كنت أثق بالفتاة، وشرحت لها تاريخي معها، وتاريخها مع عزالدين، وما أخبرني به توم رايلي؛ صديقها الذي جاء زائرا مع رئيس الأركان. لكن نور لم ترتَح تماما، وقالت إنها قد تكون خطئي التراجيدي الذي يُفشِل العملية كلها ويقودني إلى نهايتي؛ ماذا لو فهمَت خطأً أو ترددت، أو غيَّرَت رأيها، أو حتى باعت القضية؟ وهكذا، لطمأنة امرأتي المتهكمة، وضعنا خطة احتياطية، ثم خطة ثالثة في حالة فشل الثانية. لكن حتى لو فشلت الخطط الثلاث فستبقى أنتَ، وهذه الرسالة، طوق النجاة. دعني أشرح لك.

أرسلَت نور رسالة تعارُف وتذكرة مني إلى سارة على بريدها الإلكتروني الخاصّ، وهو بريد مشفَّر كُنَّا قد استخدمناه وقت البحث عنك أنت وأمك والقطان. وحين تَلقَّت ردًّا أرسلت إليها الرسالة الثانية التي أسألها فيها إن كانت على استعداد للمساعدة في أمر سري وخطير، وأطلب منها الرد على بريدي الإلكتروني برسالة تحية عادية إن كانت موافقة. وجاءني هذا الرد منها على بريدي، رسالة عادية تسألني عن أحوالي، وقد رددت على هذه الرسالة بأخرى بريئة مثلها. هكذا تطمئنّ سارة أن رسائل نور من طرفي فعلا. ثم أرسلت إليها عن طريق نور تطمينات أخرى: تفاصيل عملية البحث عن القطان والأكواد التي أعطتني إياها للاتصال بكم وقتها. وبعد أن انتظمت قناة الاتصال غير المباشرة

تلك، وأبدت سارة استعدادها للمساعدة في الأمر الخطير الذي لا تعرفه، أخبرتها - عن طريق نور - أن الموضوع يتعلق بشحنة نووية غير قانونية يجرى شراؤها من قِبل أشخاص مهمِّين، وأني أريد وقف الشحنة وهي في الطريق، بشرط أخذ الشحنة إلى أمريكا لا إلى أي طرف آخر، والقبض على القائمين بالعملية وتسليمهم علانية للسلطات المصرية، وعدم استخدام أي عنف في أثناء الوقف أو بعده إزاء من خَطَّطوا وشاركوا في العملية، وترك العقاب للسلطات المصرية. وبعد الاستغراب والتأكد من أن الموضوع ليس هزلا، وافقوا. ثم سألت سارة إن كنت أريد ملاذا آمنا بعد العملية في سان فرانسيسكو. شكرتها وطلبت تسليمي مع الباقين للسلطات المصرية، علنا وأمام الكاميرات. ثم دخلنا في تفاصيل أكثر: سألوني إن كنت أريد مالا فقلت لها إني لا أريد سوى حق نشر هذه المراسلات واعترافهم بها، وطلبت تعهدا صريحا بذلك. قضينا يوما إضافيا في هذا ثم أرسلَت إليّ التعهُّد. وعندها أبلغتُها ببقية التفاصيل.

كنت قلقا. لا شيء مما تَعهَّدَت به سارة يطمئنني تماما. ولست متأكدا مما سيفعلون بكل هذا الذي أخبرتهم به. ستبعث نور بنسخة من المراسلات إلى وكالات الأنباء إن لم يتم مهاجمة السفينة خلال أربع وعشرين ساعة من الموعد المتفَق عليه أو إذا أَخَلّ الأمريكان بأي من البنود المتفَق عليها. وستذهب نسخة احتياطية تلقائيا إلى وكالات الأنباء في أول نوفمبر ما لم أوقفها.

وحين جاء موعد السفر مع المنيسي ودّعت خديجة وأبناءها، وهمست في أذن عبده أني لا أمانع في زواجه بها، فاحتضنني ورأيت دمعا يترقرق في عينيه لأول مرة منذ عرفته، ثم عاد للضحك والابتسام وشدّ على يدي، وأوصيته بالجميع. ودّعت نور، ووجدتها متوهجة وألقة، وهمسَت في أذني عند الرحيل أنها موافقة على عرضي القديم، وأن هذا أول ما ينبغي لنا فعله عندما أعود، وأرسلت إليّ قبلة في الهواء وأنا أمضي بالسيارة.

التقيت أنا والمنيسي مع القطان مرة أخيرة، ثم سافرنا، وأتممنا مهمتنا التعِسة خلال الأيام القليلة الماضية. مضى كل شيء بسلاسة: التقينا الوسيط الصيني، وأتممنا الإجراءات، وأعطانا موعدا لننضمّ إليه. تذكرت أيامي القديمة في الصين، وتساءلت عما جرى لمن كنت أعرفهم هناك، وداومينج. وفي آخر يوم شاهدنا الحاسبات الآلية التمويهية واطمأنَنَّا على شحنها، ثم تعرَّفنا إلى القبطان والطاقم قليل العدد وراجعنا الإجراءات، وصعدنا إلى السفينة، واطمأنّ المنيسي على مكان الشحنتين التمويهية والحقيقية. وتبادل الاتصال مع القطان من الميناء، وتَحرَّكنا نحو البحر.

وها أنا ذا أكتب لك رسالتي.

ما زال عندي الكثير لأقوله لك؛ سيُتاح لنا الوقت فيما بعد، أنا عازم على هذا. إذا هبطَت الطائرات بعد أقل من ساعة كما هو متفَق عليه، ولم تحدث كارثة، فسيُقبَض علينا جميعا ونرحل إلى قاعدة أمريكية قريبة ومنها نسلَّم للسلطات المصرية أمام الكاميرات. إن

خانني الأمريكيون، فستنشر نور نَصَّ المراسلات بيني وبين سارة في الغد، وتمتلئ صحف العالم بخبر الشحنة النووية وهي لا تزال في بحر الصين، وساعتها ستأتي أساطيل العالم كله لتوقفنا. أما إن أصابني مكروه، هنا أو عند وصولي، فستكون تلك الرسالة بين يديك، وستكون صورة التعهدات والتفاهمات بيني وبين سارة متاحة بعد أيام قليلة. في كل الأحوال سأفضح القطان ومن معه أمام الشعب كله، بعد أن أكون قد أزلت خطره النووي. سيتهمونني بالخيانة، وسأفضح خياناتهم المتعددة، ولنرَ من يصدِّقه الشعب. لا شك أن البعض سيصدِّقهم، لكن الأغلبية ستميز الحق من مؤامراتهم الرخيصة. وحتي لو رأوا فيما فعلت خيانة، ولم يفهموا أن القطان قد زجّ بإسرائيل في الموضوع خصيصا ليُعطِي فعلته حصانة، فلن يهمّني. المهم أن أوقف الكارثة التي يُعِدُّها وأنقذ هؤلاء الشباب من الحفرة التي يتأهب لدفنهم فيها.

لقد أخذ الأمر منا سنوات طويلة حتى وصلنا إلى هذه النقطة. وهؤلاء الشباب الذين لم يعلِّمهم أحد، ولم يدرِّبهم أحد، ولم يجدوا أحدا يقتدون به، نشئوا رغم ذلك راغبين في الحق والخير والجمال وأطلقوا ثورة لم نرَ مثلها في بلدنا من قبل. لكن العواجيز ضلَّلَوهم؛ تسع سنوات من التيه والفوضى والقتل. ورغم ذلك كله يوشكون الآن، وحدهم، على الخروج من هذا التيه. تَعلَّموا من فشلهم وفشلنا، وراجَعوا أنفسهم، وأعادوا تنظيم صفوفهم بطريقة أخرى أفضل وأكثر نجاعة، ويتأهبون الآن لإزاحة هؤلاء العواجيز

الخونة الذين يسدُّون الطريق والخروج. والقطان واقف عند المخرج كي يضلِّلهم ويعيدهم للمتاهة من جديد. لم أكن معهم في البدايات، ولم يكن إسهامي مهما في سنوات التيه، بل كنت شاهدا أخرس معظم الوقت. واليوم حانت ساعتي؛ هذه فرصتي كي أفعل شيئا مفيدا أعوّض به ما مضى. سأتصدى أنا لهؤلاء العواجيز القتلة. وإذا سقطنا معا في صراعنا الدامي هذا فلا ضير، سأكون قد أسديت خدمة لا أحد غيري يستطيع إسداءها إليك وإلى جيلك كله.

لا تقلق، لستُ أحسب نفسي موسى، ولم أتحول فجأة إلى متفائل ساذج. لا أظن أني سأزيل بضربة واحدة كل العقبات، ولا أظن الشباب الآتي سيقيم المدينة الفاضلة. ستظل هناك مشكلات، إلى الأبد، لكنها ستكون مشكلات طبيعية كتلك التي يواجهها بقية البشر، لا مشكلات القرون الماضية التي يغرقنا بها القطان وأمثاله.

سأذهب الآن، وأريدك أن تنتبه لنفسك، ولأمك، ولزوجة عمك وأبنائها، وأن تنسى جدَّك اللعين. ربما بعد أن يلقى جزاءه أو على الأقل يزاح عن فوهة المدفع الذي يجلس عليه، يمكنك عندها أن تذكر الجانب الانساني فيه؛ كجَدٍّ كان يحبك، بطريقته. لكن إن لم تستطع فلا تهتمّ، يغور هو وذكراه. نصيبك أن نكون أهلك؛ أن أكون أنا أباك ويكون القطان جَدَّك ويكون هذا صراعنا. ونصيبك أني وأمك لم نستطِع الحياة معا. عليك التخلص من كل هذه القصص؛ تذكرها كقصص أبويك وأجدادك، لا قصصك أنت. قصصك أنت

ستبدأ، فلا تنظر خلفك كثيرا. وتَذكَّر أن مكانك هنا، وسط هؤلاء الشباب الذين يشبهونك وتشبههم. فأينما ذهبت، لا تنسَ أنهم هنا؛ يحتاجون إليك وتحتاج إليهم، ولو لم تدرك ذلك.

ليست هذه الكلمات للوداع، فلست أنوي الموت الآن. سأخوض هذه المواجهة الأخيرة مع قوى الشر، ثم أعود وأحيا حرًّا فخورًا بأدائي واجبي دون جبن أو تراجع. واضح أني أكرر ما أقوله، وأني لا أعرف كيف أنهي خطابي الطويل لك. حسن، سأنهيه هنا، هكذا. الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا، ولم يبقَ سوى نصف ساعة على وصول مروحيات سارة. سأقوم الآن لأُعِدَّ لنفسي قهوة أخيرة على هذا المركب استعدادًا لما هو آتٍ.

لا تذهب بعيدًا، فأنا عائد إليك.

ع. ش. فشير

«عزيزي يحيى: اليوم هو العشرين من أكتوبر ٢٠٢٠، وحين تصلك رسالتي هذه، بعد يومين بالضبط من الآن، سأكون سجيناً أو جثة. إما سيقولون لك أن أباك مات بطلاً، أو ستقرأ في الجرائد نبأ خيانتي الكبرى والقبض علي. أنا، الذي شاهدت بأم عيني صنوف الخيانة كلها، سيرمونني بدائهم وينسلون، كما فعلوا من قبل، عشرات المرات. لم أحاول منعهم من قبل، لكني لن أدعهم يفلتون بفعلتهم هذه المرة. لا، ليس هذه المرة. هذه غضبتي، غضبة عمر بأكمله. غضبة ربما تكون الأخيرة، لكني لن أضيعها سدى. أخذت احتياطاتي، وعزمت ألا ألعب دور الضحية. وهذه الرسالة، قد تكون طوق نجاتي الأخير إن فشلت كل الاحتياطات الأخرى. فاحرص عليها، فقد تكون هي الفارق بين الخيانة والبطولة. ....

....

لا أحد يعلم بمحتوى شحنتنا هذه غير ستة أشخاص؛ رجل صيني واثنان من كوريا الشمالية، والرئيس القطان واللواء المنيسي وأنا. أو هكذا يفترض. لكن الحقيقة أن هذه السفينة الهادئة قليلة العمال والركاب ستجتاحها فرقة كاملة من البحرية الأمريكية في الرابعة صباح الغد: أي بعد أربع وعشرين ساعة بالضبط. الحقيقة أيضاً أني، أنا المترجم الصامت الذي لم يأخذ في عمره موقفاً حاداً، هو من أبلغهم. أنا الخائن.»



عز الدين شـاتي، وعزمت ألا ألعب دور ال
السياسية بالجا‍ن فشلت كل الاحتياطات ا
«مقتل فخر الدين» (١٥ ...)، و«...
و«غرفة العناية المركزة» (٢٠٠٨)؛ والتي
العالمية للرواية العربية (البوكر العربية)، و
(٢٠١٠)، ورواية «عناق عند جسر بروكلين» (٢٠١١)؛ وال
النهائية للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) للـ
باب الخروج عام ٢٠١٢.

ISBN 978-977-09-3135-6



دار الشروق
www.shorouk.com